

التحولات النقدية المعاصرة بين التلقي والتأويل

عبد الله الغدّامي أنموذجاً

رسالة يقدمها

عمر عباس خضير

إلى مجلس كلية التربية / جامعة البصرة ، وهي جزء من متطلبات نيل شهادة
الماجستير في اللغة العربية وآدابها

إشراف

أ.م.د. جبار عودة بدن

2012 م

1433 هـ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

((وقال الذي نجا منهما وادّكر بعد أمة أنا

أنبياءكم بتأويله فارسلون))

صدق الله العلي العظيم

سورة يوسف الآية: 35

قرار المشرف

أشهد أن إعداد رسالة طالب الماجستير (عمر عباس خضير) الموسومة بـ (التحولات النقدية المعاصرة بين التلقي والتأويل - عبد الله الغدامي أنموذجاً) جرى تحت إشرافي في كلية التربية - جامعة البصرة ، وهي جزء من متطلبات نيل شهادة الماجستير في اللغة العربية وآدابها .

المشرف

الإمضاء:

الأسم : أ.م.د جبار عودة بدن

التاريخ: / /

.....

بناءً على التوصيات المتوافرة نرشح هذه الرسالة للمناقشة

رئيس قسم اللغة العربية

الإمضاء :

الأسم : أ.م.د حسين عودة هاشم

التاريخ: / /

الإهداء

في عقدة انقطاعي إلا منك ..

أيها الهائل كحجيج الصباحات على أعتاب الصخب ..

القارّ في ذاكرة الأشياء كما الذكرى ..

لا زالت تداعيات ما تكتنزه اللحظات الأخيرة تبوصل تساؤلاتي عنك ..

أيها المنتمي لبياض الزمن الجميل ..

لم تنفكّ تستدعي كل قرارة السكون فيّ .. وما تمخضت التأمّلات إلا من

أكان لا بد أن تُغرق في غيابك لتؤسس فداحة الحضور ؟؟ !!

إليك وأنا أرتلها لروحك الطاهرة ..

حصاد بذارك أيها الإنسان .. والأب .. والأستاذ

إليك وحدك أستاذي الفاضل .. حسن جبار شمسي.

شكر وعرفان

مغموراً بشعور الامتتان والعجز عن وفاء جزءٍ من جميل ما أحاطني به من رعاية أبوية أشكر أستاذي ومشرفي الفاضل الأستاذ الدكتور حسن جبار شمسي رحمه الله وأسكنه فسيح جناته ، ولأستاذي ومشرفي الأستاذ المساعد الدكتور جبار عودة بدن أتوجه بالشكر الجزيل عرفاناً بالجهد الاستثنائي الذي بذله في متابعة وتقويم مسار البحث ، موقناً بأن هذا الشكر لن يفي كرمه الذي أحاطني وغمرني ، كما أتوجه بالشكر والعرفان لأساتذتي الأفاضل في قسم اللغة العربية جميعاً ، وأخص بالذكر منهم الأستاذ الدكتور حسين عبود الهلالي على كل ما قدّمه من إرشاد وتوجيه ، وأجزل الثناء والعرفان لأستاذي الفاضل الأستاذ المساعد الدكتور مولود محمد زايد ، كما وأثني شاكراً وممناً للمتفضل دوماً الأستاذ سراج محمد يعقوب الذي تفضّل عليّ باقتراحه موضوعة البحث ولازمتني عنايته طيلة فترة إنجاز البحث محاوراً وداعماً ، سأظل عاجزاً أمام كل ما لا يسعني شكره منه ، وأتوجه بالشكر أيضاً للأساتذة الأعزاء : عقيل وارد زغير وأحمد حمد سليمان وأحمد طعمة حرب وباسم حساب راشد وكريم قاسم جابر ، ولكل من مدّ يد العون لي ، والشكر كل الشكر لعائلتي الكريمة :

. والدتي العزيزة .. لدعواتك الصامته الناطقة ، ولكل شيء ممكن وكائن .

. والدي الذي شيعته يتيماً .. لروحك الطاهرة .. ليوم كنت تتمنى رؤيته .. ها أنا لأنك أنت .

. زوجتي الحبيبة .. لطالما نسجنا خيوط الأمنيات .. يبدو أننا أمسكنا بأولها .

. أخي وأخواتي .. لكل ما منحتهموني وما لا يفيه الشكر حقه .

عمر

عنيت هذه الدراسة المعنونة بـ (التحولات النقدية المعاصرة بين التلقي والتأويل - عبد الله الغدامي أنموذجاً) برصد التحولات النقدية التي تطرأ على المشهد النقدي بوصفها ناتجاً طبيعياً متأثراً من الاشتغال النقدي في جانبيه التنظيري والتطبيقي ، إذ يتحقق وجود هذه التحولات نتيجة لعوامل ومسببات مختلفة تحددها طبيعة تداول النظرية والمنهج النقدي ، مما هو متعلق بطبيعة كل منهما ، وما هو متعلق بالناقد المشتغل عليهما ، وكذلك الجانب المتعلق باختلاف البيئات الثقافية بين البيئة الأصل التي وفدت منها النظرية أو المنهج النقدي والبيئة المتلقي ، وعليه فإنه يمكن أن ننطلق في رصدنا لهذه التحولات بوصفها انحرافاً عن معايير نقطة الشروع للنظرية أو المنهج النقدي ، بما يحمله هذا الانحراف من جانب إيجابي يتمثل في إثراء الجانب النظري للشغل النقدي وتعزيز إجراءات النظرية والمنهج النقدي ، وجانب سلبي يتمثل في تشويه الشغل النقدي لصورتها وانتهاك المعايير الثابتة لهما ، مما من شأنه أن يخرج عن الموضوعية والمنهجية التي استهدفتها إجراءات تلك النظرية أو ذلك المنهج .

وتتأتى أهمية اجترح نظريتي التلقي والتأويل من كونهما تمثلان لحظة الإنعاش المعرفي لتحركات النص وتكويناته بعد الهزة النقدية التي نادت بانغلاقية النص وعزله عن مغذياته المتمثلة بموت المؤلف ، وبمجمال ما جاءت به المناهج النصية الداعية لاجترح النص كجماد لغوي منبت عن ناصه وظروف إنتاجه .

كما أن أهمية هذا الاجترح تتأتى من إمكانية توظيف إجراءات نقد النقد للمفاهيم الإجرائية لنظريتي التلقي والتأويل لرصد التحولات النقدية ، ذلك أن اشتغال الناقد ينحصر في جانبين مهمين هما ، استقبال النظرية النقدية والشروع بالشغل النقدي التنظيري الذي يستوعب شرح النظرية أو الإضافة عليها ، وفي هذا الجانب يمكن أن نطبق آليات النظريتين على مثل هذا الاشتغال بوصف النظرية موضوعاً ينجز الناقد - بوصفه ذاتاً - تحقيقه ، والتلقي والتأويل لا ينحصران في النص الأدبي مطلقاً بل يتجاوزانه لمفهوم النص بعموميته ، بل لعموم عملية الاتصال التي تتم بين طرفين هما الذات والموضوع ، أما الجانب الآخر في اشتغال الناقد فيتمثل في الشغل التطبيقي على النصوص الأدبية منها والنقدية على حدٍ سواء ، وتتعرز موضوعية تتبعنا ضمن إجراءات نقد النقد للاشتغالات التطبيقية للناقد بوصف هذه الاشتغالات قراءات تستبطن عمليات تأويل متعددة ، وهو ما يمكن أن يرصد بالاعتماد على إجراءات نظريتي التلقي والتأويل ومفاهيمهما .

وقد جاء اختيارنا للناقد عبد الله الغدامي كأنموذج لهذه الدراسة بسبب من كونه ناقداً عُرف بفاعليته وتأثيره على المشهد النقدي العربي بما يملكه من مؤهلات وقدرات ورؤية نقدية متميزة جعلته يبرز بشكل واضح ويؤثر في جملة من النقاد العرب ، ويستجلب جدلاً وحواراً واسعاً حول مشاريعه وآرائه النقدية التي طرحها خلال رحلته مع الكتابة والتأليف ، إن أنموذجاً لناقد كالغدامي مؤهل لإحداث تحولات نقدية بشكلها الإيجابي والسلبي ، وهذا ما يمكن لمسه بوضوح من خلال استقراء مدى تأثيره على المشهد النقدي العربي .

وقد اعتمدت هذه الدراسة على منهج وصفي تحليلي يركن إلى إجراءات نقد النقد ، فقد اتخذت المنهجية الوصفية طريقاً للتعريف بمفاهيم نظريتي التلقي والتأويل ، واعتمد التحليل لفك إبهام بعض مفاهيم النظريتين وكذلك في الاختيارات من النماذج القرائية والتأويلية التي أنجزها الغدامي ضمن شغله النقدي .

وقد جاءت هذه الدراسة على ثلاثة فصول سُبقت بتمهيد عرض تصوراً أولياً عن نظرية التلقي في نشوئها وتطورها تاريخياً ، ثم نبذة مختصرة عن نشوء وتطور نظرية التأويل ، ويغطي الفصل الأول والفصل الثاني من هذه الدراسة نظرية التلقي ، في حين يغطي الفصل الثالث نظرية التأويل .

وقد جاء الفصل الأول تحت عنوان (التلقي بين النص والقارئ وفاعلية القراءة) وتضمن ثلاثة مباحث ، المبحث الأول عنوانه بـ (نماذج الاستيعاب القرائي) مبتدئين بمدخل عن إشكالية الذات والموضوع والعلاقة بينهما ، ثم تعرضنا فيه لنماذج الاستيعاب القرائي التي تحددت في (نموذج موضوعية النص ، نموذج ذاتية القارئ ، النموذج التفاعلي) ، في حين جاء المبحث الثاني تحت عنوان (حقول القراءة) وعرضنا فيه بعد مدخل تمهيدي حقولها الثلاثة (النص ، نص القارئ ، العلاقة بين النص والقارئ) ، أما المبحث الثالث فقد تناولنا فيه (أنواع القراءة) وهكذا جاء عنوانه ، وقدمنا فيه لهذه الأنواع بمدخل تمهيدي ثم تناولنا أنواعها الثلاثة (القراءة الإسقاطية ، قراءة الشرح والتعليق ، القراءة الشاعرية) .

في حين جاء الفصل الثاني معنوناً (التلقي بين محددات السياق وارتعانات أفق الانتظار) وقد اشتمل على مبحثين ، المبحث الأول منه عنوانه بـ (القراءة والسياق) وتناولنا فيه مفهوم السياق ومظاهره وتأثيره في القراءة والتلقي ، وفيه قسمنا السياق إلى (السياق النصي) و (السياق السوسيولوجي) ، في حين جاء المبحث الثاني تحت عنوان (أفق الانتظار) وقد عرضنا هذا المفهوم وتناولنا الإشكالات التي طرحت عليه وأعطينا تصوراً عن سبل تجاوز هذه الإشكالات وصولاً للاستعانة بهذا المفهوم في ضبط إجراءات القراءة والتلقي .

وجاء الفصل الثالث تحت عنوان (التأويل بين المحددات والرهانات وقواعد الممارسة) وقد افتتحناه بمدخل عن نشوء نظرية التأويل والبعد التاريخي للممارسة التأويلية ، وجاء الفصل على ثلاثة مباحث ، المبحث الأول تناولنا فيه الجانب المتعلق بالبنية النصية ودورها في تحديد التأويل وتشكيل خارطة الممارسة التأويلية وقد جاء عنوانه (البنية النصية) ، في كان عنوان المبحث الثاني (الموضوع الجمالي) وفيه تناولنا طبيعة تشكّل الموضوع الجمالي ودور الممارسة التأويلية في بنائه ، أما المبحث الثالث فقد تناولنا فيه ضوابط الممارسة التأويلية التي تعطي صفة الموضوعية للتأويل وكان بعنوان (قواعد الممارسة التأويلية) .

وجاءت خاتمة الدراسة متضمنة لأهم وأبرز النتائج التي توصلت لها الدراسة خلال فصولها الثلاثة .

المحتويات

الصفحة	الموضوع
أ-ح	المقدمة
19-1	التمهيد : مظاهر نظريتي التلقي والتأويل ومرجعياتهما النظرية
88-20	الفصل الأول : التلقي بين النص والقارئ وفاعلية القراءة
36-20	المبحث الأول : نماذج الاستيعاب القرائي
54-37	المبحث الثاني : حقول القراءة
88-55	المبحث الثالث : أنواع القراءة
166-89	الفصل الثاني : التلقي بين محددات السياق وارتعانات أفق الانتظار
137-89	المبحث الأول : القراءة والسياق
166-138	المبحث الثاني : أفق الانتظار
259-167	الفصل الثالث : التأويل بين المحددات والرهانات وقواعد الممارسة
180-167	مدخل
208-181	المبحث الأول : البنية النصية
234-209	المبحث الثاني : الموضوع الجمالي
259-235	المبحث الثالث : قواعد الممارسة التأويلية
268-260	الخاتمة
289-269	المصادر والمراجع
A-C	الملخص باللغة الإنجليزية

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله حق حمده والصلاة والسلام على خير خلقه محمد وعلى آل بيته الطيبين الطاهرين .. وبعد

ظل النقد الأدبي بوصفه ضابطاً جمالياً وعيناً معرفية على مجمل التحركات والاشتغالات الأدبية - قديماً وحديثاً - متعاضلاً بين الرؤية والمنهجية ، بعبارة أخرى ، بين الرؤية الذاتية القائمة على تأمل وذائقة نافذتين وبين النظرية بوصفها مجموعة من التأملات والحفريات المعرفية وصولاً لضوابط محددة تحكم الدرس النقدي ، وبين تلك وهاتيك تكون مقولة (النقد تلفيق منظم) فيها نوع من المقبولية والشرعية على مستوى المشهد الإجرائي النقدي ، ومن هنا وسمت المحاولات النقدية (المقعدة منها واللامقعدة) بالإشكالية ، وانطلاقاً من هذا المفهوم تكون قضية التحولات ، بديهية وطبيعية خصوصاً إذا كانت منبثقة من ثقافة وبيئة مختلفة عن الأرضية والأفق الذي انطلقت منه ، التحولات التي نعني بها الانحراف والعدول والمخاتلة بين النظرية والذائقة السلطوية (ثقافياً) ، وهكذا يعد هذا الافتراض هو نقطة الارتكاز التي ينطلق منها البحث ، ومن بين تلك المعتركات النقدية وقع اختيارنا على نظريتي التلقي والتأويل .

تتأتى أهمية اجترح نظريتي التلقي والتأويل ، من كونهما تمثلان لحظة الإنعاش المعرفي لتحركات النص وتكويناته ، بعد الهزة النقدية التي نادت بانغلاقية النص وعزله عن مغذياته المتمثلة بموت المؤلف وبمجمال ما جاءت به المناهج النصية الداعية للتعاطي مع النص كجماد لغوي منبت عن ناصه .

برز التلقي والتأويل كنظريتين من نظريات ما بعد الحداثة بعد انحسار الحداثة المتمثلة بالمنهج البنيوي ، ليعيدا للمتلقي اعتباره الذي فقده بين سيادة النص وسيادة المبدع في الحداثة وما قبلها ، وليطرحا تساؤلات جديدة عن طبيعة العلاقة بين النص

والمتلقي ودور كل منهما في تحقيق عملية التلقي ، لنكون أمام مشهد نقدي مختلف يمنح المتلقي دوراً إيجابياً ويعطي النص إمكانات دلالية أكثر تنامياً ، وقد عرفت النظريتان تحولات عدة حتى وصلتا إلى صورتيهما الحالية ، وما زالت الجهود مستمرة في رفدهما بالآراء والتصورات التي من شأنها إحداث التغيير والتطور فيهما ، وكحال النظريات والمناهج السابقة تلقت الدائرة النقدية العربية هاتين النظريتين وعُني جملة من النقدة والمترجمين العرب بترجمة كتب النظريتين والكتابة عنهما ، وقد تعددت أشكال الجهد العربي بهذا الصدد بين الترجمة والكتابة التنظيرية والكتابة التطبيقية المقرونة بالجانب التطبيقي وصولاً لإمكان تحقق مفاهيمهما وآلياتهما على النص العربي ومدى مواءمتهما له ، ولم يغفل الباحث الإطلاع في مجال نظرية التلقي على المؤلفات والدراسات العربية التي أنجزت ، وكان من جملتها (الأصول المعرفية لنظرية التلقي) لـ (ناظم عودة خضر) و (نظريات القراءة) لـ (عبد الرحمن بو علي) ، كما صدرت ترجمات كثيرة لكتب النظرية ومنها على سبيل المثال (نظرية التلقي) لـ (روبرت سي هولب) الذي ترجمه للعربية (عز الدين إسماعيل) وترجمه أيضاً (رعد عبد الجليل جواد) تحت عنوان (نظرية الاستقبال) ، وقد تعددت آليات التعاطي مع هذه النظرية كما نلاحظ في كتاب (نظرية التلقي . أصول وتطبيقات) لـ (بشرى موسى صالح) إذ عُنيَت المؤلفَة بتطبيق أصول النظرية على نماذج من النصوص العربية ، كما هي الحال أيضاً في جملة من الدراسات مثل (الرواية من منظور التلقي) لـ (حميد لحداني) ، كما عني آخرون بإيضاح العوامل المتعلقة بالتلقي من السياقات الرديفة التي تتدخل في عملية التلقي كما هو في (التلقي والسياقات الثقافية) لـ (عبد الله إبراهيم) و (القارئ وسياقات النص) لـ (لحسن حمامة) ، وتصدى البعض الآخر لإيضاح العلاقة بين نظرية التلقي والنقد الأدبي العربي كما هو في (نظرية التلقي والنقد الأدبي الحديث) لـ (أحمد بو حسن) و (أثر استقبال نظرية التلقي على النقد العربي الحديث بين السلب والإيجاب) لـ (إسماعيل إسماعيلي) ، والحال ذاتها في ما يخص نظرية التأويل فقد تعددت أشكال

التعاطي مع النظرية بالترجمة والتأليف ، وقد برز جملة من النقاد العرب وعُرفت مؤلفات كثيرة منها (الهرمينوطيقا ومعضلة تفسير النص) لـ (نصر حامد أبو زيد) و (حدود التأويل) لـ (وحيد بن بو عزيز) و (النص المتعدد ولا نهائية التأويل) لـ (عبد القادر فيدوح) ، كما برزت مؤلفات غُيّت بعرض النظريتين معاً وبشكلٍ يوضح طبيعة التداخل بين التلقي والتأويل كما في (من فلسفات التأويل إلى نظريات القراءة) لـ (عبد الكريم شرفي) و (إشكالية القراءة وآليات التأويل) لـ (نصر حامد أبو زيد) و (طريق التلقي والتأويل) لـ (ناظم عودة خضر) ، كما لم يغفل على الإطلاع والوقوف على بعض الأطاريح والدراسات التي تناولت موضوعة البحث كـ(أطروحة الدكتور عبد الرحمن عبد الله احمد : النقد الثقافي في الخطاب العربي - العراقي أنموذجاً 2010) وأطروحة (الدكتور إبراهيم يونس محمود الحديدي : الخطاب النقدي عند الدكتور عبد الله الغدامي 2006) ، ولا يمكن استدراك سرد هذه الدراسات والمؤلفات التي أغنت المكتبة النقدية العربية وأسهمت إسهاماً فاعلاً في تلقي النظريتين وفهمهما من قبل المتلقي العربي ، على أنه يمكن تسجيل بعض الاضطراب في ترجمة المصطلح النقدي ، وصور من التباس المفهوم في بعض المؤلفات والترجمات مما أنتج تعدداً مصطلحياً للمفهوم الواحد كما هو الحال في نظرية التلقي التي ترجمت إلى (نظرية الاستقبال) و (نظرية التأثير) و (نظرية القراءة) ، ولعل السبب في ذلك يعود إلى أمور منها إشكالات الترجمة وسوء الفهم والخلط بين بعض المفاهيم النقدية ، والحال كذلك في نظرية التأويل وإشكالية ترجمة مفردة (هرمنوطيقا) والأمر ينسحب على بعض المفاهيم التي وردت في النظريتين ، ولعل السبيل للتخلص من هذا الاضطراب يكمن في الإطلاع على المصادر المختلفة واختيار الأنسب من بين المصطلحات المختلفة من خلال استيعاب المفهوم وصولاً لتقرير صلاحية ومناسبة المصطلح للمفهوم ، على أن هذا الاضطراب . في نهاية المطاف . يمكن تجاوزه والخلوص لفهم مقولات ومفاهيم النظريتين بما يتيح للباحث الانطلاق من استيعاب راسخ بالمفهوم الذي يتناوله .

وعلى وفق ما تقدم فإن المنظومة النقدية العربية شرعت في استقبال وتلقي النظريتين ومضت في تطبيقهما على النصوص العربية بما لا يشير إلى إشكالية منهجية متأتية من عدم مواءمة النظريتين لخصوصية النص العربي ، وهذا ما أثبتته مجمل الدراسات النقدية التي أنجزت على النصوص العربية في السرد والشعر ، على أن الجانب الذي يمكن توظيفه هنا يتمثل في إمكانية الركون إلى مفاهيم النظريتين ضمن إجراءات نقد النقد ، ولعل ما يكسب الموضوعية لمثل هذا الاشتغال الذي عني به البحث هنا هو أن اشتغال الناقد محصور في جانبين مهمين هما ، استقبال النظرية النقدية والشروع بالشغل النقدي التنظيري الذي يستوعب شرح النظرية أو الإضافة عليها ، وفي هذا الجانب يمكن أن نطبق آليات النظريتين على مثل هذا الاشتغال بوصف النظرية موضوعاً يُنجز الناقد . بوصفه ذاتاً . تحقيقه ، والتلقي والتأويل لا ينحصران في النص الأدبي مطلقاً بل يتجاوزانه لمفهوم النص بعموميته ، بل لعموم عملية الاتصال التي تتم بين طرفين هما الذات والموضوع ، أما الجانب الآخر في اشتغال الناقد فيتمثل بالشغل التطبيقي على النصوص الأدبية منها والنقدية على حدٍ سواء ، فمضافاً لما تقدم آنفاً من صلاحية آليات النظريتين في الجانب الأول ، تتعزز موضوعية تتبعنا ضمن إجراءات نقد النقد للاشتغالات التطبيقية للناقد ، بوصف هذه الاشتغالات قراءات تستبطن عمليات تأويل متعددة ، على أن البحث سيحدد الدراسة في الجانب الثاني من اشتغالات (الغذامي) بسبب من مناسبة الجانب الاستيعابي المنهجي لحدود هذه الدراسة ، إذ التعرض للجانبين معاً يؤدي للإطالة وهو ما لا يناسب المقرر من استيعاب مثل هذه الدراسة ، وكذلك لوضوح موضوعية الدراسة ومنهجيتها ، إذ إن بعض تفاصيل النظريتين ومفاهيمهما تتعارضان مع بعض المفاهيم الأساسية للمناهج التي صدر عنها (الغذامي) في اشتغالاته كما هو الحال مع (النقد الثقافي) الذي سيعرض البحث عن تناول تلقي (الغذامي) له ومدى مطابقته لاشتغالاته ، وما إذا كان مشروعه هو في (النقد الثقافي) أم في (نقد الثقافة) ، إن مثل هذا التعارض بين مفاهيم نظريتي التلقي والتأويل ومفاهيم بعض المناهج

والنظريات قد يقدح في منهجية وموضوعية دراستنا ، كما أن سبل تذليل مثل هذه العقبات لا تتناسب وحجم الدراسة هذه ، على أن هذا لا يمنع مطلقاً من التعرض لبعض النماذج التي أنجزها (الغدامي) في كتبه عن النقد الثقافي ، ولكننا نصدر في تتبعاتنا لتلك النماذج من كونها قراءات وتأويلات شرع (الغدامي) بإنجازها ، ومعه فليس ثمة خرق أو انتهاك لموضوعية ومنهجية الدراسة في تناولنا لمثل هذه النماذج .

إن التحول النقدي بمفهومه الذي سنتعرض له في التمهيد لاحقاً ، له من الأهمية ما يجعله قادراً على تأشير تطورات النظرية والمنهج النقدي واستشراق شكل التعاطي المستقبلي معهما وعلى وفقهما ، كما أنه قد يشكل انحرافاً وتخطياً لحدودهما مما يؤثر سلباً في استقبالهما مرة بعد أخرى ، وبشكل تتابعي وفي نقطة استقبال نظري أو ممارسة تطبيقية لاحقة قد تختلف صورة النظرية والمنهج النقدي عن أصولها التي انطلقت منها وهو ما يشوّه صورة التعاطي ويبتعد عن موضوعية النظرية والمنهج النقدي ، على أن التحول النقدي المؤثر بهذا الشكل لا يمكن حدوثه مرتكزاً على تلقٍ أو ممارسة فردية معزولة ، بل لا بد أن تكون التلقيات والممارسات متكررة حتى تشكل ظاهرة يمكن القول عنها بأنها تحول نقدي ، ولعل أهم ما يؤثر في شيوع مثل هذه التحولات هو تبني مجموعة من النقدة رؤية معينة أو تبني ناقد له من الفاعلية والتأثير في المشهد النقدي رؤية معينة تؤهله . فاعليته وتأثيره . للريادة والتأسيس لممارسات نقدية لاحقة لنقاد آخرين يتأثرون به ويحاكونه بشكل مباشر أو غير مباشر ويشاطرونه تفاصيل رؤيته ، وهنا يكمن سبب اختيارنا لـ (الغدامي) كأنموذج للتحولات النقدية المعاصرة ، ذلك أن (الغدامي) ناقد عُرف بفاعليته وتأثيره في المشهد النقدي العربي بما يملكه من مؤهلات وقدرات ورؤية نقدية متميزة جعلته يبرز بشكل واضح ويؤثر كثيراً في النقاد العرب ، ويستجلب جدلاً وحواراً واسعين عن مشاريعه وآرائه النقدية التي طرحها خلال رحلته مع الكتابة والتأليف .

إن أنموذجاً لناقد كـ (الغدامي) مؤهل لإحداث تحولات نقدية بشكلها الإيجابي والسلبي ،

وهذا ما يمكن لمسه بوضوح من خلال استقراء مدى تأثيره على المشهد النقدي العربي .
ويمكن الانتهاء مما تقدم إلى أن صاحبنا يمثل أنموذجاً يحقق صورة واضحة ومتكاملة
عن التحولات النقدية ، وسبيل الكشف عن هذه التحولات بموضوعية يمكن الاطمئنان
إليها ، هو آليات نظريتي التلقي والتأويل حسب ما أوضحناه سابقاً .

هذا ولا يسعني وأنا في غاية الحزن والأسى والأسف البالغ ، إلا أن أثبت كل الشكر
والتقدير والتبجيل والاحترام لأستاذي الأول الراحل (الأستاذ الدكتور حسن جبار شمسي)
الذي وافاه الأجل قبل أن ترى هذه الدراسة النور ، أسأل الله العلي القدير أن يتغمده بواسع
رحمته وإن يسكنه فسيح جناته وأن يجزيه عني خير جزاء المحسنين إنه سميع مجيب ،
كما وأثني على جهود أستاذي ومشرفي الأستاذ المساعد الدكتور (جبار عودة بدن)
الذي كانت لتوجيهاته وحرصه ومتابعته الأثر الكبير في تقويم مسار البحث والوصول به
إلى صورته المرجوة ، على أننا سلكنا في دراستنا هذه منهجاً وصفيّاً تحليليّاً يركن إلى
إجراءات نقد النقد ، فقد اتخذنا من المنهجية الوصفية طريقاً للتعريف بمفاهيم نظريتي
التلقي والتأويل ، وعمدنا للتحليل في فك إبهام بعض مفاهيم النظريتين وكذلك في
اختياراتنا من النماذج القرائية والتأويلية التي أنجزها (الغدامي) ضمن شغله النقدي ،
وهو ما اعتمدنا فيه على إجراءات نقد النقد وصولاً لنقد تلك الاشتغالات والخروج بالنتائج
التي تمثل صور التحولات النقدية .

وبناءً عليه فقد جاء تمهيد هذه الدراسة ليغطي تصوراً أولياً عن نظرية التلقي في نشوئها
وتطورها تاريخياً ، ثم نبذة مختصرة عن نشوء وتطور نظرية التأويل واكتفينا بهذه النبذة
كوننا سنتعرض لهذا الجانب بشئ من التفصيل في مدخل الفصل الثالث ، وقد جاءت
هذه الدراسة على ثلاثة فصول ، يغطي الفصل الأول والفصل الثاني منها نظرية التلقي
والقراءة ، في حين يغطي الفصل الثالث نظرية التأويل .

وقد جاء الفصل الأول تحت عنوان (التلقي بين النص والقارئ وفاعلية القراءة) وتضمن
ثلاثة مباحث ، المبحث الأول عنوانه ب (نماذج الاستيعاب القرائي) مبتدئين بمدخل عن

إشكالية الذات / الموضوع والعلاقة بينهما ، ثم تعرضنا فيه لنماذج الاستيعاب القرائي التي تحددت في (نموذج موضوعية النص) و (نموذج ذاتية القارئ) و (النموذج التفاعلي) وقد تم في هذا المبحث إيضاح هذه النماذج ودورها في تحقيق القراءة بوصفها إنتاجاً للمعنى ، وخلصنا بعد ذلك إلى المادة التطبيقية على نماذج من اشتغالات (الغدامي) ، في حين جاء المبحث الثاني تحت عنوان (حقول القراءة) وعرضنا فيه . بعد مدخل تمهيدي . لحقولها الثلاثة (النص ، نص القارئ ، العلاقة بين النص والقارئ) وقد جاءت المادة التطبيقية ضمن كل حقل من هذه الحقول ، أما المبحث الثالث فقد تناولنا فيه (أنواع القراءة) وهكذا جاء عنوانه ، وقدمنا لهذه الأنواع بمدخل ، ثم تناولنا أنواعها الثلاثة (القراءة الإسقاطية ، قراءة الشرح والتعليق ، القراءة الشاعرية) وكما الحال في المبحث الثاني فقد جاءت المادة التطبيقية مُتضمنة داخل كل نوع من هذه الأنواع .

في حين جاء الفصل الثاني معنوناً بـ (التلقي بين محددات السياق وارتعانات أفق الانتظار) وقد اشتمل على مبحثين ، المبحث الأول منه عنوانه بـ (القراءة والسياق) وتناولنا فيه مفهوم السياق ومظاهره وتأثيره في القراءة والتلقي ، وقسمنا فيه السياق إلى (السياق النصي) متناولين مظاهره وتأثيره ، و (السياق السوسولوجي) في طبيعته ووظيفته وتأثيره ، في حين جاء المبحث الثاني تحت عنوان (أفق الانتظار) وعرضنا فيه لهذا المفهوم وتناولنا الإشكالات التي طُرحت عليه ، وأعطينا تصوراً عن سبل تجاوز هذه الإشكالات وصولاً لإمكان الاستعانة بهذا المفهوم في ضبط إجراءات القراءة والتلقي ، وخلصنا بعدها للمادة التطبيقية في حدود هذا المفهوم (أفق الانتظار) .

وجاء الفصل الثالث معنوناً بـ (التأويل بين المحددات والرهانات وقواعد الممارسة) وقد افتتحناه بمدخل يوضح نشوء وتطور نظرية التأويل والبعد التاريخي للممارسة التأويلية ، وجاء الفصل على ثلاثة مباحث ، المبحث الأول تناولنا فيه الجانب المتعلق بالبنية النصية ودورها في تحديد التأويل وتشكيل خارطة الممارسة التأويلية وقد جاء عنوانه (البنية النصية) وختمنا هذا المبحث بالمادة التطبيقية ، في حين كان عنوان المبحث

الثاني (الموضوع الجمالي) وفيه تناولنا طبيعة تشكّل الموضوع الجمالي ودور الممارسة التأويلية في بنائه ، وختمنا المبحث بالمادة التطبيقية أيضاً ، أما المبحث الثالث فقد تناولنا فيه ضوابط الممارسة التأويلية التي تعطي صفة الموضوعية للتأويل وكان بعنوان (قواعد الممارسة التأويلية) وكما الحال في المبحثين السابقين فقد ختمناه بالمادة التطبيقية .

وجاءت خاتمة الدراسة متضمنة أبرز وأهم النتائج التي توصلت إليها الدراسة خلال فصولها الثلاثة ، ثم ثبّتاً بالمصادر التي استندت إليها الدراسة ونقلت عنها .

إن هذه المحاولة البحثية التي نأمل أن نكون قد وفقنا في اشتغالنا فيها على وفق المعايير المنهجية ، لا ندعي لها الكمال والصحة وإنما هي ورشة تجريبية اجتهدنا في إنجازها معتمدين على إمكاناتنا المتواضعة ومخزوننا المعرفي الفقير وإن كنا قد جانبنا الصواب فيها فحسبنا أن المعرفة طريق معترك ومفتوح يستدعي الصحة ونقيضها ، هذا ونرجو من الله جلّ شأنه السداد في القول والعمل ، ومنه نستمد التوفيق .

الباحث

التمهيد

بعد الإطاحة بسلطة المبدع التي تجسدت في النقد الكلاسيكي الذي عنيت أعماله بتتبع المؤلف والبحث وراء قصديته وكل ما يتعلق به من الظروف والعوامل المؤثرة كالعامل النفسي⁽¹⁾ ، برزت سلطة النص التي بلغت أوجها في المنهج البنيوي الذي انشغل في عالم النص ليعلن انغلاقه ، وكان أن دشّن (رولان بارت) مقولة موت المؤلف التي أتمت قطيعة المنهج البنيوي مع كل ما هو خارج النص ليكون النص هو شغل النقد البنيوي الوحيد⁽²⁾ ، وقد أثرى هذا المنهج الفعالية النقدية المجابهة للعمل الأدبي باهتمامه بالنص والكشف عن الجوانب الخفية في العلاقات التي تحكم النص وتؤدي وظائفه المتعددة ، غير أن هذه السلطة . سلطة النص . ما لبثت أن تراجعت مع بروز النقد الذي وجه للبنيوية المتطرفة لصالح النص ، وبدا أن موت المؤلف كان نقطة حاسمة لإعلان ولادة القارئ⁽³⁾ وبشكل واضح في مقولات مدرسة كونستانس الألمانية التي أعادت للقارئ دوره في عملية التلقي والقراءة بوصفه الطرف الثالث الذي أهملته النظريات والمناهج السابقة ، وعلى ذلك دارت نقاشات أبرز نقاد التلقي ومؤسسيها (ياكوب وإيزر) لتمر بعدها نظرية التلقي بأدوار من التطور حتى وصلت لما هي عليه الآن⁽⁴⁾ ، على أن جمالية التلقي بشقيها (نظرية التلقي ونظرية التأثير) تأثرت بنظرية التأويل التي أعلنت انطلاقتها بشكل واضح على يد (شلايرماخر) وتدرجت في التطور وصولاً لصيغتها

(1) ينظر: الاتجاه الأسلوبى البنيوي في نقد الشعر العربى ، عدنان حسين قاسم ، الدار العربية للنشر والتوزيع ، مصر ، ط / 1 ، 2001 : 42 .

(2) ينظر: المفكرة النقدية ، بشرى موسى صالح ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، ط / 1 ، 2008 : 146 .

(3) ينظر: نقد وحقيقة ، رولان بارت ، ترجمة منذر عياشي ، مركز النماء الضاري ، الدار البيضاء ، ط / 1 ، 1994 : 10 .

(4) ينظر: تلقي رولان بارت في الخطاب العربى النقدي واللساني والترجمي . كتابه لذة النص أنموذجاً ، د. محمد خير البقاعي ، عالم الفكر ، المجلد 27 ، العدد 1/ ، يوليو. سبتمبر 1998 ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت : 26 .

الحالية ، وبالظاهراتية التي أثّرت مقولات (هوسرل) و (إنغاردن) في صياغة مفاهيم نقدية كثيرة كما هو الحال في مفهومي (التعالي) و (القصدية) ، وبدا هذا التأثير واضحاً في جلّ مقولات ومفاهيم نظرية التلقي الأساسية والتفصيلية ولعل أهم أوجه هذا التأثير تمثل في إشكالية الذات والموضوع التي ارتكزت عليها النظريتان . التلقي والتأويل . في النظرة للنص ومتلقيه أو مؤوله ⁽¹⁾ ، وأمام سلطة القارئ أصبح النص بوصفه خطاباً مفتوحاً على تعدد القراءات وموصوفاً بالتعدد الدلالي مع كل احتمالات تعدد وتنوع قرائه ، منفلاً عن واحدية المعنى وقصد المؤلف والمعنى الجاهز ، لتوصف القراءة والتلقي بأنهما عملية لإنتاج المعنى بكل ما تحتمل دلالة الإنتاج من حركية وتنامٍ وتفاعل ، وبكل ما تعنيه ابتعاداً عن جاهزية المعنى وتحقيق الإمساك به كحقيقة لا افتراض ، وهكذا غدت كل قراءة ممكنة ، ما دامت مقارنة للنص ومعايشة له ، وأمسى المتلقي هو عصب الجهد النقدي وشغله الشاغل ؛ لأن النص في حدود مقرونيّاته لم يعد واحداً بل تعدد مع تعدد متلقيه فكان الأولى . بحسب نظرية التلقي . تتبع هذا المتلقي والتساؤل عن طبيعة التأثير الذي يحدثه النص عليه ولماذا تختلف تأثيرات المتلقين ⁽²⁾ .

وبين التلقي والتأثير تداخلت جوانب استقصاء الدور الجديد الذي برز فيه المتلقي كفاعل يتمتع بدور أساس ، على أن هذا التداخل لا يمكن فرزه إلا وفق نظرة إجرائية منهجية تحاول الإمساك بجانب التلقي (النص والقارئ) إذ التداخل حاصل فيهما ومتعلق بكافة مفاصل مفاهيمهما ، والفرز الإجرائي إنما يستهدف بيان أثر ودور كل من النص في حدود تأثيره وفاعليته ، والقارئ المحدد بكيّنونته التي تؤثر في تلقيه للنص ⁽³⁾ .

(1) ينظر : نظرية التلقي . أصول وتطبيقات ، د . بشرى موسى صالح ، المركز الثقافي العربي ، المغرب ، ط / 1 ، 2001 : 34 .

(2) ينظر نظريات القراءة وتلقي النص الأدبي ، د . حسين خمري ، مجلة العلوم الإنسانية ، العدد 12 ، 1999 ، جامعة منتوري ، الجزائر : 174 .

(3) ينظر : نظرية التلقي والنقد الأدبي العربي الحديث ، أحمد بو حسن ، ضمن نظرية التلقي إشكالات وتطبيقات ، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، الرباط ، سلسلة ندوات ومناظرات رقم 24 ، 1993 : 33 .

وبعبارة أخرى فإن التلقي متأثر بجانبيه (النص والقارئ) ، فللنص مؤثراته في التلقي وللقارئ مؤثراته أيضاً ، وقد عني (ياكوس) في جهده بالجانب المتعلق بالتلقي في حين عني (إيزر) بجانب التأثير الذي أوضحه في (الوقع الجمالي) (1) ، وهما فيما يطرحانه يؤكدان التداخل بين الجانبين ، فالتلقي لذاته يحدث بين قارئ ونص ، ومع انعدام أحدهما لا يمكن القول بحدوث عملية التلقي ، ومن هنا يمكن فهم التداخل الحاصل بين طرفي التلقي والقراءة ، كما يمكن أن نفهم بروز إشكالية (الذات / الموضوع) من خلاله ، فجانب التلقي يشير بوضوح للمتلقي أو القارئ الذي يمثل الذات ، في حين يشير جانب التأثير للنص الذي يمثل الموضوع ، على أن نظرية التلقي بشكلها الكلي أعطت تصوراً عن هذه الإشكالية بعلاقة إيجابية بين الذات والموضوع ، فتجاوزت سلب أحد طرفيها دوره في التلقي ، فالذات لها دور فاعل ومتحقق والموضوع له الدور والفاعلية ذاتها ، والعلاقة بينهما هي من تحقق التلقي ، إذ دون هذه العلاقة الإيجابية لا يتحقق التلقي بمعناه التام (2) .

والحديث عن علاقة الذات بالموضوع يجعلنا نسترجع التصورات السابقة لتلك العلاقة ، فما بين سلطة المؤلف وسلطة النص السابقتين لسلطة القارئ رجحت الذات المتمثلة بالمؤلف تارة ، وأخرى رجح الموضوع متمثلاً بالنص في المناهج والنظريات النقدية السابقة على نظرية التلقي والقراءة (3) ، إذن يمكننا أن نقول بدءاً أن كل ما يصدر عن نظرية التلقي هو مرهون بهذه العلاقة على وفق ما قدمناه عن طبيعتها ، والتلقي يتوقف على تحقق هذه العلاقة بشكلها الإيجابي .

(1) ينظر : جماليات التلقي ، سامي إسماعيل ، المجلس الأعلى للثقافة ، مصر ، ط / 1 ، 2002 : 9 .

(2) ينظر : القارئ في النص . نظرية التأثير والاتصال ، د. نبيلة إبراهيم ، مجلة فصول ، القاهرة ، المجلد 5 ، العدد 1 ، أكتوبر . نوفمبر 1984 : 101 . 104 .

(3) ينظر : مقدمة في نظرية الأدب ، تيري إيجلتون ، ترجمة أحمد حسان ، نواره للترجمة والنشر ، القاهرة ، ط / 2 ، 1997 : 67 ، وينظر : الاتجاه الأسلوبي البنيوي في نقد الشعر العربي ، عدنان حسين قاسم ، الدار العربية للنشر والتوزيع ، مصر ، ط / 1 ، 2001 : 42 .

ولعل من المهم الإشارة إلى أن الذات التي نتكلم عنها هنا ، هي الذات المدركة الواعية ، بمعنى أنها مدركة لذاتها كتحقق في الوجود الذي يحيطها ، وواعية لموضوعها الذي تدركه لاحقاً لإدراكها لذاتها ، فلا معنى للحديث عن التلقي خارج صفتي (الإدراك والوعي) إذ لا يمكن منطقياً أن تعي الذات الموضوع خارج إدراكها لذاتها أولاً ، فإدراكها لذاتها هو المنطلق الذي يحدد لها كينونتها وتميزها عن بقية الموجودات وهو ما يمكنها من التعرف على بقية الموضوعات التي تقابل ذاتها (1) ، وخارج الوعي ذاته لا يمكن تحقق وجود الموضوع ، إذ لا يكفي على فرض حدوث الذات المدركة أن تكون متمتعة بالإدراك كي تعي الموضوع ، فالوعي هنا يحمل طابع القصدية ، بمعنى أن الذات تقصد وتهدف لتحقيق المعرفة بالموضوع وهو ما يمكن من تحقيق الموضوع ، وبمعنى آخر فإن الذات لا تعي كل الموجودات إنما تعي منها ما قصدت التعرف عليه فقط من خلال فعالية الوعي (2) ، هذه هي الذات التي نعيها هنا حين نتكلم عن الذات بإزاء الموضوع . وقد بدأ (ياوس) مشروعه في ستينيات القرن المنصرم منطلقاً من محاولة لفهم الأدب وتطوره ، وقد تضمنت محاضراته (لم تتم دراسة تاريخ الأدب) التي ألقيت في جامعة (كونستانس) عام 1967 ، ومقالته (تاريخ الأدب بوصفه تحدياً لنظرية الأدب) 1970 أهم أفكاره التي حدد ضمنها (أفق الانتظار) مفهوماً إجرائياً قادراً على دراسة الأدب في تطوره وسيرورته التاريخية (3) ، مؤكداً على ضرورة دراسة الأدب من خلال معاينة أثره على المتلقين ودورهم في تحقيق الأدب في شكله المتغير في كل زمن ، ومتأثراً بـ (غادامير) يرى بأن المعنى يمكن بناؤه من خلال تأويل العمل الأدبي (4) ، على أن (ياوس) تأثر في صياغته لأفق الانتظار بمفهومي (الأفق التاريخي) لدى (غادامير)

(1) ينظر: قضايا النقد الأدبي ، محمد زكي العشماوي ، دار النهضة العربية ، بيروت ، 1979 : 24 .

(2) ينظر الخبرة الجمالية . دراسة في فلسفة الجمال الظاهرية ، سعيد توفيق ، المؤسسة الجامعية للدراسات ، بيروت ، ط 1 / 1992 : 321 وما بعدها .

(3) ينظر: الأصول المعرفية لنظرية التلقي ، ناظم عودة خضر ، دار الشروق ، القاهرة ، ط 1 / 1997 : 133 .

(4) ينظر: م . ن : 75 .

و (خيبة الانتظار) لدى (كارل بوبر) مع تأكيده . ياوس . على أنه ينطلق من مفاهيمه الخاصة والمختلفة عن المفهومين السابقين ⁽¹⁾ ، كما يرى أن العلاقة بين الأدب والمتلقي تشتمل على نوعين من الدلالة ، الدلالة الجمالية والمتأنتية من مقارنة القيم الجمالية بعد القراءة الأولى للنص مع أعمال أدبية تمت قراءتها سابقاً ، والدلالة التاريخية المتمثلة في التوتر الحاصل بين أفقي الماضي والحاضر ، بمعنى أن القراءة الراهنة تمثل لحظة تحاور بين أفق النص الذي يمثل أفق الماضي وأفق القارئ الذي يمثل أفق الحاضر ⁽²⁾ ، وفي مفهوم تطور الأدب يؤكد (ياوس) على أن ما يحدد نموذج هذا التطور هي الأعمال الأدبية الإبداعية فحسب دون الأعمال التي يمكن أن توصف بأنها ليست بإبداعية أو ما يطلق عليه بالأدب الرخيص ، فهذه الأعمال لا يمكن أن يقاس عليها تطور الأدب ⁽³⁾ ، وتحدد قيمة الأعمال الأدبية فيما إذا كانت إبداعية أم غير إبداعية على وفق مفهوم (المسافة الجمالية) التي يعني بها (ياوس) الأحكام التي يطلقها مجموع القراء في كل زمن من أزمنة تلقي النص ، أي ردود أفعال القراء تجاه النص في كل قراءة من القراءات التي أنجزت بإزاء النص ذاته ، ويمكننا أن نفهم من ذلك أنه يعني المسافة بين أفقي النص والقارئ كما جسدها بمقولة (كسر الأفق) ⁽⁴⁾ ، أي أن المسافة كلما تباعدت بين الأفقين كان النص إبداعياً أكثر ، ولما كان للقراء عنده تلك السلطة في تقرير الإبداعية فإنه لا يتحدث عن أي قارئ ، بل هو يعني في كل ما يصدر عنه بخصوص

(1) ينظر: م . ن : 138 .

(2) ينظر : نظرية التلقي . أصول وتطبيقات : 46 .

(3) ينظر: نظرية الاستقبال . مقدمة نقدية ، روبرت سي هولب ، ترجمة رعد عبد الجليل جواد ، دار الحوار للنشر والتوزيع ، سوريا ، ط 2/ ، 2007 : 83 .

(4) ينظر: نظرية الاستقبال : 83 ، وينظر: من قراءة النشأة إلى قراءة النقبل ، حسين الواد ، مجلة فصول ، القاهرة ، مجلد 5 ، العدد 1 ، 1984 : 78 .

القارئ نوعاً مميزاً من القراء ، إنه القارئ المحترف بكل ما يعني ذلك من قدرات وإمكانات يتصف بها والتي تؤهله لمعايشة وقراءة النص (1) .

وعلى وفق ما تقدم فإن (يابوس) يؤكد على ضرورة دراسة الأدب من خلال أفقي التزامن والتعاقب ، بمعنى دراسة الأدب تعاقبياً من خلال التلقيات المتعاقبة للنص في تاريخ مقرونياته ، ودراسة الأدب تزامنياً من خلال الكشف عن علاقات النص مع النصوص الأخرى المتزامنة معه ، وكلا نوعي الدراسة تتم على وفق ردود أفعال القراء وما نتج عن القراءات المختلفة للنص(2) ، على أن تكون النتيجة النهائية مشروطة باندماج الأفقين وتفاعلهما ، إن هذا الاندماج بين أفقي التزامن والتعاقب وبين أفقي الماضي والحاضر كما أشرنا إليه سلفاً ، هو ما أشار إليه (يابوس) بمفهوم (اندماج الآفاق) وأكد عليه كشرط من شروط تحقيق القراءة والتلقي والوقوف على إمكانية دراسة الأدب في تطوره (3) .

ومع (إيزر) لم يختلف الأمر على الرغم من اهتمامه بجانب التأثير الذي يمارسه النص في تلقيه ، فقد أكد على دور المتلقي ، وكرر تأكيده على التداخل الحاصل بين النص والقارئ في عملية التلقي ، وهو في دراسته للتأثير النصي إنما ينطلق من جانب التأثير من النص باتجاه المتلقي ، أي ما يثيره النص لدى المتلقي لا طرف آخر غيره (4) ، ورسم نوع العلاقة بين النص والمتلقي التي وصفها بالتفاعلية متأثراً بالظاهراتية و بـ (رومان إنغاردن) على وجه الخصوص ، مستلهماً تلك العلاقة من نظرية النسبية ، أي

(1) ينظر: جمالية التلقي ، الهاشم أسمر ، مجلة علامات ، العدد 17 ، 2004 ، المغرب : 123 .

(2) ينظر: تاريخ الأدب من منظور الشكلائية وجمالية التلقي ، الهاشم أسمر ، مجلة علامات ، العدد 13 ، 2000 .

(3) ينظر: التلقي والنقد الأدبي العربي الحديث ، أحمد بو حسن ، سلسلة ندوات ومناظرات رقم 24 ، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط ، 1993 : 30 .

(4) ينظر: ظاهرة التلقي في الأدب ، محمد علي الكردي ، مجلة علامات في النقد ، المجلد 8 ، العدد 32 ، النادي الأدبي الثقافي ، جدة : 23 .

نسبية الحقيقة التي تفترض عدم قبول أي منهج يعطي سمة الحقيقة الجاهزة على أية فرضية بشكل ثابت يجهض الحركة التي تعطي الفرضية إمكانية التغير والتطور والنماء (1) ، ومن هنا وصف (إيزر) العلاقة بين النص والقارئ بأنها علاقة حركية غير ثابتة وأنها وحدها التي يمكنها إيجاد النص والقارئ ، بمعنى أن لا وجود للنص ولا وجود للقارئ إلا بوجود هذه العلاقة ، كما أن هذه العلاقة هي علاقة غير ثابتة ولا مصوغة وفق قالب محدد مسبقاً بل هي علاقة في حركة دائمة ومتغيرة ، ومنه يمكن أن نفهم أن القراءة والتلقي ليسا فعلاً جاهزاً يقرر المعنى سلفاً كحقيقة يمكن التوصل إليها كنتائج لتلك العلاقة ، بل إن القراءة والتلقي هما إنتاج للمعنى لا إمساك به كحقيقة قارة في النص تنتظر إنجازها على وفق خارطة معينة للقراءة والتلقي (2) ، ولذلك فإن كل ما يتعلق بالقراءة والتلقي يمكن فهمه بأنه عملية لإنتاج المعنى وإعادة تكرار النص ، أي لا معنى ولا نصاً كحقيقة وإنما كإنتاج وإعادة تكرار ، ولذلك أكد (إيزر) على العلاقة بين النص والقارئ بوصفها فاعلاً لإيجاد كل منهما ، بمعنى أن النص وحده لا يستطيع التعبير عن نفسه مطلقاً وأن ذاتية المتلقي لوحدها لا يمكنها ذلك أيضاً (3) ، وشدد على معارضة فكرة النقد الكلاسيكي التي ذهبت إلى كمون المعنى في النص وأن دور المتلقي هو الكشف عنها ، حتى إذا ما تم ذلك فإن المتلقي يكون قد أنجز مهمته وهكذا فإن النص ذاته يكون قد أنجز مهمته أيضاً ولم يعد هناك ما يمكن أن يقوله النص ، الأمر الذي لم يقبله (إيزر) (4) ، وإلا كيف يمكن تبرير استمرار أعمال أدبية بالتأثير على المتلقين مع اختلاف الأزمنة ؟ مؤكداً على رفض فكرة المرجعيات النصية الجاهزة والمحددة سلفاً ، حيث يرى أن النص يحدد مرجعياته أثناء فعل القراءة لا خارجها أو سابقاً عليها ، وبعبارة أخرى فإن القول بمرجعيات محددة سلفاً هو القول بمعنى محدد سلفاً أيضاً في حين أن ما يحدث هو

(1) ينظر : نظرية التلقي . أصول وتطبيقات : 48 .

(2) ينظر : نظرية الاستقبال : 102 .

(3) ينظر : الأصول المعرفية لنظرية التلقي : 151 .

(4) ينظر : م . ن : 150 . 153 .

أن النص يحدد بالفعل مرجعياته لكن أثناء القراءة والتلقي ، بمعنى أنها تتحدد على وفق نوع العلاقة بين النص ومتلقيه ، ولهذا تختلف المرجعيات في حدود طبيعتها ومعطياتها منحاً وسلباً حسب تلك العلاقة ⁽¹⁾ ، وفي سبيل التعرف على هذه المرجعيات ووجوب تحققها ضمن العلاقة بين النص والقارئ للحصول على أعلى مستوى من إيجابية التلقي يطرح (إيزر) بعض المفاهيم التي تسهم في إيضاح ذلك ، ومن تلك المفاهيم :

1. السجل :

ليتواصل النص مع متلقيه لا بد من توافر منطقة مشتركة بينهما وتلك المنطقة هي ما يؤمنه السجل النصي ، ((إنها المنطقة المألوفة التي يلتقي فيها النص والقارئ من أجل الشروع في التواصل))⁽²⁾ ، وبعبارة أخرى فإن السجل يعني مجموعة المواضع والاعتبارات والمعايير المتعارف عليها بين المتلقين السابقة على النص ، والتي يراعي النص وجودها فيه ليحقق نقطة اشتراك للبدء بتلقي النص وقراءته ، على أن تلك المعايير لا تكونها النصوص السابقة على النص الحالي فقط ، وإنما تتكون من السياقات المحيطة كالسياق الاجتماعي والسياسي والثقافي والتي تكون خارج النصوص السابقة والنص الحالي⁽³⁾ ، وبكل تأكيد فإن النص لا يحاكي هذه المعايير تماماً وإنما قد يعرض أشكالاً مختلفة ومحورة عنها⁽⁴⁾ .

2. الاستراتيجيات النصية

(1) ينظر : استعارة الباث واستعارة المتلقي ، د. إدريس بلمليح ، مجلة نظرية التلقي . إشكالات وتطبيقات ، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، الرباط ، 1993 : 110 .

(2) نظرية التلقي . أصول وتطبيقات : 208 .

(3) ينظر : فعل القراءة نظرية في الاستجابة الجمالية ، فولفغانغ إيسر ، ترجمة عبد الوهاب علوب ، المجلس الأعلى للثقافة ، مصر ، ط / 1 ، 2000 : 87 .

(4) ينظر : القراءة وضوابطها المصطلحية ، أليامين بن تومي ، مجلة قراءات ، العدد الأول 2009 ، مخبر وحدة التكوين والبحث في نظريات القراءة ومناهجها ، جامعة بسكرة ، الجزائر : 32 .

ويمكننا فهم هذه الاستراتيجيات من خلال وظيفتها التي تكمن في جانبيين ، هما ربط عناصر السجل بحيث يمكن أن تكون متناسقة ومتوافقة ، وتنظيم كفاءات واشتراطات التواصل بين المتلقي والنص ومن ثم تنظيم طرق التلقي بشكل ما ، ولكن ينبغي أن لا يفهم أنها . الاستراتيجيات النصية . تقدم طرقاً أو كفاءات معينة محددة وإلا كان دور المتلقي مسلوباً بهذا التحديد ، بل الأمر يتحقق في ترسيم الاستراتيجيات النصية لممكنات تلك الكفاءات⁽¹⁾ ، بمعنى أنها تقدم مقترحات مبنية على المعطيات النصية الأخرى ليقوم وفقها القارئ باختيار المناسب على وفق حريته كمتلقٍ للنص ، أي أنها لا تقوم بتنظيم عناصر السجل وتنظيم كفاءات التواصل بشكل كلي ونهائي بل تقوم باقتراح الكفاءات ، والدور الرئيس والفاعل يبقى بيد المتلقي في تحديد قائمة اختياراته منها⁽²⁾ ، ويحدد (إيزر) بنيتين لهذه الاستراتيجيات هما :

أ. بنية الواجهة الأمامية والواجهة الخلفية :

تتحدد الواجهة حين يتم استثارة عنصر من عناصر السجل النصي في النص مما يؤدي بدوره لاستثارة سياقه المرجعي ، فيدعى وجود العنصر في النص واجهة أمامية في حين يكون السياق المرجعي خارج النص هو الواجهة الخلفية له ، وبعبارة أخرى فإن وجود عنصر السجل في النص هو الواجهة الأمامية ومرجعياته المستثارة بفعل وجوده في النص هي الواجهة الخلفية ، ومن ذلك يمكننا فهم وظيفة هذه البنية بأنها تنظم شكل وكيفية علاقة النص بسياقه المرجعي⁽³⁾ .

(1) ينظر : نظرية الاستقبال : 107 ، وينظر : الأصول المعرفية لنظرية القراءة : 154 .

(2) ينظر : الوقع الجمالي وآليات إنتاج الوقع عند وولف غانغ إيزر ، عبد العزيز طليمات ، مجلة دراسات سيميائية أدبية لسانية ، العدد 6 ، 1992 ، المغرب : 61 .

(3) ينظر : من فلسفات التأويل إلى نظريات القراءة ، عبد الكريم شرفي ، الدار العربية للعلوم . ناشرون ، منشورات الاختلاف ، بيروت ، الجزائر ، ط 1/ ، 2007 : 202 . 204 .

ب. بنية الأفق والموضوع :

في حين تولت البنية السابقة تنظيم علاقة النص بسياقه الخارجي، فإن هذه البنية تتولى تنظيم علاقات المكونات النصية الداخلية عبر مفهوم المنظور ، إذ تقدم عناصر النص بطريقة تمكّن القارئ من تحديد العناصر الرئيسة في النص عبر العلاقات الممنوحة على وفق هذه البنية ، وبمعنى آخر فإن هذه البنية هي المسؤولة عن تحديد تموقع العناصر النصية بالكيفية التي نلاحظها أثناء تلقينا للنص (1) .

3. مواقع اللاتحديد أو البياضات

وتسمى أيضاً بالفراغات النصية ، وقد أخذ (إيزر) مفهوم اللاتحديد من (إنغاردن) حيث يرى الثاني أن ما يميز الأعمال الأدبية عن سواها هو أن الثانية قائمة على المعنى المحدد والنهائي ، في حين أن الأولى قائمة على تعدد الممكن المعنوي أي أنها لا تحدد معنى معيناً بذاته ، وهذا اللاتحديد مفروض وقائم أصلاً في بنية النص الأدبي ، ومنه استثمر (إيزر) هذا المفهوم في مفهومه عن مواقع اللاتحديد أو البياضات أو الفراغات النصية(2) ، إذ يفترض بأن النص يضم نوعين من أنواع المواقع ، الأولى هي مواقع التحديد التي يكون المعنى واضحاً وجلياً فيها ويكون النص قد اتخذ موقفه بإزائها وقال قولته ولم يدع للقارئ ما يمكن أن يقوله أو يبدي رأيه فيه ، تلك هي ما نعرفها بالدلالة الصريحة أو الدلالة التعيينية ، أما الثانية فهي مواقع اللاتحديد والتي يمكن فهمها بأن النص لم يقطع فيها برأيه وترك المجال أمام القارئ ليبدي رأيه فيها ويسد تلك الفراغات الناجمة عن اللاتحديد ويملاً البياضات بما يراه مناسباً وطبيعة النص(3) ، إنها

(1) ينظر م . ن : 204 . 206 .

(2) ينظر :القارئ والحكاية ، حامد أبو أحمد ، مركز الحضارة العربية ، القاهرة ، ط / 2 ، 2003 : 115 .

(3) ينظر : نظريات التلقي ، فرانك شويريجن ، ترجمة عبد الرحمن بو علي ، دار الجسور للنشر ، الجزائر ، ط / 1 ،

1995 : 78 .

التمهيد.....مظاهر نظريتي التلقي والتأويل ومرجعياتهما النظرية

تلك الفراغات التي أعلن النص صمته فيها وترك للقارئ حرية التأويل ليخرج بما يمكنه أن يسد هذه الفراغات ، على أن هذه الفراغات لا يمكن تصور سدها بشكل نهائي ومتكامل ، إذ تثير وبشكل مستمر في كل عملية تلقي جملة من احتمالات يختار القارئ منها ما يوائم طبيعة النص ويتشاكل مع معطياته الأخرى وسياقاته المرجعية⁽¹⁾ ، في حين أن (إنغاردن) يحدد مواضع مواقع اللاتحديد بأنها موزعة على عناصر النص فإن (إيزر) يخالفه في أن البياضات النصية تتموضع بين تلك العناصر بما تحمله تلك البينية من ضرورة حضور وظيفة الربط بين عناصر النص وتولي القارئ لتلك الوظيفة ، بمعنى أن فعالية شغل تلك البياضات يجب أن تراعي عنصر الترابط بين عناصر النص دلاليًا⁽²⁾ .

4. القارئ الضمني

إذا كان قارئ (ياوس) هو القارئ المحترف ، فإن (إيزر) ذهب لأبعد من هذا باقتراحه القارئ الضمني الذي يمنحه صفة متعالية بكون ((الأمر لا يمكن أن يتعلق بقارئ ملموس ، تاريخي أو معاصر ، بل إن القارئ الذي نقصده هنا هو بالضرورة تجريد تُبنى خصائصه قبلياً باستقلال عن كل وجود حقيقي))⁽³⁾ ، الأمر الذي يوضح طبيعة هذا القارئ الذي يجسده النص من خلال بنيته التي تقترح قارئاً معيناً متجاوزاً لأنواع القراء الأخرى ، كالقارئ المعاصر والقارئ المثالي والقارئ الجمع والقارئ المطلع والقارئ المقصود⁽⁴⁾ .

(1) ينظر : الخطاب والقارئ . نظريات التلقي وتحليل الخطاب وما بعد الحداثة ، مركز الحضارة العربية ، القاهرة ، ط 2/ ، 2003 : 116 . 117 .

(2) ينظر : فعل القراءة . نظرية جمالية التجاوب في الأدب ، إيزر ، ترجمة حميد لحميداني ، الجليلي الكدية ، مطبعة المناهل ، مطبعة النجاح الجديدة ، المغرب ، ط 1/ ، 1995 : 102 .

(3) التلقي الأدبي ، إلرود إيش ، ترجمة محمد برادة ، مجلة دراسات سيميائية أدبية لسانية ، العدد 6 ، 1992 : 13 .

(4) ينظر : فعل القراءة : 29 .

إن (إيزر) بتجاوزه لأنواع القراءة هذه أراد وصف الدور الذي ينهض به القارئ متعلقاً بالبنية النصية للنص ، وبمعنى آخر القارئ المرهون بالنص في معطياته و لحظة تحيينه للنص ، والمرتبطة بعلاقته بالنص لا خارجاً عنها ، إنه المفهوم المتعلق بالدور المرجو من القارئ وبكونه فاعل فعل التنسيق بين معطيات النص داخل فعل القراءة ، إنه القارئ الذي يرسمه النص لافتراض تلقيه مسبقاً للحظة التقائه بالقارئ الفعلي ، والقارئ الضمني ((لا يمتلك أي وجود حقيقي ، إنه يجسد مجموع التوجيهات الداخلية للنص والتي تشكل شروط تلقيه ، وبالتالي فإن القارئ الضمني لا يمتلك أي أساس تجريبي ، بل هو متجذر داخل النص ذاته))⁽¹⁾ ، ومع أنه من المؤكد أن كل نص يرسم قارئه الضمني كما ذهب لذلك (إيزر) إلا إن هذا القارئ لا يمكنه أن يعيننا في التعرف على تواريخ التلقي الفعلي مع تكرار تجربة القراءة للنص الواحد وهو ما حدا بـ (مانفريد ناومن) للتمييز بين فعالية القارئ الضمني التي تؤثر في طبيعة تشكل النص ، وبين القارئ الواقعي الذي يباشر فعالية التلقي ويرسم المشهد الفعلي للتلقي ويحدد شكل القراءة الفعلية التي قد تخالف توقعات النص لتلقيه⁽²⁾ .

لقد أسهمت مفاهيم (إيزر) في إثراء التصورات عن النص والمتلقي والعلاقة بينهما ، وأعطت أبعاداً متعددة لها ، على أنها صدرت كما أشار البحث سابقاً عن دور فاعل لكل من النص والمتلقي في حدود علاقتهما الموصوفة بالتفاعل والإيجاد .

ويبدو أن مهمة البحث في استيضاح جوانب مهمة عن نظرية التأويل ، أصبحت أيسر بكثير بسبب من التداخل الحاصل بين نظرية التلقي ونظرية التأويل ، فكل تلقى لعمل أدبي إبداعى لا يخلو غالباً من تأويل يمارسه القارئ ، وكل تأويل بالضرورة هو قراءة وتلقى للعمل الأدبي ، على أن تناول التأويل من قبل النقاد والمنظرين أخذ أشكالاً

(1) من فلسفات التأويل إلى نظريات القراءة : 189 .

(2) ينظر : قراءة الآخر / قراءة الأنا . نظرية التلقي وتطبيقاتها في النقد الأدبي العربي المعاصر ، حسن البنا عز الدين ، سلسلة كتابات نقدية ، 176 ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، القاهرة ، ط 1/ ، 2008 : 58 .

ومستويات متعددة ، بالنظر تارة للتأويل ذاته وتارة أخرى للمؤول الذي يباشر التأويل وأخرى للنص المؤول وفق خصوصيته .

وفي حين تبدو بداية التأويل . كنظرية . مقرونة بـ (شلايرماخر)⁽¹⁾ ، إلا إنه كفعالية تمتد جذوره التاريخية لأبعد من هذا التحديد الزمني بكثير ، ولعلنا نتجاوز حقبةً زمنية ونطوي أزمنة حين نفتح بحديثنا عن الممارسة التأويلية التي عرفها العرب والمسلمون الذين أدركوا أن قسماً من القرآن الكريم يتمتع على الممارسة التفسيرية ، وهو ما استدعى جدلاً فكرياً بين المذاهب والفرق الإسلامية بين رافض ومؤيد لتأويل بعض الآيات مثار الاختلاف⁽²⁾ ، على أن هذا الجدل لم يمنع من بروز تيار فكري تبنى التأويل كإمكانية لحل أزمة فهم بعض الآيات التي لا يمكن أن تفهم على دلالتها الصريحة كالمتشابه من القرآن الذي قد يقود فهمه الصريح لمعارضة بعض من ثوابت الاعتقاد⁽³⁾ ، وظل هذا الجهد التأويلي يمارس فعالياته راكناً لأدواته التي قيدت بخصوصية النص القرآني ، ومثل هذا الأمر في تفسير النص الديني هو ما أبرز ضرورة الممارسة التأويلية لدى الديانات الأخرى ، وهو السبب ذاته في جهود (شلايرماخر) الذي اندفع بواعز فهم النص الديني المتمثل بالإنجيل ، ذلك الواعز المتأثر بطبيعة اعتقاده كرجل بروتستانتي معارض لفهم الكنيسة الكاثوليكية ، فإذا كانت الثانية تعتقد بأن الإنجيل هو كتاب ليس من صنع البشر فإن (شلايرماخر) اعتقد العكس من ذلك تماماً ليباشر جهوده في محاولة استظهار ما يستبطنه هذا النص الديني من خلال التأويل⁽⁴⁾ ، على أن الأمر أخذ في التطور ونحى منحى آخر مع دخول التأويل حيز الأدب ، بل إنه . التأويل . بماهيته أخذ أبعاداً أخرى

(1) ينظر: مدخل إلى الهرمينوطيقا ، عادل مصطفى ، دار النهضة العربية ، مصر ، ط 1 / ، 2003 : 162 .

(2) ينظر : تاريخية الفكر العربي الإسلامي ، محمد أركون ، مركز الإنماء القومي ، بيروت ، ط 1 / ، 1986 : 299 .

(3) ينظر: فصل المقال ، ابن رشد ، تحقيق محمد عمارة ، دار المعارف ، القاهرة ، ط 3 / ، 1999 : 48 .

(4) ينظر: فلسفة التأويل ، هانس جورج غادامير ، ترجمة محمد شوقي الزين ، الدار العربية للعلوم . ناشرون ، بيروت ، ط 2 / ، 2006 : 70 .

متنامية بوصفه فعالية تحدد لنا كذوات مدركة ماهيتنا وطبيعة وجودنا ، ذلك أن استشعارنا لذواتنا ولما يحيط بنا كآخر مختلف عن ذواتنا يحمل بين طياته تأويلاتنا الخاصة ، الأمر الذي يفسر إلى حد ما اختلاف تصوراتنا عن المصداق الواحد للمفهوم الواحد ، وعلى أية حال فإن التأويل بدخوله حيز الممارسة على النص الأدبي توسعت أبعاده وتنامت لما للنص الأدبي من طبيعة وخصائص أقل ما يمكن ملاحظتها منه أنه لا يقر بالمعنى الواحد وأنه منفتح على عالم الدلالة⁽¹⁾ ، وقد تمحورت جهود النقاد والمنظرين حول نقاط محورية كالقصدية وتعددتها بين قصد المؤلف وقصد النص وأخيراً قصد المؤول⁽²⁾ ، كما حضرت إشكالية (الذات/الموضوع) في نظرية التأويل وشكلت قطباً في جلّ المقولات ومنطلقاً لها⁽³⁾ ، في الوقت الذي يمكن التأكيد على أن التأويل كنظرية . مضافاً لما تقدم . تأثر بالنظريات والمناهج النقدية الأخرى التي طرحت مفاهيمها عن التأويل كممارسة قبولاً أو رفضاً ، ففي حين نجد تقارباً وتداخلاً في بعض الأفكار بين نظرية التأويل والنظريات والمناهج الأخرى ، نجد تعارضاً بينها وبين التفكيكية مثلاً في مفهوم (لا نهائية التأويل) الذي تعارضه الأولى لتطرح تصورهما المفضي لمفهوم (الإشباع الدلالي) ، وبين هذا

(1) ينظر : مقدمة في الهرمينوطيقا ، دافيد جاسبر ، ترجمة وجيه قانصو ، الدار العربية للعلوم . ناشرون ، بيروت ، ط / 1 ، 2007 : 90

(2) ينظر : تأملات ديكرتية ، هوسرل ، ترجمة تيسير شيخ الأرض ، دار بيروت للطباعة والنشر ، بيروت ، 1958 : 103 ، وينظر : هوسرل والكوجيتو الديكرتي ، ناجة بو حجة بن علي ، الفكر العربي ، مركز الإنماء القومي ، بيروت ، باريس ، العدد 120 . 121 ، خريف 2001 ، شتاء 2002 : 110 .

(3) ينظر : أسس الفكر الفلسفي المعاصر ، عبد السلام بنعبد العالي ، دار توبقال للنشر ، الدار البيضاء ، ط / 2 ، 2000 : 47 .

وينظر : الحقيقة والمنهج ، هانس جورج غادامير ، ترجمة حسن ناظم و علي حاكم صالح ، دار أويا ، طرابلس ، ط 1 / ، 2007 : 375 .

وذاك أخذت النظرية بالتغير والتطور وصولاً لما هي عليه الآن من صورة يمكننا القول عنها بأنها نظرية التأويل⁽¹⁾ .

وكحال النظريات الأخرى نجد التداخل المفاهيمي حاصلاً في هذه النظرية بسبب من اختلاف المنظرين والنقاد لكل مفهوم من مفاهيمها ، كما هو الحال في مفاهيم ك (الفهم والتفسير والتأويل) التي تتباين في كون الأول أول مرحلة من مراحل التأويل تارة ، وأخرى هو الناتج النهائي عن فعالية التأويل⁽²⁾ .

وإذا كان التحول النقدي حاصلاً في أصل الممارسة النقدية بوصفه ملازماً للتطور والتغير ، فإن أوجه هذا التحول تتعدد وتتراوح بين كونها تحولاً إيجابياً يثري هذه الممارسة ويؤدي لطرح تصورات جديدة تخدم الانتقال إلى وضع متقدم في النظرية أو المنهج النقدي ، وبين كونها تحولاً سلبياً خارجاً عن قواعد الممارسة النقدية أو حدود المنهج والنظرية⁽³⁾ ، وتتعدد أسباب التحولات التي يمكن وصفها بالسلبية ، ولعل من تلك الأسباب عامل الوفود ، بمعنى أن النظريات والمناهج الغربية الوافدة قد تتعرض لبعض التحريف بشكل مقصود أو غير مقصود ، وهنا تبرز إشكالات الترجمة كعامل رئيس من تلك العوامل التي تفضي لفهم خاطئ للنظرية والمنهج الوافد⁽⁴⁾ ، كما أن ثمة سبباً يتعلق بالجانب التطبيقي ، إذ إن افتراض صلاحية منهج نقدي معين لكل النصوص يؤدي لتحول نقدي يتمثل في إكراهات

(1) ينظر : التأويل بين السيميائيات والتفكيكية ، أمبرتو إيكو ، ترجمة سعيد بنكراد ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، ط 1 / ، 2000 : 117 .

(2) ينظر : فن الخطابة وتأويل النص ونقد الأيديولوجيا ، هانس جورج غادامير ، ترجمة نخلة فريفر ، مجلة العرب والفكر العالمي ، العدد 3 ، صيف 1988 : 13 ، وينظر : مدخل إلى الهرمنيوطيقا : 22 ، وينظر : الحقيقة والمنهج : 29 .

(3) ينظر : مذبح التراث في الثقافة العربية المعاصرة ، جورج طرابيشي ، دار الساقي ، بيروت ، ط 1 / ، 1993 : 155 ، وينظر : أسئلة النقد . حوارات مع النقاد ، جهاد فاضل ، الدار العربية للكتاب ، تونس . ليبيا ، ط 1 / ، 1994 : 290 .

(4) ينظر : القراءة بين خصوصية النص وإجراءات المنهج البنيوي . العراق أنموذجا (رسالة ماجستير) ، سراج محمد يعقوب ، جامعة البصرة ، كلية التربية ، قسم اللغة العربية ، 2010 : 50 . 64 .

المنهج ، إذ يرغم النص على قبول أدوات المنهج خارج فهم خصوصية النص وطبيعة الإجراء الذي يباشر به كوسيلة أو طريقة لقراءته⁽¹⁾ ، فإذا كان الالتزام بصرامة المنهج أمراً مطلوباً فإن من المطلوب أيضاً الالتزام بخصوصيات النص ومراعاة السياقات الريفية ، كالسياق الثقافي والسياق الاجتماعي ، وعلى أية حال فإنه من الممكن تشخيص نوع وطبيعة التحول النقدي من خلال مراجعة الاشتغال النقدي وعرضه على أصول النظرية أو المنهج الذي ألزم به الناقد نفسه ضمن عملية مقارنة يتم من خلالها هذا التشخيص ، وإنه لمن الموضوعية أن لا تحتكم عملية المقارنة لما هو خارج المنهج أو النظرية التي اشتغل على وفقها الناقد في عملية القراءة ، فلا يجوز منهجياً أن نجري مقارنة لقراءة سيميائية مثلاً بالاحتكام للتفكيكية فكل منهج ونظرية أصولها وإجراءاتها المختلفة مع الأخرى⁽²⁾ ، وهنا يمكن القول بأن نظريتي التلقي والتأويل وفرت بعداً إضافياً للكشف عن التحولات ، إذ عيّنت نظرية التلقي برصد الفعاليات التي تشتمل عليها عملية تلقي النصوص وهي وإن كانت نظرية لها خصوصياتها التي تختلف وتفترق أحياناً عن النظريات والمناهج الأخرى ، إلا إن الجانب الإجرائي فيها يمكن من متابعة فعالية التلقي والقراءة بشكلها العام ، وإذا ما روعيت خصوصية إجراءات المنهج الذي يتلقى على وفقه الناقد فإنه يمكن القول أن تشخيص التحول النقدي يصبح على درجة عالية من الموضوعية⁽³⁾ ، وبعبارة أخرى فإن اهتمام نظرية التلقي بالمتلقي وبفعالية القراءة أعطتها بعداً يمكن أن تتداخل معه أي فعالية قراءة منجزة على وفق أي منهج أو نظرية والكشف عن الجوانب المتعددة للممارسة القرائية الناجزة فعلاً ، وكذلك الحال مع نظرية التأويل ما

(1) ينظر : المنهج والمصطلح . مدخل إلى أدب الحداثة ، خلدون الشمعة ، إتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، 1979 : 39 . 37 .

(2) ينظر : النص الأدبي من أين ؟ وإلى أين ؟ ، عبد الملك مرتاض ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، ط 1 / 1983 : 54 .

(3) ينظر : تلقي الأمدي لشعر أبي تمام ، د. حسين المناصرة ، الشبكة العنكبوتية : <http://manasrah.maktoobblog.com/category> ، بتاريخ 22 / 2 / 2012 .

لو استرجعنا ما ذكرناه سابقاً من عمومية التأويل كفعالية وممارسة لا تقف عند حدود المنهج والنظرية بل لا تقف عند حدود النقد الأدبي ، فالتأويل ممارسة متضمنة في كل قراءة تقريباً ، خصوصاً ما لو استحضرننا في أذهاننا طبيعة النص الأدبي وخصائصه ، ومعه يمكن الركون لنظرية التأويل في الكشف عن مراحل الممارسة التأويلية داخل أي منهج أو نظرية نقدية ، ولا نحتاج لأي مبرر يشرعن هذه العملية سوى اشتراط خصوصيات المنهج والنظرية التي أنجزت على وفقها عملية التأويل ، ويبدو من الواضح أن كل منهج ونظرية نقدية تستبطن في إجراءاتها القرائية شكلاً مخصوصاً من التأويل ، ولا يمكن تصور قراءة منهجية خارج هذه الحقيقة⁽¹⁾ .

إن طبيعة التحول النقدي وشكله يؤثر بشكل تتابعي على الإجراء النقدي ، أي أن التحول لا ينغلق على نفسه ولا يتحدد تأثيره على الإجراء الذي استبطنه ، بل يتعداه إلى غيره من الإجراءات والممارسات النقدية ، ويتضح هذا الأمر لو تصورنا سلطة الناقد وتأثيرها ، فالناقد البارز يعطي للتحول النقدي سمة التأسيس بما يعني أن التحول المتحقق لديه يجزّ تحولات كثيرة تتأسس تبعاً لسلطته التي تهيئ لقبول آرائه النقدية والانجرار خلفها⁽²⁾ ، ومعه فإن استمرارية هذه التحولات وتناسلها تؤدي لتشويه المشهد النقدي لو كان التحول سلبياً ، وعلى الدرجة ذاتها من الأهمية يكون التحول الإيجابي مانحاً لإثراء الإجراء النقدي ودليلاً على عافيته ، وهو ما يؤتي أفضل النتائج الممكنة للممارسة النقدية تطوراً ونضجاً .

ويمكن القول أن التحول النقدي حاصل في جانبي الممارسة النقدية ، الجانب النظري والجانب التطبيقي ، فكل منهما أهميته في تحديد ملامح المشهد النقدي ، إن الشغل النقدي ناجز على النصوص الأدبية في علاقة تبادلية ، بمعنى أنه منطلق منها و ممارس

(1) ينظر : المرايا المحدبة . من البنيوية إلى التفكير ، عبد العزيز حمودة ، سلسلة عالم المعرفة ، المجلس الأعلى للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، العدد 232 ، 1998 : 322 .

(2) ينظر : فقه الاختلاف . مقدمة تأسيسية في نظرية الأدب ، محمد فكري الجزار ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، القاهرة ، 1999 : 106 .

عليها ، وعليه فإن هذه العلاقة تفترض حصول تأثير التحولات النقدية على المشهد الأدبي أيضاً لا النقدي فحسب ، إذ لا يمكن عزل أحدهما عن الآخر للطبيعة التداخلية بينهما ، فالمنجز النقدي يؤثر وبشكل ملحوظ على النتاج الأدبي ويمارس فاعليته على المبدعين ، ومن ثمّ فإن أيّ تغيير أو تحول يطرأ على النقد سيجر نتائج على الأدب بالضرورة⁽¹⁾ .

ومما تقدم فإن ما نعينه بالتحول هنا ، هو أي طارئ يطرأ بالسلب أو الإيجاب على أصل النظرية أو المنهج أو الممارسة في جانبي الممارسة النقدية (النظري والتطبيقي) مما يعد في صورته السلبية خروجاً عن المنهج والنظرية بشكل من الأشكال ، ودعماً للمنهج أو النظرية في صورته الإيجابية بشكل أو بآخر وإثراءً لجانبها النظري أو التطبيقي ، والتحول بذلك بصورتيه يعد فاعلاً في المشهد النقدي والأدبي⁽²⁾ .

(1) ينظر : تحولات النقد وحركية النص ، عالي سرحان القرشي ، النادي الأدبي بجائل ، مؤسسة الانتشار العربي ، ط 1 / ، 2009 : 340 . 341 .

(2) ينظر : علم تحليل الخطاب وموقع الجنس الأدبي ، د. مازن الوعر ، مجلة آفاق الثقافة والتراث ، العدد 14 ، السنة الرابعة ، أيلول 1996 : 18 ، وينظر: مقترحات مبدئية باتجاه نظرية عربية في الأدب والنقد ، د. حسام الخطيب ، مجلة الفكر العربي ، العدد 25 ، السنة الرابعة ، كانون الثاني . شباط 1982 : 132 . 134 .

(3) ينظر : المرايا المحدبة : 177 .

التمهيد.....مظاهر نظريتي التلقي والتأويل ومرجعياتهما النظرية

لقد شهدت الحركة النقدية العربية كغيرها تحولات نقدية عديدة أسهمت في رفد النقد العربي بعوامل الاستمرار والتطور ، إلا إنه تطور في حدود النظرية المستوردة غالباً ، في حين أدت نماذج من التحولات السلبية إلى تشوش التصور النقدي وضبابية الرؤية ، ولعل هذه التحولات هي أحد العوامل الفاعلة في غياب رؤية نقدية عربية متكاملة تؤهل ا لنقد العربي للعب دور المنتج بدل الاكتفاء بدور المستهلك والركون لاجترار المنجز النقدي الغربي⁽³⁾ .

مدخل

تتطلق نظرية التلقي من إشكالية الذات والموضوع ، وهي إشكالية فلسفية تتأسس على ماهية كلّ منهما ، والحيز الذي يشغلانه - الذات / الموضوع - ضمن مفهوم الوجود والتحقق ؛ ذلك أن التساؤل أفضى لمقاربة نقدية في محاولة الكشف عن النص بوصفه موضوعاً ، والمتلقي بوصفه ذاتاً .

إذ يقوم المنهج الفنونولوجي(*) على افتراض أن الموضوع غير مستقل بذاته ، وإنما يتحقق من خلال فعل الوعي الذي تمارسه الذات بشكل مقصود نحو الموضوع .

والذات الواعية هنا ، تقوم بدورها الفاعل في تحقيق وجود الموضوع كما يذهب لذلك (هوسرل)⁽¹⁾ ، مما ينتج القول بأن الذات الواعية تفعل فعلها في إنتاج الموضوعات التي تمثل بشكل ما تحققاً للوجود⁽²⁾ .

وعلى الجانب الآخر يبرز الموضوع سيداً للموقف ، على وفق (مارتن هايدجر) ، الذي كان ((يقصي الذات الإنسانية عن موقع الهيمنة الخيالي هذا))⁽³⁾ ، مستنداً في ذلك على التفريق بين الوجود والموجود ، ؛ ذلك أن الوجود هو ليس ما يمكن للذات إدراكه فحسب ، بل هو اللاموجود أيضاً ، والذي يقع خارج إدراك الذات ، ومعه يكون الموضوع _ بوصفه وجوداً _ خارج إمكان إدراك الذات ، بعبارة أخرى فإن ما تدرّكه الذات هو الموجود ، وهو جزء من الوجود لا كله⁽⁴⁾ ، وهكذا فإن الذات تصبح عاجزة عن إدراك

(*) منهج قائم على الخبرة الحدسية للظواهر كنقطة للبدء في التساؤل عن دور الوعي الذاتي في تمثيل الظواهر لتكون هذه الخبرة بعدها أساساً لمعرفة الذات ، وهو بعدُ منهج لا يدعي التوصل للحقائق المطلقة بل يعنى بفهم الذات لطبيعتها وشكل حضورها في العالم ، ويعد إدmond هوسرل مؤسس هذا المنهج .

(1) ينظر : من فلسفات التأويل إلى نظريات القراءة : 91 .

(2) ينظر : م . ن : 96 .

(3) نظرية الأدب ، تيري إغلتن ، ترجمة ، نادر ديب ، منشورات وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية ، دمشق ، 1995 : 112 .

(4) ينظر : من فلسفات التأويل إلى نظريات القراءة : 107 .

الوجود ، بمعنى أن دورها يقتصر على التقاط ما يصلها من إشارات دالة على الوجود ، وتكوين صورة ما عنه ، وهنا يتضح إقصاء الذات عن فاعليتها في التحقيق⁽¹⁾ .

مع هذه الإشكالية يطرح النص والقارئ بوصفهما موضوعاً وذاتاً ، فيكون القارئ ذاتاً فاعلة ومؤثرة في إنتاج النص وتحقيق وجوده حسب (هوسرل) ، ويكون النص موضوعاً قائماً بذاته يمنح القارئ ما يمكنه من إدراك جزء منه ، ويقتصر دور القارئ على تلقف الإشارات التي لا تعني كلية النص وحقيقته ، بل تجلٍ من تجلياته على وفق (مارتين هايدجر) .

وبين هذين الرأيين تتداخل الآراء لسد الفجوات وتوجيه الانتقادات التي تطور بدورها النظرة وتطرح رؤية أكثر تكاملاً .

أما ما يعنينا من هذا العرض الموجز لإشكالية الذات والموضوع ، هو أن نظرية التلقي متأثرة بهذه الإشكالية حاولت طرح بعض المفاهيم الإجرائية التي تمكّن من اختزال المسافة بين ذاتية القارئ وموضوعية النص ، وإكساب فعل القراءة وجهاً أكمل بعيداً عن الاعتبارية ، ولقد كانت نماذج الاستيعاب القرائي إحدى هذه المفاهيم الإجرائية التي تتضح خلالها إشكالية الذات والموضوع ، بنموذجها الأمثل (النموذج التفاعلي) الذي يستند لتحقيق النص من خلال فعالية القراءة التي تمارسها الذات الواعية ضمن شروط النص .

وبعبارة أخرى ، فإن الذاتية المفرطة على حد سواء مع الموضوعية المفرطة ، لا يحقق كلاهما إدراك الموضوع ولا يبني الذات الواعية ، وحده النموذج التفاعلي هو القادر على إدراك الموضوع على وفق العلاقات المتوافرة في النص ، والتي تحدد الحيز الذي

(1) ينظر : من فلسفات التأويل إلى نظريات القراءة : 109.

يتحرك ضمنه القارئ لإنتاج دلالات النص⁽¹⁾ ، ومن ثم إدراك الموضوع وبناء الذات الواعية من جديد وبشكل مستمر .

إن العمل الأدبي يكتسب وجوده من خلال علاقة تداخلية بين النص والقارئ ، ومع كون هذه العلاقة تمثل إشكالية بحد ذاتها ، فإن التحول لفعل القراءة يكتسب شرعيته ؛ لكون هذا الأخير يمثل سيروية تفاعلية لإنتاج المعنى ، وعلى وفق ذلك فإن الإشكالية الناتجة من تداخل النص والقارئ ، تجد حلها بوضع القارئ داخل النص⁽²⁾ ، وهذا ما يفسر السمة الأبرز للموضوع الجمالي بأنه ((يتم إدراكه من الداخل))⁽³⁾ ، إذ القارئ يحضر لإنتاج المعنى ، الأمر الذي يوضح منذ البداية علاقة النص بالقارئ وعلاقة القارئ بالنص ، على أن ذلك لا يستدعي بالضرورة استلاب النص أو استلاب القارئ ، بل يمنح كلاً منهما حقوقه في عملية إنتاج المعنى⁽⁴⁾ ، ويضبط العلاقة بينهما خلال سيروية القراءة بوصفها إنتاجاً للمعنى .

وهكذا فإننا نشهد تركزاً لفعل القراءة بوصفها السابق بدلاً من مركزية النص أو مركزية القارئ كلاً على حدة ، ومن هنا أصبح العمل الأدبي ((بناءً للنص في وعي القارئ))⁽⁵⁾ .

ومع استحالة القول بتجرد القارئ من تكوينه السيكلوجي ، فإن النص يمارس من

(1) ينظر : النص ، السلطة ، الحقيقة - الفكر الديني بين إرادة المعرفة وإرادة الهيمنة ، نصر حامد أبو زيد ، المركز الثقافي العربي ، المغرب ، ط 2/ ، 1997 : 96 .

(2) ينظر : من فلسفات التأويل إلى نظريات القراءة : 182 .

(3) نظرية التلقي ، مقدمة نقدية ، روبرت هوليب ، ترجمة : عز الدين إسماعيل ، كتاب النادي الأدبي الثقافي بجدة ، رقم السلسلة : 97 ، ط 1/ ، 1994 : 214 .

(4) لعبة النص ، مقاربات نقدية في الشعر والسرد ، د. صالح هويدي ، دائرة الثقافة والإعلام ، حكومة الشارقة ، دولة الإمارات العربية المتحدة ، ط 1/ ، 2007 : 45 .

(5) من فلسفات التأويل إلى نظريات القراءة : 182 .

خلال علاقاته الداخلية فعالية ضبط عملية القراءة⁽¹⁾ ، لكون هذه العلاقات تمنح أنماطاً لا محدودة من استيعاب النص وإنتاجه ، وهي وإن كانت لا محدودة ولكنها تختلف عن ما يمنحه نص آخر بالضرورة ، وهذا ما يفسر التأثير الذي يؤديه نص ما دون آخر ، وكذا المغايرة في نوع التأثير من نص لآخر⁽²⁾ .

إن النص لا يمنح قوالب جاهزة لإنتاج المعنى ، بل يتوافر على مجموعة خرائط تمكن من سيورة تفاعلية بينه وبين القارئ ؛ لتحقيق الاحتمالات الممكنة لبناء الدلالة ، وذاتية القارئ مع شروط النص المتوافرة في علاقاته الداخلية هي ما تجعل تلك السيورة فاعلة تجاه رصد الاحتمالات ، وتمكين فعل القراءة من إنتاج نتيجته ، ولذلك تصبح القراءة بوصفها _ فعالية _ منتجة للذات من خلال تثبيط الاحتمالات الكامنة في ذات القارئ وكسر أفق توقعه⁽³⁾ ، وهي بذلك تكتسب أهميتها الكبرى ، ولذلك اكتسب الاستيعاب القرائي أهميته في مقولات التلقي ، وصدر عنها نماذج ثلاثة للاستيعاب القرائي ليتم رصد الفعالية القرائية وتصحيحها إن لزم الأمر ؛ لتحقيق وجود القارئ داخل النص ، والحد من الذاتية المفرطة التي ترتكز على إقصاء النص ، وكذلك الموضوعية التي تمحور النص في فعل القراءة وتقصي الذات عن الموضوع ، وهذا هو أحد أهم العوامل التي قامت عليها نظرية التلقي ، وهنا يصدر عن مقولات التلقي نماذج الاستيعاب القرائي الآتية⁽⁴⁾ :

• نموذج موضوعية النص

(1) ينظر : نظرية النص من بنية المعنى إلى سيميائية الدال ، د . حسين خمرى ، منشورات الاختلاف ، الجزائر ، ط 1/ ، 2007 : 68 .

(2) ينظر : العلاماتية وعلم النص ، إعداد وترجمة : منذر عياشي ، المركز الثقافي ، الدار البيضاء ، المغرب ، ط / 1 ، 2004 : 166-168 .

(3) ينظر : التلقي والتأويل . بيان سلطة القارئ في الأدب ، محمد عزام ، دار الينابيع ، دمشق ، ط 1/ ، 2007 : 53 .

(4) ينظر : التلقي والتأويل : 53 .

ويستند هذا النموذج إلى النص ويقصي المتلقي عن القراءة الفاعلة ، إذ يبدو أن ما يمنحه هذا النموذج للمتلقي هو التعريف بالأفكار الموجودة مسبقاً داخل النص وبشكل لا يتعدى قراءة الشرح والتعليق فقط ، وهي تتطلق من النص باتجاه القارئ⁽¹⁾ ، ما يعني أن النص موجود بذاته على مستوى الكينونة ، والقارئ ضيف يحل عليه لياشر البنية الظاهرية منه ولا يوغل في بنياته العميقة المنتجة للإثراء الدلالي والمنطلق لإعادة إنتاج النص ، إنها القراءة التي لا تشعر إزاء مباشرتها بلذة النص .

وهي ليست فعالية بقدر ما هي عمل آلي رتيب يفقد النص والقارئ إمكاناتهما الإبداعية القارة فيهما ، ذلك أن سلب القارئ بوصفه منتجاً يعني بالضرورة تعطيل النص عن فعاليته .

ومع أن النص لا يُقر بمعيار ثابت وقارٍ ، وإنما يياشر دينامية إنزياحية ، لذلك فإن مباشرته على وفق هذا النموذج تعني بالضرورة معيارية ثابتة إلى حد ما ، فالموضوع البارز من النص لقارئ ما ، يحدد إلى حد كبير آلية إنتاج النص لدى هذا القارئ متوهماً قصور النص عند هذا الموضوع فقط أو بجملة من المواضيع المحددة التي يحددها النص بعيداً عن فاعلية القارئ⁽²⁾ .

إن النص يمارس خدعة الحضور والغياب ، ويقدم في بنيته الظاهرة مستوى موضوعياً معيناً ، ويخاثل القارئ عبر مستوياته المختلفة ؛ ليقر بإمكان إحضار الغائب خلف شبكة دلالية معقدة ، وهذا الحضور لا يتم إلا بعد الإقرار بسيرورة إنتاج النص بوصفه مقروءاً ، هذه السيرورة التي تنبئ عن إذعان الذات للموضوع بوصفنا السابق ، وتتجلى عن التوتر

(1) ينظر : إشكاليات القراءة وآليات التأويل ، نصر حامد أبو زيد ، المركز الثقافي العربي ، لبنان ، ط / 3 ، 1994 : 31 .

(2) ينظر : الهرمينوطيقا ومعضلة تفسير النص ، نصر حامد أبو زيد ، مجلة فصول ، العدد : 10 ، المجلد : الأول ، إبريل ، 1983 : 158 .

القائم بين النص ومتلقيه⁽¹⁾ ، وإذا كانت علاقات النص تحضر خلال فعل القراءة وتمحور الفعل الكشفي الذي تباشره الذات ، فكيف يمكننا القبول بسداجة الموضوعية المعلبة مسبقاً للاستهلاك ؟ .

إن ما سبق لا يتعارض ومقولة ((لا شيء خارج النص))⁽²⁾ فالذات وجدت مكانها في النص عبر علاقة تداخلية تفترض استحالة إنتاج الفعل القرائي والتلقي إلا في حدود تلك العلاقة والحيز الذي تكمن فيه الذات .

إن طبيعة هذه العلاقة تحدد طبيعة التلقي المتراوح دوماً بين الذات / الموضوع ، ويقر البحث بأن كشف هذه العلاقة خلال سيرورة فعل التلقي قد تكون غير واضحة للدرجة التي يمكن رصدها من المتلقي ذاته إلا بعد إنجاز مرحلة من مراحل التلقي ، والوقوف على نواتج الذات ونواتج الموضوع ، وقد لا يتم ذلك إلا عبر إجراءات نقد النقد ، التي تمثل قراءة واعية أخرى لقراءة القراءة .

كما أن سيادة جماليات التأثير النصي إزاء اشتراط ذاتي ذات أهمية قصوى كالدائقة ، محكومة إلى حد كبير بجاهزية الذات للتلقي ومدى الخبرة المنفعلة مع النصوص السابقة ، والتي تشكل هيئات هذا الاشتراط⁽³⁾ وتؤطر علاقة التوتر بين الذات والموضوع لتعطي كلمة فصل في طبيعة التلقي .

(1) ينظر : شعرية الإنزياح ، دراسة في جماليات العدول ، خيرة حمر العين ، مؤسسة حمادة للدراسات الجامعية والنشر والتوزيع ، إربد ، الأردن ، ط/ 1 ، 2001 : 172.

(2) في النقد الثقافي ، محمد حسين الناعلي ، الشبكة العنكبوتية : <http://majles.alukah.net/showthread.php> ، بتاريخ 2012/1/4 .

(3) ينظر : التأويل ، ف ي خاليزبق ، ترجمة : عمر ألتنجي ، مجلة الفكر العربي المعاصر ، العدد : 54 - 55 ، 1988 : 96 .

• نموذج ذاتية القارئ

يرتكز هذا النموذج على القارئ مُقصياً النص ، إذ يمنح القارئ حرية مطلقة في إنتاج المعنى ، دون الاعتداد بما يمنحه النص من دلالات تشير إلى إمكانات إنتاج المعنى ، وهنا تبرز القراءة الإسقاطية كوجه آخر للعملة ، فالنص مباح لاشتواء القارئ ينتهكه كيف شاء ، ومنه ((ظهر مذهب الذاتية في التعامل مع النص ، ويتجلى هذا المذهب عند هولاند وفيش وغودمان))⁽¹⁾ .

وبمقاربة لمقولة (سارتر) بخصوص الفعاليات العقلية (فعاليات الإدراك) و (فعاليات التخيل) التي تمارسها الذات ، يمكننا إعطاء صورة واضحة عن فعالية الذات إزاء الموضوع ، إذ يمكن القول أنّ (فعاليات الإدراك) تتم مقابل موضوع موجود مسبقاً تقوم الذات بإدراكه ، أما (فعاليات التخيل) فلا وجود سابق لها ، إنها جملة أنشطة تتم داخل الذات دون وجود خارجي مسبق لها ، فهي تنطلق من الذات إليها ، على العكس من سابقتها التي تنطلق من خارج الذات إلى داخلها ، ويمكننا أن نكشف عن الطرف الآخر للمعادلة ، إذ إن النص ينطوي على تركيبة معينة هي البنية الظاهرة ضمن مستوى اللغة ، وعلى المعنى الغائب الذي لا تصرح به مستويات اللغة لوحدها ، من هنا تكون الذات حاضرة في (فعاليات الإدراك) لإدراك بنية النص الظاهرة ، وحاضرة في (فعاليات التخيل) لإثراء إمكانات إعادة إنتاج المعنى ، لذا فإن المعادلة تقتضي حضور الذات لفاعلياتها السابقة ، كما تفترض في النص كلا المستويين ، ومعه يمكن التصور بأن (فعاليات التخيل) الموسومة بالذاتية المطلقة لا تستطيع إحضار الغائب في النص لوحدها دون استدعاء فعاليات الإدراك التي تمارس إعطاء تصورات عن بنية النص وإنماء هذه التصورات وصولاً لإدراك كلي للنص في مستوى البنية ، نعم يمكن أن تحضر _ فعاليات التخيل _ الغائب ولكن هذا الإحضار سيكون بعيداً عن اشتراطات

(1) التلقي والتأويل : 53 .

النص⁽¹⁾ ، ومعه ستكون الفعالية القرائية عرجاء تتعزز على مستوى واحد من مستويات النص وفعاليات الذات .

إن ما تقدم يفضي لتساؤل عن حقيقة الإدراك ، وكيفية تصور عدم تحقق الإدراك سابقاً على التخيل ، بمعنى آخر أنه يُفترض بشكل قاطع أن القراءة الأولى للنص تحمل تصوراً إدراكياً ، فكيف يمكن البرهنة على قراءة تخيلية بعيداً عن فعالية إدراكية ؟

إننا إذ نتكلم عن الإدراك ، نعني به إدراك الذات لكلية النص لا جزئياته فحسب ، فلحظة اصطدام الذات بالنص تحمل تصوراً أولياً لا أقل من جنوسة النص وارتسامات أولية عن دلالاته ، لكن هذا ما لا يمكن عدّه إدراكاً كلياً لبنية النص التي لا يُختلف على كونها تحمل تراكيبية معقدة وتضم شبكة دلالية تؤسس لقراءات متعددة .

بهذا التصور يمكن الإجابة عن التساؤل السابق ، واستنتاج أن الذاتية تداخل الموضوعية في نقطة لاحقة على اللحظة الأولى لالتقاء الذات بالموضوع ، إذ يبدو أنها _ الذات _ تمارس ذاتيتها المفردة مقصية الموضوع ضمن أنشطة التلقي التي تمارسها ، فتكتفي بتصوير جزئي عن النص ، وهنا لا بد أن نعي الفرق بين التصور والإدراك بوصف الثاني فعالية كلية ونشاطاً ملازماً لكل مراحل القراءة وإعادة إنتاج النص⁽²⁾ .

إن ذاتية القارئ تتطلق بحرية تامة من تصور أولي ينقطع عن اللحظة الأولى للالتقاء بالنص أو تصور أولي يلزم فعالية التخيل ، لكنه يبقى تصوراً لا إدراكاً ، وهو ما يمنح الذات كل تلك الأبعاد اللامتناهية من الفعالية القرائية المعتمدة على الذات والمنطلقة منها بعيداً عن الموضوع .

(1) ينظر العلاقة بين القارئ والنص في التفكير الأدبي المعاصر ، رشيد بنحدو ، مجلة عالم الفكر ، مجلد : 23 ، العدد : 1-2 ، 1994 : 74 .

(2) ينظر نظرية التلقي والنقد الأدبي العربي الحديث : 24 .

• النموذج التفاعلي

يتأسس هذا النموذج على دحض موضوعية النص وذاتية القارئ المطلقتين ، إذ يعتمد على التفاعل بين النص كموضوع مدرك والقارئ كذات مدركة ، وهو ترجمة للعلاقة التفاعلية بين النص والمتلقي ، ويستند هذا النموذج على (نظرية التصميم)⁽¹⁾ وأهم مسلماتها ((أن الفهم يتأثر بالمعارف المتوافرة مسبقاً لدى القارئ ، وبسياق القراءة (الموقف) ، وبهدف القراءة [معرفة العالم ، وبنية الخطاب] ، وبنظام القراءة [معرفة النظام الكتابي ، والتركيب الدلالي]))⁽²⁾ .

هكذا يبرز النموذج الثالث بصفته مستوعباً لفعل قرائي أمثل يحوز إمكانية قرائية بعيدة عن التطرف لأحد طرفي إنتاج المعنى _ النص والقارئ _ إذ إن التأطر داخل أي من النموذجين السابقين لا يحقق للقراءة فعاليتها المرجوة ، ولا يحضر الموضوع الجمالي الغائب في النص والمعنى المؤجل فيه⁽³⁾ .

إن العلاقة التفاعلية المتحققة في هذا النموذج تكتسب مصداقيتها من جملة مقولات نظرية التلقي (كالإستراتيجيات النصية) التي تمنح افتراضات تحقق الرؤية الاتساقية مع معطيات النص⁽⁴⁾ ، و(وجهة النظر الجواله) التي تؤكد ضرورة الانفعال بين القارئ والنص عبر سيرورة القراءة والفعل الارتجاعي المتحقق دوماً من لحظة التحيين حتى إتمام إعادة إنتاج النص ، وهذا ما يوضح التفاعل بين الذات والموضوع ، ويؤكد التعالق الحاصل والمستديم بينهما .

(1) ينظر النظرية البنائية ، د . حسن الباتع عبد العاطي ، الشبكة العنكبوتية ،

<http://www.almarefh.org/news.php?action=show&id=766> .

(2) التلقي والتأويل : 54 .

(3) ينظر : المعنى الأدبي من الظاهراتية إلى التفكيكية ، وليام راي ، ترجمة : يوثيل يوسف عزيز ، دار المأمون للترجمة والنشر ، 1987 : 28_29 .

(4) ينظر : نظريات التلقي ، فرانك شويروجر ، ضمن كتاب نظريات القراءة ، ترجمة : عبد الرحمن بوعلي ، دار نشر الجسور ، وجدة ، 1995 : 76 .

إن المسبقات التي تحملها الذات تؤثر في تلقي الموضوع وإدراكه ، وهذه المسبقات إنما تحصلت من الذات لا كعارض طارئ عليها ، وإنما بوصفها متحققاً مؤثراً في تكوين الذات كما أسلفنا في موضوع سابق ، وبناءً عليه فإن إدراك الموضوع منفعل بإدراكات سابقة لمواضيع شتى كوّنت الذات على نحو معين ، ومما تقدم يتبين مدى التعالق بين النص والقارئ ضمن علاقة الوعي والإدراك والتحقق .

إننا هنا أمام دور فاعل للذات المدركة والمحققة لوجود النص ، النص الذي يكتنز صوراً لا نهائية لتحقيقه عبر الذات المتلقية والمؤولة ، والتي تتم إدراكه عبر مراحل متلاحقة ، إذ لا يتحقق ذلك في تمثالاته الجزئية وتمظهراته في كل لحظة التقاء مع النص ، بل عبر علاقة تواصلية مع تركيبات النص المتتالية والموازية والمترابطة مع فعاليات القارئ المتتالية⁽¹⁾ ، ما يمنح القارئ والنص أدوارهما على حد سواء في عملية القراءة .

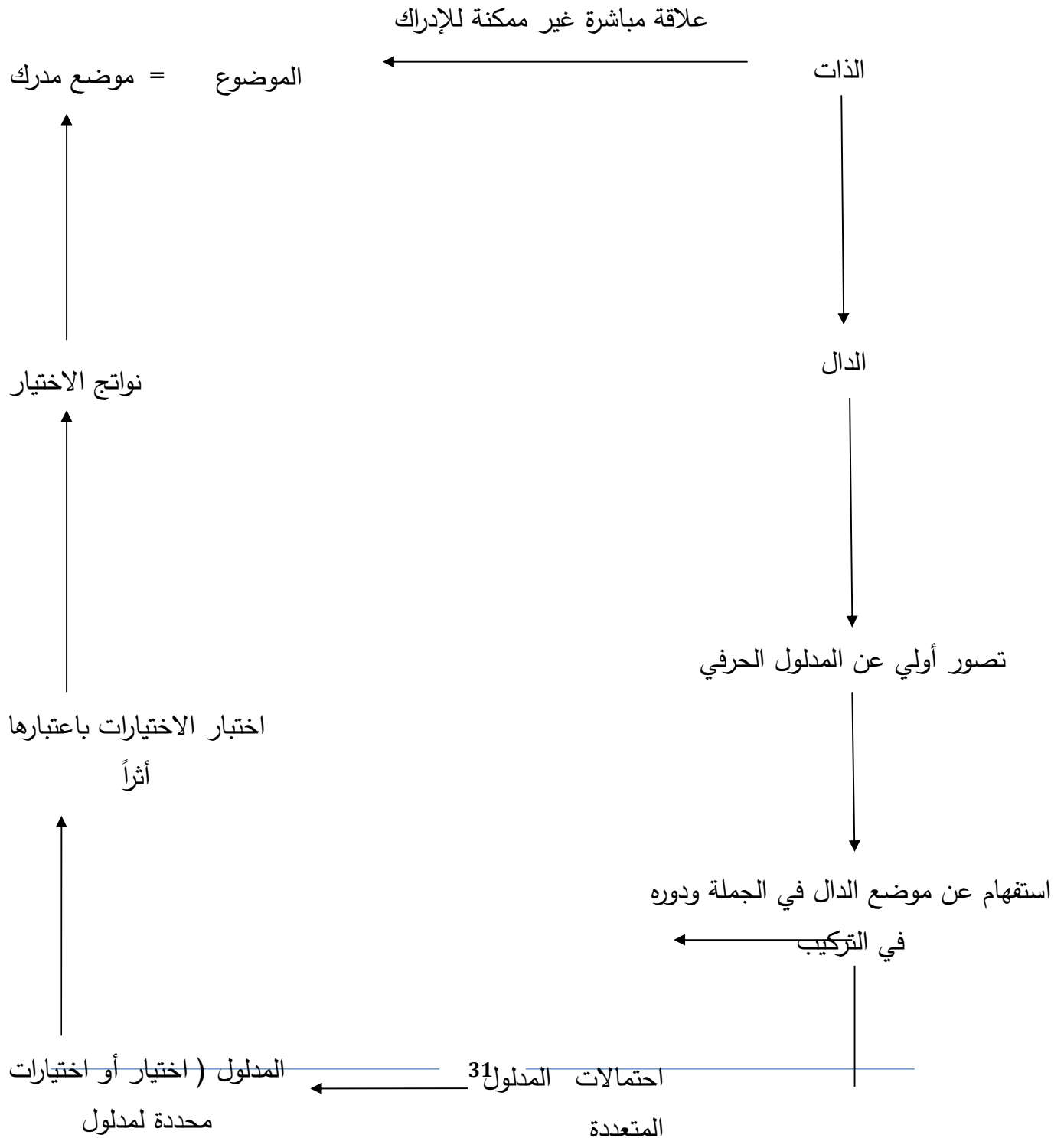
ويمكننا مداخله ما نحن بصدد ، عبر فرضية مؤسسة على ثنائية الدال / المدلول ، ذلك أن الذات لا تحقق إدراكها للموضوع بالقفز عليه ، فالقارئ يلتقي بالنص لأول وهلة عبر الدال ويتساءل عن مدلوله الحرفي قبل أن ينتقل للتساؤل عن موضعه ودوره في تركيب الجملة المعرفية بكونها وحدة من وحدات النص ، ويعد هذا الالتقاء إلتقاءً عند مستوى واحد من مستويات النص ، لينتقل بعدها القارئ لعدد من احتمالات الدال متعلقاً بمدلول متعدد تتفتح على وفق تجربة القارئ السابقة على التقائه بالنص ، لتقوده لعملية اختبارية لنواتج الافتراضات (المداليل) والتي يتم بعدها اختباراً معيناً على وفق تراكيبية النص واشتراطاته التي دائماً ما يرجع إليها بعد انتهاء كل مرحلة من مراحل القراءة .

إن نتيجة هذا الاشتغال القرائي تقوده لمدلول يتم اختباره على وفق ما تقدم ليتعرض بدوره الاختبار بوصفه أثراً يدخل في اختيار الذات على وفق تمثيلها الآني لكلية النص ، وهذا الأثر لا يمكن عدّه موضوعاً مدركاً ، إنما ناتج هذه العملية هو ما يعد ذلك

(1) مفاهيم هيكلية في نظرية التلقي ، د . محمد إقبال عروي ، مجلة عالم الفكر ، المجلد : 37 ، 2009 : 63 .

الموضوع الذي تم إدراكه من قبل الذات ، وهو النص الذي تمكن القارئ من خلال هذه العملية من إدراكه ، على أن الإدراك يبقى موصوفاً بكونه فعالية لا متناهية .
هذا ما يوضح لنا طبيعة إدراك القارئ للنص على وفق النموذج التفاعلي والفعالية القرائية التي تتم على وفقه لتحقيق وجود النص والقارئ .

خطاظة إدراك الذات للموضوع وفق النموذج التفاعلي وعبر ثنائية الدال / المدلول



إن حقيقة التحول النقدي ضمن ما قدمناه سلفاً تكمن في استرسال آليات الناقد من دون وعي في استلاب أحد طرفي العملية الإبداعية بعد إنجاز النص من مؤلفه ، وهو ما يقدم نموذجاً تطبيقياً لانحراف معرفي ضمن المنهج والنظرية ، وإعطاء القراءة النقدية سمة الرجوح من دون توفرها ، وهذا ما سنقف عليه في بعض اشتغالات الناقد (الغذامي) .

شكل النص النقدي السابق على الإشتغالات النقدية المعاصرة جدلية بين الرفض والقبول وهو ضمن هذه العلاقة _ الرفض والقبول _ يرفد المدونة النقدية بسبب مهم من أسباب ديمومتها ، شريطة أن تكون هذه العلاقة مؤسسة على محاورة المقولات النقدية السابقة وهو ما يوفر لها غطاءها المعرفي ، غير أن قبول المقولات النقدية السابقة على أنها من المسلمات دونما تمعن يؤشر تمكّن نموذج موضوعية النص من الفعالية القرائية ، وهذا ما نجده واضحاً في اشتغال (الغذامي) عند كشفه عن الأنساق ، فهو يورد رأي (الجاحظ) في البداهة وكونها متعلقة باللفظ بقوله : ((لأن المعنى يحتاج إلى التفكير والتدبر ، بينما اللفظ مقوم بديهي))⁽¹⁾ ، وكلامه صحيح ، لولا علاقته بالبداهة ، إذ نجده يربط بين البداهة واللفظ بوصف الأولى قائمة على الثاني ، وهذا ما يحتاج إلى شيء من المناقشة ، فمن الواضح أن البداهة تتعلق بإمكان إيراد المعنى بلفظ من دون الحاجة إلى إطالة التفكير ، فهي _ البداهة _ لا تعني إطلاقاً إيراد اللفظ دون المعنى الجامع .

إن ما يبرز في قراءة (الغذامي) لنص (الجاحظ) النقدي هو نموذج موضوعية النص ، فنص (الجاحظ) سيطر على العملية القرائية دون استدعاء اشتغال قرائي تفاعلي ، معطلاً بذلك ذاتية القارئ ، والمؤدى هو قبول النص طرفاً وحيداً في القراءة والاكتفاء بالنص اشتراطاً أوحداً للقراءة .

(1) النقد الثقافي ، قراءة في الأنساق الثقافية العربية ، عبد الله الغذامي ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ،

بينما نجد نموذج ذاتية القارئ حاضراً وبقوة في تأكيد (الغذامي) على معرفة (السياق) و (الجنس الأدبي) للنص ، إذ يقدم مثلاً من قول أبي تمام :

لا تتكري عطل الكريم من الغنى فالسيل حرب للمكان العالي⁽¹⁾

إذ يرى أننا لو عزلنا الشطر الثاني وأوردناه ((في خطاب عادي ، قاصدين بذلك أن السيل لا يحتبس في المرتفعات ، فإن قولنا هذا قول عادي لا يقيم في النفس أثراً جمالياً))⁽²⁾ ، بخلاف ما لو ورد في البيت الشعري أعلاه .

وبالطبع فإن التأكيد على السياق عموماً والجنس الأدبي خصوصاً لا خلاف فيه ، غير أن ذاتية القارئ تبرز في قوله لا يقيم في النفس أثراً جمالياً ، وهنا لا بد من الوقوف لإثبات إقصاء (النص) وحضور القارئ فقط ، إذ إن ما يؤسس النص في داخله هو الجانب التركيبي المرتكز بالضرورة على جملة المكونة له ، بوصف الجملة وحدة مكثفة بذاتها لتشكل دلالي ما ، وما يتعلق بحضور القارئ الواعي الذي يتلقى النص بعد انقطاعه عن مؤلفه ، وهنا يتضح أن الشطر الثاني جملة مكثفة بذاتها ؛ لأنها تشمل على الدلالة الضمنية التي تؤثر جمالياً في المتلقي .

كما أن الجنس الأدبي وحده لا يقرر أهلية النص وما إذا كان ضمن إشتراطات الأدبية ، ولا أدل عليه من النظم الذي لا يحمل سوى الدلالة الصريحة دونما الدلالة الضمنية .

(1) شرح ديوان الحماسة ، أبو علي أحمد بن محمد بن الحسن المرزوقي ، تحقيق : أحمد أمين وعبد السلام هارون ، دار الجيل ، ط 1 ، 1991 : 745 .

(2) الخطيئة والتكفير من البنيوية إلى التشريحية ، قراءة نقدية لنموذج معاصر ، د. عبد الله محمد الغذامي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ط/ 4 ، 1998 : 13 .

ويتضح الأمر بشكل أكثر جلاءً بقول (الغذامي) قاصدين بذلك ، وبالطبع فنحن خارج القصديّة هنا ، واشتراطها يسلب القول الشعري صفته وميزته ، إذ يقيدّه بالدلالة الأحادية التي تتوافر في اللغة العملية لا اللغة الشعرية بالتأكيد .

هكذا تبرز القراءة حسب هذا النموذج غير قادرة على سبر أعماق النص والوقوف على سر فاعليته ليقرر المتلقي هنا حكمه المسبق على الجملة الشعرية في الشطر الثاني وتتنظم على وفقه علاقة غير دقيقة بين (الجنس الأدبي) و (الجملة الشعرية) بوصفها تنطوي على صفة الشاعرية ، وما أن يعود الاستيعاب القرائي لنموذجه التفاعلي حتى يصرح (الغذامي) ناقضاً رأيه ، ومؤكداً على صفة الشاعرية التي يرى أنها أبرز سمات النص الأدبي وأخطرها وأنها قد توجد في ((نصوص لم يقصد منشؤها أن تكون أدباً))⁽¹⁾ ، وبغض النظر عن القصديّة فالمؤكد أن هذه النصوص التي تتوافر على الشاعرية تعد أدباً وتدخل ضمن الاشتغال النقدي ، إذ إن تحققها لا ينبعث من قصد المؤلف بل من (الإستراتيجية النصية) بحسب (إيكو)⁽²⁾ .

إن تحقق النص بمعنى وجوده يقتضي تلك العلاقة التفاعلية بين النص والقارئ والتي لا يمكن القول باحتمالها إلا بـ ((الملاءمة بين حدي المعطى [في النص] والمحتمل [عبر القراءة]))⁽³⁾ وبخلافه فلا وجود لنص ما .

وعلى وفق المعطى والمحتمل يستلزم أن يكون النص متوافراً على معطيات تتيح للقراءة اشتراطها الثاني ، ومع عدمه لا يمكن القول بوجود نص ما ، وأمام تجاوز العلاقة المفترضة بين المعطى والمحتمل يبرز الاستيعاب القرائي ضمن نموذج ذاتية القارئ ، وهذا ما نشهده بوضوح في تناول (الغذامي) لقصيدة (حمزة شحاتة) : (ماذا تقول

(1) الخطيئة والتكفير : 24 .

(2) ينظر: وحدة النص وتعدد القراءات التأويلية في النقد العربي المعاصر ، د. إيمان عيسى الناصر، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ط 1/ ، 2011 : 88.

(3) وحدة النص وتعدد القراءات التأويلية في النقد العربي المعاصر : 57 .

شجرة لأختيها) ، حيث يرى أن هذا العنوان شاعري ورائع⁽¹⁾ ، وأن القصيدة لم ترق لمستوى هذا العنوان .

غير أن ما يظهر جلياً هو أن العنوان لا يتوافر على معطى يمنحه تلك الصفات من الشاعرية والروعة ، إذ لا يبدو فيه سوى عنونة اعتيادية ، ولعل ذاتية القارئ لم تقف عند هذا الحد ، بل تجاوزت لما هو خارج الاشتغال النقدي من تقديم مبررات للمؤلف بوصف القصيدة كبوة جواد⁽²⁾ ، ((يشفع لشحاتة أنه لم ينشرها بل نشرها مقربون))⁽³⁾ ، إذ تستفحل ذاتية القارئ بنموذجها الاستيعابي لتخرج عن النص إلى ما هو خارجه ، ولتباشر طرح ارتسام أولي للمؤلف ، إننا هنا أمام (لا معطى) داخل النص ، ابتداءً من العنوان ، ومعه فإن شرط تحقق النص الأول معدوم ، وعليه لا يمكن الإشارة إليه داخل الورشة النقدية .

ولأن النسق الثقافي يُكشف من خلال النصوص الأدبية _ كما هو الحال في اشتغال (الغذامي) ضمن النقد الثقافي _ يصبح النسق ناتجاً عن فعل القراءة ومؤسساً على مدى فاعلية هذا الفعل .

وتبرز أيضاً نماذج الاستيعاب القرائي واضحة وجلية في الاشتغال النقدي ، ومرة أخرى نحن إزاء نموذج ذاتية القارئ متمثلة بقول (الغذامي) : ((واللغة عند العرب عامل جمع وتوحيد أكثر من العرق))⁽⁴⁾ ، والبحث يشكك بهذه النتيجة التي خلص إليها (الغذامي) مستنداً إلى الممارسات التي تتعزز على العرق أساساً للتفريق ، كما حدث مع الشعراء المولدين مع ما كانوا يتمتعون به من منزلة ، وأي منزلة ترى أرفع من منزلة الشاعر؟ ، والنصوص الشعرية في تراشق الهجاء على أساس عرقي تطفح بها كتب الأدب والتراث .

(1) ينظر: الخطيئة والتكفير : 108 .

(2) ينظر : المكان نفسه .

(3) المكان نفسه .

(4) القبيلة والقبائلية أو هويات ما بعد الحداثة ، عبد الله محمد الغذامي ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ،

المغرب ، ط 2/ ، 2009 : 62 .

هذا ما يدل على ذاتية القارئ في تعامله مع النصوص بوصفها حاملة للأنساق ،
فإدراك النص لا يتم إلا من خلال (كلية النص) وأمام كشف الأنساق لأبد من معالجة
النصوص الأدبية بوصفها التكاملية ليتم كشف الأنساق ، أما الاقتصار على نصوص
معينة وادعاء الأنساق من خلالها فلا يتم إلا بمؤازرة ذاتية مفرطة بجانب النص وتدعي
ما تشاء بعيداً عنه .

بل إن ذاتية القارئ قد تتطرف أكثر من هذا الحد ، فلا تقف عند إملاءاتها على
النص وإنما تخرج عن النص لتؤسس قطيعة معه وتدلف لفعل القراءة بمفردها وبمطلق
الحرية ، الحرية المنفلتة القارئة والمؤولة خارج حقل الإيحاء ، وإن كانت القراءة بوصفها
ممارسة تفاعلية بين النص والقارئ لا تتم بمعزل عن إدراك الذات القارئة لكلية النص ،
فإنها بخروجها عن النص تجهض فاعلية القراءة وتغذي قراءة ذوقية بمفهومها الأحادي ،
وإن كان ((لا شيء خارج النص))⁽¹⁾ حسب (جاك دريدا) ، فإن خروج (الغذامي)
عن نصوص (حمزة شحاتة) وولوجه لسيرته الذاتية تحت عنوان أحداث لها علاقة
بالنموذج⁽²⁾ يعد خروجاً على المنهج أولاً وخروجاً على الاشتغال النقدي عموماً ، لاسيما
وأنه مقيد بالتشريحية _ كما يسميها _ وهنا ذاتية القارئ تستقصي أبعد مرامي التطرف
إزاء النص بإقصائه واستبداله بالمؤلف الذي سبق (للغذامي) أن أعلن قطيعته عن
نصه⁽³⁾

(1) في النقد الثقافي ، محمد حسين الناغي ، الشبكة العنكبوتية : <http://majles.alukah.net/showthread.php> ، بتاريخ 2012/1/4 .

(2) ينظر: الخطيئة والتكفير : 143 .

(3) ينظر : م . ن : 150 .

أين تقع القراءة ؟ وما هو الفضاء الضام للقراءة بوصفها فعلاً مؤثراً وتأثيراً ؟ وهل يفني النص الذي يباشره القارئ بفعالية القراءة بكونه حقلاً تاماً لفعل القراءة ؟

إن النص بمستوياته وعلاقاته يمثل قاعدة متشعبة ومعقدة تنفلت من توحيد المعنى ويسيطر على أفق لا متناهٍ من احتمالات إنتاج المعنى ، وإعادة تكرار العمل الأدبي بوصفه مادة قابلة لإعادة الإنتاج⁽¹⁾ ، ولكن هذا الانفلات الدلالي والقابلية المطاوعة للنص تقف عند إشكالية (الموضوعية) ، إذ لو قلنا بكفاية النص في العملية القرائية بوصفه الحقل الأوحد لوقوع هذه الفعالية فإن موضوعية النص تنصدر احتمالات الدلالة ، ويتضح الأمر بشكل جلي حين يبرز النص جموحاً غير قابل للانقياد ، وتتعالى موضوعيته لتؤسس لانمحاء ذاتية القارئ ، وهنا تصبح القراءة فعلاً استهلاكياً⁽²⁾ .

ومع التساؤل عن دور القارئ فإنه لا معنى لدور مفترض إذا كان النص هو الفضاء الأوحد لتحرك القراءة ، إذ إن النص بمستوياته وعلاقاته يسيطر على المشهد القرائي ، وكل ما يتوهم بأنه اشتغال قائم من جانب الذات فالحق أنه عملية استهلاك للمعنى ، إذ إن الاستهلاك فعل ذاتي ، وهنا يكمن الفارق في البحث عن دور ذاتي بين الاستهلاك والقراءة .

إذن لا بد من الإغراق في التعرف على المرتكزات التي تؤهل القارئ لفعل أكثر ذاتية مما بدا آنفاً ، وبعبارة أخرى فإننا نتساءل عن المرتكزات التي يتعكز عليها القارئ ، وتساؤلنا هذا لا يعني أننا نبحت عن الدلالة خارج النص بل إننا نحاول أن نتبين الفارق بين وهم الذاتية وحقيقتها ، والدور الذي تباشره في عملية القراءة التي تقع حتماً لإنتاج النص مرة أخرى .

(1) ينظر : لذة النص ، رولان بارت ، ترجمة : فؤاد صفا والحسين سبحان ، دار توبقال للنشر ، الدار البيضاء ، ط 1/ ، 1988 : 35 .

(2) ينظر : النص المتعدد ولا نهائية الدلالة ، عبد القادر فيدوح ، مجلة ثقافات ، العدد 18 : 27 .

إن القارئ بوصفه ذاتاً تسعى لإدراك موضوع ما تحفز إمكاناتها لإدراك ذلك الموضوع ، وهي في تلك العملية تستند قطعاً إلى إمكانات كامنة في الذات سابقة لوجود النص ، وتداخل النص لتتحرك فيه كعالم مأهول بها⁽¹⁾ ، لأننا لا نستطيع الافتراض بأن النص يكسب الذات إمكاناتها بالمعنى الكلي ، بل إن الأمر يبدو في إدراك الذات لما يمكنها اختياره من تلك الإمكانيات للتوافق مع النص بالمعنى الذي يجعلها تتفاعل معه مدركة نقاط الاتفاق والاختلاف معه ، فالذات تتوافر فعلاً على إمكانات سابقة لوجود النص ، وتعتمد في اختيار احتمالاتها على وفق النص ، بما يوفره من خلال علاقاته التي تميزه عن بقية النصوص ، تلك الإمكانيات التي تحدد طبيعة الذات قبل ولوج النص ، حتى إذا ما تحقق لها معاشية النص ومداخلته بدأت عملية إعادة بناء الذات ، لذا فهي - الذات - تخرج من ملاحقة النص متغيرة عما كانت عليه قبلاً⁽²⁾ .

إن طبيعة الثقافة تشكل علامة مميزة لتشكل الإمكانيات الذاتية ، إذ إن الجانب السسيوثقافي يشكل الملمح الأبرز في ترسيمة الذات ، وهذا ما ينتج خصوصية الذات بوصفها عضواً في جماعة ما⁽³⁾ ، كما أن ذاتاً ما تختلف عن الأخرى في الثقافة نفسها ، وهذا ما يؤشر للتجربة الفردية دورها في تلميح المشهد الفسيفسائي المعقد للشخصية ، فتجربة الذات الفردية ومؤهلاتها المكتسبة من القراءات السابقة تحدد إلى حد بعيد إمكاناتها ، ولعل هذين الحدين يكفيان لتصور تحقق الإمكانيات السابقة لوجود النص ، بل إننا قد نكون أكثر دقة إذا ما قلنا أن وجود النص بوصفه موضوعاً مدركاً من الذات يتحقق شكلاً وكيفية بتلك الإمكانيات التي تتوافر عليها الذات ، وهذا ما يجعل التلقي يختلف بين شخص وآخر ، إذ إن الذات على وفق ما سلف تدرك من علاقات النص ما

(1) ينظر : نظرية النص من بنية المعنى إلى سيميائية الدال : 17 .

(2) ينظر : من قراءة النشأة إلى قراءة التقبل : 15 .

(3) ينظر : حوار مع جاك لينهاردت حول محاور سوسيولوجيا الأدب ، الثقافة ، التلقي ، مجلة الفكر العربي المعاصر

، العدد : 13 ، سنة 1981 : 147 .

لا تتركه الأخرى مع أن النص واحد . هنا نتلمس الذاتية بوضوح ونجد لها دوراً فاعلاً موازياً للنص وشروطه التي يفرضها لتلقيه دونما علاقة أحادية في عملية التلقي تلك ، وهنا تميز نظرية التلقي بين النص الذي يلجه القارئ ، وبين نص القارئ ، وهو ما أوضحناه آنفاً ، وبمعنى آخر ، النصوص السابقة التي أدركتها الذات في عمليات قراءة سابقة لقراءة النص الذي بين أيدينا تَوْأ .

إن مفهوم النص ومفهوم نص القارئ يؤسسان بالضرورة لعلاقة تبادلية بين النص والقارئ ، يتبادل فيه الأدوار كل من النص والقارئ لتحقيق فعل القراءة ، والنظر للقراءة بسمية تفاعلية وتبادلية الأدوار تحقق تصوراً لتلك العلاقة⁽¹⁾ ، ذلك أن النص لا يمنح وجوده إلا بالقراءة ، كما أن الذات القارئة لا تتحقق إلا بوجود النص ، فهي إذن علاقة تحقق ووجود ، وما دامت تلك العلاقة هي الفاعل في إيجاد طرفي القراءة ، وما دامت القراءة لا تتحقق إلا بوجودهما فإن (العلاقة بين النص والقارئ) تمثل الحقل الثالث للقراءة ، فبين النص والقارئ تلك العلاقة فاعلة ومنفعلة بهما⁽²⁾ .

وتتحدد تلك العلاقة على وفق منظور إيجابي يمنح الذات والموضوع حقوقهما ، إنها تلك العلاقة المعقدة التي ترسم طبيعة السيرورة القرائية وتوافق بين الذاتية والموضوعية ، وتمنح إمكانية تلقي ينسجم أكبر قدر مع طبيعة الممكن النصي والمتاح الذاتي ويقصي اعتبارية التأويل وتقويل النص .

إن النظر إلى النص ونص القارئ دون تلك العلاقة يمنحنا مفهومين مجردين من خصيصتهما الإجرائية ، إذ تتعطل فاعليتهما وإمكان تحققهما دونها ، ولذلك فقد قرّر في

(1) ينظر : نظرية اللغة الأدبية ، خوسيه ماريّا بوثوليو إيفانوكس ، ترجمة : حامد أبو أحمد ، دار غريب ، 1992 : 132 .

(2) ينظر : التلقي والتأويل : 54 - 57 .

نظرية التلقي أن القراءة تتحرك في حقولها الثلاثة : (النص ، نص القارئ ، العلاقة بين النص والقارئ)⁽¹⁾

• النص

إذا كانت القراءة إحضاراً للغائب وكشفاً للمضمّر، فإن ما يعيننا هو ما يكتنزه النص بوصفه مجموعة دوال من دلالات معبر عنها بعلاقاته الداخلية ، وما يتميز به من دينامية تسبغ على أمدائه لا نهائية القراءة .

ومعه فإن النص - كمجموعة علاقات تتربط بشكل ما على وفق انتظام معين - يفرض شروط تلقيه مسبقاً على القارئ الذي يصادف للوهلة الأولى السياق بمعنى (الجنس الأدبي) ليقر في ذهنه اشتراطات الجنس الأدبي كسياق أولي للتلقي ، ويحدد ما يمكن الانطلاق منه لقراءته ، كنقاط الشك ونقاط اليقين⁽²⁾ ، ففي حين تخوّل نقاط اليقين اعتمادها كممنطلقات للقراءة والتأويل بفضل سمة الوضوح لتشكل عناصر منضبطة وضابطة إلى حد ما في حركية القراءة والتأويل تتمثل في (الجنس الأدبي) و (العنونة الرئيسية) و (العناوين الفرعية) و (متواليات الوحدات السيميائية) و (الوحدات النصية الأكثر اتساعاً) ، توفر نقاط الشك مادة إثرائية للاحتمالات المتعارضة التي نتجت لاحقاً عن سمة الغموض التي تبرز فيها⁽³⁾ ما يستدعي على الدوام تدخلاً قرائياً مانحاً ومقصياً ، في تداخل متشعب .

هذه الصفة النصية تمنح مفهوم (البياضات) أو (الفراغات) شرعيتها ، ليتدخل القارئ بفعالية تواصلية لملئها مرتكزاً على الجانب الوظيفي لهذا الفعل ، والنص في جانبه

(1) المكان نفسه .

(2) ينظر : سيميائية القراءة (مقال) ، ميشيل أوتان ، ترجمة : محمد خير البقاعي ، مجلة البحرين الثقافية ، العدد : 6 ، 1995 : 6 .

(3) ينظر : المكان نفسه .

التركيبى يزداد تعقيداً على وفق زيادة (البياضات) فيه ، والمهمة الوظيفية لهذه البياضات تبرز إزاء عملية التشكل الدلالي لدى القارئ⁽¹⁾ .

ويأتي مفهوم (الواجهة الأمامية والواجهة الخلفية) كجزء فاعل في التشكيلات النصية ، فالنص يضم عناصر جزئية تقع ضمن دائرة القراءة ، ويتم انتقاؤها ، وهي بذلك تثير تساؤلاً عن نسقها المرجعي ، والنص باحتوائه عليها يمثل الواجهة الأمامية لها في حين يمثل نسقها المرجعي الواجهة الخلفية ، وهذه العناصر تفقد دلالتها المرجعية لتشكل دلالة جديدة محايثة للنص ، وعلى الرغم من ذلك فهي تمنح القارئ بعداً مرجعياً يؤسس لتشكيل دلالتها في الواجهة الأمامية بشكل أو بآخر⁽²⁾ .

كل تلك الخصوصيات النصية توضح فاعلية النص كطرف من أطراف عملية القراءة ، كما يتم الكشف عن شروط النص التي يفرضها على التلقي والتأويل ، ومعه فلا بد من حضور كل علاقات النص واشتراطاته ضمن فعالية القراءة ، لا أقل من كونها تحدد ملامح الفعل التخيلي لدى القارئ .

إن مقولة ((النص يجترح قراءته))⁽³⁾ تؤكد اشتراطات النص المتوافرة في بنيته الداخلية ، وتشير إلى حقيقة أن النص لا يفرض منهجاً معيناً لقراءته ، وإنما يفرض أشكالاً متعددة ولا نهائية لهذه القراءة ، لكنها تختلف بمغايرة واضحة عن أشكال قراءة يمنحها نص آخر ، وهنا نقف عند حد فاصل ، هو كون النص نصاً حتى تتم قراءته .

إن فرض منهج معين لقراءة أثر انكتابي ما على أنه نص مع كونه خارجاً عن الإشتراطات النصية ، يعد تحولاً يمكن مقاربتة بكونه مخاتلة نقدية .

(1) ينظر : من فلسفات التأويل إلى نظريات القراءة : 225 - 226 .

(2) ينظر : من فلسفات التأويل إلى نظريات القراءة : 229 - 230 .

(3) النص العمودي في مواجهة الآخر ، قراءة في نص (ارتسامات لغيمة عابرة) ، سراج محمد ، صحيفة الأحرار ، الجزائر ، العدد : 1024 ، 2010 .

حيث يشرع (الغدامي) في قراءته لأدب (شحاتة) في كتابه (الخطيئة والتكفير) منطلقاً من التفكيكية ، وبالخصوص تفكيكية (رولان بارت) ، التي يطلق عليها بـ (التشريرية) ، ويمارس المنهج على (أدب شحاتة) ليفككه بهدف إعادة بنائه ليرسم صورة عن أدبه .

إن الإجراء في اشتغال (الغدامي) على وفق المنهج لا يشكل سبباً لمعارضته ومخالفته ، ولكن المفارقة تتضح في ما ورأية الإجراء ، كيف يتم تعامل الناقد مع التجربة الأدبية لمبدع ما ؟ ، إن اجترح منهج ما لا يعفي الناقد من التساؤل عن النتيجة بوصفها صورة كلية تتقدم كواجهة أمامية لتقارن بالواجهة الخلفية التي تكون مجموع التجربة الإبداعية ، ويتضح الأمر في كون اشتغال (الغدامي) كما يفصله⁽¹⁾ يركز على اختيارات معينة من أدب (شحاتة) ، والنقطة المحورية في هذه الاختيارات تعتمد على عنصر (الشاعرية) التي تتوافر في الجمل المكتفية بذاتها والمعبر عنها بـ (الصوتيات) ، والتي تشكل أجزاء العمل الأدبي الواحد ، ولكن تكمن المخاتلة النقدية في أن (الغدامي) يفكك النصوص ، كل نص على حدة ليختار (صوتيات) معينة من كل نص ، ثم يقوم بجمعها لقراءة مجموع العمل الأدبي له .

وإذا كان الإجراء لا تشوبه شائبة من زاوية المنهج ، فإن لنا أن نتساءل عن القيمة النقدية لو أن هذا الإجراء يُستقدم لقراءة (نصوص) لا تتوافر على شروط الأدبية ؟ .

إن عملية إنتاج النص ليست سابقة على الإبداع⁽²⁾ ، بمعنى أن الاجترحات النقدية تمارس حركيتها ضمن النصوص الإبداعية فقط ، دون أن تشرعن النصوص التي لا تنسم بالصفة الإبداعية لتضفي عليها قسراً تلك الصفة ، وأمام هذه الحقيقة نتفاجأ بما يسميه (

(1) يفصل (الغدامي) اشتغاله النقدي ضمن الفصل الأول من كتابه الخطيئة والتكفير .

(2) ينظر : الشعر والتلقي ، دراسات نقدية ، علي جعفر العلاق ، دار الشروق للنشر والتوزيع ، عمان ، الأردن ، ط

1 / 1997 : 173 .

الغذامي (النصوص الشحاتية ، إذ إن الارتسام الأولي لا يشير إلى كونها نصوصاً ، حيث تكتنفها التقريرية والنظمية ، وجاهداً يحاول (الغذامي) بأدواته التشريرية أن يجد صوتيماته لتشكيل نموذج .

إن النص يتضمن مفهوم (الكلية) ، وبإدئ ذي بدء ، فإننا نجد أنفسنا للوهلة الأولى أمام كائن يدعى النص ، نقف لنرهن تأثرنا الأولي بقدر ما يستوعبه النص من اشتراطاته الإبداعية ، إذ يبدو أن التساؤل عن الجنس الأدبي يحضر من أول التقاء بين النص والقارئ⁽¹⁾ ، وما تمثله (الغذامي) من (النصوص الشحاتية) فيما يخص الشعر تدخل ضمن الجنس الشعري بوصفها الشكلي ، غير أن التساؤل الثاني ينطلق من صفات النص المتداخلة الأخرى التي تمكن الناقد من التمييز بين ما هو شعر وما هو نظم ، وعند ذاك تتحدد نقطة الشروع في القراءة النقدية من عدمها ، إذ لا يبرر المنهج - أي منهج - قراءة نقدية لعمل ما إذا كان خلواً من صفة الإبداعية أو لنقل (الشاعرية) ، وبشكل أوضح فإن النقد الأدبي (خارج ما تفرضه المؤسسة) يتناول ما هو إبداع فقط ، ولنا أن نتساءل عند ذاك عن تلك الآلية المعقدة التي تمنح النص صفة الإبداعية وتسلبها منه ، والإجابة مرتبهة بالنص والقارئ معاً ، وعلى امتداد الفعل القرائي منذ اللحظة الأولى لالتقاء القارئ بالنص حتى انتهاء عملية إنتاج النص مرة أخرى .

وعلى وفق ما قدمناه من اشتراطات للنص نجد أغلب النصوص الشعرية لـ (حمزة شحاتة) موصوفة بأنها داخل الجنس الأدبي خارج إلزامات المباشرة الإبداعية ، إذ تخلو من (البياضات) التي تقحم القارئ في ملء تواصله ، وتمحور مواضع اليقين دونما توافر لمواضع شك تمكن من ولوج الفعل التأويلي للنص ، مما يفقد النص ديناميته ويسلب الفعل التخيلي للقارئ .

(1) ينظر : العلاماتية وعلم النص ، إعداد وترجمة : منذر عياشي ، المركز الثقافي ، الدار البيضاء ،

المغرب ، ط 1/ ، 2004 : 134.

وتكمن خطورة مثل هذا التحول التطبيقي في أننا بإزاء التأسيس لعمل ما بوصفه إبداعياً متجاوزين للنص بما يفرضه على العملية القرائية ، ومع مثل هذه الاشتغالات يمكن لأي ناقد أن يتناول مجموعة مما توصف تجوراً بأنها نصوص ليفككها بهدف بناء نموذج أو تصور نقدي عن أحد ما ، فالنص النظمي قد لا يخلو من جملة تكتسب الدلالة الضمنية ، ولكن هل يعني ذلك أننا بإزاء نص بمفهوم الأدبية ؟! .

ونحن نعلم بأن التفكيكية كما هي بعض المناهج والنظريات النقدية ، إنما تتكلم على النص الإبداعي ، فالنص هو شرط الاشتغال النقدي ، ومعه يرى البحث أن اقتطاع (صوتيمات) ما من مجموعة نصوص وبناء نموذج على وفقها لا يكتسب الإجرائية النقدية إلا إذا كانت هذه (الصوتيمات) كامنة في نصوص إبداعية .

هذا ما يبدو واضحاً عندما يقرر (الغدامي) ما يمثل أدب (شحاتة) مما لا يمثله ، إذ يقول في كتابه (الخطيئة والتكفير) عن بعض قصائد (شحاتة) التقريرية كما يصفها : ((وهي تمثل وثائق تاريخية عن حياة حمزة شحاتة الشخصية ولكنها لا تمثل أدب شحاتة بأي حال))⁽¹⁾ ، بل يخرج (الغدامي) هنا عن اشتغاله النقدي ليؤكد إغراقه خارج النص ، فيقول : ((وتشفع لحمزة في ذلك أنه لم يرد نشر هذا النظم قط))⁽²⁾ ، بهذه الذريعة يخرج (الغدامي) من اجتراحه التفكيكي ليعتمد قصائد أخرى هي في حقيقتها ليست بأوفر حظ من هذه ، لصناعة نموذج الخطيئة / التكفير الذي يركز كما أشرنا إلى مكتوب لا نص ، كما أننا أمام اشتغال مقص للنص حتى مع القول تجوراً بخصوصية النماذج التي اختارها (الغدامي) ، إذ دائماً ما يفضي (الغدامي) للسيرة الذاتية لـ (شحاتة) لدعم النموذج ، فنراه يقول : ((وهكذا كان شحاتة فهو يحذر نفسه بادئ ذي بدء

(1) الخطيئة والتكفير : 109 .

(2) الخطيئة والتكفير : 108 .

من الارتباط بالمرأة ولكنه يقع في حبالها أخيراً ويرتبط بالمرأة ثلاث مرات متوالية ((⁽¹⁾) إننا هنا وبشكل فاضح خارج النص .

إن ما قدمناه من مخاتلة تظهر جلية في قول (الغدامي) عن القصائد ذات الطابع التقريري لشحاة ((وهي لو رويناها كلها لأفسدت في نفوسنا ذكرى شاعر نحاول أن نبنيها بناءً نقدياً إيجابياً وهذه القصائد لن تحقق هذا الهدف))⁽²⁾ ، هكذا يبدو لنا الهدف من الاشتغال النقدي للغدامي .

• نص القارئ

أين يمكن أن يلتقي القارئ بالنص ؟ مع كل ذلك العمق المتنامي للنص ، وكل تلك العقد التي تضم مجموعة من علاقات لا متناهية تقود نحو دلالات أكثر تشعباً وتوسعاً ، ولماذا يلتقي قارئ ما في نقطة معينة مع النص ويخالفه آخر في نقطة أخرى ؟ ومن ثم كيف يرسم للمتلقى خطاطة التأويل ؟ .

إذا كانت عملية إنتاج المعنى تتحرك بين الشعوري واللاشعوري في معادلة الإدراك الواعي ، فإن مفهوم (نص القارئ) ينتج عن التساؤل السابق ، ليؤيد فرضية التقاط العلاقات من عوامل التصدير في النص⁽³⁾ لتحقيق القراءة الفاعلة .

إن نص القارئ يمثل محاولة النص الولوج للواقع ، إذ إنه الفضاء الضام للنص والقارئ في علاقة تبادلية وتجاوزية ، وهو ((المنطقة المألوفة التي يلتقي فيها النص والقارئ من أجل الشروع في التواصل))⁽⁴⁾ ، ويمكننا القول بأنه يتكون من ((نصوص

(1) م . ن : 114 .

(2) م . ن : 108 .

(3) ينظر : النص والأسلوبية بين النظرية والتطبيق ، عدنان بن ذريل ، منشورات إتحاد الكتاب العرب ، 2000 : 28 .

(4) نظرية التلقي مقدمة نقدية ، روبرت هوليب ، ترجمة إسماعيل عز الدين : 208 .

سابقة ومعاصرة ، ومن رموز لا متناهية ، أصلها موجود أو مفقود ((⁽¹⁾) ومجموع هذه النصوص يمثل نقطة التقاء النص بالقارئ ، إذ يظهر أن ما يمكن إنجاز النص في علاقته مع الواقع هو تلك النصوص السابقة المشكلة للذات قبل التقائها بالموضوع الراهن - النص - وعليه فإن نص القارئ يوفر فضاءً ملائماً لتلقي النص عبر مقارنته بالنصوص السابقة والتعرف على مظاهر الخلاف والتوافق معها .

إن هذا المفهوم - نص القارئ - يتداخل مع مفاهيم أخرى في نظرية التلقي حيث يستضيف (أفق الانتظار) النصوص السابقة بوصفها تجربة قبلية سابقة للنص .

ومضافاً للنصوص السابقة فإن العوامل الاجتماعية والثقافية المؤثرة في النص تكون مشتركة مع النصوص السابقة في تشكيل نص القارئ ، إنه ما تخزنه التجربة القبلية وتعتبر عنه في الارتعاشات والاحتمالات المعقدة فعالية للتلقي ونتاجاً متأثراً به ، ويظهر إزاءه النص حاملاً للأنساق المضمرة نفسها ، غير أن النص يباشر عملية طمسها وتكويرها ، ليكون القارئ على موعد مع كشف المضمرة وإحضار الغائب ، وهذا لا يعني بالضرورة قطيعة بين النص والأنساق السابقة ، بل قد يعني علاقة إيجاب تعزز من حضور الأنساق السابقة في النص الراهن ، كما أن عناصر النص تنفتح على عوامل خارج النص لتشكل الأخيرة واجهتها الخلفية ، ولتضيء للقارئ نقاطاً معينة في النص مكونة أفقاً للالتقاء بينهما ، ويمكننا القول أن النص يفترض تساؤلات جديدة وإجابات عن أسئلة الأنساق السابقة للنص ، ومما تقدم تظهر وظيفة نص القارئ أنه : ((يعيد صياغة المخطط المألوف من أجل تشكيل خلفية لعملية الاتصال وهو يقدم إطاراً عاماً يمكن من خلاله تنظيم رسالة النص أو معناه))⁽²⁾ .

(1) التلقي والتأويل : 55 .

(2) نظرية التلقي ، مقدمة نقدية : 209 .

إن نص القارئ بجانبه الوظيفي يمكّن من فاعلية النص في طرح إجاباته وتساؤلاته وموقفه من الأنساق السابقة عبر احتمالاته المعلقة التي تحيل على الدوام إلى مرجعياته المعبر عنها بالواجهة الخلفية ، تلك الاحتمالات التي تحضر في وعي القارئ عبر (الفراغات) النصية لتقلق إدراك الذات وتحيلها لإطار ممكن من التصور المرجعي⁽¹⁾ ، وهذا لا يعني بالضرورة فعلاً متحيزاً ومحددًا لمرجعية بذاتها ، بل هو خارطة لأفق مرجعي يطرح النص اقتراحاته إزائه ويثري قراءات متعددة للنص باحتمالاته اللامتناهية .

إذا كان مفهوم (نص القارئ) يكتسب كل ذلك التعقيد ، فإنه ليس من اليسير بحال الوقوف على تشخيص مدى حضوره في عملية القراءة ، بسبب من تداخله مع النص والقارئ ، ويختص التعقيد في حركيته داخل فعل التلقي وعملية إنتاج المعنى وتحقيق النص لأفق الواقع ، إلا إن ما يذلل شيئاً من الصعوبة هو الوقوف على المكونات والعوامل الدافعة لفاعلية نص القارئ من خلال الممارسة النقدية الدالة على مديات الحضور والغياب لهذا المفهوم ضمن فعل التلقي ، وهذا ما سنباشره في قراءة الاشتغال النقدي للغدامي في هذا المبحث .

إن قيمة المكتنز من النصوص السابقة لدى القارئ تمثل الجانب الأول لاشتراط التقاء النص بنص القارئ⁽²⁾ ، والاشتراط الثاني هو تحقيق استدعاء أكبر قدر ممكن من تلك النصوص ، خلال عملية القراءة ، وهذا الاستدعاء يحدث بوصفه فعالية مستمرة ودائمة تباشرها الذات الواعية ، لكلتا صفتيها الشعورية واللاشعورية ، فالتجربة القبلية للقارئ والمحكومة إلى حد بعيد بما تختزنه ذاكرته من نصوص يحدث استدعاؤها مضافة

(1) ينظر : الوقع الجمالي وآليات إنتاج الوقع عند وولف غانغ إيزر ، عبد العزيز طليمات ، مجلة دراسات سيميائية أدبية لسانية ، العدد : 6 ، 1992 .

(2) ينظر : السيمياء والتأويل ، روبرت شولز ، ترجمة : سعيد الغانمي ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ط / 1 ، 1994 : 74 - 75 .

لالتقاطات القارئ الذكية هي أبرز ما يهب القراءة عنصر الصدمة التي تباغت القارئ الذي يباشر قراءته النص الثاني .

ومعه يمكن الوقوف على القراءات النقدية والكشف عن الجانبين معاً بدقة معتد بها معرفياً ، هذا ما يمكن تطبيقه على ما جاء في كتاب (الغدامي) ، النقد الثقافي ، قراءة في الأنساق الثقافية العربية ، حيث يقول : ((هناك قيمتان مركزيتان في النظام القبلي ، هما الكرم والشجاعة ، والكرم قيمة سلمية ، بينما الشجاعة قيمة حربية))⁽¹⁾ ، وهو استنتاج أنساقه يصرح به (الغدامي) مستنداً للتراث العربي المنقول بوسائل الاتصال المتعددة والتي من أهمها الشعر ، كما يبدو من اشتغال (الغدامي) في هذا الكتاب وكتب أخرى ، ونحن نقر بالطبع بأن هناك من الشعر العربي ما يدعم قول (الغدامي) ، ولكن لنتعرف كيف يمكن أن يكون المشهد القرائي مفتقراً لعناصر مهمة يمكن أن يشوه غيابها القراءة والتأويل بوصفهما إعادة إنتاج للنص .

إننا نفترض غياب نص سابق عن مسرح نص القارئ - الغدامي هنا- ويتمثل هذا النص السابق في قول الشاعر :

يجود بالنفس إن ضن الجواد بها والجود بالنفس أقصى غاية الجود⁽²⁾

إذ يظهر من البيت أن القتل الواقع على النفس يمثل قيمة عليا للكرم ، القتل تلك الدلالة الحربية الصريحة والواضحة ، ما ينقض استنتاج (الغدامي) أو يبعث افتراضاً شكياً يزحزح النتيجة ، خصوصاً مع معرفتنا بأن الثقافة العربية ثقافة مثالية تنتقي من القيم أعلاها وأرفعها ، أي أنها تعتد بالقيم بشكلها الأرفع لتؤسس عليها سلماً تفاضلياً كحافز

(1)النقد الثقافي ، قراءة في الأنساق الثقافية العربية ، عبد الله الغدامي ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، المغرب ، ط / 4 ، 2008 : 145 .

(2) شرح ديوان صريع الغواني ، مسلم بن الوليد الأنصاري ، تحقيق سامي الدهان ، دار المعارف ، القاهرة ، مصر ، ط 3 ، 1970 : 146 .

للتنافس ، فالكرم يتجسد بأعلى مستويات المنح والعطاء والإسراف في إقراء الضيف ليقول الشاعر بعدها قولته التي تضمّر نسقاً يؤكد أن القتل يحقق أعلى درجات قيمة الكرم .

إن غياب هذا البيت عن (نص القارئ) - الغذامي - حدد نقطة لالتقاء القارئ بالنص لتمارس فعلها في ملء البياضات على وفق تصور تمركزها القرائي ضمن (النص) ويتحدد بعدها مواقع الاختلاف والائتلاف بين النص ونص القارئ ، لتجلب بدورها قائمة مرجعية تمثل جزءاً مهماً من الواجهة الخلفية الحاملة للأنساق السابقة على النص ، هكذا يبدو من المتوالية أن النسق الذي يبحث عنه (الغذامي) طمر نتيجة إقصاء نص سابق بشكل مقصود أو غير مقصود .

• العلاقة بين النص والقارئ

بخلاف التأويل الكلاسيكي الذي يرى أن وظيفة القارئ تنحصر في الكشف عن المعنى الذي يختزنه النص ، فإن (إيزر) يذهب إلى أن المعنى ليس قالباً جاهزاً ومستعداً للقارئ كي يتم كشفه ، بل إن المعنى هو ناتج إدراك الذات بعد تمثله ((كصورة تمثيلية))⁽¹⁾ ، ولذلك يرى (إيزر) أن النص ((لا يشكل أو يصوغ معناه بنفسه))⁽²⁾ ، وهذا يتضح إذا ما عرفنا أن الصورة التمثيلية تفترض وجود ذات مدركة للموضوع الجمالي الذي يتجسد في عمق الذات كصورة وكون هذه الصورة تتأثر تكوينياً بتجربة تعيشها الذات مع النص يكون للأخير دور فاعل في رسم خطوطها العامة⁽³⁾ ، كما أن الذات لا

(1) من فلسفات التأويل إلى نظريات القراءة : 183 .

(2) المصدر نفسه : 204 .

(3) ينظر : من فلسفات التأويل إلى نظريات القراءة : 80 .

تتوجه للنص إلا وهي حاملة كمّاً من التجارب القبلية التي تحدد إلى حدٍّ ما تكون وتشكّل الصورة التمثيلية عن الموضوع الجمالي⁽¹⁾ .

إن العلاقة بين النص والقارئ تكتسب أهميتها من صفتها الإجرائية ، إذ إن مجرد منح النص والقارئ أدوارهما في عملية القراءة لا تكفي لتأسيس الدلالة كناتج لفعل التلقي ، بل يبقى في ارتهانية معرفية مجردة من الفاعلية إزاء مطلب تحقيق وجود النص بوجود القارئ ، وعليه فإن تحقق العلاقة هو تحقق لوجود النص والقارئ معاً ، والدلالة بوصفها كيفية تكتسب وجودها طبقاً لكيفية تحقق هذه العلاقة⁽²⁾ .

يتضح مفهوم العلاقة بين النص والقارئ بشكل جلي في مفاهيم عدة وردت ضمن نظرية التلقي ، ومن أبرز هذه المفاهيم ما طرحه (إيزر) بخصوص ((الاستراتيجيات النصية))⁽³⁾ ، و((وجهة النظر المتحركة))⁽⁴⁾ ، ذاك أن المفهومين يحددان كيفية تحقق العلاقة وآلياتها ويمكن فهم الاستراتيجيات النصية من خلال بنيتين هما : ((بنية الواجهة الأمامية والواجهة الخلفية)) و ((بنية الموضوع والأفق))⁽⁵⁾ ، إذ تستدعي البنية الأولى فهمنا للعلاقة التداخلية بين النص والقارئ بفعل المردودية القائمة على الإحالات بين الواجهتين والتي تتيح تصور مدى التعالق بين المرجعية التي تحيلنا لخصوصية الذات المدركة والعلاقات الداخلية للنص بما تمنحه من احتمالات وإن كانت لا متناهية لكنها تتوجه بكيفية مختلفة عن نص آخر ، كما أن الواجهة الخلفية بوصفها نسقاً مرجعياً سابقاً على النص تؤكد حضور الذات التي ستقوم لاحقاً بإنتاج المعنى بعد أن تولت الواجهة

(1) ينظر : دينامية النص ، د. محمد مفتاح ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، المغرب ، ط / 3 ، 2006 :

. 42

(2) ينظر : نظرية التلقي والنقد الأدبي العربي الحديث : 33 .

(3) من فلسفات التأويل إلى نظريات القراءة : 200 .

(4) م . ن : 206 .

(5) م . ن : 201 - 202 .

الأمامية المتمثلة بالأسئلة والأجوبة التي يطرحها النص وبالضرورة فهي تحيل للنسق المرجعي أي الواجهة الخلفية ، هكذا يبدو لنا كيف يحيل النص القارئ لمرجعياته ، وكيف يستند القارئ لمرجعياته في فهم علاقات النص ، إنما يبدو إزائنا هي علاقة إحالية وتبادلية وتواصلية فاعلة تبرز نوع العلاقة التي نحن بصدد إيضاحها .

و ((إذا كانت البنية الأولى تنظم علاقة النص بسياقه الخارجي ، فإن بنية الموضوع والأفق تنظم علاقة العناصر النصية فيما بينها وتحدد من ثم الشروط الضرورية للتوليف بينها))⁽¹⁾ ، إذ مع تعدد دلالات النص الممنوحة على وفق تراكيبته ولكون الجمل النصية معنية أيضاً بمنح دلالات تكون الدلالة بوصفها الكلي يبدو أن بنية (الموضوع والأفق) تقوم بوظيفة مهمة تتمثل في تبثير رؤية القارئ ووضعه بإزاء الموضوع المدرك لاحقاً بفعل الذات إنطلاقاً من علاقات النص الداخلية بوصف الموضوع متشياً ضمن أفق ما ، ولأن الموضوع الجمالي ينتج عن عملية تركيبية تدريجية فإن هذه البنية تكون مسؤولة ((عن تنظيم أفعال الفهم وعمليات بناء الموضوع الجمالي لدى القارئ))⁽²⁾ وتمكنه من التركيب الدلالي - كفعل من أفعال إعادة إنتاج النص - ناتجاً مشاكلاً دلاليّاً لا يعارض دلالة - ممنوحة في علاقات النص الداخلية .

وكذلك فهي مؤثرة بشكل مسؤول وفاعل في عملية تداخل نص القارئ مع النص ، إذ تتم ملاقة البنى المستتارة من نص القارئ مع المواضيع التي ترشحت من النص لدمجها لاحقاً ضمن سيرورة القراءة والوقوف على نقاط التوافق والاختلاف سبيلاً لتشاكل دلالي يعبر عن قراءة فعالة وتأويل متسق مع مسارات النص .

أما وجهة النظر المتحركة ، فتتضح فعاليتها الإجرائية إذا تبينا القراءة بوصفها تتم عبر مراحل متتالية ومتراجعة ، ذلك أن القارئ يتدرج في فهمه وإدراكه للموضوع الجمالي

(1) من فلسفات التأويل إلى نظريات القراءة : 204 .

(2) م . ن : 205 .

وهي سمة للأخير كما أنها فعالية للأول⁽¹⁾ ، وفي سيرة القراءة هذه تتكشف شيئاً فشيئاً أجزاء من الموضوع الجمالي لتشكل كل مرحلة من مراحل إدراك هذه الأجزاء ارتجاعاً لمعرفة سابقة أو عن معرفة سابقة متألّفة أو مختلفة معها ، وهكذا تبرز وجهة النظر المتحركة بوصفها الأداة الإجرائية التي تمكن القارئ من إدراك الموضوع الجمالي بصفته الكلية عبر التركيب والتوليف بين الأجزاء المدركة من الموضوع الجمالي على وفق سيرة القراءة .

ويرى (إيزر) أننا نشهد على وفق تلك السيرة القرائية صراعاً بوجهين ، الأول منهما ((هو التوتر القائم بين السنن الاجتماعي والثقافي للقارئ وبين الطبيعة الحديثة للنص ، فالنصوص الأدبية تعيد لسنن السنن عن طريق الانتقاء والتوليف ، وهكذا سيجد القارئ ، وهو يجمع المعنى ، أن هناك تناقضات بين سننه الخاص وبين السنن الذي أعيد تشكيله في النص))⁽²⁾ .

أما وجهه الآخر ((فينشأ من كون البناء المتماسك يؤدي إلى متواليات أفكار موجودة في ذهن القارئ ، وذلك بتتبع التوجيهات التي عرضتها العلامات اللسانية في النص ، ولكن الصور التي تنتجها هذه الأفكار عادةً يمكنها أن تهجر أو تترك ، أو على الأقل تتغير حينما يراد إدراج المعلومات الجديدة))⁽³⁾ ، وهذا يستلزم - بحسب (إيزر) - صراعاً بين تلك الأفكار وإزاحة لبعضها الآخر ، وهو لا يعني بالضرورة قطيعة بينها بل العكس تماماً ؛ لأن الفكرة المزاحة أسهمت وبشكل فاعل في الفكرة اللاحقة لها وهكذا وصولاً لإدراك الموضوع الجمالي .

(1) ينظر : من فلسفات التأويل إلى نظريات القراءة : 206 .

(2) آفاق نقد استجابة القارئ ، فولفغانغ إيزر ، ترجمة : أحمد بوحسن ، ضمن : من قضايا التلقي والتأويل ، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية في الرباط ، سلسلة ندوات ومناظرات رقم : 36 ، الدار البيضاء ، 1995 : 146 .

(3) آفاق نقد استجابة القارئ ، فولفغانغ إيزر : 221 .

هكذا يتضح أن وجهة النظر المتحركة تمكن القارئ من قراءة النص عبر تداخله في أجزائه وفي الوقت ذاته مما يتيح له إمكانية التصور والتركيب لإنتاج الموضوع الجمالي وهذه الإمكانية هي وصف دقيق للعلاقة بين النص والقارئ ، ومما تقدم يمكننا فهم السبب الذي دفع (إيزر) لموضعة القارئ داخل النص ، أنها علاقة وجود وتحقق وآلية فاعلة في إنتاج المعنى .

إن (علاقة النص بالقارئ) نجدها متحققة وبشكل فاعل في اشتغال (الغدامي) على نصوص (غازي القصيبي) و (حسين سرحان) و (محمد جبر الحربي) في كتابه (الكتابة ضد الكتابة) إذ يحيلنا (الغدامي) للواجهة الخلفية المتمثلة بمرجعية القول الشعري من خلال الموروث الاجتماعي المكتسب امتداده من العصر الجاهلي حتى يومنا الحاضر ، والمعبر عنه بالمدونة الشعرية العربية والأمثال ، وقد وفق في تمثيلاته التي تمحورت حول (نماذج المرأة في الفعل الشعري المعاصر)⁽¹⁾ ، إذ يحيل دلالتها إلى (الموت) (الحياة) (المعنى) وهذه الدلالات مستتبطة من تحليل النصوص الجاهلية والكشف عن موضوعة المرأة فيها ، إن هذه الإحالة للواجهة الخلفية كشفت عن حضور المرأة في النص المعاصر ، بشكل يركز على اللاوعي الجمعي للجماعة ، وبوصف القول الشعري معبراً عن ثقافة الجماعة وموروثها ، وبالرجوع لهذه الواجهة تمكن (الغدامي) من إعادة إنتاج المعنى بالشكل الذي يتوافق مع المعطيات النصوية للنصوص ، كما وتحضر (بنية الموضوع والأفق) بشكل واضح في اشتغال (الغدامي) على نص (أغنية في ليل استوائي) لغازي القصيبي⁽²⁾ إذ يلتقط جملة (قولي) وكلمة (القمر) ليبني عليهما قراءته النقدية للنص ، وما يمكن قوله أن تكرار الجملة والكلمة فرضاً على (الغدامي) الارتكاز عليهما كركني إجبار في النص ، وبالمقاربة يمكن القول إن ما ارتكز عليه (الغدامي) يمثل نمذجة لبنية (الموضوع والأفق) لو علمنا أن الأفق

(1) ينظر : الكتابة ضد الكتابة ، د . عبدالله محمد الغدامي ، دار الآداب ، بيروت ، ط 1 / ، 1991 : 13 - 80 .

(2) ينظر : الكتابة ضد الكتابة : 39 وما يليها .

يمثل القصيدة الضامة لموضوع يمكن الكشف عنه من خلال علاقات النص الداخلية ، وما يشي بصورة أولية عن طبيعة تلك العلاقات فضحه التكرار في النص ، وهكذا تتماسك (الاستراتيجيات النصية) في اشتغال (الغدامي) إذ تتوثق القراءة النقدية للنص من خلال علاقة النص بسياقه الخارجي الذي عبّر عنه ببنية الواجهة الأمامية والواجهة الخلفية وعلاقته بسياقه الداخلي المكشوف من خلال علاقات العناصر النصية المعبر عنها ببنية الموضوع والأفق .

وهذا ما يزعم البحث أن (الغدامي) وفق فيه بآلية اعتمدت على الربط بين مفردات قراءته النقدية للنص وكما أوضحناه سلفاً ، ويبدو أن ما دعم هذه القراءة هو توافرها على (وجهة النظر المتحركة) التي يمكن ملاحظتها برجوع (الغدامي) للقراءات السابقة التي باشر بها النص لأول مرة ليربط نواتجها فيزيح فكرة ما ويبني فكرة أخرى عليها ، ويعزز الأخرى تارة أخرى .

إن هذه القراءات المتعددة التي طافت بها وجهة نظر الناقد مكنت من إدراك أجزاء الموضوع الجمالي المضمّر في النص ، وهو ما خرج بقراءة نقدية متميزة للنص ، وفي المجموع تبرز قراءة (الغدامي) للنصوص الثلاثة سالفة الذكر بوصفها قراءة نقدية محايثة لأصول التلقي والتأويل .

الفصل الأول أنواع القراءة.....المبحث الثالث

ينفتح حديثنا هنا عن أنواع القراءة مبتعدين عن مستوياتها التي ترتبط بالمنهج وتتعلق منه ، ذلك أن تلك المستويات تنتشع بمناهجها ، وهي وإن كانت وجهاً من أوجه الممارسة القرائية غير أننا هنا معنيون بتتبع إجرائية القراءة بأكبر قدر ممكن من تجردها عن المنهج النقدي ، إذ يتيح ذلك مجالاً أدق في النظر للقراءة ذاتها دون التعالق مع المنهج الذي يفرض شروطه لتصطبغ به القراءة ، هنا نتطرق للقراءة على وفق أنواعها ، إذ فضلاً عما تقدم نجد إشكالية الذات والموضوع بوصفها منطلقاً لنظرية القراءة حاضرة في التصور التبعي لفعالية القراءة .

مابين النص والقارئ ينبعث التوتر ليستبد بالمشهد التفاعلي بينهما ، هذا التوتر الذي ينفلت عن التوصيف المعرفي ويبقى مؤطراً ومتداخلاً بين الشعور واللاشعور يحاور الذات والموضوع كما ينطلق منهما⁽¹⁾ ، ولهذا نجد أنفسنا أمام محاولة الكشف عن كيفية تداول النص ، وهذا سبب آخر لتناول أنواع القراءة ، إذ إن الكشف يمكن أن يتحقق على وفق توقفنا على استدعاءات الذات والموضوع وإسقاطاتهما في عمليتي القراءة والتلقي .

ومن هنا فإن دينامية النص والقارئ على السواء مرهونة بنوع القراءة كما هي ناتجة عنها ، ونوع القراءة محفوف بمستوى من مستوياتها أو أكثر ، إذ لو كنا إزاء نوع من القراءة فإننا قد نشهد مستوى واحداً على الأقل من مستوياتها ، كما لو كانت القراءة شاعرية تركز للسيميولوجيا أو التفكير مثلاً ، وباستعارة مفهوم الاستعمال والتأويل من نظرية التأويل ، وبالأخص من (إمبرتو إيكو)⁽²⁾ نجد أنفسنا أمام نص غير قابل للتأويل ؛ لأن بنيته المؤسسة على الجانب التركيبي تمنح نوعاً محدداً من علاقاته لا يمكن

(1) ينظر : من فلسفات التأويل إلى نظريات القراءة : 200 - 206 و 225 - 226.

(2) ينظر : من فلسفات التأويل إلى نظريات القراءة : 58 .

الفصل الأول أنواع القراءة.....المبحث الثالث

معها ممارسة الفعالية التأويلية فتنحصر علاقة القارئ معه باستعماله في ممارسة مفضية للشرح والتفسير فحسب ، كما أن نصاً آخر يكون قابلاً للممارسة التأويلية ؛ لأن بنيته تكون ضامة لعلاقات نصية تمنحه قابلية الممارسة التأويلية ، وبهذه الاستعارة يمكننا الوقوف على نقطة مهمة في توضيح طبيعة كل من أنواع ومستويات القراءة ، إذ إن مستوياتها لا تمنح قسراً على النص لتسبغ عليه صفات النصوصية كما هو الأمر كذلك مع أنواعها ، ولكن المفارقة أن المستويات قد تتسلح بالمنهج النقدي لتعمي على حقيقة المعطيات النصية .

في حين أن أنواعها تقارب من جهة الإجرائية المنظورة من جهة القراءة كفاعلية وسيروية تباشرها الذات إزاء موضوعها المدرك ، ولذلك نجد أن أول إشكال يتبع مستويات القراءة في إجرائية نقد النقد تتمثل غالباً في تتبع مطابقتها للمنهج النقدي وابتعادها عنه ، في حين أن النظر من زاوية أنواع القراءة تتجه غالباً نحو استقراء قابليات النص عبر تركيبته وعلاقاته ، وعندها نكون إزاء النص بوصفه موضوعاً وإزاء الفعل القرائي المتجه من الذات لإدراكه ، وهذا ما يجعلنا في صلب سيرورة القراءة وجوهرها بوصفها فعلاً مجرداً بذاته غير متعلق بصفات ممنوحة على وفق منهج أو نظرية نقدية ، وهذا لا يعني دوماً القول بأن النظر إلى القراءة عبر مستوياتها لا يمنحنا تصوراً عن أنواعها ، فنحن أمام مستوى من مستويات القراءة ندرك أننا نشهد ملمحاً إسقاطياً أو تعليقياً أو شاعرياً ، كما بيّنه (تودوروف)⁽¹⁾ ، ولكننا نبقى ضمن المنهج الذي تنطلق منه مستويات القراءة ، وهذا ما أسلفنا إنه يسم تتبعنا للقراءة بسمة المنهج لا مجردة وقائمة بذاتها كفاعلية إدراك واعٍ .

(1) ينظر اللغة الثانية . إشكالية المنهج والنظرية والمصطلح في الخطاب النقدي العربي الحديث ، فاضل ثامر ،

الفصل الأول أنواع القراءة.....المبحث الثالث

ومما تقدم يتضح أننا أمام أكبر قدر من النظر لفاعلية القراءة مجردة عن المنهج ، وبوصفها فعالية لذاتها ، حتى نتمكن من الوقوف على مداخلة القارئ للنص ومدى وطبيعة تفاعله مع النص ، وتبعاً لذلك يمكننا أن نلاحظ تلك المداخلة من منظور الذات الواعية والموضوع المدرك حتى مع خصوصية المنهج المتبع في مستوى من مستوياته القراءة ، مستنديين على وفق منهجية البحث لنظرية التلقي وإجراءات وتوصيفات القراءة التي تنطلق منها نظرية التلقي .

إن الجانب التصويري للنص والمعبر عنه بالصورة الفنية التي يكتنزها النص ضمن فضاءه يجوز عبر لغته كوسيلة لفضاء القارئ ، والحقيقة أن تلك الصورة لا تنقل إلى القارئ مطابقة لتجسدها النصي ، بل إن عملية تمثيل تقوم بالمهمة لتدخل فضاء القارئ عبر تمثلات لها ، تلك التمثلات تسقط الذات عليها ذاتيتها لتجوز للقارئ متأثرة بطبيعة تكوينية الذات⁽¹⁾ ، وهذا ما يلّمح لدور تلعبه الذات في تأسيس نسخة تماثلية لهذا العنصر المهم في النص ، ومن ثمّ فإننا ندرك أن الذات تمارس إسقاطاتها على النص وتجسد تماثلاتها عنه بطريقة ما ، هذه التمثلات أو التصور الكلي للنص تعبر عن ذاتية القارئ ومشروعية الإسقاطات الذاتية⁽²⁾ غير أنها لا بد لها وعلى الدوام أن لا تخرق إشتراطات النص⁽³⁾ ويبقى الحيز أمامها متسعاً لتأفيق مديات تلك التمثلات وممارسة إسقاطاتها التي ترتكز دوماً على التجربة القبلية للذات تلك التجربة التي تسم الذات بسمتها حتى لحظة

(1) ينظر :: الشعر والتجربة ، أرشيبالد ماكليش ، ترجمة : سلمى الخضراء الجيوسي ، مراجعة : توفيق صايغ ، منشورات دار اليقظة العربية ، بيروت ، 1963 : 77.

(2) ينظر :: الصورة في النقد الأوربي - محاولة لتطبيقها على شعرنا القديم ، عبد القادر الرباعي ، مجلة المعرفة ، السنة السابعة ، العدد : 204 ، فبراير ، 1979 : 47 و 50 .

(3) ينظر :: المرايا المحدبة من البنيوية إلى التفكيك : 330.

الفصل الأول أنواع القراءة.....المبحث الثالث

الالتقاء بالنص ، غير أننا مدعوون كذلك لملاحظة أن تلك الإسقاطات تشهد تعديلات مستمرة خلال مراحل عملية القراءة ، إذ إن المعطيات النصية اللاحقة تقدم دوماً جملة من الاحتمالات التي قد تقوم التمثيلات السابقة عن الصور الفنية التي يقدمها النص ويتلقاها القارئ عبر مراحل القراءة ، حتى إذا ما أتمّ عملية القراءة خرجت إسقاطات الذات متجسدة بتصور معين أو جملة من التصورات التي تمت عبر عملية متنامية وتبادلية بين الذات والنص⁽¹⁾ ، وهذا ما يلمح الفرق بين القراءة الإسقاطية وإسقاطات الذات ، فالأخيرة حادثة بالفعل ومشرعنة باشتراطات النص ، في حين تخرج الأولى عن اشتراطات النص ودينامية الحركة التي تتجسد عبر مراحل القراءة ، فهي _ القراءة الإسقاطية _ تحين لحظة لتسقط تمثيلات وتجر الذات بتصور ما حتى تكون المراحل التالية في القراءة مرتسمة بالذات منطلقة منها نحو النص فارضة تصورها على المعطيات النصية بخلاف الأخيرة التي وسمت بالتنامي والتبادل بين الذات والموضوع وبين القارئ والنص ، كما أننا نشهد من خلال مقارنة الصور الفنية آنفاً ، أننا لسنا بإزاء افتراض موضوعية النص بعيداً عن دور ذاتي للقارئ ، فالإسقاطات متحققة لا ريب ، ولكنها تفترق بين كونها ترتكز على الذات مبتعدة عن الموضوع ، وعن كونها متحققة على وفق دور تفاعلي بين الذات والموضوع ، أي القارئ والنص .

في حين نجد إسقاطات الذات تكاد تكون منمحية عن الممارسة القرائية حين تختزل على سطح النص ، وتباشر عملية آلية تمتاز برتابتها على مستوى التعريف بالنص من خلال الشرح والتعليق ، سالبة دور الذات الفاعل في إنجاز تحقق النص⁽²⁾ ، ومعطية

(1) ينظر : هل تكون القيمة الجمالية عالمية ، جان موكاروفسكي ، ترجمة : سيزا قاسم ، مراجعة عبد الغفار مكاي ، مجلة عيون المقالات ، العدد 24 ، 1986 : 73 .

(2) ينظر : الأسلوب والأسلوبية ، عبد السلام المسدي ، الدار العربية للكتاب ، ليبيا ، ط / 2 ، 1982 : 87 .

الفصل الأول أنواع القراءة.....المبحث الثالث

للنص السيادة المطلقة في تقرير المعنى ، ولا شك أن هذه القراءة غير موصوفة ولا معنية بإعادة إنتاج المعنى ، إن كل ما تمنحه هذه القراءة هو بعد واحد من أبعاد النص ، ودور القارئ هنا دور واهن للوساطة بين النص ومتلقٍ آخر ، دور لا نتلمس فاعليته ، ولكن التساؤل ينبثق عن حقيقة هذه الممارسة على وفق ما وصفنا من عدم الفاعلية والتعريف ببعد واحد من أبعاد النص ، مفاد التساؤل هو لماذا تقع مثل هذه الممارسة ؟ وما هي روافد حصولها ؟

ويبدو في سبيل الإجابة أننا أمام طرفي تحقق عملية القراءة ، القارئ والنص ، بين طبيعتهما وإمكاناتهما ، فالقارئ مرهون بإمكاناته وخصوصية ثقافته ، وهو على وفق ذلك يتعاطى النص ويحدد تحقق إنتاج المعنى من عدمه ونوع القراءة إلى حد بعيد ، كذلك النص على الطرف الآخر يحدد طبيعة تحققه وإمكانها بما يكتنزه من محمولات دلالية مفضية بالضرورة لممارسة قرائية معينة أو ممارسات متعددة .

وبهذا الصدد يمكننا أن نؤشر نقطة جوهرية في الاشتغال النقدي ، بوصف الناقد قارئاً ومتلقياً ، وهي نقطة تتعلق بإمكانات الناقد ، ألا وهي تمكّنه من النظرية والمنهج الذي يؤسس اجتراحه القرائي عليهما ، إذ إن سيطرة المنهج على القراءة النقدية تؤشر موضوعية المنهج إزاء ذاتية الناقد ، وهي نقطة إشكالية في الاشتغال النقدي ، ذلك أن المنهج يؤسس لقراءة معينة لتتفاعل ذات الناقد في تحديد مسارات القراءة على وفق المنهج ، والخروج عنه خروج عن اشتراطات القراءة التي ألزم الناقد بها نفسه ، كما أن تتبع المنهج بشكل آلي يخرج القراءة عن قيمتها التنويرية والجمالية والمعرفية على حد سواء ، وبناءً عليه نجد الناقد مرهوناً بين موضوعية المنهج وذاتيته التي لا بد أن تكون فاعلة .

الفصل الأول أنواع القراءة.....المبحث الثالث

إن هذه القراءة المستندة للمنهج والنظرية تمثل مستوى من مستويات القراءة التي أسلفنا أننا لسنا بصدد تتبعها ، غير أن ما قدمناه يؤشر على منطقة قد تكون غير منظورة في التأسيس على تتبع القراءة على وفق أنواعها ، ذلك أن الناقد هنا أمام موضوعية النص وموضوعية المنهج وذاتيته ، وأمام كل منها قد تفقد القراءة مستواها أو توطر ضمن نوع مسلوب الفاعلية بسبب وهم الذاتية الناشئة عن المنهج وحياطة المنهج لحقوق الذات في إنتاج المعنى .

كما أن النص كطرف آخر في عملية القراءة يحدد - كما أشرنا - طبيعة تلك القراءة وفاعليتها ، إذ إن النص الذي لا يتوافر على علاقات مؤدية لتشظٍ دلالي ولا يحفز على قراءة متعددة يكون مرهوناً بقراءة سطحية وراهنياً للقارئ على تلك القراءة⁽¹⁾ ، إذ إن القارئ أمام تجسد للوجود عبر النص ، فما بين الوجود والذات تكمن اللغة لتعبر عن الوجود بخطاب مخصوص يسمى الأدب ، وهنا فأن علاقة الوجود باللغة تمنح أبعاداً لا متناهية من التصورات الذاتية عن الماهيات ، ولذلك فإن النص المحايث لهذه العلاقة المعبر عنها يكتنز بالضرورة علاقات متشعبة وواسعة تمكن الذات من التقاط عدد كبير منها على وفق إمكاناتها واستعدادها ((ولذلك فإن الطبيعة والكلمة يستطيعان أن يتقاطعا إلى ما لانهاية مشكلين - لمن يعرف القراءة - نصاً كبيراً واحداً))⁽²⁾ وهو ما يحقق علاقات تصادمية مع النص تنزلق عبرها الذات إلى عوالم النص لتحقيق إنتاج المعنى ، فالنص كما أوضحنا باعث على تحقيق القراءة الفعالة وإنتاج المعنى .

(1) ينظر : علي شنوفي ، المجلة الفلسفية التونسية ، عدد خاص ، جانفي : 86 .

(2) الكلمات والأشياء ، ميشيل فوكو ، ترجمة مطاع صفدي ، مركز الإنماء القومي ، بيروت ، ط / 1 ، 1989 -

الفصل الأول أنواع القراءة.....المبحث الثالث

إن النص على وفق ذلك يحقق أول ارتهان معرفي للقارئ ، ويبعته على التساؤل المفضي لمحاولة تمثل معطياته النصية وتشكيل وجهة نظر إزاءه ، وهو بذلك يحفز نوعاً معيناً لقراءته عبر ثوابته ومتحولاته ، راسماً خطاطة السيرورة القرائية للقارئ على وفق احتمالات يختار منها الأخير ما يلائم ذاته وثقافته ، تلك الثوابت التي يستشعرها القارئ بوصفها معطيات تؤسس لحركية المتحولات التي تبعث مناطق انطلاق نحو تأشير الاحتمالات وتحديد ما يناسب منها لتأطير القراءة شروعاً في إنتاج المعنى⁽¹⁾ .

بهذه الصورة يمكننا تصور القراءة المنطلقة من نص مكتنز بالمؤهلات النصية ، وقارئ يستحوذ على كفاءة معرفية تؤهله لتجوس النص عبر إمكاناته الإبداعية ، وهي بذلك - أي القراءة - تكون فعالية وممارسة فاعلة ومنفعلة في الوقت ذاته .

ويمكن أن نطرح تساؤلاً حول ما إذا كان القارئ يحدد على وفق قصديته نوع القراءة ، أم أن التقاءه بالنص يقوده لدوامة التفاعل بينه وبين النص .

وهنا يمكننا التصور أن القارئ حين يلتقي بالنص فإنه يفضي إلى تكوين تصور أولي عن طبيعة النص وإمكاناته ، هذا التصور الذي يؤيد فرضية قصدية القارئ في تلقيه للنص على وفق نوع معين أو أنواع متعددة ومستويات مختلفة للقراءة ، كما أن ذلك يمكن أن يكون غائباً عن وعي القارئ فيباشر النص على وفق لحظة التحيين والتقاءه بالنص لأول مرة ، ليباشر قراءته بعيداً عن تصور نوع تلك القراءة ، وبين هذا وذاك فإن التعديل يطرأ على وفق معطيات الممنوح النصي في كل مرحلة من مراحل القراءة ،

(1) ينظر : النص الشعري ومشكلات التفسير ، عاطف جودة نصر ، الشركة المصرية العالمية ، ط / 1 ، 1996 :

ليعدل القارئ في اختياراته الممكنة تبعاً لتعاطيه مع النص ، وهذا ما يعدل من نوع القراءة مع القصدية ودونها .

• القراءة الإسقاطية

إن تحقق القراءة يستدعي ذاتاً قارئة تقوم بالفعل إزاء النص كموضوع ، وهذا الاستدعاء يتم لتدشن الذات إسقاطاتها على النص منذ لحظة الاصطدام به ، إذ هو كون مأهول بمحمولات لا بد للذات من محاولة توصيفها وإعطائها أبعاداً معينة في عملية الإدراك الواعي المستدعاة بفعل الوعي ونشاطه داخل النص ، وفعالية الذات بوصفها قارئة للنص تستند لمعطياتها الدالة عليها قبل ولوج عالم النص ، والمكونة لها بوصفها كائناً موجوداً معيناً داخل منظومة التعريف بالوجود التي تميزها عن بقية الذوات المختلفة حتماً عنها .

إن تلك المعطيات والمكونات الذاتية تمثل ما تختزنه الذات من معرفة مستنبطة من الشعور واللاشعور معاً ، حتى إذا ما تحقق التقاؤها بالنص أخذت بالتفاعل معه في عملية القراءة مستندة لتلك المعطيات والمكونات الخاصة بها بوصفها ذاتاً مستقلة ، وكذا عضواً في جماعة ما تتشاكل في مجموعة صفات وتتشارك الثقافة نفسها⁽¹⁾ .

إن القارئ بناءً لما تقدم يستهدف محاوره النص والتعرف على أسئلته وأجوبته من خلال عملية تمثلية تقوم الذات فيها بإعطاء معطيات النص صوراً معينة مقارنة لطبيعة الذات حتى يتم تكوين رأي ذاتي عنها .

(1) ينظر : الألسنية علم اللغة الحديث ، المبادئ والأعلام ، ميشال زكريا ، المؤسسة الجامعة للدراسات والنشر

الفصل الأول أنواع القراءة.....المبحث الثالث

ويمكننا الاستعانة بخطاطة (تودروف)⁽¹⁾ التي يرى على وفقها أن ثمة عملية تحول تحدث عند عملية الاتصال بين النص والقارئ ، إذ إن النص المنقول تبعاً لهذه العملية بالذات لا يمثل النص الأصلي تماماً ولا يطابقه مطابقة كلية ، فالذات تتصور النص على وفق طبيعة تشكلها

1. نص المؤلف

4. نص القارئ

2. العام المتخيل المذكور

3. العام المتخيل المشكل من

طرف القارئ

من طرف المؤلف

وهذا ما أشرنا إليه سابقاً في مداخلة نص القارئ ودوره في عملية القراءة في المبحث الأول من هذا الفصل ، إذ نلاحظ أن الذات تمارس ذاتيتها خلال تلقي النص وهكذا هو الأمر في كل مراحل القراءة حتى تتم نهايتها⁽²⁾ .

ولكن التساؤل ينبثق عن القدر المقبول في تدخل الذات وإسقاطاتها ، وبمعنى آخر ، هل أن الذات حرة أمام النص تباشر إسقاطاتها عليه بشكل منفلت عن خصوصية النص وطبيعته البنائية ؟ وقد سلف أن أشرنا في مواضع أخرى من البحث أن الذات حرة في حدود تعاطيها مع الممكنات النصية والتي تطرح أشكالاً متعددة تغني افتراضات القارئ حولها وتعطيه فضاءً من الحرية المستندة إلى النص لا المنفلتة عنه ، يتلقى كيف يشاء

(1) ينظر : القراءة والحادثة ، مقارنة الكائن والممكن في القراءة العربية ، حبيب مونسي ، منشورات اتحاد الكتاب العرب ، دمشق 2000 : 215 .

(2) ينظر : حدود التأويل قراءة في مشروع إيكو النقدي ، وحيد بن بوعزيز ، منشورات الإختلاف ، الجزائر ، ط / 1 ،

الفصل الأول أنواع القراءة.....المبحث الثالث

ويسقط ذاتيته مبعداً النص عن الفعل القرائي ، ونحن هنا إزاء مفهوم الذات ، معنيون بالأنا ، والأنوات الأخرى التي تمثل الجماعة ، والآخر المقصى عن مفهوم الجماعة ، مما يعني أن القارئ وهو يقرأ يستحضر آراءه وآراء جماعته التي ينتمي إليها ، وكذلك يستدعي آراء الآخر بوصفه خارجاً عن الجماعة الموسومة بالثقافة ذاتها ، هذا ما يحدث بالضبط حين نقرأ نصاً ينتمي لثقافة أخرى ، إذ نستدعي آراء الثقافة التي نشأ عنها النص بإجراء مقارنة تحقيقاً لفهم أشمل وأدق ، وهو ما يحصل في عملية الترجمة كمثال عليه ، وما يحصل أيضاً حين نقرأ رواية كرواية (مدام بوفاري) ، إذ نستحضر ثقافة المجتمع الفرنسي لفهم وجهة نظر الشخصيات⁽¹⁾ .

إن ذلك يضعنا إزاء عملية تركيبية لتداخل القارئ مع النص ، فما أشرنا إليه بخصوص استحضر آراء الآخر يمثل إشكالية ، إذ يمكن القول إن آراء الآخر تمثل التجربة القبلية للقارئ ، وهذا صحيح ، ولكننا هنا لسنا بصدد التعريف بمفهوم التجربة القبلية وإنما بصدد الوقوف على طبيعة التدويت التي يمارسها القارئ ، والتي تتسم بالتركيبية ، إذ القارئ على وفق إمكاناته المعرفية والثقافية يباشر النص في سيرورة القراءة وهو يعدل من آرائه تبعاً لما تقدم من استدعاءات أوجه الذات المتعددة ، وتتعد الممارسة الذاتية من جانب الإسقاطات كما لو كنا إزاء رواية تتعدد فيها الشخصيات ، وكل شخصية تمثل ثقافة معينة مختلفة عن الأخرى ، هنا يبرز دور القارئ وترسم طبيعة إسقاطاته ويتوقف فهم النص على مكتنزاته وممارساته وتفاعله مع المعطيات النصية ، ويمكننا معه أن نؤشر بوضوح على ما هو مقبول من الإسقاطات الذاتية مما هو مرفوض أو لنقل خارج إمكان تحقيق القراءة .

(1) ينظر : التلقي والسياقات الثقافية ، بحث في تأويل الظاهرة الأدبية ، د. عبد الله إبراهيم ، دار الكتاب الجديد

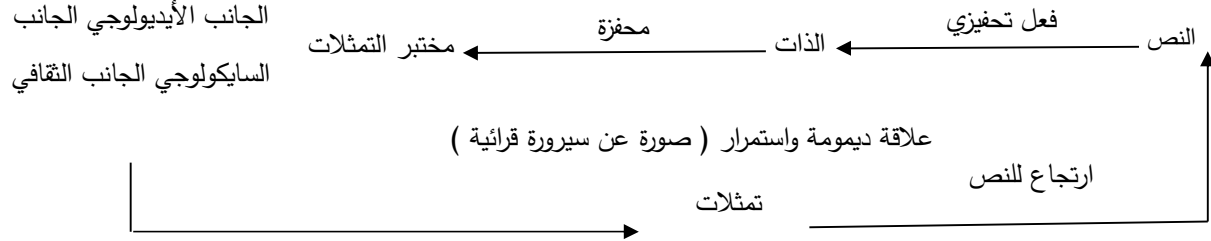
الفصل الأول أنواع القراءة.....المبحث الثالث

وإذا كان النص والقارئ يباشران علاقات متعددة فإنه يمكننا الاستفادة من علاقة التحفيز التي يباشرها النص على القارئ ، إذ يدفعه للتفاعل مع النص ، وهي علاقة ذات - موضوع ، أو قارئ - نص ، هذه العلاقة تمنحنا تصوراً لعملية الإسقاطات التي تباشرها الذات ، فالنص يحفز الذات القارئة بما يطرحه من موضوعات تعبر عن أنساق معينة قارة في ما ورائية لغة النص ، ويجعل القارئ في فاعلية حثيثة لتمثل هذه الموضوعات داخل الذات ، وبرجوعه لذاته فإنه يأوي لمرجعياته الثقافية وجانبه السيكولوجي وأيديولوجيته التي يعتقد بها ، إن هذا الحيز الثقافي والأيديولوجي والنفسي يمثل المختبر الذي ستجري فيه عملية تمثل متأثرة به⁽¹⁾ ، حتى إذا ما تمت معاينة اقتراحات النص داخل هذا الحيز المتعمق والمتمكن في الذات خرجت الذات بتمثلات معينة يتم انتقاؤها ، هذه التمثلات في طريقها لارتجاع نحو النص لأننا كما أوضحنا في موضع سابق ، أن ادراك الجانب الجمالي في النص لا يتم دفعة واحدة ، وإن القراءة سيروية تفاعلية ذات بعد ارتجاعي ، هذا الارتجاع يتجوس خلال النص لمعاينة تمثلات الذات ومدى انسجامها واختلافها مع معطيات النص الأخرى ، وهنا فإن الإسقاطات الذاتية للقارئ تمنح صفة المشروعية القرائية من عدمها ، إذ إننا يمكن أن نتصور قطعاً ارتجاع القارئ للنص ، فالخطوة الأولى متحققة بتحفيز النص للقارئ ، والخطوة الثانية متحققة بركون القارئ لذاته ، لتصور تمثلاته ، أما الخطوة الثالثة ، فهي في إمكان التحقق من عدمه في فرضنا هنا ، إذ يمكن أن تستبد الذات بتمثلاتها لتعليها على معطيات النص الأخرى التي تظهر شيئاً فشيئاً خلال سيروية القراءة ، فيؤثر الجانب الأيديولوجي مثلاً في الذات على تحقق التمثلات ومن ثم تقطع الصلة الارتجاعية بالنص كما نشهد في النقد الأيديولوجي المفرط لانعدام تحقيق الارتجاع للنص .

(1) ينظر : المعنى وظلال المعنى ، أنظمة الدلالة في العربية ، د. محمد محمد يونس علي ، دار المدار الإسلامي ، 65

الفصل الأول أنواع القراءة.....المبحث الثالث

ويمكننا أن نستدل بوضوح على ما أشرنا إليه من خلال الخطاطة أدناه :



ومن خلالها أيضاً تتضح علاقة أخرى ، هي علاقة (داخل - خارج) النص ، إذ إن الفعالية الارتجاعية منطلقة من الذات إلى النص تمد القراءة بحيثيات النص ، وتقع بفعلها القراءة داخل النص ، أما سلب هذه الفعالية من المشهد القرائي فيعني أن القراءة ستتعزز على الإسقاطات الذاتية وتقع خارج النص ، داخل الذات فقط .

مما تقدم نلاحظ دور الأدلجة والجانب الثقافي واضحاً في تسويق إسقاطات الذات ؛ لتخرج القراءة قراءة إسقاطية بتميز .

هذا ما نقف عليه في كتاب (المرأة واللغة) (للغذامي) ، حيث يقارن بين كتاب (الروض العاطر في نزهة الخاطر) للشيخ (النفزاوي) وكتاب (روضة المحبين ونزهة المشتاقين) لـ (ابن قيم الجوزية) ، ويعقد لذلك اشتغالاً في ورشة النقد الثقافي ، مما لسنا بصدد تتبع كل أجزائه هنا ، ولكنه في مورد المقاربة بين العنوانين ، يقول : ((ينص عنوان ابن القيم على كلمتي (المحبين) (المشتاقين) وللمحبين الروضة وللمشتاقين النزهة ، وهو في الكلمتين لا يفصل النساء عن الرجال ، فالكتاب للجنسين معاً وعلى

الفصل الأول أنواع القراءة.....المبحث الثالث

درجة واحدة في المخاطبة وفي التصور ((⁽¹⁾) ، وهنا تبرز القراءة الإسقاطية بوضوح ، إذ إننا نؤشر بدقة على قوله ((وهو في الكلمتين)) ، أي (المحبين) و (المشتاقين) ، وهما لفظان جاءا على صيغة جمع المذكر السالم ، لننتقل لكتابه الأول عن المرأة ، وهو (المرأة واللغة) لنتعرف على رأيه في قمع المرأة على مستوى اللغة ، وكيف أنها تمارس ضد المرأة سلطة الثقافة الذكورية ، بتذكير المؤنث وجمعها على صفة المذكر ، إذ يقول ناقدًا ومستشهداً بقول (صادق جلال العظم) في كتابه (في الحب والحب العذري) ، ((وهذا ما نجده عند كاتب وضع كتاباً في الحب العذري ، ووجد نفسه تتكلم بضمائر التذكير ، فقال مؤكداً الضرورة اللغوية المذكورة ما يأتي : [ينبغي أن أنه بأن تركيب اللغة يتطلب مني بصورة عامة ، أن أكتب وأتكلّم بصيغة المذكر ، كما أنه يفرض على الكاتب تذكير موضوعات لا تقبل في الحقيقة التذكير والتأنيث إلا عرضاً ومجازاً]))⁽²⁾ ، فد(الغدامي) في كتابه الأول ، يعقد فصلاً كاملاً عن تعسف الثقافة الذكورية ضد المرأة⁽³⁾ ويرى بأن تذكير المفردات الخاصة بالمرأة وجمعها على صفة المذكر تعسفاً واضطهاداً للمرأة من قبل اللغة التي أسسها وكتبها الرجل لقمع المرأة ، وهنا يفاجئنا بأن (ابن القيم) لا يفصل بين الرجال والنساء في لفظتي (المحبين) و (المشتاقين) مع أنهما جمع مذكر سالم ، ويرى بأنه يساوي على هذا المستوى بين الجنسين ، وكما أشرنا فنحن لسنا بصدد المادة التي قدمت في الكتابين ، ولكننا هنا نشهد تناقضاً بين رأيين (للغدامي) ، وما كان هذا التناقض ليكون لولا قراءته الإسقاطية لعنونة كتاب (ابن القيم) ذلك

(1) المرأة واللغة ، ثقافة الوهم مقاربات حول المرأة والجسد واللغة ، عبدالله محمد الغدامي ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، ط 1/ ، 1998 : 27 .

(2) المرأة واللغة : 21 - 22 .

(3) ينظر : م . ن الفصل الأول (الأصل التذكير) : 15 - 57 .

الإسقاط الذاتي المبتعد عن حقيقة العنونة بسبب من الانتصار للايدولوجيا ، إذ كما يصرح (الغدامي) فإن (ابن القيم) ((شيخه))⁽¹⁾ ، ولذا فإن النقد الذي يباشره (الغدامي) هنا ينفلت عن حقيقة المعطى إلى ذات القارئ ، والقيمة في العنونة على مستوى من الأهمية لا أقل من التأسيس لارتسام أولي عن النص وهو هنا كتاب (ابن القيم) ، وعلى المستوى ذاته نجد تناقض (الغدامي) في تصويره لمفردة (زوج) ، إذ يرى في كتابه (المرأة واللغة) أن هذه المفردة الدالة على المرأة المتزوجة هي شكل من أشكال إقصاء المرأة ثقافياً في مستوى اللغة ، إذ يقول ((التذكير - إذن - هو الأصل وهو الأكثر ، ولن يكون التذكير أصلاً إلا إذا صار التأنيث فرعاً ومن هنا فإن الفصاحة ترتبط بالتذكير ، فنقول عن المرأة أنها زوج فلان وليس زوجة فلان إن كنت تتحرى الفصاحة والأصالة))⁽²⁾ ، في حين نجده يصرح في كتابه (المرأة واللغة ، ثقافة الوهم مقاربات حول المرأة والجسد واللغة) قائلاً : ((ولا ريب أن اللغة تشير إلى توحيد الصفة في حالة اقتران الرجل بالمرأة ، حيث توحد بينهما كلمة (زوج) للذكر والأنثى مما يعني التساوي والتكامل والتحام الجسد بالجسد))⁽³⁾ ، مما يبرز قراءة إسقاطية أخرى أمام تصور لمفهوم المفردة التي يؤسس عليها (الغدامي) اشتغاله ، بوصفها شاهداً من الشواهد ، وما كانت هذه القراءة الإسقاطية لتكون لولا ذاتية القارئ التي كانت تبأشر عملية قراءة المكتنز الثقافي العربي مستندة لرأي قبلي منتصرة له على الموضوع المتمثل في هذا المكتنز والموروث الثقافي .

(1) مقابلة مع الدكتور عبد الله الغدامي ، الشبكة العنكبوتية ، موقع الإسلام اليوم : <http://islamtoday.net/nawafeth/artshow-144545-91.htm> ، بتاريخ 12 / 1 / 2011 .

(2) المرأة واللغة : 21 .

الفصل الأول أنواع القراءة.....المبحث الثالث

وإذا كان النسق الثقافي مضمراً في ثقافة ما تعبر عن نفسها بوسائل اتصال متعددة من أهمها اللغة التي تمثل الأعمال الأدبية واجهة من أهم واجهاتها كان التأسيس لوجود نسق ثقافي ما ، لا بد أن تدعمه نصوص شائعة ووثيقة الصلة بالموروث ومفروغ من وثاقتها ، هكذا تصبح المادة الأدبية نصاً لاشتغال الناقد ضمن إجراءات النقد الثقافي ، ولكننا نستغرب أن تكون مروية غير موثقة أساساً من أساسات التأسيس لنسق ثقافي ألا وهو الفحولة ، إذ يستشهد (الغدامي) في كتابه (النقد الثقافي ، قراءة في الأنساق الثقافية العربية) برواية كان قد سمعها من والده ، مفادها أن جارية (امرئ القيس) أتمت عجز بيته (كجلمود صخر حطه السيل من عل) ويعتد بها شاهداً على فحولة (امرئ القيس) الذي سطا على قول جاريته ناحلاً إياه ، والغريب أنه يصرح بعدم عثوره على هذه الرواية في أي كتاب طالعه !!⁽¹⁾ فهنا تحضر الذات معبرة عن مخزونها ، لتحيلنا إلى إسقاط يؤسس لنسق ثقافي ، إسقاط لا يحتكم لأثر معرفي معتد به ، ولا مادة تشكل معلومة موثوقة أو موثقة ، لتقر الذات أنها بإزاء النص - الموروث الثقافي هنا - صاحبة السيادة في فعل القراءة التي كانت مبتسرة على الذات مقصية للنص الذي يروم الناقد هنا استنباط أنساقه والكشف عنها 0

ومتى ما حضرت الأيدولوجيا لترهن القراءة بها كانت كما أشرنا قراءة إسقاطية وأمام هذا نجد (الغدامي) يتعرض لنقد الأنظمة العربية الشمولية بوصفها أمثلة على صناعة نموذج الطاغية الذي يجسد صورة من صور الفحولة من خلال ثقافة الانقلاب المتجذرة في تلك الأنظمة ، وحين يتعلق الأمر بنظام الوراثة البدوي ، يؤسس له بوصفه نظاماً أصيلاً مستمداً من البداوة ، وهي ممثلة للأصالة العربية⁽²⁾ ، والصورة تكتمل بإحالة هذا

(1) ينظر : النقد الثقافي . قراءة في الأنساق الثقافية العربية : 212 .

(2) ينظر : م . ن : 219.

النظام لحقيقة تجسده على الواقع الحاضر والراهن ، ولا حاجة للبحث بهذا المنحى ، ولكن ما يعيننا هو ، هل أن الأنظمة الشمولية العربية بوصفها تحمل ثقافة ما هي الوحيدة المعنية بالتأسيس لمفهوم الطاغية وجهاً من أوجه الفحولة ؟ أم أن الأمر ينطبق أيضاً على الأنظمة القائمة على نظام الوراثة الذي أسس ويؤسس لنظرية الأوحى والأفرد ، ولماذا تُبرأ الثانية من تهمة النسق الفحولي المتجذر والمؤسس لصناعة الطاغية ؟ ، وهذا ما نجد أننا بغنى عن الإجابة عنه لوضوحه بالتأكيد .

إن ما سلف من أمثلة تطبيقية تؤكد إمكان حدوث القراءة الإسقاطية لأسباب عديدة ، منها ما يتعلق بالقراءة بوصفها فعالية ، وما يتعلق بالقارئ ذاتاً تتوجه لإدراك موضوع ما ، فتكون القراءة الإسقاطية هنا قصدية ، وفي الافتراض الأول تكون لا قصدية ناشئة عن تعقيد الفعالية القرائية وتتابع فعاليتها ، وهذا ما تم الإشارة إليه في بداية المبحث .

• قراءة الشرح والتعليق

يستدرج تطرقنا للتحويلات النقدية ضمن هذا الحيز حقيقة الوظيفة النقدية ، ومع إشكالياتها نجد أننا معنيون هنا بجانب محدد من تلك الوظيفة لنقر بادئ ذي بدء بأن الناقد ليس قائماً بأعمال الوساطة بين المبدع والمتلقي ، بل هو متلقي وقارئ ، وهو القارئ الذي يباشر مهامه متموقعاً داخل النص للكشف عن جوانبه ما أمكنه ذلك ، وخارج مفهوم الوساطة تلك ، يمكننا القول أن النقد ليس ((محاولة إقامة جسر بين الشاعر والقارئ ، فهذا الجسر ليس بحاجة إلى وصاية أحد ... إنه ليس اختصاراً للقصيدة أو شروحات على هوامشها ؛ لذلك لا يقيم النقد جسراً ، يحاول فقط إعادة كتابة من منطق تزامن عناصر الكتابة المختلفة))⁽¹⁾ ، وذلك لا ينفي مهمة تنوير النص عن وظيفة النقد بقدر ما

الفصل الأول أنواع القراءة.....المبحث الثالث

يعني الوقوف على حقيقة ذلك التنوير ، فهو لا يقع بوصفه فعالية آلية توسم بالرتابة ، بل يمكننا القول أن تنوير النص يستدعي بالضرورة قراءة واعية وتجوساً معمقاً للمعلومات التي يضمها النص عبر أنساقه المتخفية خلف تراكيبيته ، وهنا يقف الناقد أمام عملية شائكة لكي ينور نصاً ما ، وهذا التنوير يوصف بكونه قراءة للنص تنجز عبر قارئ وهو الناقد هنا ، ولكن هل تقف الوظيفة النقدية عند تنوير النص فحسب ؟ إذا كانت القراءة عملية إنتاج للمعنى وإعادة لإنتاج النص ؟ .

إن القراءة كفعل محقق لوجود النص بالفعل لا بالقوة - بحسب المنطق - تجيب على تساؤلنا ، وتقر بوظائف متعددة للنقد تتجاوز وظيفة التنوير ، هذه الوظيفة التي تزعم أنها تتخطى مفهوم تقديم معنى جاهز لقارئ آخر عن نص ما .

ومن هنا نتبين مدى ما توفره قراءة الشرح والتعليق في الاشتغال القرائي بوصفه منتجاً نقدياً ، فهذه القراءة بوصفها نتيجة نهائية لاشتغال قرائي لا تسعف متطلبات التمكن من إعادة إنتاج النص الموصوف بالإبداعية ، كما أنها تغلق نوافذ استيعاب مثل هذا النص ، ولكنها حين تكون جزءاً من المنجز القرائي أو مرحلة من مراحله فهي متحققة ضمن فعاليات القراءة ، ولا يمكن تجاوز حقيقة وجوب فهم النص في مرحلة من مراحل القراءة على وفق معطيات هذه الفعالية الشارحة والمعلقة ، إلا أننا هنا نحصر مفهوم قراءة الشرح والتعليق ضمن وصفها بأنها منجز نهائي لقراءة نص ما ، لنقف على حقيقتها ومقدار ما تقترحه إزاء النص الذي تباشره ، وسبب نجورها بينما يتعلق بالقارئ ذاته ، والنص المقروء .

إن المعنى لا يكمن كحقيقة جاهزة في النص⁽¹⁾ ، وكذلك فإن القراءة لا تمكّن من

الفصل الأول أنواع القراءة.....المبحث الثالث

معنى واحد فقط ، أي أننا نتجاوز المطلق للنص لنكون إزاء تعدد دلالي ينفي إمكانية القول بالمعنى الواحد ، ومعه فنحن في القراءة لسنا بإزاء المعنى بل بإزاء إنتاج المعنى وإعادة إنتاج النص ، وناتج القراءة هو معنى محتمل من معاني النص تولده دلالاته المتشظية لا معنى أوحده⁽¹⁾ ، هكذا يكون إنتاج المعنى ناجماً عن ((عدم إحالة النص إلى مشار إليه معين ، ويكون النص محاوراً نشطاً للقارئ ويكون القارئ فاعلاً أساسياً في تنشيط النص للإحياء بدلالات جديدة ومتغيرة عبر تاريخ تأويلاته))⁽²⁾ إذ إن الإشارة التعيينية للمفردة والتركيب لا تغدو إلا بمستوى التوضيح أو الشرح المستند للدلالة المعجمية ، وهو ما لا ينهض بمستوى القراءة التي تعيد إنتاج النص من خلال تعددية دلالاته ، وأمام هذا التصور تصبح قراءة الشرح والتعليق عاجزة عن مقارنة تفصيلات النص وخوض تجربته المتنقلة ضمن مستويات متعددة ، لعل أولها هو مستوى الدلالة المعجمية التي تحيل إلى مفهوم الإشارة ضمن علاقة التعيين ، ولعل هذا النوع من القراءة يجوز مستوى الإحالة⁽³⁾ ، التي يمكن للقارئ وفقها إحالة بعض المعطيات النصية لمرجعياتها لا أكثر من مستوى شرح الدلالة الرمزية بشكل مقتضب ، وكل ذلك يبقى هذه القراءة ضمن راهنية سطح النص مبتعدة عن البنية العميقة⁽⁴⁾ التي لن تفتح شفرتها بالتسلح بهذه القراءة .

(1) ينظر : من سلطة النص إلى سلطة القراءة ، فاضل ثامر ، مجلة الفكر العربي المعاصر ، بيروت ، العدد : 48 ، 49 ، 1988 : 99 .

(2) مفاهيم الشعرية ، حسن ناظم ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، ط 1/ ، 1994 : 134 .

(3) ينظر : المعنى وظلال المعنى . أنظمة الدلالة في العربية : 103 - 108 .

(4) ينظر : دراسة علمية للسردية الأدبية ، س . شميدت ، مجلة العرب والفكر العالمي ، العدد 9 ، 1990 : 76 .

الفصل الأول أنواع القراءة.....المبحث الثالث

إن إنتاج المعنى وإعادة تكرار النص يتوقف على تفاعل أفقين هما : أفق النص وأفق القارئ ، ومدى التوافق والاختلاف بينهما ، إذ التوافق يمكن القارئ من استدراك المفاهيم التي سبق تجربتها في الذات والتي تستدعي لرسم تصور عن النص ، والاختلاف يحقق كسر أفق توقع القارئ محفزاً أنشطته للتفاعل مع المعلومات الجديدة التي فاجأ بها النص القارئ⁽¹⁾ ، ولنا أن نتصور حين يكون القارئ منشغلاً بعملية الشرح ، كيف له أن يحقق تفاعلاً وأفقه منحصر في تتبع دلالات سطح النص ، ومتى تتحقق لحظة التقاء بينه وبين النص على وفق ما قدمناه ، وهو يؤطر تجربته القبلية ممثلة لأفقه بهذا المستوى ، إذ قصدية القراءة تتعلق بهذا المستوى فقط .

كما أن مثل هذا النوع من القراءة لا يحقق مستويات عدة من القراءة ، إذ يبدو أن المناهج النقدية مع كل ما أنجزته من تعمق في التأسيس والتطبيق تبقى خارج مدى هذا النوع من القراءة المكتفي باستهلاك النص ، والجانب نحو قطيعة مع التفاعل المفترض بين القارئ والنص .

إذن يتشبع هذا النوع من القراءة بالموضوع ، ويسلب الذات فعاليتها الممكنة إزاء موضوعها ، وحتى هذا التشبع هو تشبع بمستوى من مستويات الموضوع وهو المستوى الظاهر لعملية الإدراك الأولية⁽²⁾ ، وبذلك تتعطل فاعلية الوعي الذاتي التي كان من الممكن أن تحقق مستوى أعلى بكثير في إدراكها لأجزاء الموضوع ، مما يؤدي بنا إلى القول أن قراءة الشرح وإن كانت تصرح بتصور موضوعي سالب للذات ، لكنها تبدو عاجزة عن الموضوع إلا عن مستوى من مستوياته ، وهذا واضح إذا ما تصورنا أن

(1) ينظر : القارئ النموذجي ، إمبرتو إيكو ، ترجمة أحمد حسن ، مجلة آفاق المغربية ، العدد 8 و 9 ، 1988 : 140 .

(2) ينظر : قراءة ما لم يقرأ ، نقد القراءة ، علي حرب ، مجلة الفكر العربي المعاصر ، ك1 ، 1989 : 82 .

الفصل الأول أنواع القراءة.....المبحث الثالث

الموضوع لا يتم تحقيقه إلا بتدخل الذات المدركة والواعية في فعالية تواصلية مستديمة بالموضوع⁽¹⁾ ، وهنا يطغى الموضوع على اشتغال الذات وفاعليتها ، لتعجز عن تحقيقه على وفق تصور كلي له .

يبقى من تساؤلاتنا ما يتعلق بعلة تحقق هذا النوع من القراءة ، وبأي طرف من أطراف إنتاج المعنى ؟ ويمكننا تصور ذلك بأن الأمر يتعلق بالنص والقارئ معاً ، فالنص حين يكون متضمناً للمستوى الصريح دون مستوى الدلالة الضمنية التي تحتاج لاعتماد القارئ عبر فعالية القراءة المتعددة الجوانب والمستويات ، تكون قراءة الشرح هي الملمح الأوضح لتحقيق القراءة ، ولنا أن نقول أن أول لحظة لالتقاء القارئ بالنص يتوافر الأول على تصور أولي عن النص ويبدأ بمحاورته وفي حال أظهر النص البعد الصريح فقط يكون القارئ ملزماً بالاكتفاء بالشرح والتعليق لا أكثر من ذلك ، وقد سبق لنا أن بينا تصوراً تفصيلياً عن اشتراطات النص ودوره في تحديد احتمالات القارئ إزاءه ، إذ هو - النص - يقرر عبر بنائيه مديات وأبعاد الدلالات المتضمنة في فضائه .

كما يتعلق تحقق قراءة الشرح والتعليق بالقارئ أيضاً ، إذ إن إمكانات متواضعة للقارئ تزيد من نسبة عجزه عن إدراك النص⁽²⁾ ، وتحقق اكتفاء بهذا النوع من العلاقة مع النص التي تطفو على سطح النص دون ولوج أبعاده الغائرة الأخرى وإجراء الحفر في بنيته للوقوف على إدراك احتمالات متعددة يطرحها النص ، ولذلك نجد نظرية التلقي تؤكد على القارئ بمعنى القارئ الكفوء ، ولكن ذلك لا يمنع من أننا قد نكون إزاء نص مكتنز الدلالة وقارئ كفوء لتخرج القراءة ضمن هذا النوع - الشرح والتعليق - وهذا ما يمكن أن

(1) ينظر : النص والتأويل ، بول ريكور ، ترجمة : منصف عبد الحق ، مجلة العرب والفكر العالمي ، صيف 1988 : 48 - 49 .

(2) ينظر : النص حساسية ما بعد الحداثة ، باقر جاسم محمد ، مجلة الأقلام ، ع : 11 - 12 ، 1996 : 15 .

الفصل الأول أنواع القراءة.....المبحث الثالث

يرد لعملية القراءة ذاتها وسيرورتها كما هو الحال في لحظة التحيين أو لنقل زمن إنجاز القراءة وظروفها ، إذ يشبه الأمر إنجاز معادلة كيميائية ما ضمن شروطها لتفشل في إعطاء نواتجها ، إذ يبدو أن الفشل هنا يعود للعوامل الأخرى التي تحيط بإنجاز هذه التجربة ومنها العوامل الفيزيائية ، هنا تصبح الظروف التي تحيط بإنجاز فعل القراءة مؤثرة وفاعلة في تمامها وإخراجها في مظهرها الأخير ، وهذا ما نشهده بالفعل في فعاليتنا القرائية ، إذ تتدخل العوامل المشار لها آنفاً في إنجاز القراءة .

وعلى وفق ما تقدم فإن تحقق هذا النوع من القراءة مرتين بالقارئ والنص والقراءة نفسها ، أي بطرق إنتاج المعنى وعملية القراءة بوصفها الفضاء والفعالية التي يتم عبرها تحقيق إنتاج المعنى وإعادة تكرار النص .

تبرز قراءة الشرح والتعليق عند (الغدامي) في كتابه (الخطبة والتكفير) في قراءته لقصيدة (حمزة شحاتة) (يا قلب مت ظمأ)⁽¹⁾ ، إذ يرى البحث أن القصيدة لا تحمل من الدلالة سوى المستوى الصريح منها ، ولا تجوز أمداء الدلالة الضمنية ، ولا تلج الفضاء الرمزي ، وهي بذلك تحدد نوع قراءتها ومدى التفاعل الذي يمكن أن تحققه مع الذات ، والذي تجسد في فعالية آلية تتوسم الشرح والتعليق .

وأمام معلقة (زهير بن أبي سلمى) يقف (الغدامي) في محاولة استكشاف نسق من أنساق الثقافة العربية مستشهداً بها مع نصوص أخرى⁽²⁾ ، وهنا يتبنى (الغدامي) الرأي القائل بالتناقض الأنساق المزعوم في القصيدة⁽³⁾، إذ يقول ((إن زهير بن أبي سلمى يقع في معلقته بين ذاكرتين متناقضتين ، إحداهما مثالية أخلاقية والأخرى نسقية ، فالمثالية

(1) ينظر : الخطبة والتكفير : 183 - 184 .

(2) ينظر : القبيلة و القبائلية أو هويات مابعد الحداثة : 98 - 99 .

تقول له : ومن لا يتق الشتم يشتم ، أي أن المرء يفترض فيه أن يصون نفسه من الوقوع فيما يجلب عليه ضرراً ، وذلك بضبط سلوكه بعدم الاعتداء ، أي الكف - كما في المصطلح الحديث - ولكن زهيراً وهو يقول هذا يعود ليجد نفسه محاصراً من الذاكرة النسقية ، فيقول : ومن لا يظلم الناس يظلم ، وهذا تناقض صارخ بين قولين يقولهما شاعر واحد في نص واحد⁽¹⁾ ، وهذا ما يمكننا الزعم بأنها قراءة على سطح النص وإن بدت في صورة حفريات لاكتشاف الأنساق ، وما يدعم قولنا هو أن النظر بشكل أعمق ومعاينة المعلقة ضمن مستوياتها المتعددة كنص ستثبت أن هناك الكثير مما يمكن اكتشاف علاقاته وبناء قراءة شاعرية على وفق تصور يوغل في النص أعلاه .

إن سطح النص يشي بتناقض بين القول الشعري (ومن لا يتق الشتم يشتم) و (من لا يظلم الناس يظلم) هذا التناقض الناتج عن قراءة القولين الشعريين على وفق المستوى الظاهر من النص ، ومعيارية القيمة الخلقية المعاصرة والآنية ، بمعنى أننا كثيراً ما نقرأ النصوص بما تحمله من قيم ومفاهيم ونشكل تصوراتنا عن تلك القيم والمفاهيم تبعاً لثقافتنا المعاصرة التي أسست فينا تلك التصورات ، ليكون أفق النص مطابقاً لأفق القارئ وإن اختلف معه في القبول والرفض ، ذلك أن مفهوم مطابقة واختلاف الأفقين لا يتوقف عند مستوى القبول والرفض ، بل إنه ليعني أيضاً التعمق في زمن النص وتاريخ تلقيه وصولاً لمعاينة التصور الدال على القيمة الأخلاقية مثلاً زمن إنتاج النص ، وبكل تأكيد فإن ذلك لا يشكل خروجاً عن النص ، بل إن تلك الفعالية في الارتجاع الزمني تجسد شكلاً من أشكال هوامش النص ، كما هو الحال مع العنونات الرئيسة والفرعية للنص ذاته ، ولذلك نقول أنه يمكننا إعطاء أكثر من قراءة تثبت عدم وقوع التناقض المدعى في معلقة زهير ، ومن تلك القراءات ، أن النسق الثقافي الشائع زمن الجاهلية

الفصل الأول أنواع القراءة.....المبحث الثالث

متجسد في قول زهير (ومن لا يظلم الناس يظلم) وعليه تستند سلوكيات القبيلة العربية وتشعرن القتل والسلب وسبي النساء وما إلى ذلك من الممارسات التي تجذرت في ثقافة الصحراء العربية ، وعلى وفق ذلك فإن هذه الثقافة تفرض على الإنسان القبلي آنذاك الابتداء بظلم الآخر لكي لا يقع عليه الحيف ولتكون قبيلته موصوفة بالمنعة والهيبة وهذه المنعة والهيبة تشكل جزءاً مهماً من سمعته إزاء القبائل الأخرى المتربصة ، وبناءً على ذلك فإن عدم ظلم الآخر يستوجب هتك حرمة والإضرار بسمعته لذا يقول زهير (ومن لا يتق الشتم يشتم) فيكون قوله هذا مطابقاً لقوله الأول ، ذلك أن الإخلال بثقافة ظلم الآخر يستوجب أن يكون ضحية وعندها يوصف بالجبن وتنتهك حرمة ويتعرض لانتقاص الآخرين وهنا يتحقق معنى الشتم أي الانتقاص من سمعته ، ولعل ما يدعم ذلك قول عمرو بن كلثوم :

ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا⁽¹⁾

كما يمكننا افتراض قراءة أخرى قائمة على أن قول زهير (ومن لا يظلم الناس يظلم) هو جنوح للواقع ، فإن القيمة الخلقية المتجسدة في قوله (ومن لا يتق الشتم يشتم) هي قيمة مثالية غير متحققة في بيئة كبيئة الصحراء العربية ، وكأن زهيراً يشير هنا إلى القيمة المثالية غير المتحققة إزاء قيمة متحققة واقعياً ، وهنا يمكننا تصور أن زهيراً يعبر لكلا قوليه عن فلسفته في الحياة والتي تتمثل في (لا واقعية المثالية) وما يؤيد هذه القراءة أننا خلال قراءتنا للنص نجد ركناً إجبارياً فيه يتمثل في قول زهير :

سئمت تكاليف الحياة ومن يعيش ثمانين حولاً لا أبا لك يسأم⁽²⁾

(1) شرح المعلقات السبع ، أبي عبدالله الحسين ابن أحمد الزوزني ، تحقيق : لجنة التحقيق في الدار العالمية ، الدار العالمية ، 1993 : 120 .

(2) شرح المعلقات السبع ، أبي عبدالله الحسين ابن أحمد الزوزني : 82 .

إذ تبدأ القصيدة هنا في مناورة تتمثل في إيراد الحِكم التي تمخضت عنها الثمانون عاماً من التجارب ، كما تشهد القصيدة مغايرة في المخاطبة والحوار مجسداً بحوار داخلي⁽¹⁾ ، إذ تشي الأبيات التي تلي هذا البيت بأنها تستبطن محاورة مع الذات أكثر منها مع الآخر ، ويعزز من استظهار هذه المحاورة الجمل الشرطية بأجوبتها وهذا ما لم يكن حاضراً في الأبيات السابقة لهذا البيت ، إذ الحوار يعتمد على أساليب أخرى لعل السيادة فيها للوصف الذي يخاطب به الشاعر الآخر لا ذاته ، ويجوز إلى مستوى مخاطبة المعلوم كما هو الحال مع أطراف النزاع وأطراف الصلح والساعين به في مدحته لهم .

هذا التمهيد النصي المتمثل في البيت المشار إليه آنفاً ، له دلالة نصية ينعقد على وفقها تأمل جديد وتصور محايث لتمحور أجزاء أخرى من النص حوله ، وبه تتم رؤية مفادها ما قدمناه من عدم وجود تناقض بين القولين الشعريين السابقين ، إذ المعلومات النصية تعطي تصوراً لقراءة النص عبر هذا التمهيد ، إنه يحكي عن واقع تجسد في حادثة معينة تستوجب المدح أو تجربة معاشة أمدها ثمانون عاماً ، ومعها يحكي عن القيم المثالية التي جربتها ذات الشاعر لتخرج بنتائج مثلت وجهة نظر الذات عن الكون والحياة .

ومن هنا تظهر لنا قراءة الشرح والتعليق التي مارسها (الغدامي) إزاء معلقة زهير غير ملائمة لما يحمله النص من حمولات دلالية ، كما أن تحقق مثل هذا النوع من القراءة لم يكن بسبب من النص بل من القارئ وهو الناقد هنا .

• القراءة الشعرية

الفصل الأول أنواع القراءة.....المبحث الثالث

في محاولتنا لاستشراف هذا النوع من القراءة يسعفنا ما قدمناه آنفاً عن النوعين السابقين ، إذ تتجلى القراءة الإسقاطية كوجه من أوجه الممارسة الذاتية المفرطة ، في حين تستبطن قراءة الشرح والتعليق حقيقة سيادة الموضوع في عملية القراءة ، ومن هنا يبدو أننا نمتلك تصوراً بدئياً عما نحن بصدده على وفق علاقة الذات بالموضوع ، حيث تتوسط القراءة الشاعرية بين فاعلية الذات وفاعلية الموضوع بالقراءة ، ولكن هذا التصور المنطلق من علاقة الذات بالموضوع مع كونه تصوراً جوهرياً ينبعث من أصل التأسيس الفلسفي ، لن يكون الحيز الأوحده في التعرف على هذا النوع من القراءة ، وكيفية نجوذه وتحققه ، ولعلنا نحقق بعض المقاربات بين بعض من المفاهيم المعرفية ، والمفاهيم المتعلقة بالنص والقارئ ، سبيلاً لتعرف أدق وأعمق على خصوصيات القراءة الشاعرية .

إن أول ما يمكننا استشعاره بهذا الصدد هو سمة الشاعرية التي تسم القراءة هنا ، وبعيداً عن الخوض في الجدل النقدي حول مفهوم الشاعرية أو الشعرية ، يمكننا أن نتقيد في توصيفنا لهذه السمة بمقاربة مع الشعر ، ذلك أننا نلاحظ ما للشعر من سمة تكثيفية وتفسيرية وتشظية دلالية ، وهنا تبرز القراءة الشاعرية بوصفها فعالية قادرة على فك الشفرات وإعادة تمطيط تركيبة شفرية أخرى ، في السيرورة نحو إعادة إنتاج النص ، وهي قراءة محايثة للتكثيف الدلالي الذي يتسم به النص الإبداعي ، حيث تتجوس النص بقدرتها على مجارة التكثيف الدلالي للنص دون أن يُغييها ذلك عن إيجاد الطرق الكفيلة بفهم معطيات النص والكشف عن احتمالات تعدد الدلالات السابحة في عالم المعنى إلى عالم التصورات الواقعية عبر موصل متزابق كاللغة⁽¹⁾ ، وهي متشظية الدلالة كما هو النص ، إذ لا تقر بأحادية المعنى ، بل هي لا تبحث عن المعنى وليست معنية به قدر

الفصل الأول أنواع القراءة.....المبحث الثالث

عنايتها بعملية إنتاجه⁽¹⁾ ، إذ المعنى هنا موصوف بجاهزيته للاستهلاك ، وبسلبيته تجاه فعالية ذاتموضوعية ، وسمة التشظية الدلالية الممكنة والممنوحة في ومن هذه القراءة الشاعرية تساوق طبيعة النص الإبداعي وتتحرك معه بفاعلية قصوى مناسبة ومناسبة وكفوءة ، مانحة النص ما يلزم من انفتاح دلالي تحدده أطراف عملية القراءة (النص ، القارئ ، القراءة) لتحقيق تلقٍ فاعل وتجاوب بين القارئ والنص .

إننا كقراء نتلمس شفرة مركبة يستبطنها النص ، ويمكننا أن نلمح مشهدين لها ، هما : الشفرة الخاصة بالنص التي تتمثل في شفرة الجنس الأدبي الذي ينتمي إليه النص وشفرة النص بوصفه حاملاً لنمط تركيبى خاص به دون النصوص الأخرى المنتمية للجنس الأدبي ذاته ، أما المشهد الثاني فيتمثل في شفرة الناص ، إذ يستدعي كل ناص شفرة خاصة به تميزه عن غيره⁽²⁾ ، وتؤلف ملمحاً يعرف بالأسلوب⁽³⁾ إن القراءة الشاعرية معنية بكشف مظهري الشفرة أعلاه ، فهي تتموقع في تلك التركيبية المعقدة والمتداخلة التي تشكل شفرة النص كما تبدو ضمن علاقاته ، ومن خلال عملية القراءة الفاعلة ضمن مستويات ومظاهر تلك الشفرة ، وهي تمكن من الوقوف على قدر مهم في التفاعل القائم بين أجزاء المظهر التشفيري للنص ، وبهذا التصور فإن القراءة الشعرية تبدو متمكنة من

(1) ينظر : أ.ي دراسة سيميائية تفكيكية لقصيدة ابن ليالي لمحمد العبد آل خليفة ، عبد الملك مرتاض ، ديوان المطبوعات الجامعية ، 1992 : 14 .

(2) ينظر : اللغة في الأدب الحديث ، الحداثة والتجريب ، جاكوب كورك ، ترجمة : ليون يوسف وعزيز عمانويل ، دار المأمون ، بغداد ، 1989 : 25 .

(3) ينظر : بنية اللغة الشعرية ، جان كوهين ، ترجمة : محمد الولي ، محمد العمري ، دار توبقال للنشر ، 1986 :

الفصل الأول أنواع القراءة.....المبحث الثالث

مستوى النص العميق ، غائرة في بنياته التي تحاول مناورة القارئ وإخفاء ما يمكن إخفاؤه لتحفيز القارئ واستدامة توتره إزاء النص .

إن الشفرة الخاصة بالناصر تستحوذ على أهمية كبرى لفهم معطيات النص ، لا أقل من فهمنا وإدراكنا أن لكل شفرة خصوصيتها خارج الخصوصية الأخرى لشفرة الجنس الأدبي ، ولأنها تمثل المعطى الآخر في شفرة النص النهائية التي يماحكها القارئ بالقراءة ، ويمكننا فهم خصوصية شفرة الناصر بالارتكاز على (مارسال بروسست) الذي يقول : ((ليس الأسلوب مجرد تقنية بل هو رؤية))⁽¹⁾ ، إذ ليس كما يبدو في تصور ما أن الأسلوب - أي شفرة الناصر - يتحقق ويتجسد كآلية لإخراج نص ما أو مجموعة نصوص ، بل الأمر يتعداه لمستوى التعبير عن الذات ، وبالتأكيد فإن تعبير الناصر عن ذاته يستجلب علاقة القصديّة وعرفها وكذلك علاقة الشعور واللاشعور ، وعلاقة الوعي واللاوعي ، وبعبارة أخرى عملية تشيؤ الرؤية وإعطائها أبعادها داخل النص ، وإذا كانت القراءة الشاعرية تقف على مستوى محاورة شفرة النص بمظهرها ومستوياتها المتعددة فيمكننا مقاربتها مع الشفرة الخاصة بالناصر والمعبر عنها بالأسلوب ، فكما أن الأسلوب في حقيقته وبعده متجاوز لمفهوم الآلية والتقنية المدركة على وفق هذا البعد فحسب ، فإن القراءة الشاعرية تمتاز بأنها ليست فعالية آلية ومقننة ضمن قالب إجرائي محدد مسبقاً ، بل إنها تمثل رؤية القارئ الناتجة عن التفاعل المستمر مع النص ، والتي تتسم بأبعاد متعددة غير مقيدة .

إن افتراض استبطان الأسلوب لرؤية الناصر بممارسة تشفيرية يقابلها افتراض قدرة وكفاءة القراءة الشاعرية على محاورة تلك الرؤية عبر فك الشفرات ، وتحليل مستويات

(1) مقومات الخطاب التأويلي ، أ.د محمد بن عياد ، أعمال ندوة القراءة وإشكالية المنهج ، جمعها وقدم لها : د.

الفصل الأول أنواع القراءة.....المبحث الثالث

النص ، وكما يمكننا إعطاء تصور عن شفرة النص يتجاوز مفهوم القولية المعدة والمحدودة الأبعاد يمكننا أيضاً وصف القراءة الشعرية بأنها مستطيلة الأبعاد ضمن علاقة التكافؤ بين النص والقارئ حتى لا يحدث امتصاص النص للقارئ والقارئ للنص - بمفهومه السلبي - والمنتج لضياح أحد الطرفين في الآخر وتشتته في سيرورة القراءة .

ومعه فإن المنهج النقدي لا يستطيع لوحده إضفاء صفة الشعرية على القراءة دون أن تكون - القراءة - معبرة عن رؤية القارئ ضمن امتدادها الذي تصورناه⁽¹⁾ ، ولعل هذا أحد الأسباب التي تجعلنا لا نستطيع قراءة نقدية لنص إبداعي ولا نشعر أنها حققت مفهوم إعادة تكرار النص وإنتاجه على الرغم من تسليحها بالمنهج .

إذن نحن أمام قراءة تتسم ببعد متجاوز لمفهوم التقنية ، متحقق ومحقق لرؤية القارئ وهي تتحقق بتجاوزها مرحلتين من مراحل الاحتكاك والتفاعل مع النص .

تتجسد المرحلة الأولى في الكشف عن المستوى الظاهر في النص ولإدراك الاختلاف والتوافق بين معطيات النص التي تشكل صورته إزاء القارئ ومعطيات القارئ التي تشكل تصوره الخاص ، إذ المفاهيم التي يعبر عنها النص والمفاهيم التي تختزنها ذات القارئ توطر علاقة توترية بين النص والقارئ ريثما يتم إنجاز القراءة بشكل نهائي مستند لطبيعة الاختلاف والتوافق بين المفاهيم التي يتبناها النص والمفاهيم التي يتبناها القارئ .

أما المرحلة الثانية فتتجسد في فعالية التأويل المستندة للاستبدال والإقصاء والتقريب تبعاً للاختلاف والتوافق الحاصل في المرحلة الأولى ، وهذه الفعالية التأويلية تمكن من حدوث تداعٍ دلالي بعد فك الشفرة الأولى من شفرات النص والذي يستدعي انفعال هذا التداعي

الفصل الأول أنواع القراءة.....المبحث الثالث

بتداعيات أخرى ، لتتشكل وتتربط أجزاء التصورات المفضية لتصور نطلق عليه قراءة للنص .

إن ما تقدم يرسم لنا فعالية القراءة الشاعرية وكفاءتها إزاء النص الإبداعي ، فهي مكافئة لطبيعة ذلك النص ومستوياته المتعددة .

ولكشف جانب آخر من ماهية هذه القراءة وفعاليتها ، نستعير مفهوم بؤرة النص في دلالاته الفنية لنحدد تموقع القراءة الشاعرية ، ببؤرة النص التي تتمحور حولها أجزاء النص الأخرى والمعبر عنها بالوحدة الأساسية للنص تتسم بالاتساع والتمدد المحايث للتنوع الدلالي ، وهي المحدد النصي الرئيس في النص ، وحين نعبر عنها بالمحدد نستدعي لأذهاننا فوراً - على وفق العلاقة المنطقية - مدركاً ما ، إذ لا بد أن نحدد ماهية شيء ما بفعل مدرك⁽¹⁾ ، وهنا تكون بؤرة النص بوصفها محدداً نصياً مدركة من ذات القارئ التي تحتكم لتجربتها القبلية السابقة عن التقائها بالنص الحالي ، وعليه فإنه يمكننا تصور توقع القراءة الشاعرية بأنها تتموضع في نقطة التماس بين النص والقارئ ، فكما تتمحور المحددات النصية حول بؤرة النص ، تتمحور المحددات القرائية الذاتية حول نقطة التماس بين القارئ والنص ، هذا الموضع الذي تشغله القراءة الشاعرية المتوسطة بين القارئ والنص ، وبين الذات والموضوع ، لتحيين لحظة التقاء تستوعب التمايز بين كل من المحددات النصية والمحددات الذاتية ، وتمنح كل طرف حقوقه في إنتاج المعنى وإعادة تكرار النص وبالخروج من التوصيف الماهوي للقراءة الشاعرية ، ودخول حيز إمكانها وتحقيقها الفعلي فإنه يمكن القول بأنها مرتبهة بذات القارئ المدركة والواعية والمستوعبة لأدوات مداخلة النص ومعايشته ، والتمكنة من الكشف عن أسرار النص

(1) ينظر : فلسفة البلاغة ، ريتشاردز ، ترجمة : ناصر حلاوي وسعيد الغانمي ، مجلة العرب والفكر العالمي ، العدد

الفصل الأول أنواع القراءة.....المبحث الثالث

عبر علاقاته ، ومرتهنة بنص إبداعي يجوز دلالات ضمنية ، ويوظف التقنيات النصية المتعددة كالترميز والتناسل⁽¹⁾ ويتسم بالتكثيف الدلالي ، ليكون كل من القارئ والنص مؤهلاً لحدوث القراءة الشاعرية .

وبدخولنا الحيز التطبيقي ننفث على قراءة (الغدامي) لألف ليلة وليلة ضمن كتابه الموسوم بـ(المرأة واللغة)⁽²⁾ ، إذ يقول مخالفاً آراء جملة من النقاد الذين يرون بأن فعل الحكيم هو السبب في دفع الموت عن شهرزاد⁽³⁾ ((ولكن نص (ألف ليلة وليلة) يقدم إجابة أخرى أفضت إلى نجاة شهرزاد ، وهو تحويلها (أم) لثلاثة ذكور مما دفع شهرزاد إلى إقامة حفل زفاف في الليلة الأخير))⁽⁴⁾ ، فـ(الغدامي) إذن يقرر سبباً آخر معارضاً لفعل الحكيم ، إنه الإنجاب وهو في رأيه هذا ينطلق من فعالية الكشف عن صورة المرأة في الثقافة العربية ، ولا بد هنا من الإشارة إلى أن قراءته لألف ليلة وليلة قراءة موصوفة بالتميز والشاعرية ، إلا أننا نقف وقفتنا هذه لتتبع هذه القراءة وصولاً لإعطاء تصور إجرائي لهذا النوع من القراءة .

إن أول إشكال يمكن طرحه على قراءة (الغدامي) هنا يتجسد في القول بالإنجاب سبباً لدفع الموت عن شهرزاد ، إذ لو صح ذلك لكان أول ذكر تلده كافياً لنجاتها ، ما المبرر إذن لولادة ثلاثة ذكور ؟ إن التحول والتغير في ((وظيفة المرأة من مجرد زوجة

(1) ينظر : : النص حساسية ما بعد الحداثة : 15 .

(2) ينظر : : المرأة واللغة : 74-79 .

(3) ينظر : ألف ليلة وليلة في نظرية الأدب الإنجليزي ، محسن جاسم الموسوي ، مركز الاتحاد القومي في بيروت ، 1986 : 8 .

وجسد إمتاعي ، إلى [أم]⁽¹⁾ يتحقق بالولادة الأولى لها ولا يقتضي تعدد الولادات لتكون وظيفتها متغيرة ومختلفة عن السابق ، وهنا لا بد من القول من أن سبباً آخر خفياً يقف وراء الاختيار السري الذي يطلعنا على أن شهرزاد ولدت ثلاثة ذكور ، لماذا ثلاث لا غير ؟ هناك أبعاد نصية لا بد من مداخلتها للوقوف على جوانب مهمة في ألف ليلة وليلة ، لعل أولها العنوان (ألف ليلة وليلة) ، إذ إن أول ما يخطر في أذهاننا لحظة التقائنا بالعنونة هو علاقة الزيادة الكمية المعبر عنها بأسلوب العطف الذي يعطف ليلة على ألف ليلة ، وكأن لا مائز لليلة الواحدة الأخيرة عن غيرها ، وعند إتمام قراءة ألف ليلة وليلة لم يطرأ على تصورنا هذا سوى طارئ طفيف يتجسد بكونها الخاتمة والنهاية التقليدية السعيدة ، أو هي محصلة ليالي الحكيم ألف ، ولكن هل لنا أن نتصور علاقة أخرى بين الليلة والألف ليلة منطلقين في تساؤلنا : لماذا ألف ليلة وليلة ؟ لا أكثر ولا أقل من ذلك ؟ وما السر العددي وراء هذه العنونة ؟ .

إن زمن الحكيم يمثل هو الآخر قيمة عددية ، إذ إنه امتد ليشغل حيزاً زمنياً ممثلاً بسنتين وثمانية أشهر وستة وعشرين يوماً ، ليحدد رقمياً الأعداد (2 ، 8 ، 26) وعلى وفق حاصل جمعها نخرج بالعدد (36) ولإعطائه قيمة تمثلية ارتباطه بالنص نفترض كونه (36) شهراً ، أي ثلاث سنوات بالضبط وهو ما يساوي عددياً عدد الذكور الذين ولدتهم شهرزاد فالقيمة المنقوصة في مقاربة الثلاث سنوات والمتجسدة بالأرقام (2 ، 8 ، 26) تساوي على وفق معادلة حسابية بالجمع ثلاث سنوات بالفعل ، وهذا الافتراض يؤيد ارتكازاً في قراءتنا للعنونة إذ هي مجسدة بالرقم (1001) وبتحليله لعنصريه المشار إليهما في العنونة نكون إزاء عددين هما (1000) و (1) ، ألف ليلة وليلة ، إن القيمة الحسابية للعدد (1000) تتجزأ بدورها إلى أربعة عناصر هي ، العدد (1)

والأعداد (0 ، 0 ، 0) على التوالي ، ويمكننا الإفضاء إلى معادلة مؤداها هو 1000 = 1 ، بالرجوع للعنونة وهو ما نحن بصدد تناوله ، وكأن العنونة تشير إلى معنى آخر غير المعنى الذي يستجلب من تصور الزيادة الكمية ، إنه معنى متأتٍ من تصور علاقة المساواة وهي علاقة ليست طارئة أو جديدة على الثقافة العربية التي تستمد كيائها من الثقافة الإسلامية ، وتعيد صياغة معاني القرآن الكريم في وسائل تعبيرها المتعددة ، وكأن إزاء قوله تعالى ((ليلة القدر خير من ألف شهر)) إننا نفترض وجود مثل هذه العلاقة في العنونة معتمدين على فرضيات تناص لا أقل من ذلك ، إذن ما تشير إليه العنونة يمكن أن يكون مؤداه أن ألف ليلة تتساوى مع ليلة واحدة أو أن ليلة واحدة قد تفضل ألف ليلة ، وهذا ما تدعمه القراءة لألف ليلة وليلة ، إذ الزفاف الذي أقامه شهریار يشير بصراحة لانتصار المرأة ومساواتها مع الرجل بل أفضليتها عليه لا كزوجة فحسب بل كملكة متوجة تحمل من معاني السيادة قيمة تفوق قيمة الزوجة التي إن سادت فلن تخرج سيادتها عن نطاق منزلها ، إنها ملكة مسيدة على الرجال ومساوية لأربعة رجال منهم (شهریار وأبناءؤه الذكور) ، إذ بالرجوع إلى العدد (1000) المسجد للحالة الذكورية في العنونة وجدنا أنه تكون من أربعة أعداد كما أشرنا ، هو العدد (1) والقيمة الصفرية المطلقة واللامتناهية المعبر عنها بالترار لثلاث مرات ، هي في حقيقتها قيمة معلومة (1) تمثل شهریار الحادث والموجود زمن الحكي الأول في أول ليلة ، وقيم صفرية مطلقة تكونت في رحم المرأة التي تحكي ثقافتها بأنساق مضمرة خفية أشد الخفاء وهي تنتقل ليلة بعد أخرى لتلد قيماً ذكورية مطلقة ، وما دامت الثقافة حاضرة بأنساقها ومادام التناص فاعلاً في كل نص تتجزه الثقافة ألا يمكن تصور أن قيمة التصنيف التي مورست ضد المرأة ستكون حاضرة هنا ، إن التعميم الثقافي الجائر الذي قوّل عملياً النص القرآني في

الفصل الأول أنواع القراءة.....المبحث الثالث

الوراثة لجعل المرأة نصف الرجل في كل التصور الماهوي لها ، حفز الثقافة الأنثوية المتجسدة هنا بشهرزاد حاكية للتأثر وبنفس القيمة الثقافية المتعارفة عند العرب الذين يثأرون بالضعف ، وجعلت المرأة المعبر عنها بـ (ليلة) تعادل وتساوي (ألف ليلة) أي أربعة رجال هم (شهریار وأولاده الذكور الثلاثة) ، هكذا يمكن أن تتأثر المرأة بالضعف ، بل إن المشهد ليزداد انفعالاً حين نفهم الدور الذي قامت به شهرزاد خارج التصور المنطلق من وظيفة الحكي أو وظيفة الزوجة ، إنها صانعة للرجل ومكونة لذاته ، فما كانت الليالي الألف إلا إعادة لتشكيل ذات الرجل ممثلاً بشهریار ، لقد كانت شهرزاد تمارس تكوينه من جديد في رحم الحكي ، كما فعلت مع أطفالها المتشككين في رحمها الذي يعد أخص خصوصيتها ، هكذا تكون شهرزاد المرأة صانعة لأربعة ذكور وسيدة لجميع الذكور ومساوية لأربعة ذكور ، وإن كانت قد وصفت المرأة بالنقص في ثقافة قمعتها فقد عوضت أنساقها المضمرة ذلك بآلة الحكي لتتقص زمن الحكي الذي يمثل الحيز للزمن لصناعة الرجل خلال ألف ليلة لتكون منقوصة عن ثلاث سنوات المقابلة لثلاثة ذكور ، ولنعوض القيمة بحاصل الجمع ، وكأنها - المرأة - تشير لصفة جوهريّة في كينونتها وهي المنح والهبة ، فهي واهبة للحياة ورحم الخصب والنماء تمنع وتهب أنى شئت وكيفما شئت .

لم نكن بصدد هذه القراءة إلا لبيان أن القراءة الشاعرية محكومة ومرهونة بمعطيات الذات والموضوع ، القارئ والنص ، ومع أن قراءة (الغدامي) كانت في أغلب أجزائها شاعرية ، لكنها اصطدمت بأول فرضية افترضها ، وهي فرضية الإنجاب واختلاف وظيفة المرأة ، فلو كان الحكي يمد في انتظار شهریار ويمنع القتل فإن الحمل يجعله إزاء مجهول كالمجهول المؤجل لليلة أخرى من الحكي ومعه تكون دلالتها الأولى مدعاة

الفصل الأول أنواع القراءة.....المبحث الثالث

لانتهاه الانتظار ووقوع السيف وهذا ما لم يحصل ، إذن فرضية اختلاف وظيفة المرأة كانت فرضية ارتكازية في قراءة (الغدامي) لألف ليلة وليلة ، ويتناقض معطيات النص معها تسقط القراءة ، ولعل البحث يرجع السبب في ذلك لتجاوز الناقد حقيقة التصدع الذي يعاني منه ركنه الركين في قراءته وهو اختلاف وظيفة المرأة ، وثمة سبب آخر يتمثل في الانطلاق من موضوع صورة المرأة في الثقافة العربية وفق تصور قبلي قائم على بعض النصوص حتى إذا ما تمت مداخلة ألف ليلة وليلة كان (الغدامي) معنياً بمداخلته لا بوصفه موضوعاً أو نصاً يستدعي إدراكاً واعياً من ذاته القارئة ، بل إنه بقي ضمن حيز موضوعه الرئيس وهو صورة المرأة في الثقافة العربية وهو يقرأ نص ألف ليلة وليلة .

إن التلقي بوصفه فعالية إدراك واعية يحقق لدى الذات المتلقية للموضوع لحظة التقائها به استفهاماً أولياً يتأطر ضمن علاقة التماثل والاختلاف ، إذ كل شيء سابق على الموضوع المدرك آنياً تشكّل بالفعل في العالم المدرك من الذات على وفق هذه العلاقة ، فهناك حتماً أشياء مُدركة سابقاً عن الموضوع الحالي مؤتلفة وأشياء أخرى مختلفة ، هذه العلاقة - أي التماثل والاختلاف - تقودنا لحقيقة السياق بوصفه إطاراً ضاماً لمُدركات تشكّلت على وفق علاقة التماثل النسبي ، وكل ما يخرج عن هذا التماثل يُعبر عنه بالمختلف ، ودلالة الاختلاف تقودنا منطقياً لعلاقة المقارنة بشيء ما ، هكذا يتضح لنا حين تقودنا ذواتنا لتقرير إدراك ما موجود على أنه مختلف ، فإن هذا التقرير ناتج عن مقارنة مع سياق ضام لعناوين مُدركة اختلف عنها ذلك الموصوف بالمختلف ، على أن توصيف المختلف قد يدخل ضمن سياق ما أو قد يخرج بحسب العلاقة قريباً وبعداً عن السياق الآخر المقارن به .

هكذا يمكننا القول أن ما نعينه هنا بالسياق كمفهوم مضاف للتلقي والقراءة⁽¹⁾ هو كونه إطاراً ضاماً لمجموعة معينة من المدركات التي تحققت بفعالية الذات المدركة الواعية تجاه موضوعاتها ، على أن هذا السياق يختلف مفهوماً حسب موازاته لمفاهيم أخرى ودخوله حيز المناقشة المعرفية بإضافته لمفهوم آخر ، فتارة يكون السياق مفهوماً معبراً عن الجنس الأدبي ، وتارة أخرى يعبر عن ثقافة مجتمع ما ، وهكذا ، ولأننا هنا معنيون برصد علاقة السياق بالقراءة ، ولأن الأخيرة متحققة كفعل من ذات بإزاء موضوع ما أو من القارئ باتجاه نص ما ، سيكون حديثنا عن السياق منطلقاً من زاوية النص، ومن زاوية المتلقي ، أي تلك

(1) ينظر: معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة .د.سعيد علوش ، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط / 1، 1985 :

العلاقة التداخلية بين النص ومتلقيه , وكيف يمكن للسياق أن يكون حاضراً ومشروطاً لتحقيق القراءة كمفهوم قرّ في نظرية التلقي.

ولابد من التنويه إلى أننا نتناول مفهوم السياق بوصفه إطاراً مرجعياً لفعل التلقي بكلا شقيّه , المتلقي والنص⁽¹⁾ , ولسنا معنيين هنا بتناوله موصوفاً أو مضافاً للمنهج النقدي , إذ لسنا بصدد مفهومه كمنهج معروف بالمنهج السياقي ولا كنقد سياقي⁽²⁾ , وبهذا يرتفع اللبس الذي قد يحصل في مقارنة مفهوم السياق لمفاهيم أخرى أو مقارنته بها , كما قد يحصل في مقارنته بوصفه قراءة بالقراءة النسقية مثلاً⁽³⁾ .

وإزاء النص يبرز السياق بوصفه إطاراً مرجعياً للنص , يرتبط به الأخير بعلاقات إشارية وإحالية⁽⁴⁾ , وتعدد مستويات العلاقة به كالمستوى اللغوي والدلالي , ويتحقق توصيف النص من خلال علاقة التماثل والاختلاف معه.

أما إزاء المتلقي فإنه - المتلقي - مرهون في إدراكاته للنصوص بسياقه الثقافي الراهن الذي يعاوده بشكل مباشر أو غير مباشر ليغذي مفاهيمه التي يستند إليها في تلقيه⁽⁵⁾ , وبهذا التصور يمكننا إعطاء صورة عن حركية التلقي بحضور السياق , تلك الحركية ذات الأبعاد المكثفة والمعقدة التي ترسم علائقية بين

(1) ينظر: أثر السياق في توجيه المعنى في كتاب (معاني القرآن) للفراء , علاء عبد الأمير شهيد , رسالة ماجستير , جامعة القادسية , كلية الآداب : 22-29.

(2) ينظر: دليل الناقد الأدبي . د. ميجان الرويلي و د. سعد البازعي , المركز الثقافي العربي , الدار البيضاء , المغرب , ط / 3 , 2002 : 320.

(3) ينظر: القراءة النسقية - سلطة البنية و وهم المحايثة , أحمد يوسف , الدار العربية للعلوم - ناشرون , منشورات الاختلاف , الجزائر , ط / 1 , 2007 : 11.

(4) ينظر: المعنى وظلال المعنى - أنظمة الدلالة في العربية : 404-405.

(5) ينظر: السيميائية وفلسفة اللغة , أمبرتو إيكو , ترجمة د. أحمد الصمعي , المنظمة العربية للترجمة , بيروت , ط / 1 , 2005 : 126 . 128 .

المتلقي والنص ، وتمشهد الفعالية القرائية بوصفها مدماك تلك الحركية الناشئة على وفق اصطدام المتلقي بالنص ، والمتغذية دوماً من السياقات المحيطة والضّامة لكلا طرفي إنتاج المعنى، القارئ والنص، والعملية القرائية بوصفها فعل التحقق⁽¹⁾ .

إن أية عملية تلقى من ذاتٍ لموضوعٍ تحقق حضوراً لسياق ما⁽²⁾ ، والأمر يبدو واضحاً حين نقرأ رواية أو نشاهد عملاً درامياً ما ، كما لو فرضنا أن القصة تضم عناصر خيالية وأمكنة وأحداثاً وأزمنة وشخصاً واقعيين على مستوى التصريح التاريخي أو الوجود الفعلي ، فكيف يمكننا كمتلقين أن نعطي تصوراً عن العناصر الخيالية تلك ؟ ، وبشكل أكثر تعقيداً كيف يمكننا أن نحقق فعل الدمج بين تلك العناصر والعناصر الواقعية المتموضعة معها ؟ ، ولعل الإجابة تكمن في السياق ، إذ المعطيات المتوافرة من العناصر الواقعية تتحقق إدراكياً على وفق تصورات ذاتية سابقة تشكلت في الذات على شكل سياقات معينة لها طبيعة مخصوصة في الذات ، وهذا ما يساعد على تشخيص العناصر الخيالية بوصفها عناصر مختلفة عن السياقات السابقة ، ومع تكرار التجربة مع تلك العناصر الخيالية تتشكل سياقات مخصوصة لها في الذات الواعية المدركة لتتم بعدها عملية تلقي مثل تلك العناصر على وفق علاقة التماثل والاختلاف ، بهذا المعنى يصبح كل تلقى لمعلومات نصية مرهونا بسياق أو سياقات معينة متشكلة في الذات ، وعلى الجانب الآخر فإن إدراكنا للنص مرهون بتوصيف أولي عن النص، عن جنسه ، ومدى توافقه مع أعمال سابقة عليه واختلافه معها⁽³⁾ .

(1) ينظر: القارئ وسياقات النص ، لحسن احمامة ، منشورات دار الثقافة ، الدار البيضاء ، ط / 1 ، 2007 : 13-

16.

(2) ينظر: الأدب المقارن ، محمد غنيمي هلال ، دار العودة ودار الثقافة ، بيروت ، ط / 5 : 137.

(3) ينظر: القارئ وسياقات النص : 24 .

وهذا لا يعني أننا بصدد خارج النص بل إن الأمر يتعلق بعملية التلقي وفعالية القراءة بوصفهما متحققتين بإزاء النص لا متجردتين عنه ، فالنص هو المحفز للمتلقي لتحقيق إنجازهِ ، وإنما ينطلق المتلقي من معطيات النص لا من خارجه ، وهو خلال سيره في قراءة النص يعاود تلك المعطيات النصية ويأشر قراءته في كل مرحلة على وفق العلاقة التي أوضحها البحث في الفصل السابق بين القارئ والنص .

إن علاقة النص بسياقه المرجعي في كل أشكاله وتصوراتهِ ليست علاقة سلبية بمعنى أن النص يركز ويستند للسياق دون أن يضيف بدوره إضافة لذلك السياق ، بل على العكس تماماً إذ النص بما يطرحه من اختلافات مع السياق يثير إمكانيات متعددة للتغيير فيه ⁽¹⁾ ، وشيئاً فشيئاً تصبح الاختلافات مع السياق والتي تطرحها نصوص متعددة وبشكل تتابعي قادرة على تغيير السياق ، بل وطمسه أحياناً ، وبعث سياق آخر أحياناً أخرى ، وهذا ما نشهده في اندثار أجناس أدبية وظهور أخرى ⁽²⁾ ، مما يشير لعلاقة تفاعلية وإثرائية بين النص وسياقه.

إن مفهوماً نقدياً راسخاً كالتنّاص ليشير بوضوح لما نقدمه بخصوص السياق ، إذ كيف يمكن أن نتصور هذا المفهوم خارج علاقة سياقية ما ؟ إن التنّاص بأشكاله ومستوياته المختلفة يوضح العلاقة المتبادلة بين نصين أو أكثر وصولاً لثقافة كاملة على وفق هذا المفهوم - التنّاص - ويؤيد وجود العلاقة السياقية

(1) ينظر: الخطاب النقدي عند عبد الملك مرتاض بحث في المنهج والإشكالية ، يوسف وغليسي ، إصدارات رابطة الإبداع الثقافية ، الجزائر ، ط / 1 ، 2000 : 33.

(2) ينظر: اللغة والمعنى والسياق ، جون لاينز ، ترجمة د. عباس صادة الوهاب ، دار الشؤون الثقافية العامة ، آفاق عربية ، العراق ، ط / 1 ، 1987 : 215 .

ويؤكد حضورها (1) فالنص الراهن ينبثق عن ثقافة ما تتولى الشرعة لأدبيته , وهو معبرٌ عن حضور هذه الثقافة فيه بشكل مباشر أو غير مباشر, كما أن النص الراهن يتداخل بشكل لا نهائي مع نصوص أخرى تشكل سياقاً ما يقارن به النص الراهن وصولاً لتعريف علاقته به ومدى انسجامه واختلافه معه , ذلك ما يبرز حين نكون بإزاء تناص اجتراري يعيد فيه النص الراهن تبني وجهة نظر السياق , وبإزاء تناص حوارى يباشر فيه النص إعطاء تصور مخالف لوجهة نظر السياق ويمنح المتلقي فرصة محاورة الأفكار والآراء السابقة التي تبناها السياق بشكل صارم , مما يمنح فرصة لبدء التغيير والخروج عن السياق , ولكن كل ذلك يجري بناءً لتصورنا للعلاقة السياقية , وهذا ما يعنيه البحث من حديثنا هنا بأن السياق حاضر ومتحقق فعلاً في كل عملية تلقى لنصٍ ما بالمفهوم الواسع للنص (2) .

والسياق حقيقة حاضرة في آلية الوعي الذاتى , فما أن تصطمم الذات بموضوعها الأول حتى يكون الموضوع التالي مرتين بإدراك الأول , وهنا تبحث الذات وبشكل آلي عن توافقاته مع الأول واختلافاته معه (3) , وبهذه الكيفية يتشكل السياق ويمارس سلطته في تشكيل تصورات الذات اللاحقة إلى حد بعيد عبر عملية المقايسة التي تجنح إليها الذات في إدراكاتها للمواضيع المختلفة.

وإذا كنا ((لا نستطيع بوصفنا بشراً أن نفكر في شيء لا تسمح به كفاءتنا اللغوية كما أننا لا نستطيع أن نتواصل حول شيء لا نستطيع التفكير فيه, فنحن محكومون إلى مدى معين في أفكارنا وأفعالنا باللغة التي نعرفها وهيكلت رؤيتنا

(1) ينظر: مدخل إلى علم النص ومجالات تطبيقه د. محمد الأخضر لصبيحي , منشورات الاختلاف , الجزائر ,

الدار العربية للعلوم ناشرون , بيروت, لبنان, ط 1/ , 2008 : 102-103.

(2) ينظر: الأصول, تمام حسان, دار الثقافة , الدار البيضاء, ط 1 , 1411هـ : 68-69.

(3) ينظر: بؤس الأيديولوجيا, كارل بوبر, ترجمة عبد الحميد صبرة ط 1/ , دار الساقى , بيروت, 1992 : 44.

للعالم)) (1) نعم محكومون ، ودرجة تجعل أحكامنا مستندة لتلك السياقات التي تتعدد أشكالها ومستوياتها ، فإن لنا أن نتساءل أين يمكن أن يكون النص دالاً ، هل يمكن أن يكون دالاً داخل المفهوم النصي فقط ، أم داخل مفهوم الأدبية ؟ ، وبمعنى آخر أننا لو افترضنا وجود النص خارج اللغة بوصفها أداة إفهامية عامة تتجاوز أطر الكلام لكل ما يمكن أن يكون علامة ، هل يمكن هنا أن يكون دالاً ؟ هل يمكن أن تعدّ العلامة دالة على شيء ما ؟ وبالطبع لا يمكن تصور ذلك لأننا مع اعتباطية اللغة ندرك جيداً أن هناك تواضعاً إجماعياً بين الجماعة الموصوفة بثقافة معينة على دلالة معينة للعلامة في تصور المعنى الأحادي أو المنطقي الأرسطي ، وتكتسب العلامة دلالاتها الأخرى تبعاً لأعراف الجنس الأدبي أو المواضعة الفنية المرتكزة لأصول الدلالة ، كل هذا والعلامة لا تدل خارج مفهوم اللغة ، لأن اللغة هنا هي المواضعة الاتفاقية في ثقافة ما على دلالات العلامات ، أليس لا تعني الإشارة المرورية الحمراء على التوقف إلا بناءً على تواطؤ اجتماعي ما على دلالاتها ؟ وهنا لا بد أن تكون العلامة دالة داخل اللغة بمفهومها الواسع وحسب ، واللغة هنا تجسد سياقاً يمنح العلامة دلالاتها ، وعليه فإن السياق يتحكم على مستوى بعيد بتلقي النص الأدبي ، نعم الأمر لا يقتصر على السياق فحسب في تلقي وقراءة الأعمال الأدبية الإبداعية وإنما يركز على عوامل أخرى كالجنوسة والتركيب وغيرها ، وهذه العوامل الأخرى تعدّ سياقات هي الأخرى .

إن ما ظهر على وفق ما افترضه البحث أعلاه بأن اللغة أداة إفهامية يزداد تعقيداً ومن ثم تأكيداً على حضور السياق لو كنا بإزاء مفهوم آخر للغة منطلقين

(1) فلسفة اللغة واللسانيات ، نور الدين النيفر ، مؤسسة أبو وجدان للطبع والنشر والتوزيع ، ط / 1 ، 1993 : 148

من (غادامير) الذي يقول ((لا يمكننا أن نفكر إلا بوساطة اللغة))⁽¹⁾ ويربط تحقق الوجود بإمكان اللغة لا كأداة وإنما ((الحصول على حميمية ومعرفة بالعالم نفسه))⁽²⁾ إذ اللغة هنا تحقق وجود العالم الذي ندركه بوساطة التفكير الضام لعملية الإدراك الواعي ، التفكير الذي لا يمكن تحقيقه إلا بوجود اللغة ، ومع القول بأن اللغة سياق من السياقات وعلى جانب مهم منها يتضح ما للسياق من دور في عملية القراءة والتلقي للنص⁽³⁾ ، هنا يتضح أن أي إهمال للسياق بمفهومه الواسع والمتعدد الأشكال والمستويات لا يحقق القراءة الموصوفة بكونها عملية لإنتاج المعنى وإعادة تكرار النص ، ويفقد عملية التلقي جانباً مهماً من جوانب إدراك النص والتفاعل معه قرائياً⁽⁴⁾ .

إن الطابع التمثيلي والترميزي للنص يبعث رؤية أخرى كاشفة عن أهمية السياق في تحقيق قراءة فاعلة للنص ، فالطابع التمثيلي يحدث لدى القارئ عملية مماثلة تصويرية لتحقيق صورة المعطى النصي في حدود التمثيل الذي حفّز القارئ لتلك المماثلة ، وبرجوع القارئ لذاته فإنه يحقق هذه العملية من خلال مخزونه عن طبيعة تلك التمثيلات النصية⁽⁵⁾ ، وبعبارة أخرى فإن ما يقدمه النص بهذا الصدد يشكل تجربة جديدة للقارئ ولا بد - في سبيل التعرف عليها - من إطار مرجعي مكوّن مسبقاً لتحقيق التوافق أو الاختلاف مع التمثيلات النصية⁽⁶⁾ ، فبين القارئ والنص ارتجاع لسياق التجربة القبلية بوصفها سياقاً

(1) الإنسان واللغة ، هانس جورج غادامير ، ترجمة عبد العلي الزمي ، مجلة الثقافة الأجنبية ، العدد 4 ، 2009 : 21.

(2) المكان نفسه .

(3) ينظر: الأصول : 250 .

(4) ينظر: النص والسياق الشعري من البنية إلى القراءة ، علي أيت أوشان، دار الثقافة ، الدار البيضاء ، المغرب ط /

1 ، 2000 : 18 .

(5) ينظر: نظرية التأويل ، مصطفى ناصف، النادي الأدبي الثقافي ، جدة ، السعودية ، ط / 1 ، 2000 : 201.

(6) ينظر: بلاغة الخطاب وعلم النص ، صلاح فضل ، عالم المعرفة ، الكويت ، 1992 : 246.

مرجعياً يحقق التواصل بين النص والقارئ ، أما الطابع الترميزي فيحيل القارئ إلى توصيفات ودلالات الرمز من مخزون الثقافة التي ينتمي إليها ⁽¹⁾ ، وبفضل هذه الإحالة يلج القارئ القناة الترميزية للنص ليحيل دلالاته المتكاثفة لإمكانات التوافق مع معطيات النص الأخرى لإعادة تكرار النص وإنتاج المعنى ، وهو - القارئ- في فعاليته القرائية ضمن الطابع التمثيلي والترميزي للنص محكوم بالسياق الذي أوضحناه بصفته المرجعية.

ولأن مفهوم السياق يتسع وتتعدد أشكاله ومستوياته ، سيحدد البحث العناية ضمن هذا المبحث بأشكال محددة منه على وفق طرفي عملية التلقي والقراءة ، المتلقي أو القارئ ، والنص ، والقراءة بوصفها علاقة تحقق وإمكان للنص ، وهنا نحدد مفهوم السياق بالجنس الأدبي ، والشفرة الجماعية لتجربة أدبية مخصوصة بميزات تميزها عن غيرها من التجارب ، وما يداخل الجنس الأدبي والشفرة الجماعية من شفرة الناص (الأسلوب) ، وشفرة النص ، كما أن البحث سيتناول السياق السوسولوجي الذي يؤثر عملية التلقي ، وكذلك تداخله بوصفه معطى من معطيات المتلقي والنص على حد سواء ⁽²⁾ ذلك أن القارئ يتلقى النص متأثراً بثقافته الاجتماعية التي تكونت قبل ولوجه عالم النص الراهن والتي ستؤثر حتماً في وخلال عملية القراءة ، كما أن السياق السوسولوجي مؤثر وفاعل في النص ، لأن النص يعرض خطاطة احتمالاته ومواضيعه على وفق تصورين ، فإما أن يكون متواطئاً مع الثقافة معبراً عن أنساقها ومؤيداً لثقافة السياق المجتمعي ، أو يكون معارضاً يبت مفاهيم تؤسس للإطاحة بالسياق المجتمعي الراهن ، وبهذه

(1) ينظر: البويطيقا في صياغة اللغة الشعرية ، علاء الدين رمضان السيد ، مجلة علامات في النقد ، العدد 28 ،

يونيو ، 1998 : 263.

(2) ينظر: قاموس مصطلحات التحليل السيميائي للنصوص (عربي، انكليزي، فرنسي) رشيد بن مالك ، دار الحكمة ،

ط / 2 ، 2000 : 44-45.

الصورة يمكننا تناول مفهوم السياق ضمن إجرائية تقف على حد معتد به للتعريف بفاعليته واشتراطه لتحقيق القراءة المنتجة للمعنى.

• مظاهر السياق النصي

تتعدد مظاهر السياق النصي وتتداخل لتشكّل أطراً يحال إليها النص خلال فعالية القراءة ، ويرتهن بها في شروط قبوله ورفضه من المتلقي ⁽¹⁾ ، ولعل أول هذه المظاهر هو الجنس الأدبي ، إذ إن أول لحظة لالتقاء القارئ بالنص يتبادر لذهن القارئ الجنس الأدبي للنص الذي هو بإزائه ، وهذا ما يطبع تجربة التلقي بطابع معين ، لينجز بعدها القارئ عملية قراءة النص مرهوناً باشتراطات جنسه الأدبي ، ومعه فإننا لا يمكن أن نتعامل مع الشعر مثلاً على وفق قوانين القصة ، وهكذا الحال مع بقية الأجناس الأدبية ⁽²⁾ ، وهذا ما يحدد سياقاً معيناً للتلقي والقراءة ، فالمؤسسة الثقافية مسؤولة عن تجنيس النصوص تبعاً لمعايير معينة تحدد مسبقاً محددات معينة لتلقي نص أدبي ما ، والقارئ محدد في تلقيه لنص ما قبولاً ورفضاً بتلك المحددات ، هذا ما يبدو واضحاً في رفض الثقافة القائمة ومقاومتها لأي تغيير يستهدف تلك البنية المتجذرة التي تحدد شروط التلقي ، والنص تبعاً لذلك متعلق وجوداً وإمكاناً بشروط الجنس الأدبي ⁽³⁾ ، إن النص بما أنه تركيب معين بخصائص معينة لا بد أن يكون منتمياً لسياق ما يعرف بما يتفق معه ليكون ضمن هذا السياق أو ذاك ، والعلاقة التماثلية مهمة في توصيف النص ضمن جنس معين ، وكذلك الحال في علاقة الاختلاف إذ يشي

(1) ينظر: التواصل اللساني والشعرية . مقارنة تحليلية لنظرية رومان جاكوبسون ، الطاهر بو مزير ، منشورات الاختلاف ، الدار العربية للعلوم ، الجزائر . بيروت ، ط / 1 ، 2007 : 66 .

(2) ينظر: علم الأسلوب مبادئه وإجراءاته ، صلاح فضل، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، ط / 1 1985 : 54.

(3) ينظر : اللغة والمعنى والسياق : 205 .

هذا الاختلاف بقيمة خصوصية النص ولكن ليس خارج جنسه وإنما داخله , بمعنى أن المشتركات بين النص وجنس أدبي ما من الحد ما يجعله داخلاً ضمنه , واختلافه معني بإعطائه قيمة خاصة داخل هذا الجنس.

إن القارئ بناءً على ما تقدم معني بشكل آلي بقراءة النص تبعاً للحظة التحيين التي حددت مسار القراءة على وفق جنس محدد , وسيستمر هذا المسار حتى إنهاء القراءة⁽¹⁾ , ولذلك فإن أية قراءة تهمل الجنس الأدبي لا يمكن لها أن تحقق علاقة فاعلة مع النص لأنها ومن الوهلة الأولى ستكون خارج القوانين العامة للنص , لا تدرك الفوارق بين التركيبات النصية للنصوص , والنص الراهن بين يدي القراءة منجز على وفق تركيبة معينة خاضعة لسلطة الجنس الأدبي.

ومع استحضار علاقة الذات بالموضوع يبدو الجنس الأدبي في نطاق الموضوع , وهو بذلك يشكّل أحد موانع الانفلات التأويلي للنص⁽²⁾ وبذلك ينكشف اللبس الذي قد يحصل بافتراض أن مراعاة سياق الجنس الأدبي هو خروج عن النص إلى ما هو خارج عن كينونته بدل أن تكون القراءة منبعثة من النص , فحقيقة مراعاة السياق في إطار جنوسة الأدب هي مراعاة لعلاقة بين الموضوع وسياقه لا النظر إلى السياق على أنه هو الموضوع المسلط عليه فعل القراءة والمتداخل مع الذات في علاقة تفاعلية تقود لإنتاج الدلالة , وليس السياق هنا سوى إحدى مستويات استحضار فعل قرائي مؤداه إنتاج المعنى , وبمعنى آخر فهو - السياق - أحد شروط الفعالية القرائية في علاقة الاستحضار لا كونه الموضوع المنفعل بالقراءة والمسلط عليه فعالية القارئ بشكل رئيس.

(1) ينظر: بحوث في النص الأدبي , محمد الهادي الطرابلسي , الدار العربية للكتاب , تونس , ط / 1 , 1988 : 188.

(2) ينظر: حدود الانفتاح الدلالي في قراءة النص الأدبي , د. عزيز محمد عدمان , مجلة عالم الفكر , المجلد 37 , العدد 3 , يناير - مارس , 2009 : 88-92.

كما تتجلى أهمية السياق في حدود مفهوم الجنس الأدبي في أنه يسم قراءة النص بسمة النظرة الكلية للنص , إذ إن علاقات النص بجنسه تتعدى مفهوم التصنيف المؤطر إلى علاقة التداخل المانحة والتي تمنح النص أبعاداً دلالية تتجاوز الإطار التركيبي الداخلي للنص , لا أقل من التشارك في قوانين الجنس الأدبي التي تقود إلى تشظٍ دلالي وتناغم مع معطيات الخصوصيات الجنسية , فنحن نعرف أن مجموع نصوص ما شكلت جنساً أدبياً تعطي خصوصيات معني بها جنس أدبي عن آخر , وهذه الخصوصيات تعم الجنس الأدبي , ولا تقف عند حدود نص واحدٍ منها , وهذا ما يمنح النصوص المنتمية لهذا الجنس تلك الخصوصيات عبر فعالية مشاركة الجنس الأدبي الواحد , وإذا كان ثمة ما يدعى بالسياق الأصغر والمعني بتراكبية النص الواحد في علاقاته الداخلية , فهناك ما يدعى بالسياق الأكبر الذي يعبر عن طبيعة العلاقة داخل الجنس الأدبي , وهي علاقة ممكنة بصفة إيجابية تبادلية , فالبحث لا يتكلم على الجنس الأدبي خارج فهم الباحث للنصوص المتحققة بالفعل والمؤسسة لذلك الجنس الأدبي , كما أننا لا نتكلم عن النصوص الممكنة التي ستكون مستقبلاً كائنة وحادثة بالفعل , وبشكل من الإشكال فإن فهم البحث للسياق في عنوان الجنس الأدبي ليس فهماً يعرف الجنس الأدبي بوصفه كينونة منبئة عن نصوصه بل العكس تماماً⁽¹⁾ .

وإذا كان هذا الفهم صحيحاً فإنه مما لا شك فيه أن قراءتنا وتلقينا . كقراء . لأي عمل أدبي يخضع لاستحضار هذه العلاقة المهمة والمؤثرة والفاعلة , خصوصاً إذا ما علمنا أن الكاتب يستحضر تلك العلاقة لحظة كتابة نصه , ولما كان هذا الاستحضار متحققاً فإنه بلا شك سيكون حاضراً في النص , وهو ما يحتم على المتلقي بشكلٍ ما استحضاره خلال القراءة.

(1) ينظر: التناص وإنتاجية المعنى , حميد لحداني , مجلة علامات في النقد , جدة , الجزء 40 , مجلد 10, 2001

إن تلك العلاقة التواصلية بين النص والجنس الأدبي هي ما تمنح الوظيفة المرجعية حركيتها وفاعلية الإحالة لمعطيات السياق وصولاً لفهم النص الراهن , ذلك أن جزءاً مهماً من فهمنا للنص متعلق بفهم النصوص السابقة عليه ⁽¹⁾ , وإذا كانت النصوص السابقة على النص الراهن هي المشكلة والمتأسس عليها الجنس الأدبي , فإن فهم قوانين الجنس الأدبي ضرورة لفهم النص الراهن ⁽²⁾ , وبهذا تتضح العلاقة التواصلية بين النص وسياق الجنس الأدبي , وتتضح معها فاعلية الإحالة إلى السياق المرجعي الذي يمثله الجنس الأدبي هنا , خصوصاً مع كون النص معبراً عنه باللغة , إذ إن من وظائف اللغة بحسب (ياكسون) أنها تحيل إلى الإطار الخارجي للنص ⁽³⁾ .

إن النصوص السابقة في حدود الجنس الأدبي تمثل واجهة من واجهات تشكّل أفق الانتظار ⁽⁴⁾ , هذا الأفق الذي ترتحن به وبشكل رئيس فعاليات التلقي والقراءة وكيفياتهما , إذ إن مجموع النصوص السابقة على النص الراهن تمثل تجربة القارئ السابقة , وفي إطار سياق الجنس الأدبي فإن النصوص المنتمية للجنس الأدبي ذاته تحضر أثناء القراءة بشكل أوفر من النصوص المنتمية للأجناس الأخرى , إذ إن لحظة التحيين تقود لاستدراج تلك النصوص داخل وعي القارئ لطرح الاستفهامات عن المماثلة والاختلاف بين النص الراهن

(1) ينظر: المكان نفسه .

(2) ينظر: بنية الخطاب في الرواية النسائية الفلسطينية 1950-2000 , حفيظة أحمد , مركز أوغاريت , رام الله , ط 1, 2007 : 332.

(3) ينظر: قضايا الشعرية , رومان ياكسون , ترجمة محمد الوالي ومبارك حنوز , دار توبقال للنشر , الدار البيضاء , المغرب , ط 1/ , 1988 : 30 .

(4) ينظر: البلاغة ومقولة الجنس الأدبي , محمد مشبال , الشبكة العنكبوتية :

http://www.aljabriabed.net/n.htm29%282%machbal.05_25 , بتاريخ 2011/11/5 .

والنصوص السابقة من الجنس الأدبي ذاته، وقيمة استحضار تلك النصوص تتمثل في قول (فرانسيس بونج) ((إن التماثلات أمر يثير الاهتمام ، ولكن أقل ما تثيره الاختلافات ... فلا بد من خلال التماثلات ، أن ندرك الصفة الاختلافية ((⁽¹⁾ ، إذ لابد من إدراك أن علاقة التماثل والاختلاف التي أشار إليها (فرانسيس) تشير بشكل لا يقبل الشك لعلاقة سياقية ما ، إذ التماثل والاختلاف ناتج عن فعالية المقايسة ، تلك الفعالية التي تقع بين شيئين أو أكثر ، وفي الحديث عن النص لابد أن تكون المقايسة واقعة بين النص وسياقه الضمني والضماد لمجموعة نصوص تماثله في قوانين مشتركة ويختلف عنها بخصوصيات تمنحه وجوده داخل السياق العام والمشار إليه هنا بالجنس الأدبي ، وبهذه الطريقة أيضاً يمكننا الوقوف على المتجاوزات المعيارية والانحرافات الدلالية⁽²⁾ إذ القول بأن هناك خصوصيات لنص ما يشير للعلاقة العمومية حتماً ، فالنص المخصوص بتراكيبية ما وبحيز دلالي مغاير لما سواه يشير لانفلات عن العموم ، ذلك العموم الذي يتشكل من مجموعة كبيرة من النصوص الأخرى التي تشترك فيما بينها وبين النص الراهن بعلاقات تماثل متعددة⁽³⁾ ، وإذا كان ثمة معيار جمالي يقرّ في الجنس الأدبي تشترك نصوصه فيه فإن قيمة الجنس الأدبي لتظهر في إمكانية التعرف على قيمة الانزياح عن ذلك المعيار الجمالي الذي يحققه النص الجديد بخروجه عن ذلك المعيار ، وتوظيفه لقيمة أو قيم جمالية تؤسس لتطوير وتغيير القيم الجمالية القارة في الجنس الأدبي ، وهذا ما أشرنا

(1) طرائق باريس ، مجموعة أفكار م. ف.ج. غاليما ، فرانسيس بونج ، 1971 : 42-43.

(2) ينظر: بنية اللغة الشعرية : 30 .

(3) ينظر: ترجمة النص الأدبي ، أسعد سامية ، مجلة عالم الفكر ، الكويت، العدد4، 1989 : 24 .

إليه سابقاً بكونه أحد عوامل تطور الأجناس الأدبية ، وربما الانقلاب عليها تدريجياً لتظهر أجناس أدبية جديدة وتتطمس أخرى (1) .

إننا لو تصورنا أن الجملة ليست تركيباً بقدر كونها اختياراً من عدة اختيارات يوظفها المبدع في سياق النص من خلال فعالية سمة التبديل والتحويل ، فإن النص ليكتسب كونه اختياراً من جملة اختيارات يطرحها الجنس الأدبي ، فكما هو تركيب فإنه اختيار واحد من جملة اختيارات يطرحها فضاء متسع من التشاكلات المختلفة والمتعددة والمترابطة والمرتبطة بقوانين هي قوانين الجنس الأدبي ، وقيمة النص في كونه اختياراً له من الخصوصية في السياق العام للجنس الأدبي ما للجملة من خصوصية داخل التركيب النصي ، وهو ما يطرح أمامنا دور الجنس الأدبي . كسياق . في تحديد علاقات الغياب والحضور في النص ، فالتماثلات والاختلافات المتحققة في النص الراهن تتحدد على وفق منظور النص داخل سياق الجنس الأدبي ، وإحضار الغائب يستند لمعرفة النصوص السابقة داخل الجنس الأدبي للنص الراهن (2) من خلال علاقة التماثل والاختلاف المتحققة بين النص وجنسه الأدبي .

ومما تقدم يظهر أن أي قراءة لنصٍ لا بد أن تحضر قوانين الجنس الأدبي للتعرف على نوع العلاقة بين النص وسياقه الأجناسي ، لا أقل من التعرف على علاقة التماثل والاختلاف بينهما ، وهذا لا يعني بالضرورة أننا في فعل القراءة نحدد النص ونقيده ، بل إننا قد نكون مقرين بخروج النص عن قوانين الجنس الأدبي مع توفر شروط الإبداع و أدبية النص ، إذ نلتمس كقراء ما يتوافر عليه

(1) ينظر: أصل الأجناس الأدبية ، ترفتات تودورف ، ترجمة محمد برادة ، مجلة الثقافة الأجنبية ، وزارة الثقافة والإعلام ، بغداد ، العراق ، العدد :1، السنة الثانية، ربيع 1982: 46 .

(2) ينظر: النظرية التأويلية في الترجمة – مدرسة باريس نموذجاً ، د.عبد اللطيف هسوف ، الشبكة العنكبوتية .

النص من قيم جمالية تحققت بانزياحه عن السياق العام للجنس , وما يتوافر عليه من خصوصية تمنحه أبعاداً دلالية مكثفة ومتشظية , وقراءة مثل هذا النص تحقق إثراءً لتجربة القارئ , ورؤية أعمق باستحضاره في عملية قراءة لاحقة لنصوص أخرى , وهذا ما يحقق تطوراً مستديماً في عملية القراءة وفعالية التلقي .

ولابد من التأكيد مرة أخرى على الجنس الأدبي كسياق لا يمثل تقييداً للنص أو القراءة في حدود ما قدّمناه , بل إنه يمثل تنظيمًا ممنهجاً للقراءة , وصولاً لفعاليات قرائية تأخذ بنظر الاعتبار قوانين النص واشتراطاته ضمن حيز جنسه الأدبي.

وإذا كان الجنس الأدبي يمثل مظهراً مهماً من مظاهر السياق النصي فإن تجربة ما داخل الجنس الأدبي نفسه لتسم نفسها بسمات مميزة لها عن قريناتها من التجارب , إننا نعني هنا تجربة تؤكد حضورها عبر نصوص تتميز بطابع الفردية , قائمة على سمة الإبداعية وتوظيف الجانب الجمالي بشكل مختلف عن التوظيفات السابقة في الجنس الأدبي الواحد , ذلك ما نلاحظه حين نحاول توصيف تجربة شعرية مثلاً حين نصفها بالجيلية , كما لو قلنا التجربة التسعينية أو شعراء الجيل التسعيني في إشارة لتجربة شعرية ظهرت في تسعينيات القرن الماضي وتميزت بأسلوب مغاير في توظيف العنصر الجمالي في النصوص الشعرية , كما أن تجربة جماعية أو نصوصاً متعددة ترسم مساراً إبداعياً يخرق بعض قوانين الجنس الأدبي ليشكل سياقاً داخل سياق الجنس الأدبي , وتبقى هذه التجربة مشروطة في القبول على عنصر الإبداعية ومرتهنة بمدى الخرق الذي تحققه داخل الجنس الأدبي , فإذا ما أتيح لها خرق قوانين رئيسة في الجنس الأدبي فإننا حينها نشهد ولادة جنس أدبي آخر كما حصل في تجربة

الشعر الحر وقصيدة النثر، أما لو بقى الخرق في حدود قوانين لا تمس البنية الرئيسة للجنس الأدبي فإنها تكون حينذاك تجربة جديدة داخل الجنس الأدبي ذاته ، تسهم بشكل فاعل في ديمومة - الجنس الأدبي - وتوفر من عناصر فاعليته ما يجعله قادراً على مواكبة الزمن موسوماً بالتطور والحدثة المستديمة ، وهنا لابد من القول بأن التغيير وخرق قوانين الجنس على الصورة الثانية يكون خصوصية لتجربة أدبية إبداعية داخل الجنس الأدبي ، إذ لا يمكن أن نقرّ بان قوانين النصوص الجاهلية هي ذاتها قوانين النص العمودي الحداثي ، ذلك أن جملة من المفارقات بينهما لا تسمح بذلك ، ولعل منها الجانب التركيبي ، والتوظيف المعجمي للمفردات ، والجانب الدلالي المتضح من خلال توظيف المجازات وبقية الفنون البلاغية ، إن ذلك يمنع من تداول النصوص بناءً على إلغاء الخصوصيات النصية التي تتسم بها نصوص التجارب الإبداعية داخل الجنس الأدبي الواحد ، وكيفما كان فإن قراءتنا وتلقينا يختلفان بشكل واضح حين نتلقى نصاً جاهلياً أو عمودياً حداثياً معاصراً.

إن وعي القارئ لهذه الخصوصية هو إدراك وتصور لجانب مهم من النص المباشر بالقراءة واستحضار لقيم تلك الخصوصية التي تؤثر بشكل فاعل في كينونة النص ، وهو أمر مخصوص بفعالية القراءة قبل كونه مستجلباً من منهجيتها، إذ يصحّ أن يُقرأ النص الجاهلي والنص الحداثي على وفق منهج أو نظرية نقدية واحدة ولكن ذلك لا يعني إلغاء خصوصيات كل منهما ، بل إن المنهج والنظرية النقدية في ممارسة القراءة تساعد على الكشف عن تلك الخصوصيات وإبرازها كملح لا بد من الارتكاز عليه كجانب من جوانب الممارسة القرائية.

ويمكننا القول بأن التجربة الجماعية الإبداعية داخل جنس أدبي ما ،

والمميزة عن بقية نصوصه وتجاربه الأخرى تكوّن شفرة خاصة بها لا بد من التعرف عليها حتى تتم القراءة كفعل وناتج موصوف بالتفاعل بين القارئ والنص.

وشيئاً فشيئاً ندرك أننا أمام خصوصية النَّاص , وخصوصية النص, وخصوصية المتلقي, على أننا سنؤجل الحديث عن خصوصية المتلقي وشيء من خصوصية النص فيما يتعلق بارتباطه بالمكون الاجتماعي والثقافي , لنتحدث عنها في الموضوع الثاني من هذا المبحث .

إن الحديث عن خصوصية الناص لا يعني أن البحث بإزاء اشتغال مستند للمناهج الخارجية كالمنهج الاجتماعي أو المنهج النفسي , بل إنه ينطلق من التعريف بهذه الخصوصية من مجموعة النصوص التي أنتجها مبدع ما بما تحمله هذه النصوص من تمايز عن بقية نصوص التجربة الجماعية الأدبية الإبداعية ونصوص الجنس الأدبي الواحد , ذلك أن نصوص أديبٍ ما تنتمي لتجربة أدبية معينة وتنتمي هذه الأخرى لجنسٍ أدبي ما , ومثلما تعرفنا على ضرورة معرفة خصوصية الجنس الأدبي كسياق ضام للأعمال الأدبية المنجزة داخل حيزه , وكذلك خصوصية تجربة جماعية لمجموعة من النصوص لجملة من المبدعين , فإننا معنيون هنا بالتعرف على خصوصية النصوص الأدبية لمبدع واحد , منطلقين كما أشرنا من النصوص ذاتها ومدفوعين لذلك بما نجده من تمايز وفوارق في التوظيف الجمالي والتحقيق الإبداعي في نصوص ناصٍ دون آخر⁽¹⁾ , وحقيقة ذلك التمايز لا تلغي التداخل الإبداعي بل إنها تغني عملية التثاقف والتماحك بين التجارب الفردية , وتحقق تنوعاً في التشكيل الجمالي للتجربة الجماعية والجنس الأدبي وعموم الفعالية الإبداعية الموصوفة بكونها

(1) ينظر: علم الدلالة , د.أحمد مختار عمر , عالم الكتب , القاهرة , مصر , ط / 4 , 1993 : 116 .

أدبية , وعلى وفق ذلك فإن النصوص المنسوخة والمحاكية لنصوص أخرى تخرج عن إطار كونها شفرة مخصوصة بذاتها لانعدام عنصر التمايز واختفاء ملمحٍ فارقٍ واضح.

إن التجربة الإبداعية الفردية تصرّح بفرادتها في ومن خلال نصوصها , وهذا ما يقود القارئ لاستشعار شفرة خاصة بتلك ويحفزه للتعرف على خصائص تلك الفردة وما يميز تلك النصوص عن غيرها (1) , من خلال توظيفاتها للجوانب التركيبية والدلالية وتلميح الجانب الجمالي فيها , ولئن كان التمييز ممكناً بين نص جاهلي مثلاً ونص حديث , فإن الأمر يبدو أعقد في محاولة التمييز بين نصين ينتميان لتجربة جماعية واحدة , ولعل السبب يعود لتقارب الشفرات النصية , إذ يصبح التأثير بين نصوص التجربة الجماعية الواحدة أكبر وأشد انفعالاً بفعل المقاربة في الرؤية , وتبني مواصفات التجربة الواحدة (2) , ومع ذلك فإن إمكان التمييز حاصل وممكن بالفعل , وهو أمر لم يكن البحث معنياً بتتبعه بقدر ما يمكن الاستعانة به لإثبات أن لكل تجربة فردية إبداعية سماتها المتداخلة والمنفصلة بسمات التجربة الأدبية عموماً وسياق الجنس الأدبي خصوصاً وسياق التجربة الجماعية بشكل أخص (3) , وإنه لمن الواضح أننا قد نتلقى نصاً ما دون معرفة مسبقة لمؤلفه مما قد يعني أن الشفرة الخاصة بالنّص تكون غائبة عن الإدراك الواعي للقارئ , وهو ما قد ينفي كلامنا آنفاً عن تلك الشفرة الخاصة بالنّص وضرورة حضورها في وعي القارئ أثناء القراءة , مما يولد إشكالية في

(1) ينظر: علم اللسانيات الحديثة , عبد القادر عبد الجليل, دار صفاء للنشر والتوزيع , عمان , الاردن , ط / 1 , 2002 : 547 .

(2) ينظر: تقنيات التعبير في شعر نزار قباني , بروين حبيب , المؤسسة العربية للدراسات والنشر , بيروت , لبنان , ط / 1, 1999 : 52 .

(3) ينظر: لسانيات النص , محمد الخطابي , المركز الثقافي العربي, بيروت , لبنان , ط / 1, 1991 : 315 .

افتراض وجودها على الأقل أثناء عملية القراءة وهو ما نحن بصدده بعيداً عن لحظة كتابة النص من مؤلفه.

وبملاحظتنا للتجربة القبلية للقارئ تندفع تلك الإشكالية ويتأكد حضور شفرة النص وضرورتها في عملية القراءة ، فالقارئ لا يلج فضاء النص وهو خال من مسبقات ذهنية وتصورات عن موضوعات سابقة ، تلك المسبقات والموضوعات التي تشكلت من نصوص سابقة على النص الراهن ، إن تلك النصوص السابقة كونت سياقات للتلقي في ذات القارئ ومارست دورها في ترسيم وعي القارئ بإزاء النصوص اللاحقة ، وبهذا فإن القارئ أمام النص الراهن مواجه من النص بأحد احتمالين ، إما أن يوافق النص أفق انتظاره وحينها يكون النص الراهن موافقاً للسياقات المسبقة التي تشكلت في وعي القارئ ، أو أن النص يكسر أفق انتظار القارئ ، وهنا يكون القارئ أمام نص خرق السياقات المسبقة ليحفزه عبر علاقة التماثل والاختلاف للتعرف على القانون الجديد للنص الراهن ، وبعبارة أخرى فإن القارئ أمام النص الراهن إما يكون مجابهاً بشفرة يعرفها مسبقاً ، أو بشفرة استثنائية تهدد سياقاته المسبقة وتحفزه لطرح احتمالات متعددة لفهم العلاقة بين النص الراهن والنصوص السابقة وصولاً لفهم ذلك النص عبر فعالية تأويلية تحاول فك شفرات جديدة يطرحها النص في تحدٍ للقارئ .

وبمعنى آخر فإن المتلقي حتى لو كان على غير علم بمنشئ النص الذي بين يديه فهو قادر على تمييز مماثلة أو اختلاف النظام التشفيري له بفضل تجربته السابقة ، وهو قادر على تبويب الشفرات التي تكسر أفق انتظاره في قراءات لاحقة مما يعني أنه بإزاء وضع الشفرات الفردية في سياقات منتظمة تغني تجربته مع النص عموماً ، ومع هذا الإيضاح ، فإن تعاطينا كقراء يختلف من نص إلى آخر على وفق ما أوضحه البحث من فعالية التجربة السابقة لنا

كقراء ومتلقين , وفضلاً عن ذلك فإن قراءة النص مع استحضار شفرة النّاص كسياق من السياقات حتى مع معرفة القارئ المسبقة بمنشئ النص لا تعد خروجاً على القراءة الداخلية , لأن تلك القراءة لا تنطلق من المبدع بل من النص , والشفرة التي يتحدث عنها البحث كائنّة في النص وحاضرة فيه .

إن التعرف على سياق شفرة النّاص يمنح القارئ قدرة على فك شفرات النص الراهن بفضل المعرفة المسبقة بنظام هذه الشفرة , إن اختلافاً أو تماثلاً مع شفرة النص الراهن , ليس أقل من التعرف على طبيعة توظيف الرموز والانزياحات , وطبيعة الجانب التركيبي المانحة والموظفة للجوانب الدلالية للنص الراهن .

وتبرز العلاقة بين سياق شفرة النّاص (الأسلوب) - في جانب من جوانبها - وسياق الجنس الأدبي في جانب الاختيار الأسلوبي , إذ إن أسلوب النّاص يمثل اختياراً من عدد من الاختيارات التي يمنحها الجنس الأدبي , مما يحقق في ذهن القارئ استفهاماً عن طبيعة هذا الاختيار دون غيره من ممكنات الاستبدال في معجم الإمكانات المحددة بسياق الجنس الأدبي , وهذا الاستفهام يقود لاحتتمالات تمكّن القارئ من المقارنة بينها وبين المعطيات النصية الأخرى لرسم تصور مستند للتأويل على وفق علاقة توافقية ورابطة بين أجزاء النص ومرتجعة لتلك الاحتمالات , ولعلنا نفهم ما للاستفهام عن طبيعة اختيار معين من دور في تبئير الرؤية ورسم مخطط ذهني لاستقراء المعطيات النصية والتوجه لإنتاج المعنى وإعادة تكرار النص , ذلك أن النص يعطي من احتمالات التأويل أفقاً متنامياً ومتسعاً , والقارئ في فعاليته تجاه النص يحتاج للامساك ببعض التحديدات التي تمكّنه من فعالية الربط والتوفيق بين أجزاء النص , كما هو الحال في الإمساك بعناصر الإجبار الركني في النص , إذ صفة اللامسوكية للنص الأدبي تحول مع التجرد عن المحددات من إعطاء رؤية تمكّن من تحديد

بؤرة النص ، والتمكّن دون إعطاء رؤية ما عن النص.

ويبدو من خلال إقامة العلاقة بين شفرة النّاص (الأسلوب) وشفرة الجنس الأدبي ، أن القارئ ينطلق من سياق إلى آخر بشكل مترابط يمنحه رؤية أكثر استيعاباً لطبيعة النص ومعطياته وصولاً لتحقيق القراءة بوصفها ناتجاً لإيجاد النص كمتحقق بتلك القراءة .

وإذا كان لابد من مراعاة السياق في القراءة والتلقي بوصف السياق متمظهِراً بمظاهر عدّة ، كالجنس الأدبي ، وشفرة النّاص ، فإنه - السياق - لا يبرح موجوداً داخل النص الواحد ، وقد سبق أن أوضح البحث في الفصل الأول أن لكل نصٍ إبداعي خصوصية تميزه عن غيره من النصوص ، وهذه الخصوصية تشي بوجود سياق خاص بكل نص لابد مع وجوده من مراعاة قوانينه التي تشغل داخل النص ، وتحدد طبيعة التلقي والقراءة ، إن هذا السياق الخاص بالنص يمثل شفرة النص التي يتميز بها عن النصوص الأخرى⁽¹⁾ ، ولابد من التعرف ومحاولة فهم هذا السياق للتمكن من محاورة النص وفهمه عبر فك شفراته ، على أن هذا السياق يتداخل في مستويات النص ومظهره ومعطياته وجوانبه المختلفة ، فهو يتداخل مع المستويات ، كالمستوى التركيبي والنحوي والصرفي والصوتي والدلالي⁽²⁾ ، كما أنه يحضر في الفعاليات النصية كالانزياح والتناص ، ومثلما يتداخل هذا السياق مع النص في كل معطياته فإنه يُمنح من تلك المعطيات ويمنحها أبعادها وفاعليتها في الوقت ذاته ، إذ إن

(1) ينظر: علم الدلالة، بيارغيرو، ترجمة: أنطوان أبو زيد ، منشورات عويدات ، بيروت ، ط / 1 ، 1986 : 29.

(2) ينظر: الأسلوبية وثلاثية الدوائر البلاغية، عبد القادر عبد الجليل، دار صفاء للنشر والتوزيع ، عمان ، الأردن، ط

1/، 2001 : 297، وينظر: مبادئ اللسانيات ، أحمد قدور ، دار الفكر المعاصر ، بيروت، لبنان، ط /1، 1996 :

العلاقة الايجابية بينه وبين النص تتسم بالتبادلية والمنح , وسيختصر البحث الحديث هنا على جوانب معينة لإعطاء تصور جلي عن سياق النص والابتعاد قدر الإمكان عن الإسهاب في هذا الموضوع المتسم بالتشعب .

إن أول ما يمكن للبحث مناقشته في حدود هذا السياق , هو الموضوع الذي يختزنه النص وي طرح رؤيته تجاهه , ليجعل القارئ أمام افتراض معين يحدد له مسار القراءة وآلية التلقي , ذلك أننا حتى مع الانزياحات التي توظف في اللغة الشعرية مثلاً, لا يمكننا القول بانعدام الوظيفة الاتصالية للغة , فإذا كانت اللغة الأدبية في الشعر تخرق قوانين المعجم اللغوي نحو تأسيس معجم النص الأدبي بالانزياح فإن المهمة التأويلية تقوم بالحفاظ على رابط الإفهام بين المعنى الضمني والمعنى التعييني , وتحفظ للوظيفة الاتصالية مهمتها داخل فعل القراءة الناجز بين القارئ والنص , وبمعنى آخر فإن الوظيفة الاتصالية تقوم بمهمة عرض الموضوع المتضمن داخل النص على القارئ , وتمكينه من إجراء المقاربات المعنوية الممكنة بين الدال ومجموعة الدوال الممكنة , وبهذا فإن ما يحاول النص طرحه من مواضيع تشكل سياقاً لا يمكن تغافله , كما لو أننا أمام قصيدة رثائية تتضمن مواضيع مستقاة من موضوعة الفقد بالموت فإن الموضوع يختلف عنه لو كنا بإزاء قصيدة تتناول الغزل أو المديح , وهنا لابد أن يكون لموضوع أو موضوعات النص حضوراً في إدراك القارئ ووعيه, هذا الحضور الذي يتحقق بشكل مباشر أو غير مباشر بفعل الوظيفة الاتصالية التي تقوم بها اللغة , كما أن القارئ أمام النص معني بشكل لا لبس فيه بتقصي ما يطرحه النص من موضوعات قد يتفق القارئ معها أو يختلف , إذ لا يمكن تحقق اتفاقه أو اختلافه مع موضوعات النص دون التعرف عليها ومراعاة حضورها في الإدراك الواعي للقارئ , إذ لا يكفي الإدراك في تجسد هذه الموضوعات داخل

ذات القارئ دون الوعي الذي يمنح التصورات الذهنية لتلك الموضوعات عبر فعالية التفكير , وإنه لا يمكن بأي حال أن يدرك القارئ نصاً ما دون تمثّل موضوعاته في ذاته , وبذلك يكون الموضوع كمفهوم عام ممثلاً لسياق لا يمكن تجاوزه في فعالية القراءة وفعل التلقي , وتجاوز الموضوع بعد إدراكه بشكل واعٍ يعني الخروج عن إمكانية تأويل النص بل هو خروج عن فهم النص فضلاً عن عملية إنتاج المعنى.

إن مستوى من مستويات النص كالمستوى التركيبي يحكم تلقي نصٍ ما , ويؤسس جملة من محددات القراءة , إذ النص يتشكل إلى حدّ كبير على وفق هذا المستوى (1) , فبدءاً من الكلمة حتى الجملة وصولاً للنص , تتحكم كيفية وآلية التركيب في تحديد المعطيات النصية وتشكيل الأبعاد الدلالية لأجزاء النص مما يعطي النص شكله النهائي الذي يباشر القارئ قراءته على وفقه , إن هذا المستوى على جانب فاعل في شكل وكيفية قراءة النص وتلقيه, فإذا كانت الكلمة في النص الأدبي ذات استعمالات متعددة فإنها تمنح القارئ استعمالات أو جملة من تلك الاستعمالات في حدود تموضعها في الجملة (2) , كما أن الجملة لا تدل إلا على وفق موضعها من النص , إن ذلك الجانب التركيبي الممنوح على وفق مبدأ الاختيار والاستبدال يعطي تصوراً عن دلالة كلٍ من الكلمة والجملة داخل النص , وفي النهاية يمنح النص مع جملة من المعطيات النصية الأخرى و الجوانب المتعددة أبعاده الدلالية , ويمنحنا تصوراً عن قابلية النص لقراءات متعددة تبعاً لمعطياته , فإذا كانت الكلمة في حدود النص الأدبي تمنح تلك القابلية لاستعمالات متعددة فإنها تبعاً لفعاليتها وتفاعلها داخل الجملة تمنح

(1) ينظر: علم اللسانيات الحديثة : 542 .

(2) ينظر: م . ن : 219 .

الأخيرة تلك القابلية , ومن ثمَّ فإن النص يكون متعدد القراءات , ولا بد مع هذه التعددية من الرجوع للمستوى التركيبي في حدود ما أوضحناه بوصفه مرجعية لفعالية القراءة , ويمكننا أن نتصور كيف يمكن أن يكون شكل القراءة المتجاوزة لحقيقة سياق المستوى التركيبي , إذ تبقى هذه القراءة خارج التعمق في تراكيبية النص لا تدرك سوى سطحه الخارجي , إن المستوى التركيبي يتداخل كما بقية المستويات بعضها ببعض لتمنح كلاً منها أبعادها داخل النص ولتؤسس مشتركة خصوصية النص الواحد عن النصوص الأخرى , إن ذلك التداخل والتفاعل بين النصوص يمكن إدراكه من جوانب عديدة , ويمكننا إعطاء تصور عن ذلك التداخل بين المستوى التركيبي والمستوى الدلالي , ذلك أن الكلمة يمكن إعطاؤها شكلين من الدلالة هما الدلالة العادية والدلالة المكتسبة , وتتحدد الدلالة العادية في مستوى الاستعمال اللغوي لها , حتى إذا ما ولجت النص الأدبي كالقصيدة مثلاً اكتسبت دلالة أخرى لها , وهذه الدلالة منحت من خلال موضعها في الجملة والنص وبذلك تنتقل بفعل التركيب من مستوى الدلالة التعيينية أو الصريحة إلى مستوى الدلالة الضمنية , كل ذلك بفعل التركيب , وهذا ما تؤكد عليه نظرية الحقول الدلالية , إذ تعطي السياق الذي يتضمن الكلمة أهمية قصوى في تحديد دلالتها⁽¹⁾ , وبهذه الصورة يمكننا تصور التداخل بين المستويات لتشكيل النص , وما هذه المستويات إلا سياقات حاضرة وبشكل فاعل ومؤثر في النص ولا بد من التعرف على قوانينها داخل النص في أية فعالية قرائية تستهدف الدخول لعالم النص , كما يمكن إعطاء تصور آخر عن التداخل بين المستوى النحوي والمستوى التركيبي , إذ إن فعالية الاختيار والاستبدال مقيدة بإمكان الجانب النحوي من مراعاة القوانين النحوية للغة , كما أنها مقيدة بإمكان القول كما

(1) ينظر: منهج المعجمية, جورج ماطوري , ترجمة: عبد العلي الوديعري, منشورات كلية الآداب بالرباط , 1993 :

يذهب (جان كوهن) في رأيه عن الانزياح , إذ يرى أنه يمكننا القول ((القط يموء والقط أسود , إلا إنه لا يمكننا القول القط ينبج والقط مثلث))⁽¹⁾ ويرى أن المعجم اللغوي يشكل مرجعاً لقياس مقدار الانزياح .

إننا إذ نوضح ذلك التداخل فإننا نهدف إلى إعطاء تصور عن تداخل السياقات لتشكيل سياق النص والذي يمكن التعبير عنه بأنه شفرة النص الذي يعطيه طابعه وشكله وطبيعته الدلالية المختلفة حتماً عن النصوص الأخرى⁽²⁾, فكل نص له سياق خاص به حتى لو كان لمبدع واحد , كما أن التقنيات الخطية تشكل جانباً من جوانب سياق النص , لا أقل من تحديد الفواصل بين فقرات النص , وتشكيل ترسيمة لأجزاء النص يتعاطى معها القارئ , فالنص المكتوب أو المنطوق عن كتابة مرهون في جانب من جوانبه بتلك التقنيات , مثل النقاط والفوارز التي تحدد علاقات الجمل مع بعضها الآخر⁽³⁾ وتشكل معبراً من المعابر بين القارئ والنص , فهي مع ما يقدمه المستوى النحوي في أساليبه المتعددة كالعطف والاستئناف مثلاً يشكلان ملامح معبرة داخل النص , لها من الدلالة ما يشكل جانباً مهماً في التعاطي مع النص , وتحدد تلك التقنيات بدايات ونهايات أجزاء النص وتعطي تصوراً عن تدافع وتلاحم الأفكار والموضوعات داخل النص , وبها تتحدد فضاءات تلك الأجزاء داخل فضاء النص الضام لها والمشكل منها⁽⁴⁾ وإذا كان التعاطي مع النص مرهوناً بالتعرف على مفهوم بؤرة

(1) بنية اللغة الشعرية : 107 .

(2) ينظر: علم الدلالة, بيار غيرو : 29 .

(3) ينظر: دينامية النص : 29 .

(4) ينظر: النسق النصي والنسق المتنّي في الحركتين المتصافرتين للقصيدّة (الانبناء/ الانهدام) , بشير حاجم, الشبكة

العنكبوتية : <http://www.adeebk.com/bh.htm> , بتاريخ 2011/5/12 .

النص وعناصر الإيجار الركني أمكننا أن نتصور مدى فعالية هذه التقنيات في تحديدها.

إننا لو تناولنا النص في طبيعة تشكله نرى أن أول ما يصطدم به القارئ هو العنوان ، والعنوان مفهوم عنيت به كثير من الدراسات النقدية وأفردت له السيميولوجيا جانباً على قدر من الأهمية في تناولها وإعطائها أبعادها الدلالية في النص ، إذ قد تختزل موضوع النص بوصفها أيقونة تحمل من التكثيف الدلالي ما يؤهلها لدور فاعل في الإحالة على الموضوعات الجزئية في النص ، والموضوع الرئيس فيه، وهذا الدور يقودنا لفهم العلاقة بين العنوان وبقية أجزاء النص تتجسد في الإحالة على تلك الأجزاء وإعطاء البؤرة النصية بعداً يتمثل في عملية الارتجاع الذهني التي يقوم بها القارئ بعد كل مرحلة لاحقة للعنوان وبشكل مقصود أو غير مقصود ⁽¹⁾ ، فالعنوان حاضرة في وعي القارئ حتى يتم قراءته بشكل نهائي ، وبعبارة أخرى إننا حين نقرأ نصاً نبقى في علاقة متواصلة مع العنوان حتى مع تجاوز حيزها الذي تشغله على الغلاف أو الورقة مع إننا أتممنا بالفعل قراءة تلك العنوان وتجاوزناها في دخولنا للحيز النصي المشغول على الورقة اللاحقة ، إن تلك العنوان تبقى حاضرة في أذهاننا حتى آخر صفحة ، ولعل السبب يعود لما تطرحه العنوان من استقهام يجب الإجابة عليه ، ويتحفز القارئ لهذه الإجابة التي يتولى النص القيام بها لا على شكل جاهز وإنما بفضل القراءة الفاعلة التي تحقق العلاقة بين النص والقارئ ، وهذا ما نشهده - على سبيل المثال - حين نقرأ رواية القفص الزجاجي لـ(كولن ولسن) ⁽²⁾ ، إذ يبقى القارئ مستحضراً لتلك العنوان على امتداد الحيز الكتابي للرواية ومتحفزاً لإرضاء

(1) ينظر: سيميائيات التأويل - الإنتاج ومنطق الدلائل ، طائع الحدادي ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ،

المغرب ، ط / 1 ، 2006 : 384 - 386 .

(2) ينظر : القفص الزجاجي (رواية) ، ترجمة سامي خشبة، دار الآداب ، بيروت ، لبنان ، ط / 2 ، 1973 .

فضوله المعرفي عنها , ولا يتحقق ذلك إلا في نهاية الرواية التي يحقق المشهد الأخير منها حضور ذلك القفص الزجاجي الذي يضم أفعى الكوبرا , ليصدم القارئ بأن الإجابة عن استفهام تلك العنوانية تمتد على طول زمن السرد في أجزاء النص , مما يحفز فعاليات الوعي لدى القارئ مرة أخرى لإعادة ربط أجزاء الرواية مرة أخرى على وفق علاقتها بالعنوانية.

إننا إذ نتحدث عن هذه الفاعلية والخاصية للعنوانية لا نعني بها كل العنونات التي يمكن أن تصدر النصوص , بل نخص بها ما ينطوي على تلك الأبعاد بما يفترض من كونها تتحمل الدلالة الضمنية وتتداخل مع أجزاء النص في علاقة ترابطية , وكثيراً ما نقرأ نصوصاً لندرك أن عناوينها منبئة الصلة عن النص وأجزائه ومثل هذه العناوين لسنا معنيين بها⁽¹⁾ , والعنوانية بما لها من تلك الطبيعة والعلاقة مع النص تحقق تلاحقاً بين أفقي إنتاج المعنى في عملية القراءة : أفق النص بوصفها حاضرة في الحيز المكاني الذي يضم النص - على ورق مثلاً- من بداية النص حتى نهايته , و أفق القارئ حيث تحضر منذ اللحظة الأولى للقراءة حتى آخر لحظة ينتهي فيها القارئ من قراءة النص , كما أن للعنوانية وظائف أخرى تختلف بحسب جنس النص الأدبي وطبيعة النص ذاته , ولعلها ترسم منذ البداية طبيعة موضوع النص للمتلقي كما في كثير من عناوين القصائد حيث يتعرف القارئ من خلال العنوانية على غرض القصيدة مثلاً إن كان مدحياً أو غزلياً أو غيره من الأغراض.

إن تلك الوظائف والخصائص التي تختص بها العنوانية تحدد للقارئ طبيعة ومساراً معيناً لتلقي و قراءة النص وهي بذلك تشكل إحدى السياقات التي يجب

(1) ينظر: سمياء العنوان , بسام قطوس , وزارة الثقافة , الأردن , ط 1, 2001 : 6 .

الركون إليها في تلقي وقراءة النص ، وهي كسياق تتناغم مع بقية سياقات النص في رسم الطابع التشفيري له .

كثيراً ما نشرع في قراءة نص لنجد أننا توقفنا عن ذلك ونحن لم نتجاوز بعد بدايته ، ذلك أن تلك البداية لم تستطع تحفيزنا لإكمال القراءة ، هنا نكون أمام ما يدعى بعتبة النص أو بدايته ، تلك البداية التي يرتهن بها النص قبولاً ورفضاً من القارئ ، لأنها تمثل أول ما يتلقى به القارئ من النص بعد العنوان ، وبها يرتسم الانطباع الأولي لدى القارئ عن النص الذي يباشر قراءته ، ولذلك فإن بداية النص تمثل المعبر بين العالم الواقعي وعالم النص ، وما لم يكن هذا المعبر محفزاً وباعثاً على تأسيس علاقة بين الذات المدركة الواعية وبين موضوعها فإن الذات لن تلج موضوعها في علاقة الفهم والتواصل ⁽¹⁾ ، أي أن بداية النص لا بد أن تكون على مستوى مؤثر حتى تحفز القارئ على دخول عالم النص ، ومادامت اللحظة الأولى من التقاء القارئ بالنص ستحدد وبشكل فاعل سيرورة القراءة فإن بداية النص تكتسب أهميتها من تلك اللحظة ، بل إن عتبة النص تمثل بعداً أعمق من كونها جزءاً من أجزاء التشكيل النصي ، حيث إنها تصرح للقارئ بوجود النص ، ذلك الوجود المرتهن بفعل القراءة ⁽²⁾ ، أي إنها تشكل علة لبداية المحاور بين القارئ والنص ، وأول حيز . بعد العنوان - يدخله القارئ ، كما تؤدي وظيفة إحالية تتعدد أشكالها ، فهي تحيل القارئ للجنس الأدبي للنص ، فالنص منذ بدايته يصرح بالشكل المعتمد فيه والتركيب الذي يتفق مع قوانين

(1) ينظر: عتبات النص - بحث في التراث العربي والخطاب النقدي المعاصر، يوسف الإدريسي ، منشورات مقاربات ، المغرب ، ط / 1 ، 2008 : 9-10.

(2) ينظر: بلاغة الاستهلال في روايات عبد الكريم غلاب ، رشيد بنحدو، الشبكة العنكبوتية :

http://www.aljabriabed.net/n11_08bienhadu.htm ، بتاريخ 2010/6/5 .

جنس أدبي دون آخر، وهذه الإحالة هي ما أشرنا إليه آنفاً بأن أول ما يستشعره القارئ من النص هو جنسه الأدبي، وبهذه الإحالة فإن عتبة النص تفعل في القارئ إدراكه لقوانين الجنس الأدبي التي تحدد نمطاً معيناً من التلقي ومساراً يتفق مع قوانين الجنس الأدبي في قراءته للنص، بل إنها قد تحيل إلى نمط التجربة الجماعية داخل الجنس الأدبي الواحد، فما أن نقرأ مطلعاً طلياً حتى ندرك أننا بإزاء قصيدة جاهلية النمط مثلاً، إن هذا الشكل من الوظيفة الإحالية ينبه وعي القارئ لقوانين معينة يتبعها النص مما يجعله مستحضراً لها في قراءته للنص، وفي شكل آخر من أشكال الوظيفة الإحالية لعتبة النص فإنها تحيل إلى مرجعية معينة تتمثل في الأطر الثقافية التي تؤسس الوظيفة الأدبية السابقة لوجود النص والممنوحة من الثقافة المهيمنة ⁽¹⁾، كما يمكن القول أن البداية غالباً ما ترسم بشكل أو بآخر تصوراً ما عن نهاية النص سواء أكانت متفقة أو مختلفة معها ⁽²⁾، فما طرحه بداية النص من أفكار واستقهامات هو ما يؤسس لدى القارئ تصوراً أو جملة من التصورات التي تمثل احتمالات النهاية، تلك الاحتمالات التي تتموقع ضمن سيرورة القراءة وتداخل القارئ في إدراكه ووعيه للمعطيات النصية اللاحقة للبداية.

ولعلنا نستطيع أن نعطي تصورين لبداية النص، الأول يتمثل في البداية المغلقة ⁽³⁾ التي قد لا تعني سوى ملمح مكتفٍ بذاته منغلق على نفسه تتحدد علاقته ببقية أجزاء النص بكونه يشغل الحيز المكاني على الورق ويتبادل مع

(1) ينظر: عتبات النص الأدبي، بحث نظري، د. حميد لحداني، مجلة علامات في النقد، النادي الأدبي، جدة، مجلد 12، العدد 46، شوال 1423هـ: 8.

(2) ينظر: م. ن. 23.

(3) ينظر: بداية النص الروائي في الرواية العربية المعاصرة (أطروحة دكتوراه)، أحمد بن سعيد العدوان، جامعة أم القرى، كلية اللغة العربية، 2008: 20 - 23.

بقية أجزاء النص علاقات محدودة لا تتجاوز هذا الحيز , في حين يتمثل الثاني في البداية المتجاوزة لذاتها التي تؤسس لعلاقات فاعلة مع بقية أجزاء النص وتقوم بدور فاعل في تلميح المشهد النصي وتتجاوز أبعاد حيز التشكيل المكاني على الصفحات التي يشغلها النص , إن مثل هذه البداية تقوم بالإحالة الفاعلة على أجزاء النص وتبقى راهنة في كل مرحلة من مراحل القراءة بما لها من خاصية التأسيس , إذ تتأسس عليها ووفقاً عليها كثير من المعطيات النصية الأخرى بما فيها من أفكار وتصورات تحملها وتؤدي اشتغالها مستويات وجوانب وتقنيات النص المختلفة والمتنوعة , ويمكننا التمثيل لهذه البداية برواية (شيفرة دافنشي) لـ(دان برون) ⁽¹⁾ حيث تمثل البداية المكانية عتبة النص ونصها ((متحف اللوفر , باريس)) مرتبطة بالزمن ((10:46 ليلا)) ⁽²⁾ هذه البداية تجسّر لعلاقات مع بقية أجزاء الرواية وتبقى حاضرة حتى نهاية الرواية التي تتحدث عن (الكأس المقدسة) حقيقتها ورحلتها , إذ تتجسد بداية الرحلة بشخصية (مريم المجدلية) المرأة الفرنسية الأصل بعد رحيل شخص (عيسى بن مريم) , تحضر الرواية هذه الشخصية التي اكتنفها المكان المَعْرِف جغرافياً بفرنسا , لتجعل بداية النص تأكيداً على حضور التاريخ بإشكاليته المرجعية المتجسدة بالاختلاف في تأويل القضية الدينية المتعلقة بهذه الشخصية بكل ما تستوعبه هذه الإشكالية من نتائج خلافية , وليرتبط هذا المكان بشخصية معاصرة لزمان السرد الحاضر تصرّح بها الرواية وهي شخصية (صوفي نوفو) وهي فتاة فرنسية أيضاً تكشف الرواية في نهايتها إنها من سلالة تلك الشخصية التاريخية (مريم المجدلية) , ويرتبط الزمن بوقت متأخر من الليل في إشارة رمزية للطقوس الدينية السرية التي

(1) ينظر: شيفرة دافنشي (رواية) , ترجمة سمة محمد عبد ربه , الدار العربية للعلوم . ناشرون , بيروت , لبنان , ط

/ 1, 2007 .

(2) ينظر: م . ن : 13 .

غالباً ما كانت تمارس في أوقات متأخرة من الليل لأنها تتأخر وتعارض سلطة الثقافة المتمثلة بالكنيسة الكاثوليكية ، إن مثل هذه البداية تبقى حاضرة وشاخصة في إدراك ووعي القارئ حتى نهاية الرواية التي تجري معظم أحداثها في فرنسا وتستمد مادتها الثقافية من ثقافة ذلك البلد في صراع مع ثقافة مهيمنة ليكون (الوفر) بما يضمه من إرث وثقافة غائرة الجذور هراً للثقافة ، حتى تكون الثقافة المناهضة من الوعي والنضج ما يجعلها تستهدف قمة التمثيل الثقافي للثقافة السائدة فتزرع أنساقها داخله عبر لوحات ليوناردو دافنشي ، بل ونشهد في الرواية دفن جسد تلك المرأة (مريم المجدلية) التي تتمحور حولها الإشكالية الثقافية التاريخية في هذا المتحف ، ليكون رمز الثقافة المناهضة والمجموعة حاضراً وبقوة في هرم الثقافة السائدة (الوفر) ومؤشراً واضحاً على ديمومتها على الرغم من الأنساق الثقافية المهيمنة ، كل ذلك يشير وبوضوح لهذا النوع من البدايات ، بداية تتعالق وتغلغل فعلها في عموم النص لتكون محورا رئيساً له .

إن كل تلك الخصائص التي تختص بها عتبة النص ، والوظيفة الإحالية التي تقوم بها ، تفعل أفق انتظار القارئ وترسم الخطوط الأساسية لهذا الأفق الذي تركز عليه القراءة بوصفه مرجعاً مهماً يمثل اشتراطاً رئيساً في تحقق تصورات المتلقي عن النص وديمومة التفاعل بين القارئ والنص عبر طرح أفق الانتظار لتوقعات واحتمالات الذات حول الموضوع الذي تتجز إدراكه ، ولهذا فإن البداية تحدد بشكل رئيس هذا الأفق ومن ثم تحكم على طبيعة القراءة وفعالية الإنجاز المرحلي في كل مرحلة من مراحل القراءة مقترنة بهذا الأفق ومحددة ببداية النص .

ومما تقدم يتضح أن البداية أو ما يسمى بعتبة النص تمثل بالفعل سياقاً من سياقات النص ، يحضر في فعل القراءة الفاعلة وسيورتها ، ويتداخل مثل بقية

السياقات مع غيره في ترسيم ما يريد البحث إيضاحه من سلطة السياق في المشهد القرائي وفعاليته فيه.

إن الحديث عن مفهوم بداية النص يستدرج مفهوم نهاية النص أيضاً كمفهوم من مفاهيم السياق النصي، ولئن شكلت العتبة بداية التشكيل النصي لتعطي فرصة وجود النص بفعل القراءة المتحقق من القارئ بإبرازها النص أمام القارئ ، فإن النهاية تجسد نهاية النص في حيز تشكله ، وهي بذلك تعلن للقارئ عن آخر مراحل فعل القراءة بمفهومها الآلي الذي يتعرض للمادة المكتوبة أو المنطوقة ، ويتحدد بهذا الإعلان إحدى نتيجتين بحسب نوع النهاية ، فإن كانت النهاية مغلقة ⁽¹⁾ فإن القارئ سيكون أمام نهاية الفعالية التأويلية التي رافقت مراحل قراءته للنص ، إذ تعطي النهاية المغلقة نهاية فعلية للنص في القراءة الواحدة من القارئ الواحد ، لأننا لا يمكننا القول أن قراءة أخرى لن تتجز، فالنص أمام إمكان قراءات أخرى حتماً ، أما لو كانت النهاية مفتوحة ⁽²⁾ فإن النص لن ينتهي ضمن الفعالية التأويلية التي يباشرها القارئ ، إذ تبقى من الاحتمالات المتعددة ما تكون بحاجة لإعادة النظر ومراجعة إمكانها ، وهذا ما نشهده في الروايات التي تنتهي بنهايات مفتوحة لتعلن عن نهاية التشكيل النصي في حيزه المكاني وبقاء ارتهانات متعددة ضمن فعالية القراءة والتأويل بوصفها إعادة لإنتاج المعنى وتكرار النص.

وكيفما كانت النهاية فإنها تمتاز في النص الأدبي عن بقية النصوص الأخرى التي توصف بكونها خارج سمة الأدبية ، فالأخيرة تنتهي بالفعل مع نهاياتها ، بخلاف الأولى التي تكون في فرض النهايات المغلقة قابلة لقراءات

(1) ينظر: نظرية النص من بنية المعنى إلى سيميائية الدال : 125-130 .

(2) ينظر: المكان نفسه .

أخرى وفي فرض الثانية قابلة لاستمرار الفعالية التأويلية فضلاً عن قبولها للقراءات الأخرى .

إن فضاء النص الضام للعنونة والبداية والنهاية وما بينهما من التشكيلات والمعطيات النصية يتداخل في فعالية القراءة ومن خلالها مع أفق انتظار القارئ ، فبداية النص تعطي التصورات البدئية هذا الأفق وتحيل القارئ لمرجعيات الثقافة والأسلوب وطرق إنجاز كتابة النص ، كما تعطي النهاية إشعاراً بتوافق أو اختلاف موضوعات النص وما يطرحه من رؤية مع أفق انتظار القارئ ، ولذلك فإن نهاية النص في نوعها المغلق تمثل نهاية لأفق الانتظار الذي رافق به القارئ نصه المقروء ، في حين يبقى أفق انتظار القارئ فاعلاً في النهايات المفتوحة ليحدد واحدة أو جملة من التوقعات لهذه النهاية بعد مجز فعل القراءة للمادة المكتوبة أو المنطوقة وهو ما يعطي مزيداً من فعالية النص وقابليته في استثارة القارئ باستمرار حتى مع نهايته الشكلية ، ولذلك يمكننا القول ضمن ما وصفنا من نوعي النهايات بأن مفهوم نهاية النص يوازي في فعاليته داخل القراءة الفاعلة مفهوم أفق الانتظار .

وما تقدم من الحديث عن نهاية النص يصور لنا بشكل واضح مدى حضور هذا المفهوم بوصفه سياقاً ، ليس أقل من كونه موازياً لأفق الانتظار .

• السياق السوسولوجي

في هذا الموضوع يجنح البحث شيئاً ما عن (مدرسة كونستانس) باتجاه التصورات السوسولوجية للتلقي والقراءة ، ذلك أنه في خضم البحث ضمن إجراءات نقد النقد لا بد من تتبع التلقي والقراءة بوصفها الإجرائي ، أي بوقوعهما حقيقة لا افتراضاً ، وهذا ما لا يمكن تحقيقه بالاعتماد على مفهوم (القارئ الضمني)⁽¹⁾ فقط والذي اكتفت به (مدرسة كونستانس) ، فالقارئ الضمني وإن كان مفترضاً في النص بقصدية الكاتب أو عدمها من خلال بنية النص التي تقترح قارئاً معيناً ، إلا أن هذا القارئ قد لا يتحقق حتى مع تعدد القراءات الفعلية للنص، وهذا ما يبعد البحث عن ما هو بصدده من تتبع القراءات النقدية لـ(الغذامي) ، إن هذه القراءات التي نتجت عن (الغذامي) تجعل البحث يتتبع الجمهور الفعلي الذي يتلقى النص ويقرأه ليجد ضالته . البحث . ضمن أنواع الجمهور وفعالياته⁽²⁾ حتى يتمكن من توصيف هذه القراءات بشكل أكثر دقة ، وهذا لا يعني أنه يتجافى مع (القارئ الضمني) إذ يتأسس على فرضية أن النص يقترح قارئاً أو قراءً معينين، وهو أمر ينقاد البحث له على وفق ما تمّ تقديمه في مباحث سابقة من كون النص يتحكم إلى حدٍ بعيد بكيفية ونوع التلقي والقراءة ، ولذلك فإن البحث يجد في مقولات (جماعة برلين)⁽³⁾ التي ميزت بين القارئ الضمني والقارئ الحقيقي ، إمكاناً لتحقيق تتبع القراءات الفعلية التي صدرت عن الناقد بوصفه قارئاً ومتلقياً للنص ، وهذا ما يمكن أيجاده عند (مانفريد ناومن) الذي اقرّ بوجود القارئ الضمني ، ولكنه لم يقف عند هذا القارئ

(1) ينظر: من فلسفات التأويل إلى نظريات القراءة : 18-191 .

(2) ينظر: سوسولوجيا الأدب ، روبرت إسكارييت ، ترجمة : أمال عرموني ، عويدات ، بيروت ، ط / 1 ، 1987 : 7

(3) عارضت هذه الجماعة تصورات مدرسة كونستانس حول ظاهرة القراءة ، تلك التصورات الموصوفة بكونها لا تاريخية ولا اجتماعية ، وأعطت هذه الجماعة تصوراً آخر لظاهرة القراءة بطبيعتها السوسولوجية .

بل تجاوزه للقارئ الحقيقي الذي باشر ويباشر بالفعل قراءة النص ، ليقف من خلال هذا التمييز على الانحراف الذي يصيب النص بين قارئه الضمني وقارئه الحقيقي⁽¹⁾ والذي يقود لتعدد القراءات ، فلئن كانت (مدرسة كونستانس) تعزو السبب في تعدد القراءات إلى قابلية النص ، للتعدد الدلالي ، فإن (جماعة برلين) تتساءل عن السبب الذي يحقق قراءة معينة دون غيرها من الاحتمالات القرائية ، لتخرج من هذا التساؤل بأن القارئ يقف وراء وقوع قراءة من جملة الاحتمالات القرائية التي يطرحها النص دون غيرها، بهذا يحضر السياق السوسولوجي المؤثر والفاعل في القارئ ليحدد نوع وكيفية تعاويه مع النص واختياره لقراءة محتملة من عددٍ من الاحتمالات ، وعليه فإن البحث يقف أمام جمهورٍ متنوعٍ ومتعددٍ من القراء ، فإذا كان (الجمهور المُخاطَب) يؤثر في النص بكونه حاضراً في ذهن الكاتب أثناء الكتابة فإن (الجمهور الوسيط) الذي ينتمي للثقافة ذاتها التي ينتمي إليها الكاتب والنص يتلقى النص ويقرأه بالفعل وقد تكون قراءته هذه بعيدة تماماً عن قصدية الكاتب التي حاول فيها مخاطبة الجمهور المُخاطَب ، ومن هنا يمكن الوقوف على مدى الانحراف الدلالي الذي نتج عن قراءة النص من قبل هذا الجمهور⁽²⁾ ومناقشة هذه القراءات من خلال تفاعلها مع النص أو خروجها عن معطياته ضمن فعالية تأويل مفرط ، ويمكن التعرف على القراءات المتعاقبة للنصوص عبر التاريخ والقراءة الزاهنة لعمل أدبي ينتمي لعصر سابق أو ثقافة أخرى من خلال (الجمهور الواسع) الذي يمثل جمهوراً لا ينتمي للثقافة ذاتها التي صدر عنها النص، إن الوقوف على تعدد جمهور القراء هذا يمكّن البحث من تتبّع التحول النقدي كونه تحت نظر البحث من زاوية تحققه الفعلي

(1) ينظر: المؤلف- المرسل إليه - القارئ ، مانفريد ناومن، ترجمة عبد القادر بوزيدة ، مجلة اللغة والأدب ، جامعة الجزائر، العدد2، 1993: 166-168 .

(2) ينظر: القراءة والحداثة . مقارنة الكائن والممكن في القراءة العربية : 207-209.

في جملة ما قَدّمه (الغذامي) من نتاجه النقدي , كما يمكن مناقشة مقولة القارئ الضمني التي صدرت عن (مدرسة كونستانس) بكون هذا القارئ الذي يتجسد في النص له علاقة بشكل ما بالسياق الثقافي , ذلك أنه لا يمكن لبنية النص وحدها أن تجسد هذا القارئ بل إن الأمر منوط بدلالة النص التي تشي بما يحمله من وجهات نظر تعبّر عن ثقافة النص التي ينتمي إليها ويتشارك فيها مع مجموعةٍ ما رفضاً أو قبولاً , ولذلك فإن البحث يرى أن القارئ الضمني غير مثبت الصلة عن ثقافة النص التي يطرحها عبر أنساقه التي تحملها بنيته النصية .

إن إقصاء السياق السوسولوجي عن فعالية التلقي عموماً والقراءة خصوصاً يعني أننا بإزاء البحث عن حقيقة النص داخل بنيته فقط دون الالتفات لأدبيته أو جانبه الدلالي , فهل يمكن القول بإمكان الإمساك بحقيقة النص مع افتراض النظر لأدبيته وعدمه؟ إن الإجابة تقتضي النظر لحقيقة أن القارئ يباشر عملية تأويلية أثناء القراءة ⁽¹⁾ بإزاء اقتراحات النص , وهو يستند ويتأثر بثقافته في عملية التأويل تلك, وبمعنى آخر فإنه لا يمكن القول بإمساك حقيقة النص لأنها تقتضي أن تكون دلالاته منحصرة بمفهوم واحد أو واحدية المعنى, الأمر الذي يخالف تعددية القراءة وإمكان إنتاج معانٍ متعددة , وإذا كان من غير الممكن الإمساك بحقيقة النص مع الالتفات لأدبيته , فإنه لا يمكن كذلك بالنظر إلى بنية النص فقط , إذ كما سبق الإشارة إليه فإنه - النص - لن يكون دالاً لافتقاده لعنصر الدلالة الممنوح من ووفق ثقافة معينة.

(1) ينظر: الغموض في الشعر العربي الحديث , إبراهيم رماني , دار المطبوعات الجامعية, الجزائر , ط / 3 ,

أما في الاستفهام عن كمون القيمة الدلالية لآبد من النظر لطرفي القراءة , النص والقارئ , والوقوف على تحقق هذه القيمة , فمع كون النص مغلقاً أين يمكن أن تكون القيمة الدلالية كامنة ؟ في البنية النصية للنص أم في أدبيته ؟.

وبالنظر إلى النص كوجود نصي مغلق لا يمكن القول بدلالاته, إذ إن عملية تلقيه تتعسر بل تستحيل دون الشعور بوجود قيمته الأدبية, وبمعنى آخر فإن قيمة النص الدلالية تكمن في كونه دالاً, لا بكونه يشتمل على بنيته النصية فحسب⁽¹⁾, ودلالاته هذه تتعلق بكونه دالاً في ثقافة معينة , إذ تتوقف فعاليتها الدلالية لو كان نصاً غير دال ضمن فضاء الثقافة التي تسبغ على النص شرعيته الأدبية⁽²⁾, ويتأكد الأمر حين ندرك أن ثقافة المجتمع هي من تفرض عبر مؤسساتها قوانين الأدبية, ويتحدد معها قبول النص أو رفضه بناءً على صفته الأدبية التي تُمنح للنص أو تُجرد منه, وإذا كان ذلك صحيحاً فإننا أمام سياق لا يتعلق بنصوصية النص بل بأدبيته, أي متعلق بوظيفته كدالٍ داخل منظومة الدلالة التي تتوافق عليها جماعة ما مشتركة في ثقافة معينة⁽³⁾, لا في جانبه النصي الممنوح من قوانين النص , ولذلك فالبحث معني هنا بتتبع قيمة النص ودلالاته التي تتأسس من خلال الثقافة الاجتماعية المهيمنة⁽⁴⁾, لا جانبه البنائي الممنوح من القوانين النصوية , ويتداخل ضمن هذا الحيز . السياق السوسولوجي . النص والقارئ معاً, فإذا كان النص دالاً ضمن ثقافة ما وهو

(1) ينظر: نظرية التلقي أصول وتطبيقات : 34.

(2) ينظر: منهج الواقعية في الإبداع الأدبي , صلاح فضل , الهيئة المصرية العامة للكتاب , ط / , 1978 : 247.

(3) ينظر: علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق , صبحي إبراهيم الفقي , دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع , القاهرة , مصر , ط / 1, 2000 , ج 1 : 108.

(4) ينظر: مدخل لسوسولوجيا القراءة , جاك لينهاردت, ترجمة: أحمد المديني, مجلة الفكر العربي المعاصر , العدد 13 , 1981 : 64 .

بكونه إبداعاً ، لابد أن يكون منطلقاً من ثقافة معينة ومتأثراً بها⁽¹⁾، فإن القارئ كذلك يتحدد تلقيه للنص من خلال ثقافته التي يشارك بها جماعة ما، أي أنه يتلقى على وفق شروط تلك الثقافة التي حددت كينونته السابقة على الالتقاء بالنص، أي أن البحث معني بتتبع الأثر السوسولوجي على النص والقارئ معاً ، وبذلك تكون القراءة متأثرة بالسياق السوسولوجي ومنفعلة به ومحددة على وفق اشتراطاته.

إن النص يبقى مغلقاً في حدود بنيته النصوية ولكنه منتمٍ لثقافة معينة ومتأثر بها، كما أن القراءة التي تحقق وجوده متأثرة أيضاً بالثقافة كونها متأثرة بالنص والقارئ اللذين ينطلقان من الثقافة أيضاً⁽²⁾ .

وبتتبع تطور اللغة يجد البحث أنها تنتقل من المواضعة الاعتبارية إلى انزياحات عدة تتمثل في مستوى الكلمة بالمجازات المتعددة التي تثري دلالاتها ، فالكلمة في ذاكرتها تنطلق من الاعتبار بتأسيس التوافق الجماعي ، لتكون داخلية في حيز الاستعمال الذي يحمل دلالة معينة لها، وتنتقل إلى الاستعمالات المجازية بالتوافق الجماعي أيضاً ، وهكذا الحال في الصياغات والتراكيب والأساليب ، إذ لا يمكن أن تكون للكلمة والجملة والنص دلالة خارج سياق التوافق الجماعي⁽³⁾ وصولاً للنص عبر حركيته ضمن مفهوم التغير والتطور ، كل ذلك يحدث بتأثير الجانب الاجتماعي بما يحمله من ثقافة تعبر عنها مؤسساته المهيمنة كالجامعات والمدارس والمنتديات الأدبية وأجهزة الإعلام ،

(1) ينظر: الأسلوبية وثلاثية الدوائر البلاغية : 224.

(2) ينظر: في علم الدلالة - دراسة تطبيقية في شرح الأنباري للمفضليات ، د. عبد الكريم محمد حسن جبل ، دار المعرفة الجامعية ، مصر ، ط / 1 ، 1997 : 22 .

(3) ينظر: المعنى وظلال المعنى أنظمة الدلالة في العربية: 121 .

وكل تطور محكوم بفعل الجانب السوسيولوجي ومتأثر به، وهو لا يعني بالضرورة أن يتوافق التطور دوماً مع الثقافة المهيمنة ، بل قد يخالفها ويخرج على قوانينها ، وهو بهذه الصورة يكون أيضاً ضمن إطار التأثير والتأثر لا خارجاً عنه (1) .

والتغير والتطور في جملة ما يمتُّ للأدب يطرح إمكانية الوجود المنفي أو الذاكرة المنفية ، إذ يجسد السياق السوسيولوجي الراهن مثلاً عن الواقع الراهن الذي يقرر قوانين تداول النصوص وتعاطيها في عملية التلقي، ويحدد إمكانيات القراءة ضمن حيز هذه القوانين (2) ، وأفضل ما يمكننا أن نقوم به هو توقع ذلك الوجود المنفي أو الذاكرة المنفية لجملة الانزياحات والصياغات والتراكيب والأساليب التي ستتشق قوانين متوافقة أو مختلفة مع السياق السوسيولوجي الراهن، بيد أنه لا يمكن أن نثق بإمكان تحقق أكثر من هذا التوقع ، لأننا وببساطة نعيش ثقافتنا الراهنة، ولعل الفضل في إمكان التنبؤ المشار إليه يعود إلى صراع الأنساق والنصوص المعارضة للسياق الراهن ، وهذا ما يقود البحث إلى افتراض أن الوجود المنفي المختزن للسياقات المستقبلية مرهون بالسياق الراهن بشكل أو بآخر رفضاً أو قبولاً ، وهو ما يؤكد حركية الأنشطة والفعاليات السوسيولوجية التي تشكل سياقاً يفرض مقرراته على تلقي وقراءة النصوص حتى تلك التي يضمها المستقبل (3) لأنها ستكون مؤسسة لسياق آخر ومحكومة به

(1) ينظر: النص والسياق الشعري من البنية إلى القراءة : 87 .

(3) ينظر: خيانة النص مشكلة المترجم الذي يجهل السياق الثقافي ، فتحي عامر ، الشبكة العنكبوتية :

http://www.voiceofarabic.net/index.php?option=com_content&view=article&id=194&catid=

10:1 بتاريخ 2011/8/17 .

(3) ينظر: مدخل إلى علم لغة النص - تطبيقات لنظرية روبرت دييو جراند وولفانج دريسلر ، إلهام أبو غزالة وعلي

خليل حمد ، الهيئة المصرية للكتاب ، القاهرة ، مصر ، ط / 2 ، 1999 : 35 - 36 .

في الوقت ذاته , وما تأسس ذلك السياق المستقبلي إلا من خلال الانفعال بالسياق الراهن وإعطاء تصور عن الرفض له أو القبول به.

ومع تداخل السياقات وتأثرها ببعض نجد السياق السوسيولوجي يتحكم بصورة مؤثرة في سياقات النص , فظهور الأجناس الأدبية وضمورها متعلق بشكل من الأشكال بالجانب السوسيولوجي حسب (فيكو) الذي يرى أن ظهور الدراما المسرحية مثلاً يقتضي توافر بنية حضارية تمكّن من وجود المسارح , كما أن الأدب الشفوي يشي بظاهرة الأمية في مجتمع ما⁽¹⁾ , إن هذا التداخل والتأثير والتأثر يبعث على ضرورة إحاطة المتلقي بالسياق السوسيولوجي وبالسياقات المؤثرة والفاعلة به والمتداخلة معه , ليحقق القراءة الفاعلة ويتمكن من فك شفرات النص والتعرف على جوانبه المتعددة ما أمكنه ذلك من خلال عملية القراءة , وإذا كان من غير الممكن نفي علاقة الاتصال التي تتحقق أثناء القراءة فأنا خلال القراءة نميز نقاطاً معينة في النص تمكننا من التواصل مع معطيات الدلالة , بوصفها طرقاً لتحقيق عملية الاتصال , تلك العملية التي لا يمكن أن تتحقق إلا من خلال المشتركات الإفهامية بين النص والقارئ⁽²⁾ , مما يعني أن النص والقارئ يلتقيان في حيز تحقق إمكان التصورات الناشئة عن تشارك الثقافة ووضوح المفاهيم القيمية , وعليه فإن السياق السوسيولوجي بوصفه ضاماً لتلك الثقافة يحضر ويحقق منطقة الفهم وإمكان التصورات التي يلتقي فيها النص والقارئ ضمن علاقة الاتصال⁽³⁾ التي تحتكم إلى مدى استحضار هذا السياق أثناء عملية القراءة.

(1) ينظر: الأدب والمجتمع , صبري حافظ , مجلة فصول , العدد 2, القاهرة , 1981 : 66.

(2) ينظر: المكان نفسه .

(3) ينظر: علم اللسانيات الحديثة : 543 .

ويبدو حضور هذا السياق وتأثيره على عملية التلقي حتى قبل المباشرة بعملية القراءة , من خلال تأثيره على المسبقات الذهنية للمتلقي كما يشير إلى ذلك (روبرت سي هولب) في كتابة (نظرية الاستقبال)⁽¹⁾ , حيث يحينا إلى طرح (هيريش) لنموذجه الافتراضي الذي يخلص من خلاله لبيان تأثير تدريس الطلبة لـ (شكسبير) , فإن هذا التدريس يركز , لدى الطالب فكرة معينة راسخة بإبداعية (شكسبير) , ومعه فإن تعاطي نصوص (شكسبير) يبقى مرهوناً بشكل رئيس وفاعل بتلك الفكرة , ويصعب معها تبني فكرة أخرى , وإذا كان ذلك ممكناً فهو أيضاً مرهون بالفكرة والتصور الأولين اللذين يقتضيان التعاطي مع نصوصه على وفق افتراض إبداعيته , وهذا ما يقودنا أيضاً للتحدث عن التعاطي مع (أحمد شوقي) بوصفه أميراً للشعراء (وطه حسين) بوصفه عميداً للأدب العربي , وترتكز هذه الفكرة في المسبقات الذهنية لجمهور المتلقين العرب لترتهن على وفقها لحظة الالتقاء الأولى بنصوصهم , والأمر ينسحب على بقية الأدباء الذين أسست نصوصهم تارةً والمؤسسة الثقافية تارةً أخرى تصورات معينة تؤثر على تلقي القارئ للنصوص , وهنا تكمن صورة من صور التحول النقدي بوجهيه الإيجابي والسلبي , فأن نتلقى نصاً ما ونقرأه يعني أننا مقيدون بسياق المقولات السابقة , وبمعنى آخر فإننا نراعي القراءات السابقة لتلك النصوص , وهذه القراءات السابقة بمجموعها تشكل وجهاً من أوجه السياق السوسيولوجي ما دامت معبرة عن رأي المؤسسة الأدبية والنقدية في مجتمع ما , وهنا تأتي المصادقة من قبل الناقد - بوصفه قارئاً ومتلقياً - على العمل الأدبي بالموافقة على أدبيته دون الرجوع للأسس المنهجية في التعاطي مع النص , ممثلة لتحول نقدي يؤشر على خطورة مثل هذا التعاطي الذي يؤسس ويرفد عماء معرفياً وفساداً ذوقياً , ولعل

(1) ينظر: بين الفهم والاستيعاب في فلسفة الترجمة , محمد نهاد أحمد , مجلة جامعة الأزهر , غزة, سلسلة العلوم الإنسانية , المجلد 9, العدد1, 2008 : 126-126.

خطورة هذا التحول لا تقف عند هذا الحد فيجتاح الناقد للالتفاف والاستعانة بالمنهج النقدي لتقرير صواب رأيه في أدبية نصٍ ما متحايلاً على اشتراطات الإبداعية الأدبية ، ليكون المنهج النقدي أداةً للتأسيس لأدبية نصٍ ما خارج شروط الأدبية، ونحن هنا لا نشيد لاحتكار الإقرار بأدبية نص ما على ناقدٍ أوحده أو منهجٍ أوحده ، بل إن ذلك ليخضع لعموم الاشتغال النقدي السائد، والمركز على أسس الأدبية التي سبق أن اشرنا لوصفها بالتغير والتطور لا الجمود والسكون.

إن ما قدّمه البحث آنفاً من التعريف بالسياق ودوره في التلقي والقراءة يوضح أهمية مفهوم السياق وارتباطه وتفاعله مع النص والقارئ ضمن فعالية التلقي وعملية القراءة ، وسنلاحظ كيف تأثرت بعض قراءات (الغذامي) جرّاء غياب هذا المفهوم أو قصور الرؤية تجاهه.

إن أول ما نلاحظه بهذا الصدد هو التفريق بين الأجناس الأدبية استناداً إلى خصائص النصوص المكونة للجنس الأدبي، إذ يناقش (الغذامي) (تكاذيب الأعراب) في الفصل الثالث من كتابه (القصيدة والنص المضاد)⁽¹⁾ ليخلص إلى كونها جنساً أدبياً قائماً بذاته، ويعطف أسطورة (نجم الدبران) وجملة من أساطير العرب عن النجوم على التكاذيب ، ويرى أنها تقع ضمن ما يراه جنساً أدبياً يدعى (تكاذيب الأعراب) إذ يقول عن الأساطير ((

وتلك هي قراءة أعرابية تكاذبية لصفحة السماء تجاري حكاية الليل النائم والسهم السحري في إفصاحهما معاً عن الغائب والمفقود وكشفهما عن المنشود ، بل إن

(1) ينظر: القصيدة والنص المضاد ، د. عبد الله محمد الغذامي ، المركز الثقافي العربي ، بيروت ، ط 1/ ، 1994

هذه الحكاية تفسر تلك وتحيل إليها وتتساير معها صياغةً وتفسيراً⁽¹⁾ وبدءاً يمكن للبحث استشعار الفرق الواضح بين التكاذيب والأساطير ، والذي يمنع أن يكونا ضمن جنس أدبي واحد ، ذلك أن التكاذيب قائمة على قصد الكذب ، وكونه معلوماً لدى المنشئ والمتلقي ، في حين أن الأساطير تحمل بعداً دلاليّاً من وضوح القصد وبيان التواطؤ على الكذب، إذ تدل على ثقافة موروثية تحمل وجهة نظر الجماعة بإزاء الملاحظات الكونية، وطبيعة الثقافة وبيئتها وأثرها في ترميز هذه الأساطير ، فضلاً عن الجذر الغائر لها في أصل نشوء الإنسان وتكوّن الحضارة ، وهذا ما تشي به صياغة الأساطير والضمير الغائب الذي يتولى دور الراوي المنشئ للأسطورة ، فهي تتناقل جيلاً بعد جيل غير معلومة المصدر ، منسوبة لثقافة وقد تتشارك فيها ثقافات متعددة أيضاً ، في حين نجد التكاذيب وإن كانت مجهولة المنشئ لكنها موصوفة بوصف ثقافة مخصوصة تساعد على تأطيرها ضمن ثقافة مخصوصة بل وبيئة معينة من بيئات هذه الثقافة ، وهذا ما يبرز بوضوح في عنوانها (تكاذيب الأعراب) إذ تختص بالأعراب دون العرب جميعاً ، وهنا تتحدد البيئة الثقافية بشكل واضح وتبرز معالمها لدى المتلقي لتؤثر في تعاطيه معها ، وتحدد له معطيات ثقافية معينة ترسم للوهلة الأولى عند تلقي هذه التكاذيب ، كما إن الجانب الوظيفي للتكاذيب الذي أقام عليه (الغذامي) رأيه في كونها جنساً أدبياً قائماً بذاته ، لا يكفي في إقرار وإثبات جنس أدبي ما ، إذ لو أقمنا وظيفة إحضار الغائب والكشف عن المفقود لوجدناها حاضرة في نصوص كثيرة تنتمي لأجناس أدبية مختلفة ، فهل يعني ذلك أننا بإزاء جنس أدبي ما ؟! ، إن الخصائص الوظيفية للنص لتتعدد في النص الواحد كما أن جملة من النصوص مختلفة الأجناس قد تتشارك في وظيفة رئيسية ما ، وكل ذلك لا يستدعي القول باشتمال النص الواحد على عدة أجناس ، كما لا

(1) القصيدة والنص المضاد : 139.

يستدعي القول بأن رواية وقصيدة هما من جنس أدبي واحد مثلاً ، أما في جانب الصياغة الذي أشار إليه (الغذامي) في قوله السابق فالاختلاف واضح جداً ، إذ التكاذيب تعتمد على حكايتين يباشر المنشئ الأول حكايته راوياً للثاني تفاصيلها الخارقة التي يعلم الثاني - وهو المتلقي هنا - كذبها مسبقاً، ليباشر الثاني بدوره فور انتهاء الأول من حكايته التي يعلم الأول - وهو المتلقي هنا - كذبها ، في حين تقتقد صياغة وأسلوب الأسطورة لهذه التقنية الحكائية ، إذ لا تقوم على أكثر من حكاية واحدة في كل أسطورة ، وهنا تختلف التركيبة النصية بينهما ، كما إن التكاذيب قائمة على الخرافة لا على العنصر الأسطوري ، إن ما تقدم يشير لعدم إمكان القول بمشاكل الأساطير لتكاذيب الأعراب مشاكلة تقودنا للقول بكونهما جنساً أدبياً يدعى (تكاذيب الأعراب) لا من ناحية الصياغة ولا حتى من الناحية الوظيفية ، وعليه فإن الناقد حين يكون بإزاء تحديد غير دقيق للجنس الأدبي فإن قراءته اللاحقة لنصوص أدبية يعتقد بانتمائها لجنس أدبي واحد ستكون مستتدة لأساس واهن يترك أثره على تلك القراءات سلباً ، لأنه يباشر قراءته لتلك النصوص مستحضراً سياق الجنس الأدبي الضام لها .

إن السياق التداولي⁽¹⁾ يحدد مسارات التلقي بشكل بالغ الأهمية ، إذ إن تداول المقولات والأمثال وبعض الأبيات الشعرية يتحدد على وفق هذا السياق ، ومعه فلا بد من التعرف على ذلك السياق في حدود الأطر السوسiolوجية التي تنتمي لها تلك المقولات والأمثال والأبيات الشعرية ، بل وكل ما ينتمي للأدب بصورة عامة ، وكمثال فإنه لا يمكن لمتلقي فهم مدلول جملة (الله كريم) في رواية تنطق عن خصوصية اللهجة العراقية الدارجة إذا لم يكن له دراية بالسياق التداولي لهذه الجملة في الثقافة العراقية، إذ تختلف بشكل رئيس عن مدلولها الأصلي الذي يدل

(1) ينظر: النص والسياق - إستقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي ، فان دايك ، ترجمة عبد القادر قنيني ،

أفريقيا الشرق ، المغرب ، ط 1/ ، 2000 : 309-311.

على موافقة المخاطب ووعده بإنجاز طلب المخاطب , فهي دالة ضمن سياقها التداولي في الثقافة العراقية على التسوية وعدم رغبة الأول في إنجاز طلب الثاني , وإذا كان السياق التداولي على تلك الأهمية , فإنه في جانب آخر يؤدي إلى طمس الدلالة الأصلية ولابد للقارئ حينئذ أن يعاود الدلالة الأصلية عبر تاريخ الانزياحات التي تشكّل معرفة القارئ بها ذاكرته مع الكلمة والتركيب , كما يجب الوقوف على سياق الموقف⁽¹⁾ الذي تم فيه القول , إذ إن السياق التداولي قد يطمس الموقف مما يحتمّ على القارئ التعرف على كلا السياقين , ذلك أن الجهل بسياق الموقف قد يعطي قراءة قاصرة أو معكوسة أحياناً , وهذا ما وقع فيه (الغذامي) فعلا في كتابه (الخطيئة والتكفير) عند قراءته للبيت :

ما أَرانا نقول إلا معاراً أو معاداً من قولنا مكروراً

فقد غفل عن سياقه ضمن النص الذي ورد فيه , ولم يقف على سياق الموقف الذي قيل فيه , ليدلّ به على تكرار القول الشعري عند الشعراء حيث يقول ((ونحن نعرف منذ زمن زهير بن أبي سلمى أن لا جديد يقال))⁽²⁾ , وقد كان لفت الانتباه في الكتاب ذاته وقبل وقوعه في هذا الخطأ في موضع سابق عليه إلى ضرورة مراعاة الأبيات الشعرية السابقة واللاحقة للبيت المقتبس والتي ترتبط معه بوحدة الدلالة وتؤثر على إدراك الدلالة للبيت المقتبس من القصيدة بوصفها سياقاً له , وضرورة العناية بسياق الموقف للتعرف على الدلالة بشكل أدق حين أورد خمسة أبيات (لدريد بن الصمة) مبيناً الموقف الذي قيلت فيه ومدلاً بهذه الأبيات على الخطأ الشائع الناجم عن السياق التداولي الذي يحور دلالة بيت دريد , حيث يقول (الغذامي) مبيناً ((ولقد تعمّدتُ إيراد هذه الجملة خاصة لأنها

(1) ينظر: المعنى وظلال المعنى أنظمة الدلالة في العربية : 120-122 .

(2) الخطيئة والتكفير : 145 .

قد تعرضت وتعرض دوماً إلى عملية انتهاك اقتباسي يفسدها فكل الناس يوردون البيت الأخير:

وما أنا إلا من غزية إن غوت غويت وإن ترشد غزية أرشد
ويفصلونه عن سياقه مما يفسده ويجعله بيتاً سوقياً ينم عن شعار غوغائي هو
بالسوقية والعامية أولى⁽¹⁾ ، واقتضت منه أمانته العلمية كباحث الإشارة لخطئه
، وهذا ما قام به بالفعل في كتابه (القصيدة والنص المضاد)⁽²⁾ ، ولكن
الأمر يتكرر في كتابه (القبيلة والقبائلية)⁽³⁾ في قراءته بيتاً شعرياً
لـ (عمر بن أبي رمثة المخزومي) والذي يقول فيه :

كُتِبَ القَتْلُ والقَتَالُ علينا وعلى الغانياتِ جرُّ الذِيُولِ⁽⁴⁾
حيث يرى (الغذامي) بأن البيت يدل على انتقاص الثقافة العربية من شأن المرأة
، إذ تحصر المهام الفاعلة والرئيسة في الحياة على الرجل لتعطيه السيادة الكاملة
على نواحي الحياة ، ولو عدنا لسياق النص الذي ورد ضمنه البيت ، وسياق
الموقف ، لوجدنا دلالة معاكسة لما أفضى إليه (الغذامي) ، ولدلنا السياق
السوسيولوجي المفصوح في النص على ذلك ، إذ يرد البيت في قول الشاعر:
إن من أعجب العجائب عندي قتل بيضاء حرّة عطبول
قتلت هكذا على غير جرم إن لله درها من قتيل

(1) الخطيئة والتكفير : 94 .

(2) ينظر : القصيدة والنص المضاد : 47 .

(3) القبيلة أو القبائلية أو هويات ما بعد الحداثة : 182 .

(4) البداية والنهاية ، ابن كثير إسماعيل بن عمر الدمشقي ، تحقيق مكتب التحقيق ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت
، لبنان ، ط / 1 ، 1997 ، ج 8 : 318 .

كتب القتل والقتال علينا وعلى الغانيات جر الذبول⁽¹⁾

وسياق الموقف الذي قيلت فيه هذه الأبيات ، هو استهجان الشاعر لقتل زوجة (المختار الثقفي) (عمرة بنت النعمان بن بشير) على يد (مصعب بن الزبير)⁽²⁾ ، إذ يمثل هذا الفعل مخالفة صارخة للثقافة العربية التي تجرّم مثل هذه السلوكيات وتعطي المرأة حصانة من القتل ، ولو حللنا معطيات الأبيات لوجدنا أنها تجسد قيماً ترفع من شأن المرأة لا نسقاً دالاً على الحط من منزلتها ، ليس أدل من الحصانة التي تصرّح بها الأبيات لصالح المرأة ، وهي حصانة تماثل تلك التي يتمتع بها أصحاب المنزلة الرفيعة في المجتمعات المعاصرة التي شرعتها القوانين المنبثقة من حقوق الإنسان ، والنظر للصفات الممنوحة للمرأة في هذه الأبيات دليل منزلة مثلى لها ، كما في (بيضاء) ، (حرة) ، (على غير جرّم) ، (لله درها) ، (الغانيات) ، (جر الذبول) ، صفات تعطينا تصوراً عن المرأة في هذه الأبيات ، امرأة تتمتع بالحرية والبراءة والشهادة ، وهي (غانية) أي مكتفية بحسنها وجمالها عن الحلي والزينة⁽³⁾ ، تحظى بمنزلة اجتماعية مرموقة كما يدل عليه قوله (جر الذبول) وهو حال زوجة (المختار الثقفي) بالفعل إذ كانت تنتمي لعائلة عربية موصوفة بالسيادة وهي بعد زوجة أمير ، إن دلالة البيت ضمن سياق النص وسياق الموقف وما يشي به السياق السوسيولوجي يعطي تصوراً معاكساً تماماً لما تعطيه دلالاته مفرداً مقروناً بالسياق التداولي فقط ومجتباً من سياقاته التي ترفد دلالاته بما يمكن القارئ من قراءة أقرب وأعمق للمعنى ، لقد وقع (الغذامي) في قراءة مشوهة الدلالة واستند على البيت كشاهد من شواهد الاستدلال على نسق من انساق الثقافة العربية ، ولعلنا ندرك مدى التحول النقدي حين نكون بإزاء قراءات مماثلة تؤسس لأنساق ثقافية معينة ، ولعلنا بحاجة حينها لإعادة

(1) البداية والنهاية ، 8 : 318 .

(2) المكان نفسه .

(3) ينظر: لسان العرب ، ابن منظور ، دار الجيل ودار لسان العرب ، بيروت ، لبنان ، 1988 ، مادة (غنا).

الفصل الثاني القراءة والسياق.....المبحث الأول

النظر في عملية القراءة وفعالية التلقي التي أنتجت تلك الأنساق , ومن ثمَّ إعادة النظر ولو من باب أمانة البحث وعلميته في النتائج وهي هنا الأنساق الثقافية لضبط عملية الاستدلال وناتج الاشتغال النقدي.

إن ما تقدم من التطبيق يدلل بوضوح على أهمية مفهوم السياق وحضوره في فعالية التلقي وعملية القراءة كعنصر فاعل ومؤثر في إنتاج الدلالة ومن ثمَّ إعادة تكرار النص وعملية إنتاج المعنى.

إن التلقي بوصفه فعالية إدراك واعية يحقق لدى الذات المتلقيّة للموضوع لحظة التقائها به استفهاماً أولياً يتأطر ضمن علاقة التماثل والاختلاف ، إذ كل شيء سابق على الموضوع المدرك آنياً تشكّل بالفعل في العالم المدرك من الذات على وفق هذه العلاقة ، فهناك حتماً أشياء مُدركة سابقاً عن الموضوع الحالي مؤتلفة وأشياء أخرى مختلفة ، هذه العلاقة - أي التماثل والاختلاف - تقودنا لحقيقة السياق بوصفه إطاراً ضاماً لمُدركات تشكّلت على وفق علاقة التماثل النسبي ، وكل ما يخرج عن هذا التماثل يُعبر عنه بالمختلف ، ودلالة الاختلاف تقودنا منطقياً لعلاقة المقارنة بشيء ما ، هكذا يتضح لنا حين تقودنا ذواتنا لتقرير إدراك ما موجود على أنه مختلف ، فإن هذا التقرير ناتج عن مقارنة مع سياق ضام لعناوين مُدركة اختلف عنها ذلك الموصوف بالمختلف ، على أن توصيف المختلف قد يدخل ضمن سياق ما أو قد يخرج بحسب العلاقة قريباً وبعداً عن السياق الآخر المقارن به .

هكذا يمكننا القول أن ما نعيه هنا بالسياق كمفهوم مضاف للتلقي والقراءة⁽¹⁾ هو كونه إطاراً ضاماً لمجموعة معينة من المدركات التي تحققت بفعالية الذات المدركة الواعية تجاه موضوعاتها ، على أن هذا السياق يختلف مفهوماً حسب موازاته لمفاهيم أخرى ودخوله حيز المناقشة المعرفية بإضافته لمفهوم آخر ، فتارة يكون السياق مفهوماً معبراً عن الجنس الأدبي ، وتارة أخرى يعبر عن ثقافة مجتمع ما ، وهكذا ، ولأننا هنا معنيون برصد علاقة السياق بالقراءة ، ولأن الأخيرة متحققة كفعل من ذات بإزاء موضوع ما أو من القارئ باتجاه نص ما ، سيكون حديثنا عن السياق منطلقاً من زاوية النص، ومن زاوية المتلقي ، أي تلك

(1) ينظر: معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة .د.سعيد علوش ، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط 1/ 1985 :

العلاقة التداخلية بين النص ومتلقيه , وكيف يمكن للسياق أن يكون حاضراً ومشروطاً لتحقيق القراءة كمفهوم قرّ في نظرية التلقي.

ولابد من التنويه إلى أننا نتناول مفهوم السياق بوصفه إطاراً مرجعياً لفعل التلقي بكلا شقيّه , المتلقي والنص⁽¹⁾ , ولسنا معنيين هنا بتناوله موصوفاً أو مضافاً للمنهج النقدي , إذ لسنا بصدد مفهومه كمنهج معروف بالمنهج السياقي ولا كنقد سياقي⁽²⁾ , وبهذا يرتفع اللبس الذي قد يحصل في مقارنة مفهوم السياق لمفاهيم أخرى أو مقارنته بها , كما قد يحصل في مقارنته بوصفه قراءة بالقراءة النسقية مثلاً⁽³⁾ .

وإزاء النص يبرز السياق بوصفه إطاراً مرجعياً للنص , يرتبط به الأخير بعلاقات إشارية وإحالية⁽⁴⁾ , وتعدد مستويات العلاقة به كالمستوى اللغوي والدلالي , ويتحقق توصيف النص من خلال علاقة التماثل والاختلاف معه.

أما إزاء المتلقي فإنه - المتلقي - مرهون في إدراكاته للنصوص بسياقه الثقافي الراهن الذي يعاوده بشكل مباشر أو غير مباشر ليغذي مفاهيمه التي يستند إليها في تلقيه⁽⁵⁾ , وبهذا التصور يمكننا إعطاء صورة عن حركية التلقي بحضور السياق , تلك الحركية ذات الأبعاد المكثفة والمعقدة التي ترسم علائقية بين

(1) ينظر: أثر السياق في توجيه المعنى في كتاب (معاني القرآن) للفراء , علاء عبد الأمير شهيد , رسالة ماجستير , جامعة القادسية , كلية الآداب : 22-29.

(2) ينظر: دليل الناقد الأدبي . د. ميجان الرويلي و د. سعد البازعي , المركز الثقافي العربي , الدار البيضاء , المغرب , ط / 3 , 2002 : 320.

(3) ينظر: القراءة النسقية - سلطة البنية و وهم المحاينة , أحمد يوسف , الدار العربية للعلوم - ناشرون , منشورات الاختلاف , الجزائر , ط / 1 , 2007 : 11.

(4) ينظر: المعنى وظلال المعنى - أنظمة الدلالة في العربية : 404-405.

(5) ينظر: السيميائية وفلسفة اللغة , أمبرتو إيكو , ترجمة د. أحمد الصمعي , المنظمة العربية للترجمة , بيروت , ط / 1 , 2005 : 126 . 128 .

المتلقي والنص ، وتمشهد الفعالية القرائية بوصفها مدماك تلك الحركية الناشئة على وفق اصطدام المتلقي بالنص ، والمتغذية دوماً من السياقات المحيطة والضّامة لكلا طرفي إنتاج المعنى، القارئ والنص، والعملية القرائية بوصفها فعل التحقق⁽¹⁾ .

إن أية عملية تلقى من ذاتٍ لموضوعٍ تحقق حضوراً لسياق ما⁽²⁾ ، والأمر يبدو واضحاً حين نقرأ رواية أو نشاهد عملاً درامياً ما ، كما لو فرضنا أن القصة تضم عناصر خالية وأمكنة وأحداثاً وأزمنة وشخصاً واقعيين على مستوى التصريح التاريخي أو الوجود الفعلي ، فكيف يمكننا كمتلقين أن نعطي تصوراً عن العناصر الخالية تلك ؟ ، وبشكل أكثر تعقيداً كيف يمكننا أن نحقق فعل الدمج بين تلك العناصر والعناصر الواقعية المتموضعة معها ؟ ، ولعل الإجابة تكمن في السياق ، إذ المعطيات المتوافرة من العناصر الواقعية تتحقق إدراكياً على وفق تصورات ذاتية سابقة تشكلت في الذات على شكل سياقات معينة لها طبيعة مخصوصة في الذات ، وهذا ما يساعد على تشخيص العناصر الخيالية بوصفها عناصر مختلفة عن السياقات السابقة ، ومع تكرار التجربة مع تلك العناصر الخيالية تتشكل سياقات مخصوصة لها في الذات الواعية المدركة لتتم بعدها عملية تلقي مثل تلك العناصر على وفق علاقة التماثل والاختلاف ، بهذا المعنى يصبح كل تلقٍ لمعلومات نصية مرهونا بسياق أو سياقات معينة متشكلة في الذات ، وعلى الجانب الآخر فإن إدراكنا للنص مرهون بتوصيف أولي عن النص، عن جنسه ، ومدى توافقه مع أعمال سابقة عليه واختلافه معها⁽³⁾ .

(1) ينظر: القارئ وسياقات النص ، لحسن احمامة ، منشورات دار الثقافة ، الدار البيضاء ، ط / 1 ، 2007 : 13-

(2) ينظر: الأدب المقارن ، محمد غنيمي هلال ، دار العودة ودار الثقافة ، بيروت ، ط / 5 : 137.

(3) ينظر: القارئ وسياقات النص : 24 .

وهذا لا يعني أننا بصدد خارج النص بل إن الأمر يتعلق بعملية التلقي وفعالية القراءة بوصفهما متحققتين بإزاء النص لا متجدرتان عنه ، فالنص هو المحفز للمتلقي لتحقيق إنجازهِ ، وإنما ينطلق المتلقي من معطيات النص لا من خارجه ، وهو خلال سيره في قراءة النص يعاود تلك المعطيات النصية ويأشر قراءته في كل مرحلة على وفق العلاقة التي أوضحها البحث في الفصل السابق بين القارئ والنص .

إن علاقة النص بسياقه المرجعي في كل أشكاله وتصوراتهِ ليست علاقة سلبية بمعنى أن النص يركز ويستند للسياق دون أن يضيف بدوره إضافة لذلك السياق ، بل على العكس تماماً إذ النص بما يطرحه من اختلافات مع السياق يثير إمكانيات متعددة للتغيير فيه ⁽¹⁾ ، وشيئاً فشيئاً تصبح الاختلافات مع السياق والتي تطرحها نصوص متعددة وبشكل تتابعي قادرة على تغيير السياق ، بل وطمسه أحياناً ، وبعث سياق آخر أحياناً أخرى ، وهذا ما نشهده في اندثار أجناس أدبية وظهور أخرى ⁽²⁾ ، مما يشير لعلاقة تفاعلية وإثرائية بين النص وسياقه.

إن مفهوماً نقدياً راسخاً كالتنّاص ليشير بوضوح لما نقدمه بخصوص السياق ، إذ كيف يمكن أن نتصور هذا المفهوم خارج علاقة سياقية ما ؟ إن التنّاص بأشكاله ومستوياته المختلفة يوضح العلاقة المتبادلة بين نصين أو أكثر وصولاً لثقافة كاملة على وفق هذا المفهوم - التنّاص - ويؤيد وجود العلاقة السياقية

(1) ينظر: الخطاب النقدي عند عبد الملك مرتاض بحث في المنهج والإشكالية ، يوسف وغليسي ، إصدارات رابطة الإبداع الثقافية ، الجزائر ، ط / 1 ، 2000 ، : 33.

(2) ينظر: اللغة والمعنى والسياق ، جون لاينز ، ترجمة د. عباس صادة الوهاب ، دار الشؤون الثقافية العامة ، آفاق عربية ، العراق ، ط / 1 ، 1987 ، : 215 .

ويؤكد حضورها (1) فالنص الراهن ينبثق عن ثقافة ما تتولى الشرعة لأدبيته , وهو معبرٌ عن حضور هذه الثقافة فيه بشكل مباشر أو غير مباشر, كما أن النص الراهن يتداخل بشكل لا نهائي مع نصوص أخرى تشكل سياقاً ما يقارن به النص الراهن وصولاً لتعريف علاقته به ومدى انسجامه واختلافه معه , ذلك ما يبرز حين نكون بإزاء تناص اجتراري يعيد فيه النص الراهن تبني وجهة نظر السياق , وبإزاء تناص حوارى يباشر فيه النص إعطاء تصور مخالف لوجهة نظر السياق ويمنح المتلقي فرصة محاوراة الأفكار والآراء السابقة التي تبناها السياق بشكل صارم , مما يمنح فرصة لبدء التغيير والخروج عن السياق , ولكن كل ذلك يجري بناءً لتصورنا للعلاقة السياقية , وهذا ما يعنيه البحث من حديثنا هنا بأن السياق حاضر ومتحقق فعلاً في كل عملية تلقى لنصٍ ما بالمفهوم الواسع للنص (2) .

والسياق حقيقة حاضرة في آلية الوعي الذاتى , فما أن تصطدم الذات بموضوعها الأول حتى يكون الموضوع التالي مرتين بإدراك الأول , وهنا تبحث الذات وبشكل آلي عن توافقاته مع الأول واختلافاته معه (3) , وبهذه الكيفية يتشكل السياق ويمارس سلطته في تشكيل تصورات الذات اللاحقة إلى حد بعيد عبر عملية المقايسة التي تجنح إليها الذات في إدراكاتها للمواضيع المختلفة.

وإذا كنا ((لا نستطيع بوصفنا بشراً أن نفكر في شيء لا تسمح به كفاءتنا اللغوية كما أننا لا نستطيع أن نتواصل حول شيء لا نستطيع التفكير فيه, فنحن محكومون إلى مدى معين في أفكارنا وأفعالنا باللغة التي نعرفها وهيكلت رؤيتنا

(1) ينظر: مدخل إلى علم النص ومجالات تطبيقه د. محمد الأخضر لصبيحي , منشورات الاختلاف , الجزائر ,

الدار العربية للعلوم ناشرون , بيروت, لبنان, ط 1/ , 2008 : 102-103.

(2) ينظر: الأصول, تمام حسان, دار الثقافة , الدار البيضاء, ط 1 , 1411هـ : 68-69.

(3) ينظر: بؤس الأيديولوجيا, كارل بوبر, ترجمة عبد الحميد صبرة ط 1/ , دار الساقى , بيروت, 1992 : 44.

للعالم)) (1) نعم محكومون ، ودرجة تجعل أحكامنا مستندة لتلك السياقات التي تتعدد أشكالها ومستوياتها ، فإن لنا أن نتساءل أين يمكن أن يكون النص دالاً ، هل يمكن أن يكون دالاً داخل المفهوم النصي فقط ، أم داخل مفهوم الأدبية ؟ ، وبمعنى آخر أننا لو افترضنا وجود النص خارج اللغة بوصفها أداة إفهامية عامة تتجاوز أطر الكلام لكل ما يمكن أن يكون علامة ، هل يمكن هنا أن يكون دالاً ؟ هل يمكن أن تعدّ العلامة دالة على شيء ما ؟ وبالطبع لا يمكن تصور ذلك لأننا مع اعتباطية اللغة ندرك جيداً أن هناك تواضعاً إجماعياً بين الجماعة الموصوفة بثقافة معينة على دلالة معينة للعلامة في تصور المعنى الأحادي أو المنطقي الأرسطي ، وتكتسب العلامة دلالاتها الأخرى تبعاً لأعراف الجنس الأدبي أو المواضعة الفنية المرتكزة لأصول الدلالة ، كل هذا والعلامة لا تدل خارج مفهوم اللغة ، لأن اللغة هنا هي المواضعة الاتفاقية في ثقافة ما على دلالات العلامات ، أليس لا تعني الإشارة المرورية الحمراء على التوقف إلا بناءً على تواطؤ اجتماعي ما على دلالاتها ؟ وهنا لا بد أن تكون العلامة دالة داخل اللغة بمفهومها الواسع وحسب ، واللغة هنا تجسد سياقاً يمنح العلامة دلالاتها ، وعليه فإن السياق يتحكم على مستوى بعيد بتلقي النص الأدبي ، نعم الأمر لا يقتصر على السياق فحسب في تلقي وقراءة الأعمال الأدبية الإبداعية وإنما يركز على عوامل أخرى كالجنوسة والتركيب وغيرها ، وهذه العوامل الأخرى تعدّ سياقات هي الأخرى .

إن ما ظهر على وفق ما افترضه البحث أعلاه بأن اللغة أداة إفهامية يزداد تعقيداً ومن ثم تأكيداً على حضور السياق لو كنا بإزاء مفهوم آخر للغة منطلقين

(1) فلسفة اللغة واللسانيات ، نور الدين النيفر ، مؤسسة أبو وجدان للطبع والنشر والتوزيع ، ط / 1 ، 1993 : 148

من (غادامير) الذي يقول ((لا يمكننا أن نفكر إلا بوساطة اللغة))⁽¹⁾ ويربط تحقق الوجود بإمكان اللغة لا كأداة وإنما ((الحصول على حميمية ومعرفة بالعالم نفسه))⁽²⁾ إذ اللغة هنا تحقق وجود العالم الذي ندركه بوساطة التفكير الضام لعملية الإدراك الواعي ، التفكير الذي لا يمكن تحقيقه إلا بوجود اللغة ، ومع القول بأن اللغة سياق من السياقات وعلى جانب مهم منها يتضح ما للسياق من دور في عملية القراءة والتلقي للنص⁽³⁾ ، هنا يتضح أن أي إهمال للسياق بمفهومه الواسع والمتعدد الأشكال والمستويات لا يحقق القراءة الموصوفة بكونها عملية لإنتاج المعنى وإعادة تكرار النص ، ويفقد عملية التلقي جانباً مهماً من جوانب إدراك النص والتفاعل معه قرائياً⁽⁴⁾ .

إن الطابع التمثيلي والترميزي للنص يبعث رؤية أخرى كاشفة عن أهمية السياق في تحقيق قراءة فاعلة للنص ، فالطابع التمثيلي يحدث لدى القارئ عملية مماثلة تصويرية لتحقيق صورة المعطى النصي في حدود التمثيل الذي حَقَز القارئ لتلك المماثلة ، وبرجوع القارئ لذاته فإنه يحقق هذه العملية من خلال مخزونه عن طبيعة تلك التمثيلات النصية⁽⁵⁾ ، وبعبارة أخرى فإن ما يقدمه النص بهذا الصدد يشكل تجربة جديدة للقارئ ولا بد - في سبيل التعرف عليها - من إطار مرجعي مكوّن مسبقاً لتحقيق التوافق أو الاختلاف مع التمثيلات النصية⁽⁶⁾ ، فبين القارئ والنص ارتجاع لسياق التجربة القبلية بوصفها سياقاً

(1) الإنسان واللغة ، هانس جورج غادامير ، ترجمة عبد العلي الزمي ، مجلة الثقافة الأجنبية ، العدد 4 ، 2009 : 21.

(2) المكان نفسه .

(3) ينظر: الأصول : 250 .

(4) ينظر: النص والسياق الشعري من البنية إلى القراءة ، علي أيت أوشان، دار الثقافة ، الدار البيضاء ، المغرب ط /

1 ، 2000 : 18 .

(5) ينظر: نظرية التأويل ، مصطفى ناصف، النادي الأدبي الثقافي ، جدة ، السعودية ، ط / 1 ، 2000 : 201.

(6) ينظر: بلاغة الخطاب وعلم النص ، صلاح فضل ، عالم المعرفة ، الكويت ، 1992 : 246.

مرجعياً يحقق التواصل بين النص والقارئ ، أما الطابع الترميزي فيحيل القارئ إلى توصيفات ودلالات الرمز من مخزون الثقافة التي ينتمي إليها ⁽¹⁾ ، وبفضل هذه الإحالة يلج القارئ القناة الترميزية للنص ليحيل دلالاته المتكاثفة لإمكانات التوافق مع معطيات النص الأخرى لإعادة تكرار النص وإنتاج المعنى ، وهو - القارئ- في فعاليته القرائية ضمن الطابع التمثيلي والترميزي للنص محكوم بالسياق الذي أوضحناه بصفته المرجعية.

ولأن مفهوم السياق يتسع وتتعدد أشكاله ومستوياته ، سيحدد البحث العناية ضمن هذا المبحث بأشكال محددة منه على وفق طرفي عملية التلقي والقراءة ، المتلقي أو القارئ ، والنص ، والقراءة بوصفها علاقة تحقق وإمكان للنص ، وهنا نحدد مفهوم السياق بالجنس الأدبي ، والشفرة الجماعية لتجربة أدبية مخصوصة بميزات تميزها عن غيرها من التجارب ، وما يداخل الجنس الأدبي والشفرة الجماعية من شفرة الناص (الأسلوب) ، وشفرة النص ، كما أن البحث سيتناول السياق السوسولوجي الذي يؤثر عملية التلقي ، وكذلك تداخله بوصفه معطى من معطيات المتلقي والنص على حد سواء ⁽²⁾ ذلك أن القارئ يتلقى النص متأثراً بثقافته الاجتماعية التي تكونت قبل ولوجه عالم النص الراهن والتي ستؤثر حتماً في وخلال عملية القراءة ، كما أن السياق السوسولوجي مؤثر وفاعل في النص ، لأن النص يعرض خطاطة احتمالاته ومواضيعه على وفق تصورين ، فإما أن يكون متواطئاً مع الثقافة معبراً عن أنساقها ومؤيداً لثقافة السياق المجتمعي ، أو يكون معارضاً ييث مفاهيم تؤسس للإطاحة بالسياق المجتمعي الراهن ، وبهذه

(1) ينظر: البويطيقا في صياغة اللغة الشعرية ، علاء الدين رمضان السيد ، مجلة علامات في النقد ، العدد 28 ،

يونيو ، 1998 : 263.

(2) ينظر: قاموس مصطلحات التحليل السيميائي للنصوص (عربي، انكليزي، فرنسي) رشيد بن مالك ، دار الحكمة ،

ط / 2 ، 2000 : 44-45.

الصورة يمكننا تناول مفهوم السياق ضمن إجرائية تقف على حد معتد به للتعريف بفاعليته واشتراطه لتحقيق القراءة المنتجة للمعنى.

• مظاهر السياق النصي

تتعدد مظاهر السياق النصي وتتداخل لتشكل أطراً يحال إليها النص خلال فعالية القراءة ، ويرتهن بها في شروط قبوله ورفضه من المتلقي ⁽¹⁾ ، ولعل أول هذه المظاهر هو الجنس الأدبي ، إذ إن أول لحظة لالتقاء القارئ بالنص يتبادر لذهن القارئ الجنس الأدبي للنص الذي هو بإزائه ، وهذا ما يطبع تجربة التلقي بطابع معين ، لينجز بعدها القارئ عملية قراءة النص مرهوناً باشتراطات جنسه الأدبي ، ومعه فإننا لا يمكن أن نتعامل مع الشعر مثلاً على وفق قوانين القصة ، وهكذا الحال مع بقية الأجناس الأدبية ⁽²⁾ ، وهذا ما يحدد سياقاً معيناً للتلقي والقراءة ، فالمؤسسة الثقافية مسؤولة عن تجنيس النصوص تبعاً لمعايير معينة تحدد مسبقاً محددات معينة لتلقي نص أدبي ما ، والقارئ محدد في تلقيه لنص ما قبولاً ورفضاً بتلك المحددات ، هذا ما يبدو واضحاً في رفض الثقافة القائمة ومقاومتها لأي تغيير يستهدف تلك البنية المتجذرة التي تحدد شروط التلقي ، والنص تبعاً لذلك متعلق وجوداً وإمكاناً بشروط الجنس الأدبي ⁽³⁾ ، إن النص بما أنه تركيب معين بخصائص معينة لا بد أن يكون منتبهاً لسياق ما يعرف بما يتفق معه ليكون ضمن هذا السياق أو ذاك ، والعلاقة التماثلية مهمة في توصيف النص ضمن جنس معين ، وكذلك الحال في علاقة الاختلاف إذ يشي

(1) ينظر: التواصل اللساني والشعرية . مقارنة تحليلية لنظرية رومان جاكوبسون ، الطاهر بو مزير ، منشورات الاختلاف ، الدار العربية للعلوم ، الجزائر . بيروت ، ط / 1 ، 2007 : 66 .

(2) ينظر: علم الأسلوب مبادئه وإجراءاته ، صلاح فضل، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، ط / 1 1985 : 54.

(3) ينظر : اللغة والمعنى والسياق : 205 .

هذا الاختلاف بقيمة خصوصية النص ولكن ليس خارج جنسه وإنما داخله , بمعنى أن المشتركات بين النص وجنس أدبي ما من الحد ما يجعله داخلاً ضمنه , واختلافه معني بإعطائه قيمة خاصة داخل هذا الجنس.

إن القارئ بناءً على ما تقدم معني بشكل آلي بقراءة النص تبعاً للحظة التحيين التي حددت مسار القراءة على وفق جنس محدد , وسيستمر هذا المسار حتى إنهاء القراءة⁽¹⁾ , ولذلك فإن أية قراءة تهمل الجنس الأدبي لا يمكن لها أن تحقق علاقة فاعلة مع النص لأنها ومن الوهلة الأولى ستكون خارج القوانين العامة للنص , لا تدرك الفوارق بين التركيبات النصية للنصوص , والنص الراهن بين يدي القراءة منجز على وفق تركيبة معينة خاضعة لسلطة الجنس الأدبي.

ومع استحضار علاقة الذات بالموضوع يبدو الجنس الأدبي في نطاق الموضوع , وهو بذلك يشكّل أحد موانع الانفلات التأويلي للنص⁽²⁾ وبذلك ينكشف اللبس الذي قد يحصل بافتراض أن مراعاة سياق الجنس الأدبي هو خروج عن النص إلى ما هو خارج عن كينونته بدل أن تكون القراءة منبعثة من النص , فحقيقة مراعاة السياق في إطار جنوسة الأدب هي مراعاة لعلاقة بين الموضوع وسياقه لا النظر إلى السياق على أنه هو الموضوع المسلط عليه فعل القراءة والمتداخل مع الذات في علاقة تفاعلية تقود لإنتاج المعنى , وليس السياق هنا سوى إحدى مستويات استحضار فعل قرائي مؤداه إنتاج المعنى , وبمعنى آخر فهو - السياق - أحد شروط الفعالية القرائية في علاقة الاستحضار لا كونه الموضوع المنفعل بالقراءة والمسلط عليه فعالية القارئ بشكل رئيس.

(1) ينظر: بحوث في النص الأدبي , محمد الهادي الطرابلسي , الدار العربية للكتاب , تونس , ط / 1 , 1988 : 188.

(2) ينظر: حدود الانفتاح الدلالي في قراءة النص الأدبي , د. عزيز محمد عدمان , مجلة عالم الفكر , المجلد 37 , العدد 3 , يناير - مارس , 2009 : 88-92.

كما تتجلى أهمية السياق في حدود مفهوم الجنس الأدبي في أنه يسم قراءة النص بسمة النظرة الكلية للنص , إذ إن علاقات النص بجنسه تتعدى مفهوم التصنيف المؤطر إلى علاقة التداخل المانحة والتي تمنح النص أبعاداً دلالية تتجاوز الإطار التركيبي الداخلي للنص , لا أقل من التشارك في قوانين الجنس الأدبي التي تقود إلى تشظٍ دلالي وتناغم مع معطيات الخصوصيات الجنسية , فنحن نعرف أن مجموع نصوص ما شكلت جنساً أدبياً تعطي خصوصيات معني بها جنس أدبي عن آخر , وهذه الخصوصيات تعم الجنس الأدبي , ولا تقف عند حدود نص واحدٍ منها , وهذا ما يمنح النصوص المنتمية لهذا الجنس تلك الخصوصيات عبر فعالية مشاركة الجنس الأدبي الواحد , وإذا كان ثمة ما يدعى بالسياق الأصغر والمعني بتراكبية النص الواحد في علاقاته الداخلية , فهناك ما يدعى بالسياق الأكبر الذي يعبر عن طبيعة العلاقة داخل الجنس الأدبي , وهي علاقة ممكنة بصفة إيجابية تبادلية , فالبحث لا يتكلم على الجنس الأدبي خارج فهم الباحث للنصوص المتحققة بالفعل والمؤسسة لذلك الجنس الأدبي , كما أننا لا نتكلم عن النصوص الممكنة التي ستكون مستقبلاً كائنة وحادثة بالفعل , وبشكل من الإشكال فإن فهم البحث للسياق في عنوان الجنس الأدبي ليس فهماً يعرف الجنس الأدبي بوصفه كينونة منبئة عن نصوصه بل العكس تماماً⁽¹⁾ .

وإذا كان هذا الفهم صحيحاً فإنه مما لا شك فيه أن قراءتنا وتلقينا . كقراء . لأي عمل أدبي يخضع لاستحضار هذه العلاقة المهمة والمؤثرة والفاعلة , خصوصاً إذا ما علمنا أن الكاتب يستحضر تلك العلاقة لحظة كتابة نصه , ولما كان هذا الاستحضار متحققاً فإنه بلا شك سيكون حاضراً في النص , وهو ما يحتم على المتلقي بشكلٍ ما استحضاره خلال القراءة.

(1) ينظر: التناص وإنتاجية المعنى , حميد لحداني , مجلة علامات في النقد , جدة , الجزء 40 , مجلد 10, 2001

إن تلك العلاقة التواصلية بين النص والجنس الأدبي هي ما تمنح الوظيفة المرجعية حركيتها وفاعلية الإحالة لمعطيات السياق وصولاً لفهم النص الراهن , ذلك أن جزءاً مهماً من فهمنا للنص متعلق بفهم النصوص السابقة عليه ⁽¹⁾ , وإذا كانت النصوص السابقة على النص الراهن هي المشكلة والمتأسس عليها الجنس الأدبي , فإن فهم قوانين الجنس الأدبي ضرورة لفهم النص الراهن ⁽²⁾ , وبهذا تتضح العلاقة التواصلية بين النص وسياق الجنس الأدبي , وتتضح معها فاعلية الإحالة إلى السياق المرجعي الذي يمثله الجنس الأدبي هنا , خصوصاً مع كون النص معبراً عنه باللغة , إذ إن من وظائف اللغة بحسب (ياكسون) أنها تحيل إلى الإطار الخارجي للنص ⁽³⁾ .

إن النصوص السابقة في حدود الجنس الأدبي تمثل واجهة من واجهات تشكّل أفق الانتظار ⁽⁴⁾ , هذا الأفق الذي ترتحن به وبشكل رئيس فعاليات التلقي والقراءة وكيفياتهما , إذ إن مجموع النصوص السابقة على النص الراهن تمثل تجربة القارئ السابقة , وفي إطار سياق الجنس الأدبي فإن النصوص المنتمية للجنس الأدبي ذاته تحضر أثناء القراءة بشكل أوفر من النصوص المنتمية للأجناس الأخرى , إذ إن لحظة التحيين تقود لاستدراج تلك النصوص داخل وعي القارئ لطرح الاستفهامات عن المماثلة والاختلاف بين النص الراهن والنصوص السابقة من الجنس الأدبي ذاته, وقيمة استحضار تلك النصوص

(1) ينظر: المكان نفسه .

(2) ينظر: بنية الخطاب في الرواية النسائية الفلسطينية 1950-2000 , حفيظة أحمد , مركز أوغاريت , رام الله , ط 1, 2007 : 332.

(3) ينظر: قضايا الشعرية , رومان ياكسون , ترجمة محمد الوالي ومبارك حنوز , دار توبقال للنشر , الدار البيضاء , المغرب , ط 1/ , 1988 : 30 .

(4) ينظر: البلاغة ومقولة الجنس الأدبي , محمد مشبال , الشبكة العنكبوتية .

تتمثل في قول (فرانسييس بونج) ((إن التماثلات أمر يثير الاهتمام , ولكن أقل ما تثيره الاختلافات ... فلا بد من خلال التماثلات , أن ندرك الصفة الاختلافية ((⁽¹⁾ , إذ لابد من إدراك أن علاقة التماثل والاختلاف التي أشار إليها (فرانسييس) تشير بشكل لا يقبل الشك لعلاقة سياقية ما , إذ التماثل والاختلاف ناتج عن فعالية المقايسة , تلك الفعالية التي تقع بين شيئين أو أكثر , وفي الحديث عن النص لابد أن تكون المقايسة واقعة بين النص وسياقه الضمني والضمam لمجموعة نصوص تماثله في قوانين مشتركة ويختلف عنها بخصوصيات تمنحه وجوده داخل السياق العام والمشار إليه هنا بالجنس الأدبي , وبهذه الطريقة أيضاً يمكننا الوقوف على المتجاوزات المعيارية والانحرافات الدلالية⁽²⁾ إذ القول بأن هناك خصوصيات لنص ما يشير للعلاقة العمومية حتماً , فالنص المخصوص بتراكيبية ما وبحيز دلالي مغاير لما سواه يشير لانفلات عن العموم , ذلك العموم الذي يتشكل من مجموعة كبيرة من النصوص الأخرى التي تشترك فيما بينها وبين النص الراهن بعلاقات تماثل متعددة⁽³⁾ , وإذا كان ثمة معيار جمالي يقرّ في الجنس الأدبي تشترك نصوصه فيه فإن قيمة الجنس الأدبي لتظهر في إمكانية التعرف على قيمة الانزياح عن ذلك المعيار الجمالي الذي يحققه النص الجديد بخروجه عن ذلك المعيار , وتوظيفه لقيمة أو قيم جمالية تؤسس لتطوير وتغيير القيم الجمالية القارة في الجنس الأدبي , وهذا ما أشرنا

(1) طرائق باريس , مجموعة أفكار م. ف.ج. غاليما , فرانسييس بونج , 1971 : 42-43.

(2) ينظر: بنية اللغة الشعرية : 30 .

(3) ينظر: ترجمة النص الأدبي , أسعد سامية , مجلة عالم الفكر , الكويت, العدد4, 1989 : 24 .

إليه سابقاً بكونه أحد عوامل تطور الأجناس الأدبية ، وربما الانقلاب عليها تدريجياً لتظهر أجناس أدبية جديدة وتتطمس أخرى (1) .

إننا لو تصورنا أن الجملة ليست تركيباً بقدر كونها اختياراً من عدة اختيارات يوظفها المبدع في سياق النص من خلال فعالية سمة التبديل والتحويل ، فإن النص ليكتسب كونه اختياراً من جملة اختيارات يطرحها الجنس الأدبي ، فكما هو تركيب فإنه اختيار واحد من جملة اختيارات يطرحها فضاء متسع من التشاكلات المختلفة والمتعددة والمتراصة والمرتبطة بقوانين هي قوانين الجنس الأدبي ، وقيمة النص في كونه اختياراً له من الخصوصية في السياق العام للجنس الأدبي ما للجملة من خصوصية داخل التركيب النصي ، وهو ما يطرح أمامنا دور الجنس الأدبي . كسياق . في تحديد علاقات الغياب والحضور في النص ، فالتماثلات والاختلافات المتحققة في النص الراهن تتحدد على وفق منظور النص داخل سياق الجنس الأدبي ، وإحضار الغائب يستند لمعرفة النصوص السابقة داخل الجنس الأدبي للنص الراهن (2) من خلال علاقة التماثل والاختلاف المتحققة بين النص وجنسه الأدبي .

ومما تقدم يظهر أن أي قراءة لنصٍ لا بد أن تحضر قوانين الجنس الأدبي للتعرف على نوع العلاقة بين النص وسياقه الأجناسي ، لا أقل من التعرف على علاقة التماثل والاختلاف بينهما ، وهذا لا يعني بالضرورة أننا في فعل القراءة نحدد النص ونقيده ، بل إننا قد نكون مقرين بخروج النص عن قوانين الجنس الأدبي مع توفر شروط الإبداع و أدبية النص ، إذ نلتمس كقراء ما يتوافر عليه

(1) ينظر: أصل الأجناس الأدبية ، ترفتات تودورف ، ترجمة محمد برادة ، مجلة الثقافة الأجنبية ، وزارة الثقافة والإعلام

، بغداد ، العراق ، العدد :1، السنة الثانية، ربيع 1982: 46 .

(2) ينظر: النظرية التأويلية في الترجمة – مدرسة باريس نموذجاً ، د.عبد اللطيف هسوف ، الشبكة العنكبوتية .

النص من قيم جمالية تحققت بانزياحه عن السياق العام للجنس , وما يتوافر عليه من خصوصية تمنحه أبعاداً دلالية مكثفة ومتشظية , وقراءة مثل هذا النص تحقق إثراءً لتجربة القارئ , ورؤية أعمق باستحضاره في عملية قراءة لاحقة لنصوص أخرى , وهذا ما يحقق تطوراً مستديماً في عملية القراءة وفعالية التلقي .

ولابد من التأكيد مرة أخرى على الجنس الأدبي كسياق لا يمثل تقييداً للنص أو القراءة في حدود ما قدّمناه , بل إنه يمثل تنظيمًا منهجاً للقراءة , وصولاً لفعاليات قرائية تأخذ بنظر الاعتبار قوانين النص واشتراطاته ضمن حيز جنسه الأدبي.

وإذا كان الجنس الأدبي يمثل مظهراً مهماً من مظاهر السياق النصي فإن تجربة ما داخل الجنس الأدبي نفسه لتسم نفسها بسمات مميزة لها عن قريناتها من التجارب , إننا نعني هنا تجربة تؤكد حضورها عبر نصوص تتميز بطابع الفردية , قائمة على سمة الإبداعية وتوظيف الجانب الجمالي بشكل مختلف عن التوظيفات السابقة في الجنس الأدبي الواحد , ذلك ما نلاحظه حين نحاول توصيف تجربة شعرية مثلاً حين نصفها بالجيلية , كما لو قلنا التجربة التسعينية أو شعراء الجيل التسعيني في إشارة لتجربة شعرية ظهرت في تسعينيات القرن الماضي وتميزت بأسلوب مغاير في توظيف العنصر الجمالي في النصوص الشعرية , كما أن تجربة جماعية أو نصوصاً متعددة ترسم مساراً إبداعياً يخرق بعض قوانين الجنس الأدبي ليشكل سياقاً داخل سياق الجنس الأدبي , وتبقى هذه التجربة مشروطة في القبول على عنصر الإبداعية ومرتهنة بمدى الخرق الذي تحققه داخل الجنس الأدبي , فإذا ما أتيح لها خرق قوانين رئيسة في الجنس الأدبي فإننا حينها نشهد ولادة جنس أدبي آخر كما حصل في تجربة

الشعر الحر وقصيدة النثر، أما لو بقى الخرق في حدود قوانين لا تمس البنية الرئيسة للجنس الأدبي فإنها تكون حينذاك تجربة جديدة داخل الجنس الأدبي ذاته ، تسهم بشكل فاعل في ديمومة - الجنس الأدبي - وتوفر من عناصر فاعليته ما يجعله قادراً على مواكبة الزمن موسوماً بالتطور والحداثة المستديمة ، وهنا لابد من القول بأن التغيير وخرق قوانين الجنس على الصورة الثانية يكون خصوصية لتجربة أدبية إبداعية داخل الجنس الأدبي ، إذ لا يمكن أن نقرّ بان قوانين النصوص الجاهلية هي ذاتها قوانين النص العمودي الحداثي ، ذلك أن جملة من المفارقات بينهما لا تسمح بذلك ، ولعل منها الجانب التركيبي ، والتوظيف المعجمي للمفردات ، والجانب الدلالي المتضح من خلال توظيف المجازات وبقية الفنون البلاغية ، إن ذلك يمنع من تداول النصوص بناءً على إلغاء الخصوصيات النصية التي تتسم بها نصوص التجارب الإبداعية داخل الجنس الأدبي الواحد ، وكيفما كان فإن قراءتنا وتلقينا يختلفان بشكل واضح حين نتلقى نصاً جاهلياً أو عمودياً حداثياً معاصراً.

إن وعي القارئ لهذه الخصوصية هو إدراك وتصور لجانب مهم من النص المباشر بالقراءة واستحضار لقيم تلك الخصوصية التي تؤثر بشكل فاعل في كينونة النص ، وهو أمر مخصوص بفعالية القراءة قبل كونه مستجلباً من منهجيتها، إذ يصحّ أن يُقرأ النص الجاهلي والنص الحداثي على وفق منهج أو نظرية نقدية واحدة ولكن ذلك لا يعني إلغاء خصوصيات كل منهما ، بل إن المنهج والنظرية النقدية في ممارسة القراءة تساعد على الكشف عن تلك الخصوصيات وإبرازها كملح لا بد من الارتكاز عليه كجانب من جوانب الممارسة القرائية.

ويمكننا القول بأن التجربة الجماعية الإبداعية داخل جنس أدبي ما ،

والمميزة عن بقية نصوصه وتجاربه الأخرى تكوّن شفرة خاصة بها لا بد من التعرف عليها حتى تتم القراءة كفعل وناتج موصوف بالتفاعل بين القارئ والنص.

وشيئاً فشيئاً ندرك أننا أمام خصوصية النَّاص , وخصوصية النص, وخصوصية المتلقي, على أننا سنؤجل الحديث عن خصوصية المتلقي وشيء من خصوصية النص فيما يتعلق بارتباطه بالمكون الاجتماعي والثقافي , سنتحدث عنها في الموضوع الثاني من هذا المبحث .

إن الحديث عن خصوصية الناص لا يعني أن البحث بإزاء اشتغال مستند للمناهج الخارجية كالمنهج الاجتماعي أو المنهج النفسي , بل إنه ينطلق من التعريف بهذه الخصوصية من مجموعة النصوص التي أنتجها مبدع ما بما تحمله هذه النصوص من تمايز عن بقية نصوص التجربة الجماعية الأدبية الإبداعية ونصوص الجنس الأدبي الواحد , ذلك أن نصوص أديبٍ ما تنتمي لتجربة أدبية معينة وتنتمي هذه الأخرى لجنسٍ أدبي ما , ومثلما تعرفنا على ضرورة معرفة خصوصية الجنس الأدبي كسياق ضام للأعمال الأدبية المنجزة داخل حيزه , وكذلك خصوصية تجربة جماعية لمجموعة من النصوص لجملة من المبدعين , فإننا معنيون هنا بالتعرف على خصوصية النصوص الأدبية لمبدع واحد , منطلقين كما أشرنا من النصوص ذاتها ومدفوعين لذلك بما نجده من تمايز وفوارق في التوظيف الجمالي والتحقيق الإبداعي في نصوص ناصٍ دون آخر (1) , وحقيقة ذلك التمايز لا تلغي التداخل الإبداعي بل إنها تغني عملية التثاقف والتماحك بين التجارب الفردية , وتحقق تنوعاً في التشكيل الجمالي للتجربة الجماعية والجنس الأدبي وعموم الفعالية الإبداعية الموصوفة بكونها

(1) ينظر: علم الدلالة , د.أحمد مختار عمر , عالم الكتب , القاهرة , مصر , ط / 4 , 1993 : 116 .

أدبية , وعلى وفق ذلك فإن النصوص المنسوخة والمحاكية لنصوص أخرى تخرج عن إطار كونها شفرة مخصوصة بذاتها لانعدام عنصر التمايز واختفاء ملمحٍ فارقٍ واضح.

إن التجربة الإبداعية الفردية تصرّح بفردتها في ومن خلال نصوصها , وهذا ما يقود القارئ لاستشعار شفرة خاصة بتلك ويحفزه للتعرف على خصائص تلك الفردة وما يميز تلك النصوص عن غيرها (1) , من خلال توظيفاتها للجوانب التركيبية والدلالية وتلميح الجانب الجمالي فيها , ولئن كان التمييز ممكناً بين نص جاهلي مثلاً ونص حديث , فإن الأمر يبدو أعقد في محاولة التمييز بين نصين ينتميان لتجربة جماعية واحدة , ولعل السبب يعود لتقارب الشفرات النصية , إذ يصبح التأثير بين نصوص التجربة الجماعية الواحدة أكبر وأشد انفعالاً بفعل المقاربة في الرؤية , وتبني مواصفات التجربة الواحدة (2) , ومع ذلك فإن إمكان التمييز حاصل وممكن بالفعل , وهو أمر لم يكن البحث معنياً بتتبعه بقدر ما يمكن الاستعانة به لإثبات أن لكل تجربة فردية إبداعية سماتها المتداخلة والمنفصلة بسمات التجربة الأدبية عموماً وسياق الجنس الأدبي خصوصاً وسياق التجربة الجماعية بشكل أخص (3) , وإنه لمن الواضح أننا قد نتلقى نصاً ما دون معرفة مسبقة لمؤلفه مما قد يعني أن الشفرة الخاصة بالنّص تكون غائبة عن الإدراك الواعي للقارئ , وهو ما قد ينفي كلامنا آنفاً عن تلك الشفرة الخاصة بالنّص وضرورة حضورها في وعي القارئ أثناء القراءة , مما يولد إشكالية في

(1) ينظر: علم اللسانيات الحديثة , عبد القادر عبد الجليل, دار صفاء للنشر والتوزيع , عمان , الاردن , ط / 1 , 2002 : 547 .

(2) ينظر: تقنيات التعبير في شعر نزار قباني , بروين حبيب , المؤسسة العربية للدراسات والنشر , بيروت , لبنان , ط / 1, 1999 : 52 .

(3) ينظر: لسانيات النص , محمد الخطابي , المركز الثقافي العربي, بيروت , لبنان , ط / 1, 1991 : 315 .

افتراض وجودها على الأقل أثناء عملية القراءة وهو ما نحن بصدد بعيداً عن لحظة كتابة النص من مؤلفه.

وبملاحظتنا للتجربة القبلية للقارئ تندفع تلك الإشكالية ويتأكد حضور شفرة النص وضرورتها في عملية القراءة ، فالقارئ لا يلج فضاء النص وهو خال من مسبقات ذهنية وتصورات عن موضوعات سابقة ، تلك المسبقات والموضوعات التي تشكلت من نصوص سابقة على النص الراهن ، إن تلك النصوص السابقة كونت سياقات للتلقي في ذات القارئ ومارست دورها في ترسيم وعي القارئ بإزاء النصوص اللاحقة ، وبهذا فإن القارئ أمام النص الراهن مواجه من النص بأحد احتمالين ، إما أن يوافق النص أفق انتظاره وحينها يكون النص الراهن موافقاً للسياقات المسبقة التي تشكلت في وعي القارئ ، أو أن النص يكسر أفق انتظار القارئ ، وهنا يكون القارئ أمام نص خرق السياقات المسبقة ليحفزه عبر علاقة التماثل والاختلاف للتعرف على القانون الجديد للنص الراهن ، وبعبارة أخرى فإن القارئ أمام النص الراهن إما يكون مجابهاً بشفرة يعرفها مسبقاً ، أو بشفرة استثنائية تهدد سياقاته المسبقة وتحفزه لطرح احتمالات متعددة لفهم العلاقة بين النص الراهن والنصوص السابقة وصولاً لفهم ذلك النص عبر فعالية تأويلية تحاول فك شفرات جديدة يطرحها النص في تحدٍ للقارئ .

وبمعنى آخر فإن المتلقي حتى لو كان على غير علم بمنشئ النص الذي بين يديه فهو قادر على تمييز مماثلة أو اختلاف النظام التشفيري له بفضل تجربته السابقة ، وهو قادر على تبويب الشفرات التي تكسر أفق انتظاره في قراءات لاحقة مما يعني أنه بإزاء وضع الشفرات الفردية في سياقات منتظمة تغني تجربته مع النص عموماً ، ومع هذا الإيضاح ، فإن تعاطينا كقراء يختلف من نص إلى آخر على وفق ما أوضحه البحث من فعالية التجربة السابقة لنا

كقراء ومتلقين , وفضلاً عن ذلك فإن قراءة النص مع استحضار شفرة النّاص كسياق من السياقات حتى مع معرفة القارئ المسبقة بمنشئ النص لا تعد خروجاً على القراءة الداخلية , لأن تلك القراءة لا تنطلق من المبدع بل من النص , والشفرة التي يتحدث عنها البحث كائنّة في النص وحاضرة فيه .

إن التعرف على سياق شفرة النّاص يمنح القارئ قدرة على فك شفرات النص الراهن بفضل المعرفة المسبقة بنظام هذه الشفرة , إن اختلافاً أو تماثلاً مع شفرة النص الراهن , ليس أقل من التعرف على طبيعة توظيف الرموز والانزياحات , وطبيعة الجانب التركيبي المانحة والموظفة للجوانب الدلالية للنص الراهن .

وتبرز العلاقة بين سياق شفرة النّاص (الأسلوب) - في جانب من جوانبها - وسياق الجنس الأدبي في جانب الاختيار الأسلوبي , إذ إن أسلوب النّاص يمثل اختياراً من عدد من الاختيارات التي يمنحها الجنس الأدبي , مما يحقق في ذهن القارئ استفهاماً عن طبيعة هذا الاختيار دون غيره من ممكنات الاستبدال في معجم الإمكانات المحددة بسياق الجنس الأدبي , وهذا الاستفهام يقود لاحتتمالات تمكّن القارئ من المقارنة بينها وبين المعطيات النصية الأخرى لرسم تصور مستند للتأويل على وفق علاقة توافقية ورابطة بين أجزاء النص ومرتجعة لتلك الاحتمالات , ولعلنا نفهم ما للاستفهام عن طبيعة اختيار معين من دور في تبئير الرؤية ورسم مخطط ذهني لاستقراء المعطيات النصية والتوجه لإنتاج المعنى وإعادة تكرار النص , ذلك أن النص يعطي من احتمالات التأويل أفقاً متنامياً ومتسعاً , والقارئ في فعاليته تجاه النص يحتاج للامساك ببعض التحديدات التي تمكّنه من فعالية الربط والتوفيق بين أجزاء النص , كما هو الحال في الإمساك بعناصر الإجماع الركني في النص , إذ صفة اللامسوكية للنص الأدبي تحول مع التجرد عن المحددات من إعطاء رؤية تمكّن من تحديد

بؤرة النص ، والتمكّن دون إعطاء رؤية ما عن النص .

ويبدو من خلال إقامة العلاقة بين شفرة النّاص (الأسلوب) وشفرة الجنس الأدبي ، أن القارئ ينطلق من سياق إلى آخر بشكل مترابط يمنحه رؤية أكثر استيعاباً لطبيعة النص ومعطياته وصولاً لتحقيق القراءة بوصفها ناتجاً لإيجاد النص كمتحقق بتلك القراءة .

وإذا كان لابد من مراعاة السياق في القراءة والتلقي بوصف السياق متمظهِراً بمظاهر عدّة ، كالجنس الأدبي ، وشفرة النّاص ، فإنه - السياق - لا يبرح موجوداً داخل النص الواحد ، وقد سبق أن أوضح البحث في الفصل الأول أن لكل نصٍ إبداعي خصوصية تميزه عن غيره من النصوص ، وهذه الخصوصية تشي بوجود سياق خاص بكل نص لابد مع وجوده من مراعاة قوانينه التي تشغل داخل النص ، وتحدد طبيعة التلقي والقراءة ، إن هذا السياق الخاص بالنص يمثل شفرة النص التي يتميز بها عن النصوص الأخرى⁽¹⁾ ، ولابد من التعرف ومحاولة فهم هذا السياق للتمكن من محاورة النص وفهمه عبر فك شفراته ، على أن هذا السياق يتداخل في مستويات النص ومظهره ومعطياته وجوانبه المختلفة ، فهو يتداخل مع المستويات ، كالمستوى التركيبي والنحوي والصرفي والصوتي والدلالي⁽²⁾ ، كما أنه يحضر في الفعاليات النصية كالانزياح والتناص ، ومثلما يتداخل هذا السياق مع النص في كل معطياته فإنه يُمنح من تلك المعطيات ويمنحها أبعادها وفاعليتها في الوقت ذاته ، إذ إن

(1) ينظر: علم الدلالة، بيارغيرو، ترجمة: أنطوان أبو زيد ، منشورات عويدات ، بيروت ، ط / 1 ، 1986 : 29 .

(2) ينظر: الأسلوبية وثلاثية الدوائر البلاغية، عبد القادر عبد الجليل، دار صفاء للنشر والتوزيع ، عمان ، الأردن، ط

1/، 2001 : 297، وينظر: مبادئ اللسانيات ، أحمد قدور ، دار الفكر المعاصر ، بيروت، لبنان، ط / 1، 1996 :

العلاقة الايجابية بينه وبين النص تتسم بالتبادلية والمنح , وسيختصر البحث الحديث هنا على جوانب معينة لإعطاء تصور جلي عن سياق النص والابتعاد قدر الإمكان عن الإسهاب في هذا الموضوع المتسم بالتشعب .

إن أول ما يمكن للبحث مناقشته في حدود هذا السياق , هو الموضوع الذي يختزنه النص وي طرح رؤيته تجاهه , ليجعل القارئ أمام افتراض معين يحدد له مسار القراءة وآلية التلقي , ذلك أننا حتى مع الانزياحات التي توظف في اللغة الشعرية مثلاً, لا يمكننا القول بانعدام الوظيفة الاتصالية للغة , فإذا كانت اللغة الأدبية في الشعر تخرق قوانين المعجم اللغوي نحو تأسيس معجم النص الأدبي بالانزياح فإن المهمة التأويلية تقوم بالحفاظ على رابط الإفهام بين المعنى الضمني والمعنى التعييني , وتحفظ للوظيفة الاتصالية مهمتها داخل فعل القراءة الناجز بين القارئ والنص , وبمعنى آخر فإن الوظيفة الاتصالية تقوم بمهمة عرض الموضوع المتضمن داخل النص على القارئ , وتمكينه من إجراء المقاربات المعنوية الممكنة بين الدال ومجموعة الدوال الممكنة , وبهذا فإن ما يحاول النص طرحه من مواضيع تشكل سياقاً لا يمكن تغافله , كما لو أننا أمام قصيدة رثائية تتضمن مواضيع مستقاة من موضوعة الفقد بالموت فإن الموضوع يختلف عنه لو كنا بإزاء قصيدة تتناول الغزل أو المديح , وهنا لابد أن يكون لموضوع أو موضوعات النص حضوراً في إدراك القارئ ووعيه, هذا الحضور الذي يتحقق بشكل مباشر أو غير مباشر بفعل الوظيفة الاتصالية التي تقوم بها اللغة , كما أن القارئ أمام النص معني بشكل لا لبس فيه بتقصي ما يطرحه النص من موضوعات قد يتفق القارئ معها أو يختلف , إذ لا يمكن تحقق اتفاهه أو اختلافه مع موضوعات النص دون التعرف عليها ومراعاة حضورها في الإدراك الواعي للقارئ , إذ لا يكفي الإدراك في تجسد هذه الموضوعات داخل

ذات القارئ دون الوعي الذي يمنح التصورات الذهنية لتلك الموضوعات عبر فعالية التفكير , وإنه لا يمكن بأي حال أن يدرك القارئ نصاً ما دون تمثّل موضوعاته في ذاته , وبذلك يكون الموضوع كمفهوم عام ممثلاً لسياق لا يمكن تجاوزه في فعالية القراءة وفعل التلقي , وتجاوز الموضوع بعد إدراكه بشكل واعٍ يعني الخروج عن إمكانية تأويل النص بل هو خروج عن فهم النص فضلاً عن عملية إنتاج المعنى.

إن مستوى من مستويات النص كالمستوى التركيبي يحكم تلقي نصٍ ما , ويؤسس جملة من محددات القراءة , إذ النص يتشكل إلى حدّ كبير على وفق هذا المستوى (1) , فبدءاً من الكلمة حتى الجملة وصولاً للنص , تتحكم كيفية وآلية التركيب في تحديد المعطيات النصية وتشكيل الأبعاد الدلالية لأجزاء النص مما يعطي النص شكله النهائي الذي يباشر القارئ قراءته على وفقه , إن هذا المستوى على جانب فاعل في شكل وكيفية قراءة النص وتلقيه, فإذا كانت الكلمة في النص الأدبي ذات استعمالات متعددة فإنها تمنح القارئ استعمالات أو جملة من تلك الاستعمالات في حدود تموضعها في الجملة (2) , كما أن الجملة لا تدل إلا على وفق موضعها من النص , إن ذلك الجانب التركيبي الممنوح على وفق مبدأ الاختيار والاستبدال يعطي تصوراً عن دلالة كلٍ من الكلمة والجملة داخل النص , وفي النهاية يمنح النص مع جملة من المعطيات النصية الأخرى و الجوانب المتعددة أبعاده الدلالية , ويمنحنا تصوراً عن قابلية النص لقراءات متعددة تبعاً لمعطياته , فإذا كانت الكلمة في حدود النص الأدبي تمنح تلك القابلية لاستعمالات متعددة فإنها تبعاً لفعاليتها وتفاعلها داخل الجملة تمنح

(1) ينظر: علم اللسانيات الحديثة : 542 .

(2) ينظر: م . ن : 219 .

الأخيرة تلك القابلية , ومن ثمّ فإن النص يكون متعدد القراءات , ولا بد مع هذه التعددية من الرجوع للمستوى التركيبي في حدود ما أوضحناه بوصفه مرجعية لفعالية القراءة , ويمكننا أن نتصور كيف يمكن أن يكون شكل القراءة المتجاوزة لحقيقة سياق المستوى التركيبي , إذ تبقى هذه القراءة خارج التعمق في تراكيبية النص لا تدرك سوى سطحه الخارجي , إن المستوى التركيبي يتداخل كما بقية المستويات بعضها ببعض لتمنح كلاً منها أبعادها داخل النص ولتؤسس مشتركة خصوصية النص الواحد عن النصوص الأخرى , إن ذلك التداخل والتفاعل بين النصوص يمكن إدراكه من جوانب عديدة , ويمكننا إعطاء تصور عن ذلك التداخل بين المستوى التركيبي والمستوى الدلالي , ذلك أن الكلمة يمكن إعطاؤها شكلين من الدلالة هما الدلالة العادية والدلالة المكتسبة , وتتحدد الدلالة العادية في مستوى الاستعمال اللغوي لها , حتى إذا ما ولجت النص الأدبي كالقصيدة مثلاً اكتسبت دلالة أخرى لها , وهذه الدلالة منحت من خلال موضعها في الجملة والنص وبذلك تنتقل بفعل التركيب من مستوى الدلالة التعيينية أو الصريحة إلى مستوى الدلالة الضمنية , كل ذلك بفعل التركيب , وهذا ما تؤكد عليه نظرية الحقول الدلالية , إذ تعطي السياق الذي يتضمن الكلمة أهمية قصوى في تحديد دلالتها (1) , وبهذه الصورة يمكننا تصور التداخل بين المستويات لتشكيل النص , وما هذه المستويات إلا سياقات حاضرة وبشكل فاعل ومؤثر في النص ولا بد من التعرف على قوانينها داخل النص في أية فعالية قرائية تستهدف الدخول لعالم النص , كما يمكن إعطاء تصور آخر عن التداخل بين المستوى النحوي والمستوى التركيبي , إذ إن فعالية الاختيار والاستبدال مقيدة بإمكان الجانب النحوي من مراعاة القوانين النحوية للغة , كما أنها مقيدة بإمكان القول كما

(1) ينظر: منهج المعجمية, جورج ماطوري , ترجمة: عبد العلي الوديعري, منشورات كلية الآداب بالرباط , 1993 :

يذهب (جان كوهن) في رأيه عن الانزياح , إذ يرى أنه يمكننا القول ((القط يموء والقط أسود , إلا إنه لا يمكننا القول القط ينبج والقط مثلث))⁽¹⁾ ويرى أن المعجم اللغوي يشكل مرجعاً لقياس مقدار الانزياح .

إننا إذ نوضح ذلك التداخل فإننا نهدف إلى إعطاء تصور عن تداخل السياقات لتشكيل سياق النص والذي يمكن التعبير عنه بأنه شفرة النص الذي يعطيه طابعه وشكله وطبيعته الدلالية المختلفة حتماً عن النصوص الأخرى⁽²⁾, فكل نص له سياق خاص به حتى لو كان لمبدع واحد , كما أن التقنيات الخطية تشكل جانباً من جوانب سياق النص , لا أقل من تحديد الفواصل بين فقرات النص , وتشكيل ترسيمة لأجزاء النص يتعاطى معها القارئ , فالنص المكتوب أو المنطوق عن كتابة مرهون في جانب من جوانبه بتلك التقنيات , مثل النقاط والفوارز التي تحدد علاقات الجمل مع بعضها الآخر⁽³⁾ وتشكل معبراً من المعابر بين القارئ والنص , فهي مع ما يقدمه المستوى النحوي في أساليبه المتعددة كالعطف والاستئناف مثلاً يشكلان ملامح معبرة داخل النص , لها من الدلالة ما يشكل جانباً مهماً في التعاطي مع النص , وتحدد تلك التقنيات بدايات ونهايات أجزاء النص وتعطي تصوراً عن تدافع وتلاحم الأفكار والموضوعات داخل النص وتلاحمها , وبها تتحدد فضاءات تلك الأجزاء داخل فضاء النص الضام لها والمُشكل منها⁽⁴⁾ وإذا كان التعاطي مع النص مرهوناً بالتعرف على

(1) بنية اللغة الشعرية : 107 .

(2) ينظر: علم الدلالة, بيار غيرو : 29 .

(3) ينظر: دينامية النص : 29 .

(4) ينظر: النسق النصي والنسق المتنّي في الحركتين المتضافرتين للقصيدّة (الانبناء/ الانهدام) , بشير حاجم, الشبكة العنكبوتية.

مفهوم بؤرة النص وعناصر الإجبار الركني أمكننا أن نتصور مدى فعالية هذه التقنيات في تحديدها.

إننا لو تناولنا النص في طبيعة تشكله نرى أن أول ما يصطدم به القارئ هو العنوان ، والعنوان مفهوم عنيت به كثير من الدراسات النقدية وأفردت له السيميولوجيا جانباً على قدر من الأهمية في تناولها وإعطائها أبعادها الدلالية في النص ، إذ قد تختزل موضوع النص بوصفها أيقونة تحمل من التكثيف الدلالي ما يؤهلها لدور فاعل في الإحالة على الموضوعات الجزئية في النص ، والموضوع الرئيس فيه، وهذا الدور يقودنا لفهم العلاقة بين العنوان وبقية أجزاء النص تتجسد في الإحالة على تلك الأجزاء وإعطاء البؤرة النصية بعداً يتمثل في عملية الارتجاع الذهني التي يقوم بها القارئ بعد كل مرحلة لاحقة للعنوان وبشكل مقصود أو غير مقصود ⁽¹⁾ ، فالعنوان حاضرة في وعي القارئ حتى يتم قراءته بشكل نهائي ، وبعبارة أخرى إننا حين نقرأ نصاً نبقى في علاقة متواصلة مع العنوان حتى مع تجاوز حيزها الذي تشغله على الغلاف أو الورقة مع إننا أتمنا بالفعل قراءة تلك العنوان وتجاوزناها في دخولنا للحيز النصي المشغول على الورقة اللاحقة ، إن تلك العنوان تبقى حاضرة في أذهاننا حتى آخر صفحة ، ولعل السبب يعود لما تطرحه العنوان من استقهام يجب الإجابة عليه ، ويتحفز القارئ لهذه الإجابة التي يتولى النص القيام بها لا على شكل جاهز وإنما بفضل القراءة الفاعلة التي تحقق العلاقة بين النص والقارئ ، وهذا ما نشهده - على سبيل المثال - حين نقرأ رواية القفص الزجاجي لـ(كولن ولسن) ⁽²⁾ ، إذ يبقى القارئ مستحضراً لتلك العنوان على امتداد الحيز الكتابي للرواية ومتحفزاً لإرضاء

(1) ينظر: سيميائيات التأويل - الإنتاج ومنطق الدلائل ، طائع الحدادي ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ،

المغرب ، ط / 1 ، 2006 : 384 - 386 .

(2) ينظر: القفص الزجاجي (رواية) ، ترجمة سامي خشبة، دار الآداب ، بيروت ، لبنان ، ط / 2 ، 1973 .

فضوله المعرفي عنها , ولا يتحقق ذلك إلا في نهاية الرواية التي يحقق المشهد الأخير منها حضور ذلك القفص الزجاجي الذي يضم أفعى الكوبرا , ليصدم القارئ بأن الإجابة عن استفهام تلك العنوانة تمتد على طول زمن السرد في أجزاء النص , مما يحفز فعاليات الوعي لدى القارئ مرة أخرى لإعادة ربط أجزاء الرواية مرة أخرى على وفق علاقتها بالعنوانة.

إننا إذ نتحدث عن هذه الفاعلية والخاصية للعنوانة لا نعني بها كل العنونات التي يمكن أن تصدر النصوص , بل نخص بها ما ينطوي على تلك الأبعاد بما يفترض من كونها تتحمل الدلالة الضمنية وتتداخل مع أجزاء النص في علاقة ترابطية , وكثيراً ما نقرأ نصوصاً لندرك أن عناوينها منبئة الصلة عن النص وأجزائه ومثل هذه العناوين لسنا معنيين بها⁽¹⁾ , والعنوانة بما لها من تلك الطبيعة والعلاقة مع النص تحقق تلاحقاً بين أفقي إنتاج المعنى في عملية القراءة : أفق النص بوصفها حاضرة في الحيز المكاني الذي يضم النص - على ورق مثلاً- من بداية النص حتى نهايته , و أفق القارئ حيث تحضر منذ اللحظة الأولى للقراءة حتى آخر لحظة ينتهي فيها القارئ من قراءة النص , كما أن للعنوانة وظائف أخرى تختلف بحسب جنس النص الأدبي وطبيعة النص ذاته , ولعلها ترسم منذ البداية طبيعة موضوع النص للمتلقي كما في كثير من عناوين القصائد حيث يتعرف القارئ من خلال العنوانة على غرض القصيدة مثلاً إن كان مدحياً أو غزلياً أو غيره من الأغراض.

إن تلك الوظائف والخصائص التي تختص بها العنوانة تحدد للقارئ طبيعة ومساراً معيناً لتلقي و قراءة النص وهي بذلك تشكل إحدى السياقات التي يجب

(1) ينظر: سمياء العنوان , بسام قطوس , وزارة الثقافة , الأردن , ط 1, 2001 : 6 .

الركون إليها في تلقي وقراءة النص ، وهي كسياق تتناغم مع بقية سياقات النص في رسم الطابع التشفيري له .

كثيراً ما نشرع في قراءة نص لنجد أننا توقفنا عن ذلك ونحن لم نتجاوز بعد بدايته ، ذلك أن تلك البداية لم تستطع تحفيزنا لإكمال القراءة ، هنا نكون أمام ما يدعى بعتبة النص أو بدايته ، تلك البداية التي يرتهن بها النص قبولاً ورفضاً من القارئ ، لأنها تمثل أول ما يتلقى به القارئ من النص بعد العنوان ، وبها يرتسم الانطباع الأولي لدى القارئ عن النص الذي يباشر قراءته ، ولذلك فإن بداية النص تمثل المعبر بين العالم الواقعي وعالم النص ، وما لم يكن هذا المعبر محفزاً وباعثاً على تأسيس علاقة بين الذات المدركة الواعية وبين موضوعها فإن الذات لن تلج موضوعها في علاقة الفهم والتواصل ⁽¹⁾ ، أي أن بداية النص لا بد أن تكون على مستوى مؤثر حتى تحفز القارئ على دخول عالم النص ، ومادامت اللحظة الأولى من التقاء القارئ بالنص ستحدد وبشكل فاعل سيرورة القراءة فإن بداية النص تكتسب أهميتها من تلك اللحظة ، بل إن عتبة النص تمثل بعداً أعمق من كونها جزءاً من أجزاء التشكيل النصي ، حيث إنها تصرح للقارئ بوجود النص ، ذلك الوجود المرتهن بفعل القراءة ⁽²⁾ ، أي إنها تشكل علة لبداية المحاورة بين القارئ والنص ، وأول حيز . بعد العنوان - يدخله القارئ ، كما تؤدي وظيفة إحالية تتعدد أشكالها ، فهي تحيل القارئ للجنس الأدبي للنص ، فالنص منذ بدايته يصرح بالشكل المعتمد فيه والتركيب الذي يتفق مع قوانين جنس أدبي دون آخر ، وهذه الإحالة هي ما أشرنا إليه آنفاً بأن أول ما يستشعره القارئ من النص هو جنسه الأدبي ، وبهذه الإحالة فإن عتبة النص تفعل في

(1) ينظر: عتبات النص - بحث في التراث العربي والخطاب النقدي المعاصر، يوسف الإدريسي ، منشورات

مقاربات ، المغرب ، ط / 1 ، 2008 : 9-10.

(2) ينظر: بلاغة الاستهلال في روايات عبد الكريم غلاب ، رشيد بنحدو، الشبكة العنكبوتية.

القارئ إدراكه لقوانين الجنس الأدبي التي تحدد نمطاً معيناً من التلقي ومساراً يتفق مع قوانين الجنس الأدبي في قراءته للنص ، بل إنها قد تحيل إلى نمط التجربة الجماعية داخل الجنس الأدبي الواحد ، فما أن نقرأ مطلعاً طلياً حتى ندرك أننا بإزاء قصيدة جاهلية النمط مثلاً ، إن هذا الشكل من الوظيفة الإحالية ينبه وعي القارئ لقوانين معينة يتبعها النص مما يجعله مستحضراً لها في قراءته للنص ، وفي شكل آخر من أشكال الوظيفة الإحالية لعتبة النص فإنها تحيل إلى مرجعية معينة تتمثل في الأطر الثقافية التي تؤسس الوظيفة الأدبية السابقة لوجود النص والممنوحة من الثقافة المهيمنة ⁽¹⁾ ، كما يمكن القول أن البداية غالباً ما ترسم بشكل أو بآخر تصوراً ما عن نهاية النص سواء أكانت متفقة أو مختلفة معها ⁽²⁾ فما طرحه بداية النص من أفكار واستفهامات هو ما يؤسس لدى القارئ تصوراً أو جملة من التصورات التي تمثل احتمالات النهاية ، تلك الاحتمالات التي تتموقع ضمن سيرورة القراءة وتداخل القارئ في إدراكه ووعيه للمعطيات النصية اللاحقة للبداية.

ولعلنا نستطيع أن نعطي تصورين لبداية النص ، الأول يتمثل في البداية المغلقة ⁽³⁾ التي قد لا تعني سوى ملمح مكتفٍ بذاته منغلق على نفسه تتحدد علاقته ببقية أجزاء النص بكونه يشغل الحيز المكاني على الورق ويتبادل مع بقية أجزاء النص علاقات محدودة لا تتجاوز هذا الحيز ، في حين يتمثل الثاني في البداية المتجاوزة لذاتها التي تؤسس لعلاقات فاعلة مع بقية أجزاء النص

(1) ينظر: عتبات النص الأدبي ، بحث نظري ، د. حميد لحداني ، مجلة علامات في النقد ، النادي الأدبي ، جدة ، مجلد 12 ، العدد 46 ، شوال 1423هـ : 8 .

(2) ينظر: م . ن : 23 .

(3) ينظر: بداية النص الروائي في الرواية العربية المعاصرة (أطروحة دكتوراه) ، أحمد بن سعيد العدوان ، جامعة أم القرى ، كلية اللغة العربية ، 2008 : 20 - 23 .

وتقوم بدور فاعل في تلميح المشهد النصي وتتجاوز أبعاد حيز التشكيل المكاني على الصفحات التي يشغلها النص , إن مثل هذه البداية تقوم بالإحالة الفاعلة على أجزاء النص وتبقى راهنة في كل مرحلة من مراحل القراءة بما لها من خاصية التأسيس , إذ تتأسس عليها ووفقاً عليها كثير من المعطيات النصية الأخرى بما فيها من أفكار وتصورات تحملها وتؤدي اشتغالها مستويات وجوانب وتقنيات النص المختلفة والمتنوعة , ويمكننا التمثيل لهذه البداية برواية (شيفرة دافنشي) لـ(دان برون) ⁽¹⁾ حيث تمثل البداية المكانية عتبة النص ونصها ((متحف اللوفر , باريس)) مرتبطة بالزمن ((10:46 ليلاً)) ⁽²⁾ هذه البداية تجسّر لعلاقات مع بقية أجزاء الرواية وتبقى حاضرة حتى نهاية الرواية التي تتحدث عن (الكأس المقدسة) حقيقتها ورحلتها , إذ تتجسد بداية الرحلة بشخصية (مريم المجدلية) المرأة الفرنسية الأصل بعد رحيل شخص (عيسى بن مريم) , تحضر الرواية هذه الشخصية التي اكتنفها المكان المَعْرِف جغرافياً بفرنسا , لتجعل بداية النص تأكيداً على حضور التاريخ بإشكاليته المرجعية المتجسدة بالاختلاف في تأويل القضية الدينية المتعلقة بهذه الشخصية بكل ما تستوعبه هذه الإشكالية من نتائج خلافية , وليرتبط هذا المكان بشخصية معاصرة لزمان السرد الحاضر تصرّح بها الرواية وهي شخصية (صوفي نوفو) وهي فتاة فرنسية أيضاً تكشف الرواية في نهايتها إنها من سلالة تلك الشخصية التاريخية (مريم المجدلية) , ويرتبط الزمن بوقت متأخر من الليل في إشارة رمزية للطقوس الدينية السرية التي غالباً ما كانت تمارس في أوقات متأخرة من الليل لأنها تتأهض وتعارض سلطة الثقافة المتمثلة بالكنيسة الكاثوليكية , إن مثل هذه البداية تبقى حاضرة وشاخصة

(1) ينظر : شيفرة دافنشي (رواية) , ترجمة سمة محمد عبد ربه , الدار العربية للعلوم . ناشرون , بيروت , لبنان , ط

/ 1, 2007 .

(2) ينظر : م . ن : 13 .

في إدراك ووعي القارئ حتى نهاية الرواية التي تجري معظم أحداثها في فرنسا وتستمد مادتها الثقافية من ثقافة ذلك البلد في صراع مع ثقافة مهيمنة ليكون (اللوfer) بما يضمه من إرث وثقافة غائرة الجذور هراً للثقافة , حتى تكون الثقافة المناهضة من الوعي والنضج ما يجعلها تستهدف قمة التمثيل الثقافي للثقافة السائدة فتزرع أنساقها داخله عبر لوحات ليوناردو دافنشي , بل ونشهد في الرواية دفن جسد تلك المرأة (مريم المجالية) التي تتمحور حولها الإشكالية الثقافية التاريخية في هذا المتحف , ليكون رمز الثقافة المناهضة والمجموعة حاضراً بقوة في هرم الثقافة السائدة (اللوfer) ومؤشراً واضحاً على ديمومتها على الرغم من الأنساق الثقافية المهيمنة , كل ذلك يشير وبوضوح لهذا النوع من البدايات , بداية تتعالق وتفعّل فعلها في عموم النص لتكون محورا رئيساً له .

إن كل تلك الخصائص التي تختص بها عتبة النص , والوظيفة الإحالية التي تقوم بها , تفعّل أفق انتظار القارئ وترسم الخطوط الأساسية لهذا الأفق الذي تركز عليه القراءة بوصفه مرجعاً مهماً يمثل اشتراطاً رئيساً في تحقق تصورات المتلقي عن النص وديمومة التفاعل بين القارئ والنص عبر طرح أفق الانتظار لتوقعات واحتمالات الذات حول الموضوع الذي تتجزّ إدراكه , ولهذا فإن البداية تحدد بشكل رئيس هذا الأفق ومن ثمّ تحكم على طبيعة القراءة وفعالية الإنجاز المرحلي في كل مرحلة من مراحل القراءة مقترنة بهذا الأفق ومحددة ببداية النص .

ومما تقدم يتضح أن البداية أو ما يسمى بعتبة النص تمثل بالفعل سياقاً من سياقات النص , يحضر في فعل القراءة الفاعلة وسيورتها , ويتداخل مثل بقية السياقات مع غيره في ترسيم ما يريد البحث إيضاحه من سلطة السياق في المشهد القرآني وفعاليته فيه.

إن الحديث عن مفهوم بداية النص يستدرج مفهوم نهاية النص أيضاً كمفهوم من مفاهيم السياق النصي، ولئن شكلت العتبة بداية التشكيل النصي لتعطي فرصة وجود النص بفعل القراءة المتحقق من القارئ بإبرازها النص أمام القارئ ، فإن النهاية تجسد نهاية النص في حيز تشكله ، وهي بذلك تعلن للقارئ عن آخر مراحل فعل القراءة بمفهومها الآلي الذي يتعرض للمادة المكتوبة أو المنطوقة ، ويتحدد بهذا الإعلان إحدى نتيجتين بحسب نوع النهاية ، فإن كانت النهاية مغلقة ⁽¹⁾ فإن القارئ سيكون أمام نهاية الفعالية التأويلية التي رافقت مراحل قراءته للنص ، إذ تعطي النهاية المغلقة نهاية فعالية للنص في القراءة الواحدة من القارئ الواحد ، لأننا لا يمكننا القول أن قراءة أخرى لن تنجز ، فالنص أمام إمكان قراءات أخرى حتماً ، أما لو كانت النهاية مفتوحة ⁽²⁾ فإن النص لن ينتهي ضمن الفعالية التأويلية التي يباشرها القارئ ، إذ تبقى من الاحتمالات المتعددة ما تكون بحاجة لإعادة النظر ومراجعة إمكانها ، وهذا ما نشهده في الروايات التي تنتهي بنهايات مفتوحة لتعلن عن نهاية التشكيل النصي في حيزه المكاني وبقاء ارتهانات متعددة ضمن فعالية القراءة والتأويل بوصفها إعادة لإنتاج المعنى وتكرار النص.

وكيفما كانت النهاية فإنها تمتاز في النص الأدبي عن بقية النصوص الأخرى التي توصف بكونها خارج سمة الأدبية ، فالأخيرة تنتهي بالفعل مع نهاياتها ، بخلاف الأولى التي تكون في فرض النهايات المغلقة قابلة لقراءات أخرى وفي فرض الثانية قابلة لاستمرار الفعالية التأويلية فضلاً عن قبولها للقراءات الأخرى .

(1) ينظر: نظرية النص من بنية المعنى إلى سيميائية الدال : 125-130 .

(2) ينظر: المكان نفسه .

إن فضاء النص الضام للعنونة والبداية والنهاية وما بينهما من التشكيلات والمعطيات النصية يتداخل في فعالية القراءة ومن خلالها مع أفق انتظار القارئ , فبداية النص تعطي التصورات البدئية هذا الأفق وتحيل القارئ لمرجعيات الثقافة والأسلوب وطرق إنجاز كتابة النص , كما تعطي النهاية إشعاراً بتوافق أو اختلاف موضوعات النص وما يطرحه من رؤية مع أفق انتظار القارئ , ولذلك فإن نهاية النص في نوعها المغلق تمثل نهاية لأفق الانتظار الذي رافق به القارئ نصه المقروء , في حين يبقى أفق انتظار القارئ فاعلاً في النهايات المفتوحة ليحدد واحدة أو جملة من التوقعات لهذه النهاية بعد مجز فعل القراءة للمادة المكتوبة أو المنطوقة وهو ما يعطي مزيداً من فعالية النص وقابليته في استثارة القارئ باستمرار حتى مع نهايته الشكلية , ولذلك يمكننا القول ضمن ما وصفنا من نوعي النهايات بأن مفهوم نهاية النص يوازي في فعاليته داخل القراءة الفاعلة مفهوم أفق الانتظار .

وما تقدم من الحديث عن نهاية النص يصور لنا بشكل واضح مدى حضور هذا المفهوم بوصفه سياقاً , ليس أقل من كونه موازياً لأفق الانتظار .

• السياق السوسولوجي

في هذا الموضوع يجنح البحث شيئاً ما عن (مدرسة كونستانس) باتجاه التصورات السوسولوجية للتلقي والقراءة ، ذلك أنه في خضم البحث ضمن إجراءات نقد النقد لا بد من تتبع التلقي والقراءة بوصفها الإجرائي ، أي بوقوعهما حقيقة لا افتراضاً ، وهذا ما لا يمكن تحقيقه بالاعتماد على مفهوم (القارئ الضمني)⁽¹⁾ فقط والذي اكتفت به (مدرسة كونستانس) ، فالقارئ الضمني وإن كان مفترضاً في النص بقصدية الكاتب أو عدمها من خلال بنية النص التي تقترح قارئاً معيناً ، إلا أن هذا القارئ قد لا يتحقق حتى مع تعدد القراءات الفعلية للنص، وهذا ما يبعد البحث عن ما هو بصدده من تتبع القراءات النقدية لـ(الغذامي) ، إن هذه القراءات التي نتجت عن (الغذامي) تجعل البحث يتتبع الجمهور الفعلي الذي يتلقى النص ويقرأه ليجد ضالته . البحث . ضمن أنواع الجمهور وفعالياته⁽²⁾ حتى يتمكن من توصيف هذه القراءات بشكل أكثر دقة ، وهذا لا يعني أنه يتجافى مع (القارئ الضمني) إذ يتأسس على فرضية أن النص يقترح قارئاً أو قراءً معينين، وهو أمر ينقاد البحث له على وفق ما تمّ تقديمه في مباحث سابقة من كون النص يتحكم إلى حدٍ بعيد بكيفية ونوع التلقي والقراءة ، ولذلك فإن البحث يجد في مقولات (جماعة برلين)⁽³⁾ التي ميزت بين القارئ الضمني والقارئ الحقيقي ، إمكاناً لتحقيق تتبع القراءات الفعلية التي صدرت عن الناقد بوصفه قارئاً ومتلقياً للنص ، وهذا ما يمكن أيجاده عند (مانفريد ناومن) الذي اقرّ بوجود القارئ الضمني ، ولكنه لم يقف عند هذا القارئ

(1) ينظر: من فلسفات التأويل إلى نظريات القراءة : 18-191 .

(2) ينظر: سوسولوجيا الأدب ، روبرت إسكارييت ، ترجمة : أمال عرموني ، عويدات ، بيروت ، ط / 1 ، 1987 : 7

(3) عارضت هذه الجماعة تصورات مدرسة كونستانس حول ظاهرة القراءة ، تلك التصورات الموصوفة بكونها لا تاريخية ولا اجتماعية ، وأعطت هذه الجماعة تصوراً آخر لظاهرة القراءة بطبيعتها السوسولوجية .

بل تجاوزه للقارئ الحقيقي الذي باشر ويباشر بالفعل قراءة النص ، ليقف من خلال هذا التمييز على الانحراف الذي يصيب النص بين قارئه الضمني وقارئه الحقيقي⁽¹⁾ والذي يقود لتعدد القراءات ، فلئن كانت (مدرسة كونستانس) تعزو السبب في تعدد القراءات إلى قابلية النص ، للتعدد الدلالي ، فإن (جماعة برلين) تتساءل عن السبب الذي يحقق قراءة معينة دون غيرها من الاحتمالات القرائية ، لتخرج من هذا التساؤل بأن القارئ يقف وراء وقوع قراءة من جملة الاحتمالات القرائية التي يطرحها النص دون غيرها، بهذا يحضر السياق السوسولوجي المؤثر والفاعل في القارئ ليحدد نوع وكيفية تعاويه مع النص واختياره لقراءة محتملة من عددٍ من الاحتمالات ، وعليه فإن البحث يقف أمام جمهورٍ متنوعٍ ومتعددٍ من القراء ، فإذا كان (الجمهور المُخاطَب) يؤثر في النص بكونه حاضراً في ذهن الكاتب أثناء الكتابة فإن (الجمهور الوسيط) الذي ينتمي للثقافة ذاتها التي ينتمي إليها الكاتب والنص يتلقى النص ويقرأه بالفعل وقد تكون قراءته هذه بعيدة تماماً عن قصدية الكاتب التي حاول فيها مخاطبة الجمهور المُخاطَب ، ومن هنا يمكن الوقوف على مدى الانحراف الدلالي الذي نتج عن قراءة النص من قبل هذا الجمهور⁽²⁾ ومناقشة هذه القراءات من خلال تفاعلها مع النص أو خروجها عن معطياته ضمن فعالية تأويل مفرط ، ويمكن التعرف على القراءات المتعاقبة للنصوص عبر التاريخ والقراءة الزاهنة لعمل أدبي ينتمي لعصر سابق أو ثقافة أخرى من خلال (الجمهور الواسع) الذي يمثل جمهوراً لا ينتمي للثقافة ذاتها التي صدر عنها النص، إن الوقوف على تعدد جمهور القراء هذا يمكّن البحث من تتبّع التحول النقدي كونه تحت نظر البحث من زاوية تحققه الفعلي

(1) ينظر: المؤلف- المرسل إليه - القارئ ، مانفريد ناومن، ترجمة عبد القادر بوزيدة ، مجلة اللغة والأدب ، جامعة الجزائر، العدد2، 1993: 166-168 .

(2) ينظر: القراءة والحداثة . مقارنة الكائن والممكن في القراءة العربية : 207-209.

في جملة ما قَدّمه (الغذامي) من نتاجه النقدي , كما يمكن مناقشة مقولة القارئ الضمني التي صدرت عن (مدرسة كونستانس) بكون هذا القارئ الذي يتجسد في النص له علاقة بشكل ما بالسياق الثقافي , ذلك أنه لا يمكن لبنية النص وحدها أن تجسد هذا القارئ بل إن الأمر منوط بدلالة النص التي تشي بما يحمله من وجهات نظر تعبّر عن ثقافة النص التي ينتمي إليها ويتشارك فيها مع مجموعةٍ ما رفضاً أو قبولاً , ولذلك فإن البحث يرى أن القارئ الضمني غير مثبت الصلة عن ثقافة النص التي يطرحها عبر أنساقه التي تحملها بنيته النصية .

إن إقصاء السياق السوسولوجي عن فعالية التلقي عموماً والقراءة خصوصاً يعني أننا بإزاء البحث عن حقيقة النص داخل بنيته فقط دون الالتفات لأدبيته أو جانبه الدلالي , فهل يمكن القول بإمكان الإمساك بحقيقة النص مع افتراض النظر لأدبيته وعدمه؟ إن الإجابة تقتضي النظر لحقيقة أن القارئ يباشر عملية تأويلية أثناء القراءة ⁽¹⁾ بإزاء اقتراحات النص , وهو يستند ويتأثر بثقافته في عملية التأويل تلك, وبمعنى آخر فإنه لا يمكن القول بإمساك حقيقة النص لأنها تقتضي أن تكون دلالاته منحصرة بمفهوم واحد أو واحدية المعنى, الأمر الذي يخالف تعددية القراءة وإمكان إنتاج معانٍ متعددة , وإذا كان من غير الممكن الإمساك بحقيقة النص مع الالتفات لأدبيته , فإنه لا يمكن كذلك بالنظر إلى بنية النص فقط , إذ كما سبق الإشارة إليه فإنه - النص - لن يكون دالاً لافتقاده لعنصر الدلالة الممنوح من ووفق ثقافة معينة.

(1) ينظر: الغموض في الشعر العربي الحديث , إبراهيم رماني , دار المطبوعات الجامعية, الجزائر , ط / 3 , 1991 : 339.

أما في الاستفهام عن كمون القيمة الدلالية لأبد من النظر لطرفي القراءة , النص والقارئ , والوقوف على تحقق هذه القيمة , فمع كون النص مغلقاً أين يمكن أن تكون القيمة الدلالية كامنة ؟ في البنية النصية للنص أم في أدبيته ؟.

وبالنظر إلى النص كوجود نصي مغلق لا يمكن القول بدلالاته, إذ إن عملية تلقيه تتعسر بل تستحيل دون الشعور بوجود قيمته الأدبية, وبمعنى آخر فإن قيمة النص الدلالية تكمن في كونه دالاً, لا بكونه يشتمل على بنيته النصية فحسب⁽¹⁾, ودلالاته هذه تتعلق بكونه دالاً في ثقافة معينة , إذ تتوقف فعاليتها الدلالية لو كان نصاً غير دال ضمن فضاء الثقافة التي تسبغ على النص شرعيته الأدبية⁽²⁾, ويتأكد الأمر حين ندرك أن ثقافة المجتمع هي من تفرض عبر مؤسساتها قوانين الأدبية, ويتحدد معها قبول النص أو رفضه بناءً على صفته الأدبية التي تُمنح للنص أو تُجرد منه, وإذا كان ذلك صحيحاً فإننا أمام سياق لا يتعلق بنصوصية النص بل بأدبيته, أي متعلق بوظيفته كدالٍ داخل منظومة الدلالة التي تتوافق عليها جماعة ما مشتركة في ثقافة معينة⁽³⁾, لا في جانبه النصي الممنوح من قوانين النص , ولذلك فالبحث معني هنا بتتبع قيمة النص ودلالاته التي تتأسس من خلال الثقافة الاجتماعية المهيمنة⁽⁴⁾, لا جانبه البنائي الممنوح من القوانين النصوصية , ويتداخل ضمن هذا الحيز . السياق السوسيولوجي . النص والقارئ معاً, فإذا كان النص دالاً ضمن ثقافة ما وهو

(1) ينظر: نظرية التلقي أصول وتطبيقات : 34.

(2) ينظر: منهج الواقعية في الإبداع الأدبي , صلاح فضل , الهيئة المصرية العامة للكتاب , ط / , 1978 : 247.

(3) ينظر: علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق , صبحي إبراهيم الفقي , دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع , القاهرة , مصر , ط / 1, 2000 , ج 1 : 108.

(4) ينظر: مدخل لسوسيولوجيا القراءة , جاك لينهاردت, ترجمة: أحمد المديني, مجلة الفكر العربي المعاصر , العدد 13 , 1981 : 64 .

بكونه إبداعاً ، لابد أن يكون منطلقاً من ثقافة معينة ومتأثراً بها⁽¹⁾، فإن القارئ كذلك يتحدد تلقيه للنص من خلال ثقافته التي يشارك بها جماعة ما، أي أنه يتلقى على وفق شروط تلك الثقافة التي حددت كينونته السابقة على الالتقاء بالنص، أي أن البحث معني بتتبع الأثر السوسولوجي على النص والقارئ معاً ، وبذلك تكون القراءة متأثرة بالسياق السوسولوجي ومنفعلة به ومحددة على وفق اشتراطاته.

إن النص يبقى مغلقاً في حدود بنيته النصوية ولكنه منتمٍ لثقافة معينة ومتأثر بها، كما أن القراءة التي تحقق وجوده متأثرة أيضاً بالثقافة كونها متأثرة بالنص والقارئ اللذين ينطلقان من الثقافة أيضاً⁽²⁾ .

وبتتبع تطور اللغة يجد البحث أنها تنتقل من المواضعة الاعتبارية إلى انزياحات عدة تتمثل في مستوى الكلمة بالمجازات المتعددة التي تثري دلالاتها ، فالكلمة في ذاكرتها تنطلق من الاعتبار بتأسيس التوافق الجماعي ، لتكون داخلية في حيز الاستعمال الذي يحمل دلالة معينة لها، وتنتقل إلى الاستعمالات المجازية بالتوافق الجماعي أيضاً ، وهكذا الحال في الصياغات والتراكيب والأساليب ، إذ لا يمكن أن تكون للكلمة والجملة والنص دلالة خارج سياق التوافق الجماعي⁽³⁾ وصولاً للنص عبر حركيته ضمن مفهوم التغير والتطور ، كل ذلك يحدث بتأثير الجانب الاجتماعي بما يحمله من ثقافة تعبر عنها

(1) ينظر: الأسلوبية وثلاثية الدوائر البلاغية ، عبد القادر عبد الجليل ، دار صفاء للنشر والتوزيع ، عمان ، الأردن ، ط / 1 ، 2001 : 224.

(2) ينظر: في علم الدلالة - دراسة تطبيقية في شرح الأنباري للمفصليات ، د. عبد الكريم محمد حسن جبل ، دار المعرفة الجامعية ، مصر ، ط / 1 ، 1997 : 22 .

(3) ينظر: المعنى وظلال المعنى أنظمة الدلالة في العربية: 121 .

مؤسساته المهيمنة كالجامعات والمدارس والمنتديات الأدبية وأجهزة الإعلام , وكل تطور محكوم بفعل الجانب السوسيولوجي ومتأثر به, وهو لا يعني بالضرورة أن يتوافق التطور دوماً مع الثقافة المهيمنة , بل قد يخالفها ويخرج على قوانينها , وهو بهذه الصورة يكون أيضاً ضمن إطار التأثير والتأثر لا خارجاً عنه (1) .

والتغير والتطور في جملة ما يمتُّ للأدب يطرح إمكانية الوجود المنفي أو الذاكرة المنفية , إذ يجسد السياق السوسيولوجي الراهن مثلاً عن الواقع الراهن الذي يقرر قوانين تداول النصوص وتعاطيها في عملية التلقي, ويحدد إمكانيات القراءة ضمن حيز هذه القوانين (2) , وأفضل ما يمكننا أن نقوم به هو توقع ذلك الوجود المنفي أو الذاكرة المنفية لجملة الانزياحات والصياغات والتراكيب والأساليب التي ستتشق قوانين متوافقة أو مختلفة مع السياق السوسيولوجي الراهن, بيد أنه لا يمكن أن نثق بإمكان تحقق أكثر من هذا التوقع , لأننا وببساطة نعيش ثقافتنا الراهنة, ولعل الفضل في إمكان التنبؤ المشار إليه يعود إلى صراع الأنساق والنصوص المعارضة للسياق الراهن , وهذا ما يقود البحث إلى افتراض أن الوجود المنفي المختزن للسياقات المستقبلية مرهون بالسياق الراهن بشكل أو بآخر رفضاً أو قبولاً , وهو ما يؤكد حركية الأنشطة والفعاليات السوسيولوجية التي تشكل سياقاً يفرض مقرراته على تلقي وقراءة النصوص حتى تلك التي يضمها المستقبل (3) لأنها ستكون مؤسسة لسياق آخر ومحكومة به

(1) ينظر: النص والسياق الشعري من البنية إلى القراءة : 87 .

(2) ينظر: خيانة النص مشكلة المترجم الذي يجهل السياق الثقافي , فتحي عامر , الشبكة العنكبوتية.

(3) ينظر: مدخل إلى علم لغة النص - تطبيقات لنظرية روبرت دييو جراند وولفانج دريسلر , إلهام أبو غزالة وعلي

خليل حمد , الهيئة المصرية للكتاب , القاهرة , مصر , ط / 2 , 1999 : 35 - 36 .

في الوقت ذاته , وما تأسس ذلك السياق المستقبلي إلا من خلال الانفعال بالسياق الراهن وإعطاء تصور عن الرفض له أو القبول به.

ومع تداخل السياقات وتأثرها ببعض نجد السياق السوسيولوجي يتحكم بصورة مؤثرة في سياقات النص , فظهور الأجناس الأدبية وضمورها متعلق بشكل رئيس بالجانب السوسيولوجي حسب (فيكو) الذي يرى أن ظهور الدراما المسرحية مثلاً يقتضي توافر بنية حضارية تمكّن من وجود المسارح , كما أن الأدب الشفوي يشي بظاهرة الأمية في مجتمع ما⁽¹⁾ , إن هذا التداخل والتأثير والتأثر يبعث على ضرورة إحاطة المتلقي بالسياق السوسيولوجي وبالسياقات المؤثرة والفاعلة به والمتداخلة معه , ليحقق القراءة الفاعلة ويتمكن من فك شفرات النص والتعرف على جوانبه المتعددة ما أمكنه ذلك من خلال عملية القراءة , وإذا كان من غير الممكن نفي علاقة الاتصال التي تتحقق أثناء القراءة فأنا خلال القراءة نميز نقاطاً معينة في النص تمكننا من التواصل مع معطيات المعنى , بوصفها طرقاً لتحقيق عملية الاتصال , تلك العملية التي لا يمكن أن تتحقق إلا من خلال المشتركات الإفهامية بين النص والقارئ⁽²⁾ , مما يعني أن النص والقارئ يلتقيان في حيز تحقق إمكان التصورات الناشئة عن تشارك الثقافة ووضوح المفاهيم القيمية , وعليه فإن السياق السوسيولوجي بوصفه ضاماً لتلك الثقافة يحضر ويحقق منطقة الفهم وإمكان التصورات التي يلتقي فيها النص والقارئ ضمن علاقة الاتصال⁽³⁾ التي تحتكم إلى مدى استحضار هذا السياق أثناء عملية القراءة.

(1) ينظر: الأدب والمجتمع , صبري حافظ , مجلة فصول , العدد 2, القاهرة , 1981 : 66.

(2) ينظر: المكان نفسه .

(3) ينظر: علم اللسانيات الحديثة : 543 .

ويبدو حضور هذا السياق وتأثيره على عملية التلقي حتى قبل المباشرة بعملية القراءة , من خلال تأثيره على المسبقات الذهنية للمتلقي كما يشير إلى ذلك (روبرت سي هولب) في كتابة (نظرية الاستقبال)⁽¹⁾ , حيث يحيلنا إلى طرح (هيريش) لنموذجه الافتراضي الذي يخلص من خلاله لبيان تأثير تدريس الطلبة لـ (شكسبير) , فإن هذا التدريس يركز , لدى الطالب فكرة معينة راسخة بإبداعية (شكسبير) , ومعه فإن تعاطي نصوص (شكسبير) يبقى مرهوناً بشكل رئيس وفاعل بتلك الفكرة , ويصعب معها تبني فكرة أخرى , وإذا كان ذلك ممكناً فهو أيضاً مرهون بالفكرة والتصور الأولين اللذين يقتضيان التعاطي مع نصوصه على وفق افتراض إبداعيته , وهذا ما يقودنا أيضاً للتحدث عن التعاطي مع (أحمد شوقي) بوصفه أميراً للشعراء (وطه حسين) بوصفه عميداً للأدب العربي , وترتكز هذه الفكرة في المسبقات الذهنية لجمهور المتلقين العرب لترتهن على وفقها لحظة الالتقاء الأولى بنصوصهم , والأمر ينسحب على بقية الأدباء الذين أسست نصوصهم تارةً والمؤسسة الثقافية تارةً أخرى تصورات معينة تؤثر على تلقي القارئ للنصوص , وهنا تكمن صورة من صور التحول النقدي بوجهيه الإيجابي والسلبي , فأن نتلقى نصاً ما ونقرأه يعني أننا مقيدون بسياق المقولات السابقة , وبمعنى آخر فإننا نراعي القراءات السابقة لتلك النصوص , وهذه القراءات السابقة بمجموعها تشكل وجهاً من أوجه السياق السوسيولوجي ما دامت معبرة عن رأي المؤسسة الأدبية والنقدية في مجتمع ما , وهنا تأتي المصادقة من قبل الناقد - بوصفه قارئاً ومتلقياً - على العمل الأدبي بالموافقة على أدبيته دون الرجوع للأسس المنهجية في التعاطي مع النص , ممثلة لتحول نقدي يؤشر على خطورة مثل هذا التعاطي الذي يؤسس ويرفد عماء معرفياً وفساداً ذوقياً , ولعل

(1) ينظر: بين الفهم والاستيعاب في فلسفة الترجمة , محمد نهاد أحمد , مجلة جامعة الأزهر , غزة, سلسلة العلوم الإنسانية , المجلد 9, العدد1, 2008 : 126-126.

خطورة هذا التحول لا تقف عند هذا الحد فيجتاح الناقد للالتفاف والاستعانة بالمنهج النقدي لتقرير صواب رأيه في أدبية نصٍ ما متحايلاً على اشتراطات الإبداعية الأدبية ، ليكون المنهج النقدي أداةً للتأسيس لأدبية نصٍ ما خارج شروط الأدبية، ونحن هنا لا نشيد لاحتكار الإقرار بأدبية نص ما على ناقدٍ أوحده أو منهجٍ أوحده ، بل إن ذلك ليخضع لعموم الاشتغال النقدي السائد، والمركّز على أسس الأدبية التي سبق أن اشرنا لوصفها بالتغير والتطور لا الجمود والسكون.

إن ما قدّمه البحث آنفاً من التعريف بالسياق ودوره في التلقي والقراءة يوضح أهمية مفهوم السياق وارتباطه وتفاعله مع النص والقارئ ضمن فعالية التلقي وعملية القراءة ، وسنلاحظ كيف تأثرت بعض قراءات (الغذامي) جرّاء غياب هذا المفهوم أو قصور الرؤية تجاهه.

إن أول ما نلاحظه بهذا الصدد هو التفريق بين الأجناس الأدبية استناداً إلى خصائص النصوص المكونة للجنس الأدبي، إذ يناقش (الغذامي) (تكاذيب الأعراب) في الفصل الثالث من كتابه (القصيدة والنص المضاد)⁽¹⁾ ليخلص إلى كونها جنساً أدبياً قائماً بذاته، ويعطف أسطورة (نجم الدبران) وجملة من أساطير العرب عن النجوم على التكاذيب ، ويرى أنها تقع ضمن ما يراه جنساً أدبياً يدعى (تكاذيب الأعراب) إذ يقول عن الأساطير ((

وتلك هي قراءة أعرابية تكاذبية لصفحة السماء تجاري حكاية الليل النائم والسهم السحري في إفصاحهما معاً عن الغائب والمفقود وكشفهما عن المنشود ، بل إن

(1) ينظر: القصيدة والنص المضاد ، د. عبد الله محمد الغذامي ، المركز الثقافي العربي ، بيروت ، ط 1/ ، 1994

هذه الحكاية تفسر تلك وتحيل إليها وتتساير معها صياغةً وتفسيراً⁽¹⁾ وبدءاً يمكن للبحث استشعار الفرق الواضح بين التكاذيب والأساطير ، والذي يمنع أن يكونا ضمن جنس أدبي واحد ، ذلك أن التكاذيب قائمة على قصد الكذب ، وكونه معلوماً لدى المنشئ والمتلقي ، في حين أن الأساطير تحمل بعداً دلاليّاً من وضوح القصد وبيان التواطؤ على الكذب، إذ تدل على ثقافة موروثية تحمل وجهة نظر الجماعة بإزاء الملاحظات الكونية، وطبيعة الثقافة وبيئتها وأثرها في ترميز هذه الأساطير ، فضلاً عن الجذر الغائر لها في أصل نشوء الإنسان وتكوّن الحضارة ، وهذا ما تشي به صياغة الأساطير والضمير الغائب الذي يتولى دور الراوي المنشئ للأسطورة ، فهي تتناقل جيلاً بعد جيل غير معلومة المصدر ، منسوبة لثقافة وقد تتشارك فيها ثقافات متعددة أيضاً ، في حين نجد التكاذيب وإن كانت مجهولة المنشئ لكنها موصوفة بوصف ثقافة مخصوصة تساعد على تأطيرها ضمن ثقافة مخصوصة بل وبيئة معينة من بيئات هذه الثقافة ، وهذا ما يبرز بوضوح في عنوانها (تكاذيب الأعراب) إذ تختص بالأعراب دون العرب جميعاً ، وهنا تتحدد البيئة الثقافية بشكل واضح وتبرز معالمها لدى المتلقي لتؤثر في تعاطيه معها ، وتحدد له معطيات ثقافية معينة ترسم للوهلة الأولى عند تلقي هذه التكاذيب ، كما إن الجانب الوظيفي للتكاذيب الذي أقام عليه (الغذامي) رأيه في كونها جنساً أدبياً قائماً بذاته ، لا يكفي في إقرار وإثبات جنس أدبي ما ، إذ لو أقمنا وظيفة إحضار الغائب والكشف عن المفقود لوجدناها حاضرة في نصوص كثيرة تنتمي لأجناس أدبية مختلفة ، فهل يعني ذلك أننا بإزاء جنس أدبي ما ؟! ، إن الخصائص الوظيفية للنص لتتعدد في النص الواحد كما أن جملة من النصوص مختلفة الأجناس قد تتشارك في وظيفة رئيسية ما ، وكل ذلك لا يستدعي القول باشتمال النص الواحد على عدة أجناس ، كما لا

(1) القصيدة والنص المضاد : 139.

يستدعي القول بأن رواية وقصيدة هما من جنس أدبي واحد مثلاً ، أما في جانب الصياغة الذي أشار إليه (الغذامي) في قوله السابق فالاختلاف واضح جداً ، إذ التكاذيب تعتمد على حكايتين يباشر المنشئ الأول حكايته راوياً للثاني تفاصيلها الخارقة التي يعلم الثاني - وهو المتلقي هنا - كذبها مسبقاً، ليباشر الثاني بدوره فور انتهاء الأول من حكايته التي يعلم الأول - وهو المتلقي هنا - كذبها ، في حين تقتقد صياغة وأسلوب الأسطورة لهذه التقنية الحكائية ، إذ لا تقوم على أكثر من حكاية واحدة في كل أسطورة ، وهنا تختلف التركيبة النصية بينهما ، كما إن التكاذيب قائمة على الخرافة لا على العنصر الأسطوري ، إن ما تقدم يشير لعدم إمكان القول بمشاكل الأساطير لتكاذيب الأعراب مشاكلة تقودنا للقول بكونهما جنساً أدبياً يدعى (تكاذيب الأعراب) لا من ناحية الصياغة ولا حتى من الناحية الوظيفية ، وعليه فإن الناقد حين يكون بإزاء تحديد غير دقيق للجنس الأدبي فإن قراءته اللاحقة لنصوص أدبية يعتقد بانتمائها لجنس أدبي واحد ستكون مستندة لأساس واهن يترك أثره على تلك القراءات سلباً ، لأنه يباشر قراءته لتلك النصوص مستحضراً سياق الجنس الأدبي الضام لها .

إن السياق التداولي⁽¹⁾ يحدد مسارات التلقي بشكل بالغ الأهمية ، إذ إن تداول المقولات والأمثال وبعض الأبيات الشعرية يتحدد على وفق هذا السياق ، ومعه فلا بد من التعرف على ذلك السياق في حدود الأطر السوسiolوجية التي تنتمي لها تلك المقولات والأمثال والأبيات الشعرية ، بل وكل ما ينتمي للأدب بصورة عامة ، وكمثال فإنه لا يمكن لمتلقي فهم مدلول جملة (الله كريم) في رواية تتطرق عن خصوصية اللهجة العراقية الدارجة إذا لم يكن له دراية بالسياق التداولي لهذه الجملة في الثقافة العراقية، إذ تختلف بشكل رئيس عن مدلولها الأصلي الذي يدل

(1) ينظر: النص والسياق - إستقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي ، فان دايك ، ترجمة عبد القادر قنيني ،

أفريقيا الشرق ، المغرب ، ط 1/ ، 2000 : 309-311.

على موافقة المخاطب ووعدته بإنجاز طلب المخاطب ، فهي دالة ضمن سياقها التداولي في الثقافة العراقية على التسوية وعدم رغبة الأول في إنجاز طلب الثاني ، وإذا كان السياق التداولي على تلك الأهمية ، فإنه في جانب آخر يؤدي إلى طمس الدلالة الأصلية ولابد للقارئ حينئذ أن يعاود الدلالة الأصلية عبر تاريخ الانزياحات التي تشكّل معرفة القارئ بها ذاكرته مع الكلمة والتركيب ، كما يجب الوقوف على سياق الموقف⁽¹⁾ الذي تم فيه القول ، إذ إن السياق التداولي قد يطمس الموقف مما يحتمّ على القارئ التعرف على كلا السياقين ، ذلك أن الجهل بسياق الموقف قد يعطي قراءة قاصرة أو معكوسة أحياناً ، وهذا ما وقع فيه (الغذامي) فعلاً في كتابه (الخطيئة والتكفير) عند قراءته للبيت :

ما أَرانا نقول إلا معاراً أو معاداً من قولنا مكروراً

فقد غفل عن سياقه ضمن النص الذي ورد فيه ، ولم يقف على سياق الموقف الذي قيل فيه ، ليدلّ به على تكرار القول الشعري عند الشعراء حيث يقول ((ونحن نعرف منذ زمن زهير بن أبي سلمى أن لا جديد يقال))⁽²⁾ ، وقد كان لفت الانتباه في الكتاب ذاته وقبل وقوعه في هذا الخطأ في موضع سابق عليه إلى ضرورة مراعاة الأبيات الشعرية السابقة واللاحقة للبيت المقتبس والتي ترتبط معه بوحدة الدلالة وتؤثر على إدراك الدلالة للبيت المقتبس من القصيدة بوصفها سياقاً له ، وضرورة العناية بسياق الموقف للتعرف على الدلالة بشكل أدق حين أورد خمسة أبيات (لدريد بن الصمة) مبيناً الموقف الذي قيلت فيه ومدلاً بهذه الأبيات على الخطأ الشائع الناجم عن السياق التداولي الذي يحور دلالة بيت دريد ، حيث يقول (الغذامي) مبيناً ((ولقد تعمّدتُ إيراد هذه الجملة خاصة لأنها

(1) ينظر: المعنى وظلال المعنى أنظمة الدلالة في العربية : 120-122 .

(2) الخطيئة والتكفير : 145 .

قد تعرضت وتعرض دوماً إلى عملية انتهاك اقتباسي يفسدها فكل الناس يوردون البيت الأخير:

وما أنا إلا من غزية إن غوت غويت وإن ترشد غزية أرشد
ويفصلونه عن سياقه مما يفسده ويجعله بيتاً سوقياً ينم عن شعار غوغائي هو
بالسوقية والعامية أولى⁽¹⁾ ، واقتضت منه أمانته العلمية كباحث الإشارة لخطئه
، وهذا ما قام به بالفعل في كتابه (القصيدة والنص المضاد)⁽²⁾ ، ولكن
الأمر يتكرر في كتابه (القبيلة والقبائلية)⁽³⁾ في قرائته بيتاً شعرياً
لـ (عمر بن أبي رمثة المخزومي) والذي يقول فيه :

كُتِبَ القَتْلُ والقَتَالُ علينا وعلى الغانياتِ جرُّ الذِيُولِ⁽⁴⁾
حيث يرى (الغذامي) بأن البيت يدل على انتقاص الثقافة العربية من شأن المرأة
، إذ تحصر المهام الفاعلة والرئيسة في الحياة على الرجل لتعطيه السيادة الكاملة
على نواحي الحياة ، ولو عدنا لسياق النص الذي ورد ضمنه البيت ، وسياق
الموقف ، لوجدنا دلالة معاكسة لما أفضى إليه (الغذامي) ، ولدلنا السياق
السوسيولوجي المفصوح في النص على ذلك ، إذ يرد البيت في قول الشاعر:
إن من أعجب العجائب عندي قتل بيضاء حرّة عطبول
قتلت هكذا على غير جرم إن لله درها من قتيل

(1) الخطيئة والتكفير : 94 .

(2) ينظر : القصيدة والنص المضاد : 47 .

(3) القبيلة أو القبائلية أو هويات ما بعد الحداثة : 182 .

(4) البداية والنهاية ، ابن كثير إسماعيل بن عمر الدمشقي ، تحقيق مكتب التحقيق ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان ، ط / 1 ، 1997 ، ج 8 : 318 .

كتب القتل والقتال علينا وعلى الغانيات جر الذبول⁽¹⁾

وسياق الموقف الذي قيلت فيه هذه الأبيات ، هو استهجان الشاعر لقتل زوجة (المختار الثقفي) (عمرة بنت النعمان بن بشير) على يد (مصعب بن الزبير)⁽²⁾ ، إذ يمثل هذا الفعل مخالفة صارخة للثقافة العربية التي تجرّم مثل هذه السلوكيات وتعطي المرأة حصانة من القتل ، ولو حللنا معطيات الأبيات لوجدنا أنها تجسد قيماً ترفع من شأن المرأة لا نسقاً دالاً على الحط من منزلتها ، ليس أدل من الحصانة التي تصرّح بها الأبيات لصالح المرأة ، وهي حصانة تماثل تلك التي يتمتع بها أصحاب المنزلة الرفيعة في المجتمعات المعاصرة التي شرعتها القوانين المنبثقة من حقوق الإنسان ، والنظر للصفات الممنوحة للمرأة في هذه الأبيات دليل منزلة مثلى لها ، كما في (بيضاء) ، (حرة) ، (على غير جرّم) ، (لله درها) ، (الغانيات) ، (جر الذبول) ، صفات تعطينا تصوراً عن المرأة في هذه الأبيات ، امرأة تتمتع بالحرية والبراءة والشهادة ، وهي (غانية) أي مكتفية بحسنها وجمالها عن الحلي والزينة⁽³⁾ ، تحظى بمنزلة اجتماعية مرموقة كما يدل عليه قوله (جر الذبول) وهو حال زوجة (المختار الثقفي) بالفعل إذ كانت تنتمي لعائلة عربية موصوفة بالسيادة وهي بعد زوجة أمير ، إن دلالة البيت ضمن سياق النص وسياق الموقف وما يشي به السياق السوسيولوجي يعطي تصوراً معاكساً تماماً لما تعطيه دلالاته مفرداً مقروناً بالسياق التداولي فقط ومجتبأً من سياقاته التي ترفد دلالاته بما يمكن القارئ من قراءة أقرب وأعمق للمعنى ، لقد وقع (الغذامي) في قراءة مشوهة الدلالة واستند على البيت كشاهد من شواهد الاستدلال على نسق من انساق الثقافة العربية ، ولعلنا ندرك مدى التحول النقدي حين نكون بإزاء قراءات مماثلة تؤسس لأنساق ثقافية معينة ، ولعلنا بحاجة حينها لإعادة

(1) البداية والنهاية ، 8 : 318 .

(2) المكان نفسه .

(3) ينظر: لسان العرب ، ابن منظور ، دار الجيل ودار لسان العرب ، بيروت ، لبنان ، 1988 ، مادة (غنا).

النظر في عملية القراءة وفعالية التلقي التي أنتجت تلك الأنساق ، ومن ثمَّ إعادة النظر ولو من باب أمانة البحث وعلميته في النتائج وهي هنا الأنساق الثقافية لضبط عملية الاستدلال وناتج الاشتغال النقدي.

إن ما تقدم من التطبيق يدلل بوضوح على أهمية مفهوم السياق وحضوره في فعالية التلقي وعملية القراءة كعنصر فاعل ومؤثر في إنتاج الدلالة ومن ثمَّ إعادة تكرار النص وعملية إنتاج المعنى.

في إطار تساؤله عن تطور الأدب ضمن سيروية التاريخ طرح (ياوس) مفهوم أفق الانتظار، للوقوف على طبيعة سيروية التلقي ضمن حيز التطور الأدبي المعقود بعلاقته مع التاريخ ، ووظّف (ياوس) هذا المفهوم كمفهوم إجرائي للإجابة عن التساؤل الذي أفضى إلى طرح هذا المفهوم⁽¹⁾ ، منتقداً المدرسة الماركسية في فهمها للعلاقة بين الأدب والتاريخ ، تلك العلاقة الموصوفة بالسلبية والتي يجسد فيها الأدب دور المتأثر والناطق عن لسان المرحلة التاريخية دون أن يكون له دور تأثير على التاريخ ، ومنتقداً أيضاً فهم الشكلائية لهذه العلاقة والتي أفضت للقول بتعالي الجانب الجمالي على أية محاولة لدراسة المؤثرات التي أسهمت في إيجاد الأدب وتطوره⁽²⁾.

(1) ينظر: من فلسفات التأويل إلى نظريات القراءة : 162-172 ، وينظر: نظرية التلقي والنقد الأدبي العربي الحديث : 29 .

(2) ينظر: نظرية الاستقبال : 106 .

على أن محاولة (ياوس) بطرحه هذا المفهوم - أفق الانتظار - لم تخل من إرباك في جانبها التطبيقي ، ونتيجة لذلك فقد تعرضت للنقد من جملة نقاد كـ(روبرت سي هولب) وغيره⁽¹⁾ ، وسنحاول البحث استعراض بعض الإشكالات الرئيسة التي طُرحت على هذا المفهوم ليخرج بتصور يمكّنه من دفع الإشكالات المنهجية التي قد تعترض سبيله ضمن هذا الإطار .

إن ما يمكننا توظيفه من هذا المفهوم داخل اشتغالنا هنا ، يشتمل على جانبين مهمين ، هما الجانب المتعلق بتطور الأدب ضمن الفهم التاريخي وهو ما يقودنا لجانب نقدي إجرائي يكتسب أهمية بالغة ، ويتمثل في الشغل النقدي المتعلق بنصوص تنتمي لمراحل تاريخية سابقة ، تتنوع مفردات التعاطي معها بناءً على الخصوصيات المكتسبة من فهم التأطر الزمني المعرف بالماضي ، إذ إن تلك النصوص أنتجت في ظروف مختلفة عن ظروف التلقي الراهن ، وهي في جانب ما مقيدة بقراءات سابقة أسهمت في تحديد أطر سياقية لها ، حددت نوعاً منظوراً من علاقة القارئ بالنص ، تلك العلاقة التي قد تؤثر سلباً وإيجاباً في القراءة الراهنة⁽²⁾ ، ويمكننا أن نصف هذا الجانب بعلاقة وشيجة مع النص ترتبط به وتصدر عنه ، وإن كانت متعلقة أيضاً بالقارئ ، لا سيما أن وجود النص لا يتم إلا من خلال القراءة التي يباشرها القارئ ، أما الجانب الآخر من مفهوم أفق الانتظار فيتعلق بالمتلقي ، وبالخصوص المتلقي الراهن الذي يباشر آنيّاً قراءة نص أدبي ما ، حتى وإن كان منتمياً للمرحلة التاريخية الآنية ، ذلك أن القارئ تأثر ضمن تجربته السابقة بجملة النصوص التي تلقاها سابقاً ، وهذه النصوص تشكل طبيعة تجربته القبلية وترسم له الطريقة التي سيتعاطى بها مع النص مضافاً لما تمنحه اقتراحات النص في جانبه التركيبي ، ولأن قراءته للنص الراهن متعلقة بتجربته القبلية فإنه يستحضر كل ما

(1) ينظر: م . ن : 109-116 .

(2) ينظر: شفرات النص دراسة سيمولوجية في شعرية القص والقصيدة ، د . صلاح فضل ، عين للدراسات القاهرة ،

ط / 2 ، 1995 : 13.

يمكن من التناصات السابقة مع النص الراهن ، والتي تشكل نقاطاً تنشط فعالية القراءة وتوجهها إلى حدّ ما في سيرورة القراءة المفضية لإنتاج المعنى ⁽¹⁾ ، وعليه فإنّ أفق الانتظار يحدد بشكل فاعل طبيعة التلقي والفعالية القرائية ليرتئها به ، وبطبيعة الحال فإننا هنا معنيون بخصوصيات أفق الانتظار ، بمعنى أننا بإزاء آفاق انتظار لا أفق واحد ، مع تعدد المتلقين ، فبعد التعريف بهذا المفهوم لابد من أن نتتبع هنا أفق انتظار (الغذامي) بوصفه قارئاً ، للوقوف على خصوصيات هذا الأفق ، ومدى تأثيره في الناتج القرائي النقدي له في المواضع التي سيقع عليها الاختيار كنماذج تطبيقية ، وهذا الجانب هو ما يمكن القول عنه بأنه متعلق بالمتلقي .

إذن نحن أمام جانبين مهمين من جوانب أفق الانتظار ، هما الجانب المتعلق بالنص والجانب المتعلق بالمتلقي ، ومع أن التداخل واضح في كلا الجانبين النص والقارئ لوضوح علاقة الإيجاد المنفصلة بينهما ، إلا أن هذا التصور الإفرزي يمنحنا أداة منهجية لتتبع ما نحن بصدد من هدف البحث هنا ، ولسنا هنا أول من يطرح هذا الفرز المنهجي إذ سبق أن عُني جملة من النقاد بمثل هذا المنحى المنهجي.

واستتباعاً لما تقدم يمكننا ضمن إجراءات نقد النقد أن نوصّف ونقيّم قراءات (الغذامي) منطلقين من أفق انتظاره ، فإذا كانت القراءات التي يباشرها الناقد على نصوص أدبية يمكن بناؤها على أفق انتظار الناقد ، فإنه يمكن أن يتتبع نقد النقد بوصفه قراءة للقراءة مكونات أفق انتظار الناقد ، ويقف على طبيعته ومدى جاهزيته في تلقي النص الأدبي ⁽²⁾ ، إذ ليس أفق انتظار الناقد خارجاً عن إجراءات نقد النقد ، إن الأمر أشبه بإمكان الاعتراض على قراءة تأويلية للقرآن الكريم ، إذ يشتدّ الجدل والنقاش منذ المحاولات الأولى للتأويل حتى العصر الراهن ، وكذلك الأمر حين نشهد جدلاً نقدياً حول المنهج والتطبيق،

(1) ينظر: قراءات أسلوبية في الشعر الحديث ، د. محمد عبد المطلب ، الهيئة المصرية للكتاب ، القاهرة ، ط/ 2 ،

1995 : 161 .

(2) ينظر: جمالية التلقي : 124 .

ولو تتبعنا الإشكالات التي تمثلها تلك الاشكال من الحوار والجدل الفكري من منطلق أفق الانتظار لأمكننا الوقوف على حضوره سلباً وإيجاباً في تلك القراءات المولدة لمجمل التفاعل الحوارى ، لأننا لو استحضرنّا كون التجربة القبلية للقارئ إحدى مكونات أفق الانتظار⁽¹⁾ لتبين لنا أنه من الممكن نقد أفق انتظار الناقد ، الذي قد يجهض قراءة لنص إبداعي فيكون دون مستوى تحيين القراءة الفاعلة لنص يوسم بالإبداع ، ولذا يجب أن نفرّق بين أفق الانتظار كمفهوم عام ، وبين صفته التعددية المتعلقة بالجمهور تارة ، وأخرى بالقارئ مع تعدده ، فلكل جمهور أفق انتظار متأثر بخصائصه، كما أن لكل قارئ أفق انتظار خاص به يختلف بالضرورة عن أفق انتظار قارئ آخر⁽²⁾ ، وهذا التعدد كما أنه سبب من أسباب تعدد القراءات ، فهو سبب لإغناء القراءة ، ومحايشة لدلالات النص الإبداعي المتعددة.

ينطلق (ياوس) في طرحه لأفق الانتظار من مبدأ جوهري يتمثل في دحض فكرة تعالي النصوص الأدبية على الزمن ، ولذلك يعزو السبب في اختلاف مظاهرها من زمن لآخر ومن متلقٍ إلى غيره⁽³⁾ فالنص الأدبي عبر سيرورته التاريخية يعطي صوراً متعددة وتختلف طرق وأشكال تلقيه فهو مرهون بالقارئ الذي يسبغ عليه صورة من الممكنات التي يطرحها النص ذاته في كل مرة من مرات تلقيه، ويعود هذا الاختلاف في التلقي إلى أفق انتظار القارئ الذي تحدده تجربته السابقة ، والعوامل الثقافية التي ينطلق منها، وعلى أية حال فإن النظر لطبيعة النصوص الأدبية على وفق هذا المنظور يعطي تصوراً عن وظيفة أفق الانتظار ضمن عملية التلقي .

(1) ينظر: فعل القراءة وإشكالية التلقي ، محمد خرماش، الشبكة العنكبوتية .

(2) ينظر: جمالية التلقي من اجل تأويل جديد للنص الأدبي ، هانس روبرت ياوس ، ترجمة رشيد بنحدو، المجلس

الأعلى للثقافة ، المشروع القومي للترجمة ، القاهرة ، ط / 1 ، 2004 ، العدد 484 : 103.

(3) ينظر: نظرية الاستقبال : 107-109.

إن تأثر (ياوس) بـ(هوسرل) في طرحه هذا له عائد معرفي يمنحنا إضاءة لهذا المفهوم ، إذ سبق أن طرح (هوسرل) مفهوم الأفق في إطار أفق الانتباه الذي يقابله على الطرف الآخر أفق اللا إنتباه⁽¹⁾ ، ذلك أن الذات بوصفها مدركة واعية ، تعي في حدود ما موضوعاً معيناً ، وهذا لا يعني بالضرورة القول بأن الأفق الذي وعت فيه الذات موضوعها هو الأفق الوحيد لإمكان تحقيق الموضوع فهو أفق أنجزت فيه الذات انتباهاً نحو إدراك واعٍ لموضوعها ، ويبقى إمكان تحقق أفق اللا إنتباه قائماً ولو من ناحية الافتراض ، وهو ما يمنح إمكان إدراكٍ واعٍ لصورةٍ أخرى عن الموضوع ذاته، ولذلك فإننا ندرك أن أفق الانتظار محدد بإمكانات التحقق وبمعطيات المتلقي ذاته ، ومتأثر بمعطيات الجوانب الاجتماعية والثقافية التي تشكّل الذات الواعية قبل ولوج قراءة النص الراهن ، ولذلك فإن تلقي الأعمال الأدبية عموماً يتوقف على إمكانيات تحقق أفق الانتظار لدى القارئ.

إن من المفاهيم المهمة الخاصة بأفق الانتظار هو مفهوم (تغير الأفق)⁽²⁾ ومفهوم (اندماج الآفاق)⁽³⁾ ، ويحدد (ياوس) القيمة الجمالية للعمل الأدبي وفقاً للمفهوم الأول ويعده أداة مقياسية لإدراك تطور الأدب ضمن حيز التاريخ عبر مديات تحقق أفق الانتظار بشتى صوره ، فالقيمة الجمالية للعمل الأدبي مرهونة بعلاقة سلبية بين النص والقارئ ، بمعنى أننا نشهد أحد احتمالين عند القراءة ، إما أن يكون النص مرضياً لأفق انتظار القارئ ، يؤكد تجربته السابقة ، أو يكون مخيباً لهذا الأفق ، ليدحض تجربته السابقة ، ويحقق ما يدعى بكسر أفق انتظار القارئ ، وتتحدد القيمة الجمالية بأعلى مستوياتها في الاحتمال الثاني ، وتبقى مرهونة بابتعاد أفق النص عن أفق الانتظار حتى

(1) ينظر: من فلسفات التأويل إلى نظريات القراءة : 162-163.

(2) ينظر: أفق التوقع عند ياوس ما بين الجمالية والتاريخ، د. خير الدين دعيش ، مجلة قراءات ، العدد1، 2009 : 80.

(3) ينظر: م . ن : 81-86.

تتحقق من خلال كسر أفق الانتظار , أي أننا أمام أفق النص وأفق الانتظار وما القيمة الجمالية للنص إلا رهن بطبيعة العلاقة بينهما , وعليه نكون أمام نوعين من النصوص , نوع يرضي أفق الانتظار ويؤكد معطيات التجربة السابقة للمتلقي , ونوع آخر يفند التجربة السابقة للمتلقي ويهددها بالتوتر ليكسر أفق الانتظار , وعلى أية حال فإن أفق الانتظار يعاد بناؤه في الاحتمال الثاني من خلال كسر أفق الانتظار ذاته , إذ يعاد تشكيله وفقاً للفارق الذي أتاحه أفق النص المانح لأفق انتظار جديد⁽¹⁾ , أما في الاحتمال الأول فإن أفق الانتظار يُبنى وفقاً لثلاثة عوامل يفترض (ياوس) توفرها في العمل الأدبي , وهي:

(2)

1-معايير الجنس الأدبي , والمعايير الشعرية والأدبية السابقة على قراءة النص الراهن والمعاصرة لتلك القراءة.

2-مجموع العلاقات الرابطة بين النص والأعمال الأدبية الأخرى التي وُجدت في السياق التاريخي ذاته , وبمعنى آخر التناصات بين النص الراهن والأعمال الأدبية التي تنتمي للسياق التاريخي ذاته.

3- ((المقابلة بين الوظيفة الشعرية والوظيفة العملية للغة))⁽³⁾

وفي حين يشكل العامل الأول والعامل الثاني أفق الانتظار الأدبي , فإن الثالث يمثل أفق الانتظار الأوسع⁽⁴⁾ , فهو ضام للمعايير الاجتماعية والقيمية للقارئ وهي ضرورية لفهم العمل الأدبي , وهو ما أوضحه البحث في المبحث السابق ضمن السياق السوسولوجي .

(1) ينظر: من فلسفات التأويل إلى نظريات القراءة : 165.

(2) ينظر: مفاهيم هيكلية في نظرية التلقي : 46.

(3) من فلسفات التأويل إلى نظريات القراءة : 166.

(4) ينظر: مفاهيم هيكلية في نظرية التلقي : 46.

وهو ما يقودنا إلى المفهوم الثاني (اندماج الآفاق) إذ إن (ياوس) يذهب إلى ضرورة دمج الأفق الأدبي والأفق الأوسع الضام للمعايير الاجتماعية والقيمية للخروج بمفهوم أفق الانتظار , وبمعنى آخر فإنه لا يمكن الاختصار على أفق واحد منهما لفهم العمل الأدبي والإحاطة بتلقيه , بل لابد من دمج الأفقين لنكون أمام مفهوم أفق الانتظار كما يراه (ياوس) ⁽¹⁾ , إن مفهوم اندماج الآفاق يوضح ضرورة الإلمام بطرفي عملية التلقي والقراءة , النص والقارئ , فمعايير الجنس الأدبي وخصوصيات التجربة الأدبية والتعرف على شفرات النص هي معطيات خاصة بالنص , والسياق السوسيولوجي بما يكتنز من متبنيات اجتماعية وقيمية هي معطيات خاصة بالمتلقي الذي يباشر قراءة النص , كل ذلك يعطي النص والقارئ مديتهما في فعالية التلقي وعملية القراءة , وهو جوهر نظرية التلقي كما عرفنا سابقاً.

وإذا كان مفهوم تغير الأفق يحدد - بحسب ياوس- القيمة الجمالية للعمل الأدبي , فإن مفهوم اندماج الآفاق يعطي تفسيراً لظاهرة تراكم الفهم ويعدّه (ياوس) مرتكزاً لفهم التاريخ الجديد لتلقي العمل الأدبي ⁽²⁾ , وبهذا فإن اندماج الآفاق يشي بعلاقة أخرى تتمثل في إطارها الزمني , كون العاملين الأول والثاني يمثلان أفق الماضي, والعامل الثالث يمثل أفق الحاضر ولا يمكن بأية حال فهم العمل الأدبي خارج أفق التلقي الراهن , ذلك أن المفهوم التاريخي للماضي لا يمكن فهمه إلا من خلال الحاضر , ويمكننا فهم أن تلقي الأعمال الأدبية يتم بطريقتين هما التداول التزامني والتداول التعاقبي ⁽³⁾ , إن التداول التزامني هو ما يحصل في القراءات المتعددة لنص ما بشكل متزامن , أي ضمن مرحلة زمنية ما تتوافق فيها المعايير الأدبية ومعايير الجنس الأدبي , وبمعنى آخر ضمن أفق انتظار واحد- بمفهوم أفق الانتظار العام-, أما التداول التعاقبي فيتمثل في تلقي النص

(1) ينظر: أفق التوقع عند ياوس ما بين الجمالية والتاريخ : 86.

(2) ينظر: الشعر والتلقي دراسات نقدية : 159.

(3) ينظر: من فلسفات التأويل إلى نظريات القراءة : 172-176.

جياً بعد جيل ، أي مع اختلاف المعايير الأدبية ومعايير الأجناس الأدبية ، وبعبارة أخرى هو التلقي والقراءة مع اختلاف أفق الانتظار ، وتعدد آفاق الانتظار باستنادها للمتغيرات الطارئة على الأجناس الأدبية ومعايير الأدبية ، أي التغير الأدبي الناتج ضمن فعالية التطور التاريخي⁽¹⁾ ، ومن خلال هاتين الطريقتين - التداول التزامني والتداول التعاقبي - يتحقق أفق الانتظار الراهن ، ذلك أن التعاطي مع النص ضمن فعالية التلقي وعملية القراءة يتم أمام نوعين من الأعمال الأدبية ، الأول هو النص المنتج ضمن تاريخ سابق على التلقي والقراءة الراهنة وهو منتج ضمن معايير أدبية قد تكون مغايرة ومختلفة مع المعايير الآنية ، كما إنه ضمن علاقة تشارك مع نصوص سابقة عليه أو لاحقة له أو حتى نصوص آنية ضمن مفهوم تداول النصوص ، وهو ما يحتم أن يندمج التداول التزامني والتداول التعاقبي في قراءة مثل هذه الأعمال الأدبية لتحقيق حضور فاعل لأفق الانتظار بإزاء أفق النص المنتمي للماضي في بنيته النصية المستندة للمعايير الأدبية ضمن المرحلة الزمنية لإنتاجه ، كما أن المناهج والنظريات النقدية المتزامنة مع قراءة النص تجسد مشهداً للتداول التزامني من خلال استحضار أدوات المنهج لقراءة أخرى للنص⁽²⁾ ، أما النوع الثاني من الأعمال الأدبية فهي تلك الأعمال المنتمية للزمن الراهن والمرحلة الآنية ، والنص الواحد هنا يتعرض لعدة قراءات متزامنة تستلزم استحضار العلاقات بين هذا النص والنصوص المنتمية للمرحلة الزمنية ذاتها لوضوح إمكان توافر علاقات نصية بينهما⁽³⁾.

بل إن النوع الأول من الأعمال الأدبية التي تنتمي لمرحلة زمنية سابقة قد تتوافر على جملة قراءات متزامنة في كل مرحلة زمنية وضمن آفاق انتظار متعددة ، ذلك ما

(1) ينظر: الأصول المعرفية لنظرية التلقي : 139.

(2) ينظر: جمالية التلقي : 124.

(3) ينظر: أدونيس منتحلاً ، كاظم جهاد ، مكتبة مدبولي ، القاهرة ، ط 2 ، 1993 : 34 . 37 .

يدفعنا للقول بضرورة اندماج تلك الآفاق لتحقيق مفهوم أفق الانتظار حاضراً وبشكل فاعل في التلقي والقراءة.

لقد أثّرت كثير من النقاشات النقدية حول أفق الانتظار ووجهت الانتقادات إلى المفاهيم الأساسية له والتي طرحها (ياوس) ، ومن تلك الانتقادات ما صدر عن (روبرت سي هولب) بخصوص تحديد القيمة الجمالية في المسافة بين أفق النص وأفق الانتظار ، إذ يقول ((إن جذر المشكلة يكمن في الاعتماد المقصور على نظرية الشكلاين فيما يخص الإدراك عبر التغريب من أجل إنشاء القيمة))⁽¹⁾ ، ويطرح (هولب) التناقض الذي وقع فيه (ياوس) في آرائه حين ساوى بين الأعمال (الكلاسيكية و الأدب الرخيص) وهو ما دعاه إلى إعادة النظر وتعديل رأيه في دعوته إلى طريقة أخرى لقراءة الأعمال الكلاسيكية ، والذي يرى فيه (هولب) تناقضاً آخر ووهناً ويتساءل عن السبب في عدم توفر قراءة مماثلة للأدب الرخيص ما دام الأمر ممكناً بالنسبة للأعمال الكلاسيكية ، كما يؤكد (هولب) على أن الاستناد لكسر أفق الانتظار ليس كافياً أو لعله ليس بالموضوعية الكافية لتحديد القيمة الجمالية للأعمال الأدبية ، إذ لو كان كذلك لصح أنه ((لو تم نشر الكتابة العشوائية على الطابعة للشمبانزي على إنها رواية ، على سبيل المثال فإنها بالتأكيد ستبعد نفسها عن توقعات قراءة العموم لها))⁽²⁾ .

كما أن انتقاداً آخر ذا أهمية يوجهه (هولب) لـ (ياوس) ضمن مفهوم أفق الانتظار وهو خاص بالكيفية الوضعية لهذا الأفق ، إذ يقول ((المشكلة هنا لا تتعلق إلى حد كبير بالإجراء الذي يقترحه ياوس ، والذي بشكل أو بآخر هو ما تجنح إليه الدراسات الأدبية

(1) نظرية الاستقبال : 115.

(2) نظرية الاستقبال : 114.

عند ربط العمل بالتقاليد الأدبية والبناء الاجتماعي ، ولكن المشكلة تكمن في فكرة التشيؤ ذاتها⁽¹⁾ ، إذ لو كان من غير الممكن أن ندرك الماضي عموماً وأفق الانتظار السابق خصوصاً إلا ضمن حيز الحاضر وعلاقتنا به ، فإننا أمام حقيقة إمكان تحقق فهم وبناء الأفق السابق ضمن حيز الحاضر وهذا يعني إمكان فهم الماضي من خلال الوعي التاريخي ، وهو ليس ببعيد عن ما ذهبت إليه التاريخانية وهو ما عارضه (ياوس) ، أو أمام القول بوجود مفهوم التعالي على الزمن والذي ذهبت إليه الشكلائية بوجود عناصر متعالية في النص يمكن أن تتجاوز مفهوم الزمن أيضاً⁽²⁾ ، ويمكننا استخلاص ما ورد - وفقاً لهدف البحث - من اعتراضات (هولب) على (ياوس) في مفهوم أفق الانتظار بما يلي:

1-تحديد القيمة الجمالية للأعمال الأدبية

يرى (هولب) أن اقتراح (ياوس) أفق الانتظار كأداة إجرائية متمكنة من وظيفة تحديد هذه القيمة تصور نظري غير قابل للتطبيق فهو يصطدم بمجرد الخروج من حيز التنظير نحو محاولة إنجاز النماذج التطبيقية⁽³⁾ ، وهو الأمر الذي أدركه (ياوس) لاحقاً ليقدّم اقتراحاً بقراءة مختلفة للأعمال الأدبية الكلاسيكية⁽⁴⁾ ، بمعنى أن (ياوس) أدرك بأن ثمة أعمالاً متجددة لا تخضع لفرضية التحديد بأفق سابق لتكون معتادة بعد كسره ، بل إنها لتفاجئ القارئ مرة بعد أخرى في كل تحيين لاحق لها مع قارئ جديد منتمٍ لأفق انتظار آخر ومختلف ، غير أن هذا الاقتراح جُوبه من (هولب) بإشكال آخر تمثّل في استفهامه عن المانع من منح قراءة أخرى مختلفة للأعمال المسماة بالأدب الرخيص⁽⁵⁾ ، إذ إن

(1) م ، ن : 114.

(2) ينظر: من قراءة النشأة إلى قراءة التقبل : 78.

(3) ينظر: نظرية الاستقبال : 109 - 117.

(4) ينظر: م . ن : 115.

(5) المكان نفسه .

اقترح (ياوس) هذا باعث على الشك في موضوعية الناقد خصوصاً مع قوله برفض الأسس المتعالية للنص , إذ بذلك يكون كلا المثالين مستحق لقراءة مختلفة , فلماذا نخص بها الأول دون الثاني ؟!! وهو إشكال منهجي وموضوعي يقضُ أساساً جوهرياً في مفهوم تحديد القيمة الجمالية من منظور أفق الانتظار.

2- موضوعة الأفق

الانتقاد الثاني يتمثل في مقولة (موضوعة الأفق) فمع معارضة (ياوس) للتاريخانية في مفهوم الموضوعية الوهمية , يرى (هولب) أنه وقع في الخطأ ذاته الذي اعترض عليه بشدة (1) , إذ إن مقولة (ياوس) بإمكان تحقيق تشيؤ الأفق الماضي ضمن الحاضر من خلال دمج الأفقين تمثل افتراضاً لا يختلف كثيراً عن ما ذهبت إليه التاريخانية من إمكان تحقيق تصور موضوعي عن الماضي , إن افتراض موضوعة الأفق في نظر (هولب) لا يستقيم ((إلا بافتراض أننا نستطيع من خلال المنظور الراهن أن نصدر أحكاماً موضوعية على ما كانت عليه هذه المستويات في واقع الأمر)) (2)

ومن خلال ما تقدم ندرك أننا أمام صعوبة في الفرضية الأساسية لإمكان بناء أفق الانتظار السابق , مما ينسحب على صعوبة الإجراء والتطبيق ضمن هذا المستوى , وصعوبة تعترض الجانب التطبيقي فيما يخص تحديد القيمة الجمالية للأعمال الأدبية بالاستناد إلى مفهوم أفق الانتظار مقياساً وأداة إجرائية , وإذا كان ذلك صحيحاً فإنه لا يمكن بأية حال أن نطمئن للأحكام النقدية التي تصدر بإزاء الأعمال الأدبية ضمن هذا المستوى , وأمام هذه الإشكالية كيف يمكننا تتبع أفق الانتظار ضمن إجراءاتنا هنا مع (الغذامي) بوصفه متلقياً؟.

(1) ينظر: نظرية الاستقبال : 112

(2) نظرية التلقي , مقدمة نقدية : 185.

إن ما يمكننا إدراكه هنا هو مناقشة تلك الانتقادات ضمن تصورات تقودنا لتدليل هذه العقبات ، والوقوف على إيضاح الكيفية التي يمكن من خلالها تتبع اشتغالات نقد النقد ضمن مفهوم أفق الانتظار .

إن الحديث عن القيمة الجمالية في الأعمال الأدبية يستدعي عدة تصورات ذات علاقة بإيضاح شيء من التعقيد الذي يشوب محاولة الخلوص لفرضية تحدد تلك القيمة مع كل الإشكالات التي نتجت عن الاختلاف بين المناهج النقدية في حديثها عنها , ويمكننا استدراج شيء من تلك التصورات لو تساءلنا بدءاً عن العوامل التي تشكّل أفق الانتظار لننطلق منها , بخلاف النظر إلى أفق الانتظار على أنه مفهوم جاهز نقابل به تصوراتنا عن كمون القيمة الجمالية متعلقةً به , ذلك أننا ندرك بشكل واضح الفرق بين قصيدة كقصيدة مالك بن الرّيب التميمي التي ينعى بها نفسه (1) , وأخرى مما يدعى بالأدب الأبيض كقول بشار بن برد :

تصبّ الخلّ بالزيت⁽²⁾

ربابُ ربة البيت

أليس المثال الثاني ينطبق على ما أطلق عليه (هولب) الأدب الرخيص أو أدب الطبخ ؟ , هنا ندرك أن مجرد اندماج النص الأول ضمن أفق انتظار سابق لا يعني بالضرورة - كما يرى يابوس - أنه مبوبٌ ضمن القيمة ذاتها التي يشي بها القول الثاني , ولكن لماذا يبرز الفرق إذا ؟

(1) ينظر: جمهرة أشعار العرب , لأبي زيد بن الخطّاب القرشي , تحقيق على محمد البجاوي , نهضة مصر , القاهرة , 1981, ج2 : 758 - 762.

(2) ديوان بشار بن برد , شرح حسين حموي , دار الجيل , بيروت , ط 1/ , 1996 , المجلد 1 : 52 .

ولعلنا في بادئ الأمر نقرُّ بصحة النقد الذي وجهه (هولب) ولكننا لم نشهد منه بديلاً لتحديد القيمة الجمالية ، وهنا نقول بأننا ملزمون بملاحظة العوامل المشكّلة لأفق الانتظار ، والخروج بإجابة دون الحاجة إلى نفس الاستدلال بأفق الانتظار وتوصيفه بأنه مادة نظرية لا تصلح للتطبيق كما يذهب إلى ذلك (هولب).

وإذا كان أفق الانتظار هو ما نجابه به النص كمتلقين فإننا بالضرورة ضمن علاقة النص بالقارئ في إطار التلقي والقراءة ، ولابد معه من استحضار هذه العلاقة على طول مدى التصور المفضي للتعرف على طبيعة تشكّل هذا المفهوم وفاعليته ، وقد يؤدي بنا إلى الخروج عن هذه العلاقة إلى معالجة المفهوم ضمن أحادية تضر بالتصور الجوهري له ، إذ هو مطروح منهجياً ضمن هذه العلاقة لا خارجها ، وهذا ما تشي به حقيقة موضعيته المنهجية داخل نظرية التلقي المستندة دوماً لتلك العلاقة ⁽¹⁾ ، وإذا كان وجود النص مرهوناً بتلك العلاقة فإنه لا يمكن تصور أفق الانتظار . بوصفه هو ما نجابه به النص . تصوراً دقيقاً إلا عبر هذه العلاقة ⁽²⁾ ، إذ الحديث عن أفق الانتظار سابقاً للنص ومجرداً عن علاقته به يصطدم بإشكالية فلسفية استندت إليها نظرية التلقي في علاقة الذات بالموضوع ⁽³⁾ ، ومن هنا يمكننا تثبيت هذه العلاقة بين النص والقارئ كأساس حاضر بشكل فاعل في كل التصورات المفضية لطبيعة أفق الانتظار ، ومعها فإن أفق الانتظار السابق نجز وتحقّق على وفق نصوص سابقة أتمّت الذوات القارئة قراءتها ، هكذا تكون القراءة فاعلة في تشكّل أفق الانتظار السابق ، وهكذا تكون القراءة . بوصفها الفضاء الضام لتحقق تلك العلاقة بين النص والقارئ . سبباً لتحيين أفق الانتظار الراهن

(1) ينظر: الوقع الجمالي وآليات إنتاج الوقع عند وولف غانغ إيزر: 62.

(2) ينظر: النظرية الأدبية المعاصرة ،رامان سلدن، ترجمة سعيد الغانمي ، دار الفارس للنشر والتوزيع ، ط /1 ، عمان ، 1996 : 162.

(3) ينظر: نظرية التلقي أصول وتطبيقات : 18.

مع النص الراهن ، لنشهد اندماج الأفقين (أفق النص وأفق القارئ) وبمعنى آخر ، القارئ والنص ، الذات والموضوع .

يستأثر النص بحيز كبير من فضاء تشكّل أفق الانتظار ، ففي تصور دور النص هنا ، تبرز جملة النصوص المشكّلة للأجناس الأدبية عبر مقروئيتها كأهم عناصر تشكل توقعات القارئ ⁽¹⁾ فالنتاج القرائي لتلك النصوص يحدد السياقات بدءاً من الأجناس الأدبية مروراً بالتجارب الأدبية وانتهاءً بالنص ، كسياقات تحدد نوع وشكل التداول القرائي مع الأعمال الأدبية اللاحقة ، إن كل تلك الارتعانات التي يحققها النص تمثل واجهة يتمثلها القارئ في تعاطيه مع الأدب ⁽²⁾ ، ونحن ندرك ما للنص من سلطة التأسيس لشكل ونوع ومستوى القراءة بوصفها تعاطياً مع النص وتداولاً وتحقيقاً له ، ولذلك فإن مجموع مقروئية قارئ ما هي ما يشكّل في جانب مهم أفق انتظاره الخاص، وإذا كانت الذات المدركة الواعية لا تدرك موضوعاتها إلا في إطار تجربتها القبلية فإنه لا يمكن تصور تشكّل أفق انتظار قارئ ما خارج حدود قراءاته السابقة ، تلك القراءات التي تمت لنصوص معينة بذاتها ⁽³⁾ .

إن تعدد مستويات النص وتداخلها تمنحه صفة الإبداعية عبر تبادل وتداخل وظائف تلك المستويات ، وإذا كان النص قارئاً في مستواه النحوي وثابتاً في المستوى التركيبي ، فإن المستوى الدلالي الممنوح من جملة المستويات الأخرى كالمستوى النحوي والمستوى التركيبي يمنحه قابلية القراءات المتعددة ويسمه بالتشظي الدلالي ، وهو ما يقودنا لمغايرة الدلالة مع كل قراءة أخرى تتجزأ بصدد النص الواحد ⁽⁴⁾ ، إن تلك المغايرة في الدلالة ممنوحة من النص والقارئ والقراءة ، فالنص مع وضوح الدلالة واقتصار المستوى الدلالي

(1) ينظر: نظرية التلقي أصول وتطبيقات : 52.

(2) ينظر: مناهج النقد المعاصر ، صلاح فضل ، أفريقيا الشرق ، الدار البيضاء ، ط / 1 ، 2002 : 120.

(3) ينظر: مناهج النقد المعاصر : 120.

(4) ينظر: المعنى وظلال المعنى أنظمة الدلالة في العربية : 230.

فيه على الدلالة الصريحة دون الدلالة الضمنية يكون قد حدد مسبقاً تعاطياً محدداً بأطر ضيقة لاستقباله وقراءته ، بخلاف النص الصّام لقابلية التنويع والتوليد الدلالي⁽¹⁾ ، على أن تلك المغايرة في الدلالة لا تتحقق إلا من خلال القارئ المحكوم بمدى ثراء تجربته القبلية وقدرته على استيعاب وحل شفرات النص وخبرته ومكتنزه من المعرفة بالأساليب النحوية والتركيبية ، ومجمل ثقافته وطبيعة الهوية السوسولوجية التي ينتمي إليها⁽²⁾ ، ويبقى النص والقارئ رهن القراءة مستوى ونوعاً كما هي مرتنة بهما ، ويمكننا إيضاح دور القراءة في المغايرة الدلالية عبر التدليل بما تمنحه المناهج والنظريات النقدية من إمكانيات لقراءة نصٍ ما بطرق وأشكال مختلفة ، وإجراء الحفر في البنى النصية لإعطاء دلالات متنامية ومتعددة مع كل قراءة للنص⁽³⁾ ، وهذا ما شهدناه من خلال الدراسات الحديثة للنصوص الجاهلية مثلاً ، فمع كون تلك النصوص مقروءة سابقاً عبر تاريخ تداولها إلا أننا نشهد باستمرار قراءات مختلفة تكشف عن دلالات تلك النصوص ما يجعلنا نقرّ بدور القراءة في تحقيق المغايرة الدلالية ، ولكن القارئ والقراءة معاً لا يمكنهما منح تلك المغايرة وتحقيق ذلك التنويع القرائي دون أن يكون النص مكتنزاً بالجانب الدلالي المكثف الذي يحفز ويحيث تلك السيورة القرائية المنتجة للمغايرة الدلالية ، ومعه تبدو المغايرة الدلالية ممنوحة من النص بمستوياته المتعددة والمؤهلة لقابلية تلك المغايرة ومن القارئ المشروط بإمكاناته وسياقه السوسولوجي وطبيعة هويته الثقافية ، ومن القراءة ذاتها

(1) ينظر: سيميائية النص الأدبي ، أنور المرتجي ، دار أفريقيا الشرق ، الدار البيضاء ، 1987 : 55.

(2) ينظر: استراتيجيات الاستنتاج والاستدلال في القراءة وفهم النصوص ، خميس الجويني ، مجلة جامعة الملك سعود مجلد 18 ، 2005 : 78.

وينظر: في أصول الخطاب النقدي ، تودوروف ، بارتن ، إكسو، إنجينو، ترجمة وتقديم احمد المدني ، دار الشؤون الثقافية ، بغداد ، ط / 1 ، 1987 : 112.

(3) ينظر: ما هو النقد ، بول هيرنادي ، ترجمة سلافة حجابي ، دار الشؤون الثقافية ، بغداد ، ط / 1 ، 1989 : 144.

مرهونة بمستواها ونوعها ومتأثرة بالأدوات المنهجية التي تمنحها المناهج والنظريات والإجراءات النقدية.

ومع كل ذلك تبدو المغايرة الدلالية كنقطة نظام في تحديد القيمة الجمالية وعلاقتها بأفق الانتظار ضمن مفهوم اندماج أفق الانتظار السابق بأفق الانتظار الراهن ، وطبيعة تداول النص تزامنياً وتعاقبياً ، ذلك أن أفق الانتظار الراهن محدد بكيفية رئيسة ضمن القراءات الحاضرة والسابقة كتجربة قبلية تشكل جانباً مهماً من جوانب أفق الانتظار الراهن ومعه فإن تعاطي النص المنتمي لأفق انتظار سابق لا يحقق كسر أو إرضاء الأفق الراهن إلا من خلال المغايرة الدلالية ، هذا ما يحدث حين نقرأ نص (مالك بن الريب) مرة متعكزين تماماً على القراءات السابقة الممارسة للشرح والتعليق ، ومرة أخرى مستندين للتداخل النصوسي كما في قراءة الدكتور حسن جبار شمسي ، في إطار تداخله النصوسي مع قصيدة (غريب على الخليج) للسياب⁽¹⁾ ، إن هذا المثال يعطينا تصوراً عن القيمة الجمالية ودورها في إرضاء أفق الانتظار وفق افتراضنا الأول ، في حين أنها تكسر أفق الانتظار على وفق الافتراض الثاني ، والسبب يكمن في المغايرة الدلالية التي منحتها القراءة الثانية لنص إبداعي كنص (مالك بن الريب) يتجاوز أطر الدلالة الصريحة ويكتنز الدلالة الضمنية ليكون محفزاً لقراءة محايدة لمستوياته الإبداعية ، ولئن قدّم لنا هذا المثال تصوراً عن دور المغايرة الدلالية في إبراز جمالية العمل الأدبي فإنه يقدم أيضاً تصوراً عن دور التناص الذي أكد تحيين أفق الانتظار الراهن مع أفق الانتظار السابق وحقق اندماجهما معاً لتشكيل الأفق اللاحق لتلك القراءة⁽²⁾ ، فكل قراءة لاحقة لهذا النص - نص مالك- ستكون مستحضرة لتداخلها النصوسي مع (غريب على الخليج) وممكنة من الدلالات الإضافية التي منحتها تلك القراءة ، حتى قراءة لاحقة تكسر أفق الانتظار هذا بما تقدمه من مغايرة دلالية ، على أن هذا التناص يشير بوضوح لدور الأفق الراهن الذي

(1) ينظر: التداخل النصي بين السياب ومالك ابن الريب ، مجلة الأقلام ، العدد4.

(2) ينظر: قراءات أسلوبية في الشعر الحديث : 161.

ينتمي إليه نص (غريب على الخليج) في إحضار الأفق السابق الذي ينتمي إليه نص (مالك بن الريب) فنص (السياب) استدعى نص (مالك) ليعيد معه بناء أفق سابق ويدمجه بالأفق الراهن حال نجوز القراءة , وهذا ما يوضح الطبيعة التداخلية بين الآفاق لبناء أفق الانتظار⁽¹⁾ , وهنا نلاحظ أن ربط القيمة الجمالية بكسر أفق الانتظار أو إرضائه بصفته العمومية دون تحديد الجانب المعني كسبب رئيس في تحقيق الإرضاء أو الكسر هو ما سبب الغموض وعدم قابلية مفهوم أفق الانتظار للتطبيق , وهو ما حدا بـ(هولب) من هذه الناحية لنقد الجانب التطبيقي لمفهوم (ياوس) عن أفق الانتظار ولكنه لم يقدم البديل واكتفى بالنقد فقط , إن تركيزنا على المغايرة الدلالية يعطي إمكانية معتد بها لتطبيق أفق الانتظار على مجمل الشغل النقدي الذي يعنى البحث بتتبعه هنا , ويجب على الإشكالية التي أثرت حول مقولة (ياوس) بخصوص تساوي الأدب الكلاسيكي مع الأدب الرخيص , كما يجب على تساؤل (هولب) عن السبب الذي لا يمكن معه منح قراءة مختلفة للأدب الرخيص , إذ كما أوضحنا سالفاً أن ثمة فرقاً واضحاً يتجلى من خلال قابلية نص على منح المغايرة الدلالية دون غيره وهو هنا النص الإبداعي , ويمكننا أن نكون على قدر من الموضوعية حين نتعكز على المنهج والنظرية النقدية في إجراءاتهما ضمن قراءة النص, ويبقى الأمر مرتهاً كذلك بتداخل القارئ والنص ضمن سيرورة القراءة كما أوضحناه.

أما بصدد (موضعة الأفق) فيمكننا مناقشة اعتراض (هولب) من عدة جوانب , فبدءاً يمكننا الاعتراض على قول (هولب) ((فما دام الماضي لا يمكن تعرّفه في أقصى حالات تحققه إلا من خلال الأفق الراهن , وما دام الأفق الراهن يتغير على الأرجح بصورة دائمة , فإن نموذج الجديد هذا لن يكون أساس شيء آخر سوى أسرع التواريخ الأدبية إلى (الزوال))⁽²⁾ , إذ ما هي الفرضية التي ثبتت أمام التطور الفكري والمعرفي والعلمي

(1) ينظر: جمالية التلقي : 124 - 125.

(2) نظرية التلقي - مقدمة نقدية , روبرت هوليب , ترجمة إسماعيل عز الدين : 166.

المقرون بمفهوم الزمنية والتطور التاريخي حتى يفترض (هولب) أن ينأى نموذج (ياوس) عن التطور التاريخي للأدب عن التغيير ويطلبه بالثبات !! بل إنها نتيجة وفرضية فلسفية مسلم بها حتى الآن بأن لا شيء عصي على التغير والتطور والزوال , وما دام الأمر كذلك فأئنا نسلّم بأن نموذج (ياوس) قابل للتطوير والتغيير بل والزوال لينى عليه نموذج آخر قد لا يثبت هو الآخر أيضاً , خصوصاً مع التغيرات الكبرى التي تشهدها البشرية في سعيها الدؤوب وخطاها المتسارعة, وكل تلك الإنجازات التي حققتها البشرية في عقودها الأخيرة شاهدة على ذلك , إننا هنا لا نسلّم بثبات أي فرضية تسليماً مطلقاً , ولكننا معنيون بالشرعية التي تكتسبها ما دامت مقبولة نظرياً , وهي سبب للتطور والتواصل في المعرفة حتى انجاز فرصة أخرى أكثر قدرة على توظيف معطياتها كإجابات عن التساؤلات المطروحة والمتغيرة هي الأخرى دوماً .

ولو نظرنا لمفهوم أفق الانتظار بخصوصيته ضمن كونه متعدد الأشكال ومتنوعاً بحسب الجمهور والمتلقي فإنه يمكننا القول بإمكان تحقيق موضوعة أفق الانتظار السابق لنص ما أو مجموعة أعمال لأديب أو جنس أدبي ما ⁽¹⁾ بالاعتماد على عوامل نصية وعوامل خارج نصية , فما قدمته المناهج والنظريات النقدية من طرق لارتداد الحدث الأدبي وأدوات ومناهج للتحليل النصي تجعلنا قادرين على مداخله النص بقراءة تكتسب منهجية معتدّاً بها معرفياً, إذ لا يمكن الاستهانة بكل ما قدمته تلك المناهج والنظريات زمن التجربة النقدية مع النص الأدبي حتى غدا من الممكن التعرف على تواريخ كثير من النصوص الأدبية مجهولة التاريخ من خلال تحليل بنيتها وطبيعتها التركيبية وكذلك الحال بالكشف عن العناصر الدخيلة على النص كما هو في تحقيق النصوص الجاهلية بالاعتماد على التحليل البنائي , كل ذلك يمنحنا الثقة بالمناهج والنظريات النقدية بوصفها

(1) ينظر: فعل القراءة نظرية الوقع الجمالي , فولفغانغ إيزر , ترجمة أحمد المديني , مجلة آفاق المغربية , العدد 6 , 1987 : 28-29.

عوامل خارج نصية يمكن الاعتماد عليها في سبيل ولوج عالم النص والكشف عن خصائص النص وجوانبه ووظائفه⁽¹⁾ ، على أن العوامل النصية المكشوف عنها من خلال القراءة المستندة للمنهج والنظرية تمثل عوامل نصية يمكن من خلالها استحضار أفق الانتظار السابق الذي ينتمي إليه النص ، أما العوامل الخارج نصية فتتمثل أيضاً في المدونة النقدية التي تنتمي لأفق الانتظار ذاته ، والمدونة النقدية اللاحقة حتى العصر الحالي الذي نباشر فيه إعادة بناء الأفق السابق والتي تعطي تصوراً موسعاً عن النص والأديب وكذلك تمثل أفق الانتظار السابق⁽²⁾ ، كما هو الحال مثلاً مع كتاب (الموازنة بين الطائيين) للآمدي ، إذ يعطينا تصوراً مهماً عن أفق الانتظار الذي يصف بدقة رأي جمهور المتلقين آنذاك لشعر أبي تمام وشعر البحتري لاسيما مع الجدل النقدي الذي أثير في حينه ، ولعلنا لا نغفل في هذا المثال الجانب المهم والمتأني من كونه يصدر عن ناقد كالأمدي يمثل وجهة نظر المؤسسة النقدية أو جزء منها، كما أن التاريخ يعطينا وجهاً آخر من أوجه العوامل الخارج نصية بما يكتنزه من قدرة على رسم تصوراتنا عن حقبة تاريخية ما ورقد تصوراتنا تلك بالوقائع والحوادث ، حتى أنه يمكن رسم صورة تفصيلية عن البيئة الثقافية والاجتماعية والاقتصادية وكل ماله علاقة بنواحي الحياة المؤثرة في تشكيل هوية مجتمع من المجتمعات ، وبهذه الطريقة ومن خلال التاريخ بالفعل نحمل تصوراتنا عن الحقب الزمنية السابقة وهي تصورات يمكن الركون إليها والاعتماد عليها في إعادة أفق الانتظار السابق ، إن ما قدمناه من أمثلة عن العوامل الخارج نصية كالمدونة النقدية والمدونة التاريخية لا تمثل إلا مثلاً عن تصورنا لتداخل المعارف والعلوم، كما لو تساءلنا عن القدر الذي تمنحه الفلسفة القديمة لتصوراتنا عن حضارة اليونان ، إذ لا بد لنا

(1) ينظر: آليات الخطاب النقدي العربي الحديث في مقاربة الشعر الجاهلي - بحث في تجليات القراءة السياقية ، د .

محمد بلوحي ، منشورات اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، ط / 1 ، 2004 : 14-72.

(2) ينظر: الشفاهية والكتابية ، ولترج . أونج ، ترجمة د. حسن البنا عز الدين ، مراجعة د. محمد عصفور، سلسلة

عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، 1994 : 10 . 19 .

من تصور الكم الهائل الذي ترفدنا به شتى المعارف من التصورات التي تمنح إمكانية إعادة بناء أفق الانتظار السابق ، وبمعنى آخر إننا نتوافر على إمكان إعادة بناء أفق الانتظار السابق من موضعنا الحالي الراهن بالزمن الحاضر على خلاف ما ذهب إليه (هولب) من عدم إمكان ذلك ، ولعل السبب في رأيه هذا هو نظره لأفق الانتظار بوصفه مفهوماً مجرداً عن علاقته مع النص وخارجه وعلاقة النص بالقارئ ، إذ القارئ هنا معني بتتبع أفق الانتظار السابق محفزاً بالنص، وتلك العلاقة تمنحه أبعاداً إدراكية بوصف النص محوراً يقع تحت فعالية القارئ الإدراكية فيجد من العلاقات ما لا يمكن أن تفرزه نظرة خارج هذه العلاقة.

ومضافاً لما قدمناه من العوامل النصية ودور المناهج والنظريات النقدية يمكننا الإجابة عن تساؤل (هولب) عن الكيفية التي يمكن بها بناء أفق الانتظار من الأعمال الأدبية ذاتها، من خلال وظيفة الاتصال التي يقوم بها النص ، فالنص الأدبي لا يخلو من هذه الوظيفة الدالة على علاقة المتلقي بالنص ⁽¹⁾ ، ألا يوفّر لنا القرآن الكريم - بوصفه نصاً - تصوراً عن أفق الانتظار المقرون بتلقيه ؟ فوظيفة الاتصال تشي بأنه نص موجه لمتلقين ، وحقيقة كونه نصاً متوافراً على الإبداعية والأدبية ليشي بتصوير معين عن طبيعة المتلقين ، تلك الطبيعة التي ترسم لنا صورة عن أفق الانتظار آنذاك بما يمكن من إعادة بنائه ، إن وظيفة الاتصال لا يمكن تجريد النص القرآني منها ، لا أقل من كونه مشتملاً على الجانب التشريعي والأخلاقي وغيرهما من الجوانب التي تؤكد حضور هذه الوظيفة فيه ⁽²⁾ ، وإذا كانت هذه الوظيفة حاضرة في النص القرآني فإنه لا بد من افتراض وجود مشتركات ومؤهلات بين النص ومتلقيه لتلقي هذا النص ، وهو ما يؤكد لنا التاريخ

(1) ينظر: تحليل الخطاب ، جيليان براون وجورج يول، ترجمة محمد لطفي الزليطي ومنير التريكي، جامعة الملك سعود ، الرياض : 238.

(2) ينظر: الإيقان في علوم القرآن ، أبو الفضل عبد الرحمن جلال الدين السيوطي ، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم ، المكتبة العصرية ، صيدا ، بيروت ، لبنان ، ط / 2 ، 1988 ، ج 2 : 282.

حتى لأمكن لـ (الوليد بن المغيرة) و (عتبة بن ربيعة) أن يعطيا رأياً نقدياً عنه ، إن النص القرآني هنا مانح لإمكان إعادة بناء الأفق السابق من خلال مستويات عدّة ، أولها ما افترضناه من كمون وظيفة الاتصال التي تعني بالضرورة إمكان تلقي النص والتفاعل معه ، مما يشير بوضوح للمستوى الثقافي المعاصر لزمن تلقيه الأول ، لذا وخارج الحقائق التاريخية يمكن الاستناد إلى ذلك في تحديد المستوى الثقافي من خلال القدرة على تلقي ثقافة الجزيرة العربية لنص كالقرآن الكريم ، ولقد مثل الجهد التفسيري الذي قام به (ابن عباس) في إيضاح المشكل والمبهم من ألفاظ القرآن الكريم وجهاً من أوجه الممارسة التطبيقية لإعادة بناء الأفق السابق ، إذ اقتضت بعض التراكيب القرآنية الرجوع للشعر العربي لفهم مداليلها وهذا ما تولاه (ابن عباس) في رجوعه لأشعار العرب وقد كان أغلبها منتمٍ لأفق الانتظار السابق لنزول القرآن الكريم والذي كسره بنزوله ، إنه مثال واضح عن إمكان إعادة بناء أفق الانتظار السابق من خلال الأعمال الأدبية ذاتها ، من خلال النظر إلى وظيفة الاتصال وما تستدعيه من علاقات النص بالمتلقي وما تشي به من طبيعة المتلقي فرداً أو جمهوراً ، ويتأكد الأمر حين نلتفت لما يحمله النص من أنساق دالة على البنية الثقافية و السوسيولوجية للجماعة التي يتوجه إليها الخطاب ولكون النص أيضاً معبراً ومُنطلقاً من الثقافة ، أي ثقافته.

وبالعودة للنقد الذي وجّهه (هولب) لموضوعة الأفق وإمكان إعادة بناء الأفق السابق ، الذي ينطلق فيه مما يفهم بالإرباك المفهومي للعلاقة بين الماضي والحاضر فإنه يمكن أن نستدعي فعالية الذات المؤطرة بهويتها ، فهي غالباً ما تعاود الماضي لفهم الحاضر مستندة على علاقة التشاكل والاختلاف بوصف التجربة الراهنة موضوعاً تواجهه تلك الذات بإدراكها لتعيه ، وهي تدمج ما يبرز من هذا الموضوع مشاكل مع تجربتها السابقة وتعطي ما يختلف توصيفات تمكّنها من تبويبها وإدخالها في التجربة الحالية لتكون تجربة سابقة بعد الإدراك الواعي لها ، وإذا كان الحاضر يمثل التجربة التي تواجهها الذات الواعية المدركة ، فإن التجربة السابقة لها تمثل الماضي، وبمعنى آخر فإننا نعاود

الماضي لإدراك وفهم الحاضر, كما أن الماضي يمثل تجربتنا في التقاط المعطيات الدالة عليه والخلوص لفرضياتنا بخصوصها , إننا ندرك بوضوح أن جزءاً مهماً من هوياتنا مرتبط بشكل فاعل بماضيها , ألسنا نستدعي ذلك في خطابنا الثقافي كجماعة ثقافية لها هوية معينة ؟ إذ كل ثقافة تستحضر تلك العلاقة مع الماضي في خطابها الثقافي وسلوكياتها اليومية ⁽¹⁾ , هذه العلاقة مع الماضي تشكّل توصيفنا للذات والآخر مع كل أشكال هذه العلاقة , ولا أدل عليها في النقد مثلاً من مصطلحات ومفاهيم كالخطاب الاستعماري الذي يدشنه (إدوارد سعيد) ⁽²⁾ , ليحضر معه علاقة الهوية بالماضي والحاضر , إن ذلك التداخل بين مفهومي الماضي والحاضر هو وجه من أوجه تداخل الآفاق , إذ لا يمكن فهم الحاضر إلا من خلال الماضي, وإذا كان ذلك صحيحاً فإنه يمثل إجابة عن النقد الذي وجهه (هولب) لهذا المفهوم في كلا شقيّه (موضعة الأفق) و(إمكان إعادة بناء الأفق السابق) من خلال الحاضر ومن خلال الأعمال الأدبية ذاتها , كما أن السمة المتعالية للحاضر بما تم إنجازه في الميادين المعرفية كافة تعطي سلطة منطقية في فرض إمكان فهم الماضي واستحضاره كما هو الحال في العلاقة بين النقد الحديث والنقد القديم , إذ يصح القول أن العلاقة بينهما محكومة بنظرة التعالي التي يباشرها النقد الحديث بإزاء منجزات النقد القديم مستنداً للتطور والإنجاز الكبير الذي حققه , وكل ما قدمناه يعطي تصوراً عن نقد (هولب) وتساؤلاته والإجابات التي قدمناها سبيلاً لدفع الإشكالات التي قد تعترض الجانب الإجرائي الذي نروم تحقيقه في تتبع اشتغالات (الغذامي) منطلقين من مفهوم أفق الانتظار.

نتناول الآن كتاب (الغذامي) الموسوم بـ(المشاكلة والاختلاف) كمثال تطبيقي لما قدمنا من تفصيل أفق الانتظار , وكيف يمكننا أن نتتبع طبيعة وكيفية تشكّل أفق انتظار الناقد , وإعادة بناء أفق الانتظار السابق لنص منتمٍ لأفق انتظار سابق هو بصدد إنجاز

(1) ينظر: النقد الأدبي والهوية الثقافية, جابر عصفور , مجلة دبي الثقافية , 2009.

(2) ينظر: دليل الناقد الأدبي : 158.

قراءته ، من خلال تتبعنا لمفردات تلك القراءة كإجراء تمّ بالفعل ، ويمكننا أيضاً الوقوف على عدة مفاهيم متضمنة في مفهوم أفق الانتظار كموضوعة أفق الانتظار ، وتغيير الأفق ، واندماج الآفاق ، إذ أن هذا الكتاب يمثل أنموذجاً لمثل هذا التتبع.

بدءاً نقول إن عنوان الكتاب وهدفه الذي رصد (الغذامي) جهده له بين طيّاته يمثل تساؤلاً عن أدبية الأدب، ويرى (الغذامي) أن تحديد هذه الأدبية في النص مرهون بعلاقة المشكلة والاختلاف ، هذه العلاقة التي تحليلنا لما قدمناه آنفاً في مفهوم كسر أفق الانتظار واستندنا فيه إلى مفهومنا عن المغايرة الدلالية سبباً في تحقق هذا الكسر في الأفق ، بيد أن الفرق هنا بين ما قدمناه ملتزمين بأطر نظرية التلقي ، وما يقدمه (الغذامي) ، يتضح في كونه لم يفرّق بين النص الذي يرضي أفق الانتظار وبين النص الذي يكسر هذا الأفق في اختلاف موضع كمون القيمة الجمالية وفعالية الوظيفة الدلالية ، إذ يقدم (الغذامي) علاقة المشكلة والاختلاف مجابهة لأدبية النص ، على أن نتائج هذه العلاقة تشي بشكل واضح بمطابقة بين النتيجةين ، وعلى أية حال فإن الهدف المتضمن داخل اشتغال (الغذامي) في كتابه هذا يتعلق بشكل مباشر بالمغايرة الدلالية وكيف يمكن أن يكون النص مانحاً لتعدد دلالي يعزز من حضور القيمة الجمالية، و(الغذامي) يذهب إلى أن ذلك يتحقق من خلال الاختلاف لا المشكلة (1) ، الاختلاف الذي يقدمه النص عن النصوص الأخرى، لا مشاكلته لها ، ومن بداية الكتاب يُظهر اشتغال (الغذامي) محاولة لدمج آفاق انتظار متعددة مستندة إلى محاولة بناء هذه الآفاق السابقة ودمجها مع أفق الانتظار الراهن زمن نجوز كتاب (الغذامي) هذا ، يظهر ذلك من قول (الغذامي)) (وإن كنا نرى أن النص يتأسس على قاعدة (الاختلاف)، فإن هذه القاعدة هي مبدأ نصوصي يجد بذرته لدى الجرجاني (الفصل الأول) ، ولدى آخرين من مبدعين

(1) ينظر: المشكلة والاختلاف قراءة في النظرية النقدية العربية وبحث في الشبيه المختلف : 6 .

ومفكرين عرب (الفصل الثالث) (1) ، وهو ما يباشره فعلاً في تتبعه ومناقشته لآراء الجرجاني والآمدّي وغيرهما من علماء البلاغة والفلسفة كابن سينا ، ويستثمر (الغذامي) أفق انتظاره الراهن المتمثل في مكتنته من قراءاته للنقد القديم والبلاغة ، والنظريات والمناهج النقدية الحديثة ، يستثمره في إعادة بناء آفاق الانتظار السابقة ضمن كل مرحلة يتعرض فيها لأحد النقاد العرب القدامى ، ومع الاختلاف النقدي بين علماء البلاغة العرب فإنه يخلص لنتائجه من خلال دقة الملاحظة المستندة والمنطلقة من تلك الآفاق ، فهو لا يكتفي بشرح الرأي السابق وإنما يداخله بمناقشة تزوج بين الاستدلال المرتكز على المعطيات الممنوحة من أفق الانتظار السابق ومعطيات أفق الانتظار الراهن المتمثلة بالمنجز النقدي الذي حققته النظريات والمناهج الحديثة ، وقد أفلح (الغذامي) في ذلك إلى حد بعيد مجسداً بناءً ناجحاً ومتمكناً لأفق الانتظار السابق ، ومجسداً دمجاً دقيقاً لآفاق الانتظار المتعددة ، تمثل ذلك في عدم تسليمه بكل ما صدر عن النقاد الذين ناقش آراءهم ، فقد توصل بفهم دقيق لآراء الجرجاني مستنداً في ذلك إلى مكتنته النقدي المتمثل لأفق انتظاره مما أنتج تحولاً نقدياً أثري المعالجات النقدية التي تناولت المدونة الجرجانية بالدرس والتحليل. إذ يقول مستخلصاً فهمه الذي قدمه لنظرية النظم الجرجانية بأنها ((هي أضعف ما عند الجرجاني من تصورات ، وذلك لأنها ترتكز على أسبقية المعنى على النص....)) (2) فقد استدل (الغذامي) سابقاً لقوله هذا بأن الجرجاني تأثر بأسبقية المعنى تلك ، كونه قد صدر في نظرية النظم مقيداً بسياق المرحلة التاريخية التي شابها جدلٌ فلسفي عن قدم القرآن وحدوثه ، إن (الغذامي) بتشخيصه هذا للسياق - بمفهومه العام- الذي صدرت عنه نظرية النظم قد نجح في التقاط مكون رئيس من مكونات بنية أفق انتظار مرحلة الجرجاني وهو ما أهله لرصد مقولات الجرجاني بشكل دقيق.

(1) المكان نفسه .

(2) ينظر: المشاكلة والاختلاف قراءة في النظرية النقدية العربية وبحث في الشبيه المختلف : 6 .

إن ما تقدم يظهر محاولة ناجحة لإعادة بناء أفق انتظار سابق - أفق انتظار الجرجاني - تمثلت في الإمساك بالسياق العام (السياق التاريخي , السياق الثقافي , والسياق السوسيولوجي) , كما أن عملية إعادة البناء تلك استندت للنص النقدي وهو هنا نظرية النظم , الأمر الذي يدل على تطبيق فاعل لإمكان إعادة بناء أفق الانتظار من خلال الأعمال ذاتها , كذلك فأن مناقشة (الغذامي) لآراء (الجرجاني) وعدم التسليم المطلق لها يمثل دمجاً لأفق الانتظار الراهن مع أفق الانتظار السابق ذلك الدمج الذي أفضى لقراءة نقدية واعية خلصت لنتائج مثرية لنظرية النظم , ولعل هذا ليس هو الوجه الأوحد لمفهوم اندماج الآفاق فقد عرض (الغذامي) لاختلاف أفقي انتظار مختلفين حول التجربة الشعرية للبحثري تمثلت في (الجرجاني) و(الأمدي) , وقد نجح (الغذامي) في الإمساك بالنقاط التي تمكنه من ترجيح الرأي النقدي الأصوب من وجهة نظره من خلال ما قدمناه من فعالية ناجحة مارسها (الغذامي) مرتكزاً على مفهومي إعادة بناء أفق الانتظار واندماج الآفاق , معززاً رأيه بالركون إلى مفهوم (التداخل النصوي) الذي يباشره بالتطبيق بين نص (البحثري) الذي يصف فيه أسداً , ونص لـ (المتنبى) يتعرض فيه أيضاً لوصف أسد , والمقامة البشرية لـ (بديع الزمان الهمداني) التي تتضمن مشهداً لمقارعة البطل لأسد , لقد وظف (الغذامي) قراءته لتلك النصوص من خلال التداخل النصوي في إثبات رأيه وترجيح كفة (الجرجاني) على الأمدي بخصوص التجربة الشعرية لـ (البحثري) , هنا يتضح لنا بأن إجراء نقدياً حديثاً كالتداخل النصوي ممثلاً لأفق الانتظار الراهن يداخل الشغل النقدي ليكون مائزاً ومؤيداً ومرجحاً لأفق على أفق وهو يشير لفعالية مفهوم اندماج الآفاق , إذ لا يمكن فهم أفق الانتظار الراهن إلا من خلال هذا المفهوم , ومعه فإنه لا يمكن فهم النص إلا من خلال اندماج آفاق الانتظار , وهو ما يقرُّ البحث بأن (الغذامي) قد حققه بشكل فاعل في كتابه (المشاكلة والاختلاف) .

إن أهمية التحول النقدي هنا في جانبه الايجابي يستخلص من كون أن أفق انتظار

الأمدي . بوصفه ناقدًا . أفق يجابه ما تعرض له مجمل التجربة الشعرية العربية ممثلاً سلطة الناقد ومع التعارض مع آراء نقاد آخرين قد ينتمون للمرحلة التاريخية ذاتها أو لا , تتمثل في اضطراب الرؤية النقدية ، هنا يمنح مفهوم اندماج الآفاق إمكان قراءة نقدية راهنة تتوافر على أكبر قدر ممكن من المنهجية والموضوعية لإعادة صياغة الأسئلة والإجابة عنها على وفق منظور دقيق ومانح لأبعاد جديدة للتصورات النقدية عن الأعمال الأدبية السابقة.

ولا يتوقف (الغذامي) في إعادة بناء أفق الانتظار السابق عند الحد الزمني لصدور الآراء النقدية لكل من الجرجاني والأمدي والنصوص الأدبية التي أتمّ قراءتها على وفق التداخل النصوسي ، بل إنه يرجع لأفق انتظار أسبق منها جميعاً تمثل في أفق انتظار أسطورة أوديب اليونانية ليحقق تداخلاً نصوصياً بينهما وبين المقامة البشرية.

ومع ما تقدم فإنه يمكننا تشخيص أفق الانتظار الراهن للغذامي وطبيعة تشكله على وفق ما قدّمه في مجمل شغله النقدي هنا وبالخصوص ما استعان به من النظريات والمناهج النقدية الحديثة ، ومما يمكن التمثيل له تناوله لدلالة الفعل الناقص (كان) الذي تصدر الجملة الأولى من المقامة البشرية ، فقد دلل (الغذامي) على السمة الإجبارية لهذا الفعل الذي تداخل في أجزاء النص وأثر في نهايته القصصية ، وهذا ما يشير لحضور الإجراءات النقدية الحديثة في اشتغال (الغذامي) هنا ، ما يشي بدلالات واضحة على طبيعة تشكل أفق انتظار (الغذامي) الذي جابه به نص المقامة البشرية ليخرج بقراءة نقدية ممتعة أثرت النص وبنيت جوانب متعددة من التشظي الدلالي ، ومن الحق القول أن هذه القراءة مثلت كسراً لأفق الانتظار بما منحته من مغايرة دلالية عن المقروئية السابقة لهذه المقامة .

إن ما قدمناه آنفاً بخصوص كتاب (المشكلة والاختلاف) هو مثال تطبيقي نستخلص منه أن (الغذامي) جابه الأعمال الأدبية التي تعرض لقراءتها والنصوص النقدية التي ناقشها بأفق انتظار حقق قراءة نقدية موضوعية ومنهجية ، كما نجح في تتبع آفاق انتظار

سابقة وأعاد بناءها ليدمجها بأفق الانتظار الراهن بشكل فاعل منح قراءته النقدية دينامية وحركية أفضت إلى تحقيق فعل قرائي مؤثر وفاعل .

وأمام قراءتنا لكتابين آخرين للغذامي هما (الصوت القديم الجديد) و (تأنيث القصيدة والقارئ المختلف) يمكننا رسم تصور آخر عن أفق انتظار (الغذامي) ودوره في تحيين القراءة , ففي كتابه الثاني الذي يدشنه على وفق إجراءات النقد الثقافي يحاول (الغذامي) الكشف عن نسق الفحولة ودور الثقافة الذكورية في طمس ثقافة المرأة وإخفاء معالم النسق الأنثوي فيها , إذ يرى كمثال على هذا النسق أن الثقافة الذكورية مارست اضطهاداً على دور نازك الملائكة كرائدة للشعر الحر , إذ يقول ((ولعل لثقافة بحسها المذكر لم تكن على ثقة تامة من نجاح خطتها الأولى في إنكار أولية هذه المرأة المدعوة بنازك الملائكة فاتبعت الثقافة متمثلة برجالها الفحول هجومها على هذه الأنثى بحيلة أخرى , وجرى القول بأن قصيدة الكوليرا ليست قصيدة حرة وأنها - فحسب- نوع من أنواع الموشحات)) (1) , وهذا ما يتعارض تماماً مع رأيه في كتابه الأول من أن قضية الأولوية في الشعر الحر ليست لنازك الملائكة ويناقش أدلة كثيرة بصدد ذلك , إذ يقول((فالأولوية ليست لنازك حتماً أما الريادة فهي بلا شك واحدة من كوكبة من الشعراء حملوا راية الحركة من بدايتها بدوافع من اطلاعها على الآداب الأوروبية ودراسة أحدث النظريات في الفلسفة والفن وعلم النفس)) (2) , ولعل قيمة ما يقدمه في هذا الكتاب تتمثل في الجانب التوثيقي , إذ يستعرض ما صدر من محاولات في الشعر الحر وضمته الصحف والمجلات وبعض الدواوين الشعرية كمحاولات (أبو شادي) ومحاولات (خليل شبيب) , وهنا لابد من التساؤل عن قيمة الاشتغال النقدي ضمن إجراءات النقد الثقافي بإزاء حالة توثيق تاريخي غير قابل للبس كحقائق لا يمكن تجاوزها , إن الأمر ليكون هيناً حين يتعلق بتحديد

(1) تأنيث القصيدة والقارئ المختلف , د . عبد الله الغذامي , المركز الثقافي العربي , الدار البيضاء , المغرب , ط /

2 , 2005 : 14 .

(2) الصوت القديم الجديد , دراسات في الجذور العربية لموسيقى الشعر الحديث : 49 .

مسألة الأولية والريادة من منطلق الجانب الفني للنصوص الأولى للشعر الحر ولكن أمام إصرار (الغذامي) على أولية نازك الملائكة في الشعر الحر منطلقاً من رؤية أنساقية يجعلنا نقف أمام تحول نقدي يؤشر خطراً في التداول النقدي وعموم الإجراءات النقدية مقابلة للموضعية والمنهجية.

إن أفق انتظار (الغذامي) الذي جابه به قضية نقدية مهمة تتمثل في جنس أدبي طراً على الساحة الأدبية ، اضطرب بين كتابين له ، ففي كتابه الأول (الصوت القديم الجديد) يمكننا الاستدلال على أفق انتظار ركن للجانب التوثيقي وهو جانب موضوعي معتد به في تقرير مسألة الأولية والريادة ، وقد كان هذا الأفق أفقاً استطاع من خلاله (الغذامي) أن يخرج بنتيجة نقدية موسومة بالموضوعية والمنهجية ، إلا أن أفق انتظاره في كتابه الثاني (تأنيث القصيدة والقارئ المختلف) عانى من نقصٍ في المعطيات الموضوعية لمجابهة هذه المسألة ، ولعلنا نشخص سبب اضطراب هذا الأفق بحضور نسق الفحولة سابقاً على ارتياد المشاهد الدالة عليه فكان أن سخر (الغذامي) قضية الشعر الحر لهذا النسق.

وإذا عرفنا أن كتاب (تأنيث القصيدة والقارئ المختلف) هو كتاب لاحق زمنياً لكتاب (الصوت القديم الجديد) فكيف يمكننا فهم غياب معطيات سبق أن شكّلت أفق انتظار (الغذامي) كالجانب التوثيقي ؟ ولعل الإجابة تكمن في قصدية الناقد المسبقة على تداول النص سواء أكان عملاً أدبياً أم قضية نقدية ما، وكما أسلفنا فإن حضور نسق الفحولة هو السبب في غياب الجانب التوثيقي الذي سبق وأن تشكّل في أفق انتظار (الغذامي) ، وهذا ما يدل على أن مفهوم أفق الانتظار مرهون بمفهوم (تغير الأفق) ولكنه ليس بالمعنى الذي سبق لنا الإشارة إليه في الجانب التنظيري الذي تعلق بمفهوم (كسر الأفق) إذ إنه هنا يكتسب طابعاً إجرائياً أثناء فعل القراءة ، وبمعنى آخر فإننا نتعاطى وفق إجراءات نقد النقد في تتبعنا لأفق انتظار الناقد لا بوصف هذا الأفق ثابتاً ولا بوصفه متغيراً بصفته الإيجابية فقط ، بل متغيراً بصفته السلبية أيضاً والتي نعني بها

غياب معطيات سابقة في تشكّل أفق الانتظار أثناء مجابهة لاحقة لنص آخر أو للنص ذاته الذي أتمّ الناقد بوصفه قارئاً قراءته في وقت سابق ، وهو ما يؤشر تحولاً نقدياً من طابع آخر ، وهذا ما يعطي جانباً موضوعياً يقلص من سلطة الناقد بوصفها سلطة مطلقة نظراً لما قدمه من قراءات نقدية متميزة ، إذ إن ذلك لا يمنع من تتبع قراءاته اللاحقة منطلقين من إعادة بناء أفق توقعه بالاستناد على المعطيات الممنوحة من القراءة التي أنجزها لاحقاً ، وهو ما يؤشر بوضوح القيمة الإجرائية للنقد وفقاً وانطلاقاً من أفق الانتظار بوصفه مجسماً دقيقاً لتتبع إجراءات ومكونات الفعالية القرائية للناقد.

مدخل

يتعلق الحديث عن نظرية التأويل تاريخياً بجهود (شلاير ماخر) وبجملته النقاد الذين أسهموا في إعطاء هذه النظرية أبعادها وصورتها الحالية، وما زالت الجهود مستمرة بهذا الصدد، غير أن حقيقة التأويل كممارسة تمتد لأبعد من ذلك، ولعلنا لا نجانب الصواب حين نقرن هذه الممارسة بظهور الحاجة لفهم النص الذي يستبطن تجاوزاً للدلالة الصريحة⁽¹⁾، ولعل الدافع الرئيس الذي حدا بـ (شلاير ماخر) - الرجل البروتستانتي المناهض للكنيسة الكاثوليكية - للاعتناء بالتأويل هو النص الديني المتمثل بالإنجيل ومحاولته لفهم هذا الكتاب⁽²⁾، غير أن الأمر اختلف مع محاولات النقاد الذين أدلوا بدلوهم وطرحوا مفاهيمهم التي تناولت الجوانب المتعددة من هذه النظرية.

تتعلق هذه النظرية بشكل رئيس من إشكالية الذات والموضوع كما هي نظرية التلقي التي تأثرت بنظرية التأويل وتأسست كثير من مفاهيمها على مقولات هذه النظرية، إن أية مقارنة لنظرية التأويل خارج إدراك حقيقة استقطاب هذه الإشكاليات - الذات / الموضوع - لا يمكنها أن تخرج بنتيجة في فهمها لمجمل مفاهيم وتحولات هذه القرابة⁽³⁾، وهذه الإشكالية التي وسمت جل الجوانب النظرية فيها، والتي نجدها حاضرة في اختلاف الآراء بين نقاد النظرية والمؤسسين لها، إذ نجد بعضاً منهم يسلب الذات فاعليتها أمام الموضوع، ونجد الآخر يسلب الموضوع فاعليته على حساب الذات، ويتوسط الآخر في موضع إيجاب الذات وإيجاب الموضوع، إن تلك الإشكالية تبرز في مجمل التصورات التي قادت لمقولات ومفاهيم هذه النظرية، كالتصور المتعلق بحقيقة التأويل وطبيعته وإجراءاته، والتصور المتعلق بالمؤول الذي يباشر تأويله للنص، والتصور المتعلق

(1) ينظر : إشكاليات القراءة والتأويل، نصر حامد أبو زيد، المركز الثقافي العربي، لبنان، ط/1، 1994 : 13 .

(2) ينظر : فهم الفهم - مدخل إلى الهرمنيوطيقا - نظرية التأويل من أفلاطون إلى جادامر، عادل مصطفى، دار النهضة العربية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط/1، 2003 : 156 .

(3) ينظر : التأويلية العربية - نحو نموذج تساندي في فهم النصوص والخطابات، محمد بازي، منشورات الدار العربية للعلوم - ناشرون، ومنشورات الاختلاف، الجزائر، ط / 1، 2010 : 281 .

بالنص المؤول⁽¹⁾ ولعلنا بهذا نكون قد استحضرننا منذ البدء علاقة الذات بالموضوع في ما سنتتبعه في الحديث عن نظرية التأويل وضرورة حضوره هذه القراءة في مجمل تصوراتنا التي ستقضي لتغطية الجانب النظري والتطبيقي منها .

لقد اختلفت المنطلقات التفصيلية لتناول هذه النظرية والتأسيس لها من قبل رواد هذه النظرية والمعنيين بتتبع التنظير لها ومناقشة مفاهيمها ، حيث نجد بعضاً منهم انطلق من ثلاثية (التأويل ، المؤول ، المؤول) ، والآخر انطلق من (ما قبل النص - أي المبدع - ، النص - أي لحظة الانتهاء من التأليف وقبل الشروع بالقراءة - ، وما بعد النص - أي التأويل الناتج عن القراءة -) ، وانطلق آخرون من النظر عبر ثنائية (النص ، المؤول) والكشف عن جانبي النص (البنية النصية ، الموضوع الجمالي) ، وهكذا تتعدد المنطلقات التفصيلية غير مهمة لعلاقة الذات بالموضوع⁽²⁾ .

ونود هنا استكشاف أهم المقولات التي أسهمت في رفق نظرية التأويل وأسست ما عليه هذه النظرية من طابعها الحالي ، دون الإيغال الذي لا يستوعبه هذا الفصل ، مكثفين بالإحالات التي سترد بين طياته ، والتي تعطي طابعاً تفصيلياً غن هذه النظرية ضمن الكتب والمصادر التي وردت فيها أصول النظرية ومقولاتها ، وسيتم لنا من خلال استكشافنا هذا ، إعطاء تصور عن النظرية تأسيساً وتصوراً ، وهو ما يمنحنا وضوحاً للرؤية أثناء الشروع بالتطبيق على النماذج المختارة من اشتغالات (الغدامي) بوصف تلك الاشتغالات نواتج تأويلية .

انطلق (شلاير ماخر) في تأسيسه للتأويل ، من الجانب المتعلق بتأويل الجانب المقدس (الإنجيل) ، ولهذا المنطلق أهمية في فهم مشروعه التأويلي ، إذ إن استحضار هذه الحقيقة يرفدنا بفهم الدوافع وأسس رؤيته للممارسة التأويلية ، والمتتبع لمقولاته يمكنه

(1) ينظر : آليات التأويل وتعددية القراءة ، بوجمعة بوبعيد ، إتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، ط/1 ، 2009 : 81 .

(2) ينظر : صاحب النص وناقده - إضاءات نقدية ، قاسم المومني ، فضاءات للنشر والتوزيع ، عمان ، الأردن .

ط/1 ، 2010 : 71 .

أن يفهم بصورة أوضح لو علم بأن (شلاير ماخر) لم يفرق بين النص الديني والنص البشري مدفوعاً بإيمانه العقائدي ، بأن الإنجيل هو نص كتبه البشر ، وبعبارة أخرى فإنه كان ينطلق من وإلى النص بهذه الكيفية ، مستحضراً في ذلك فهم المتعلق بهذا الإطار التصوري للنص ، وهنا لا بد لنا من الإشارة إلى فهم خصوصيات نص عن نص آخر وما يترتب على هذه الخصوصيات من أثر⁽¹⁾ ، وكان من أهم مقولاته هو تفريقه بين الفهم والتأويل ، إذ يرى أن التأويل ينحصر في البحث عن الدلالة الحرفية أو المجازية دون التعمق في الممارسة حتى الوصول لفهم علاقات النص ، وبعبارة أخرى فإن التأويل يقف عند هذا الحد ، في حين أن المطلوب هو فهم الخطاب في خصوصيته وهذا ما يتكفل به الفهم⁽²⁾ ، ومنه يمكن الاستنتاج بأن التأويل هو ممارسة من جملة الممارسات التي تقود إلى الفهم ، والأخير هو المتمكن من قدرة فهم النص بوصفه خطاباً خاصاً ، وخصوصية هذا الخطاب متأدية من كون النص في يمثل في حقيقته ممكناً من جملة إمكانات لغوية ، وفردة هذا الممكن متعلقة بمبدعه ، ولذلك فقد عني (شلاير ماخر) بتصويب اهتمامه بالمبدع⁽³⁾ ، ويرى كذلك أن الأولوية تكون لسوء الفهم ، بمعنى أننا معرضون بإزاء النص لسوء الفهم أكثر منه لفهمه بشكل صحيح ، وهو ما يبرز ضرورة التأويل كفعالية ملازمة تتحقق بإزاء النص⁽⁴⁾ .

ويوافق (دلثاي) (شلاير ماخر) في أن التأويل هو أحد عناصر الفهم ويولي أهمية للفهم بوصفه الفعالية التي يكتمل فيها محايدة المعنى المحمول في النص ، وكمحاوله لإعطاء صبغة منهجية يفرق بين التفسير والتأويل ، فيرى أن التفسير مختص بالعلوم

(1) ينظر : النص الغائب - تجليات التناص في الشعر العربي ، محمد عزام ، منشورات إتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، ط / 1 ، 2001 : 63 .

(2) ينظر : نظرية الأدب في القرن العشرين ، ك.م. نيوتن ، ترجمة : محمد العمري ، أفريقيا الشرق ، الدار البيضاء ، المغرب ، ج/ 1 ، ط/ 1 ، 1996 : 110 .

(3) ينظر : فهم الفهم - مدخل إلى الهرمينوطيقا : 67 .

(4) ينظر : الفلسفة والتأويل ، نبيهة قارة ، دار الطليعة للطباعة والنشر ، بيروت ، لبنان ، ط/ 1 ، 1998 : 44 .

الطبيعية يمكن من تفسير ظواهرها ، في حين يختص التأويل بالعلوم الإنسانية بوصفه أداة وممارسة متمكنة من موافقة الجوانب الفكرية ، ويذهب إلى عدم جواز ممارسة أحدهما في غير حيزه ، ومع (شلاير ماخر) و (دلثاي) يبدو أننا نشهد زخماً للقصدية ، إذ عني الاثنان بقصد المؤلف وأوليا عناية به ؛ كونه مبدع النص والذات القادرة على إضفاء معطياتها على طبيعة النص ، ويتغير المشهد مع (غادامير) الذي عارض تلك القصدية ، وذهب إلى أن المعنى يتحقق فهمه من خلال التفاعل بين النص والقارئ ، ذلك القارئ الذي لا يمكن فصله عن تأريخه الذي يعيشه بتفاصيله ويتأثر به ، ولذلك فإن المعنى المودع في النص لا ينتمي بالضرورة إلى الماضي الذي يجسده النص ، بل إلى تفاعل هذا الماضي (النص) والحاضر (القارئ المرهون بتاريخه)⁽¹⁾ ، ويرى أن هذا التفاعل يحد من إسقاطية الذات في الممارسة التأويلية إذ يحظى كل من النص والقارئ بفاعليتهما ضمن التأويل بوصفهما موضوعاً وذاتاً ، وهو ما يذكرنا بمفهوم (اندماج الآفاق) الذي تعرض له البحث في الفصل السابق ضمن مفهوم (أفق الانتظار) إذ تأثر (ياوس) بـ (غادامير) في مادته عن هذا المفهوم _ اندماج الآفاق _⁽²⁾ ، ويأخذ الأمر منحى آخر أكثر تفصيلاً مع (بول ريكور) إذ يعد الفاعلية التأويلية قائمة بوظيفة الوساطة بين الذات وذاتها⁽³⁾ ، وذلك أن النص وفهمه ليس غاية العملية التأويلية ، بل إن هذا الفهم يتموضع بين الذات وذاتها في علاقة تفاعلية ، أهم مشاهدتها ونواتجها فهم تلك الذات لذاتها من خلال فهم النص الذي يتحقق من خلال التأويل ومعه فإن هذا الفهم لا يتحقق

(1) ينظر : فلسفة التأويل ، هانس غورغ غادامير ، ترجمة : محمد شوقي زين ، منشورات الاختلاف ، الجزائر ، ط / 2 ، 2006 : 20 و 27 .

(2) ينظر : الحلقة النقدية _ الأدب و التاريخ والهرمنيوطيقا الفلسفية ، ديفد كونز هوي ، ترجمة خالدة حامد ، المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة ، ط / 1 ، 2005 : 214 .

(3) ينظر : حوار مع بول ريكور - أنتظر النهضة ، ترجمة : هشام صالح ، مج الفكر العربي المعاصرة ، ع : 62 - 63 ، 1989 : 45 .

اكتماله إلا بتأويل الذات وفهمها لذاتها⁽¹⁾ ، يتضح من ذلك أن (بول ريكور) يرى وجود علاقة تفاعلية وتبادلية بين فهم النص وفهم الذات لذاتها تتحقق من خلال الفهم المشترك والمتداخل بين النص والذات ، ولذلك فإنه لا يمنح أهمية للقراءات التي تتوقف عند البنية النصية ؛ لأنها لا تمكن من فهم النص ، إذ يتوجب على القراءة أن تتجاوز البنية النصية إلى الذات والتي تتحقق بعملية التأويل فقط كما إنه يقر بأن النص هو النقطة البادئة التي ينطلق منها فعل التأويل لا الذات المؤولة ف((التأويل هو فعل النص قبل أن يكون فعلاً لمفسر النص))⁽²⁾ ، ولعله - (بول ريكور) - ينطلق من ذلك ضمن توافقية في الرؤية مع (أرسطو) الذي يرى أن ((التأويل هو الخطاب بالذات))⁽³⁾ ، وكسبيل لموضوعية التأويل ومنهجيته لدى (بول ريكور) فإنه يدفع باتجاه إعطاء الرموز جانباً مهماً في التأويل ويسبغ عليها وظيفة إجرائية تمنح التأويل ارتجاعاً نحو النص ، إذ إن الرموز تتشابك داخل النص وتتبادل علاقات متداخلة تفسر بعضها بعضاً⁽⁴⁾ وهو ما يمنع من تطرف الذات بإزاء النص خلال العملية التأويلية ، وعليه فإن مفهوم التأويل وعلاقته بالتفسير ، والذي سبق أن تناوله (شلاير ماخر) و (دلثاي) يكتسب نوعاً آخر من العلاقة عنده ، فهو يرى أن ليس هناك تناقض حاد بينهما ولعل السبب برأيه يعود لولوج التفسير حيز العلوم الإنسانية ونطاق التفكير والفضاء الأدبي من خلال انطلاقة الحديث من الاشتغالات الألسنية⁽⁵⁾ ، وهو ما يرى معه ضرورة الارتكاز على التفسير بوصفه فعالية جزئية وسابقة على التأويل ، وهو ما يتحقق فعلاً من خلال الاشتغالات البنيوية ،

(1) ينظر : هرمنيوطيقا الفن عن غادامير (رسالة ماجستير) ، هشام معافة ، جامعة الحاج خضر - باتنة ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية - فرع الفلسفة ، الجزائر : 43 .

(2) من فلسفات التأويل إلى نظريات القراءة : 53 .

(3) المكان نفسه .

(4) ينظر : بعد طول تأمل ، بول ريكور ، ترجمة : فؤاد مليت ، منشورات الاختلاف ، المركز الثقافي العربي ، الدار العربية للعلوم ، بيروت ، ط / 1 ، 2006 : 271 .

(5) مهمة الهرمنيوطيقا ، بول ريكور ، ترجمة : خالدة حامد ، مج نوافذ ، النادي الأدبي بجدة ، ع : 22 : 38 .

على أنه لا يمكن الاكتفاء بها والوقوف عندها كما تفعل البنيوية بل يرى وجوب لحوق التأويل بالتفسير لإعطاء النص دلالة معينة⁽¹⁾ ، وهو - التأويل - المستند للتفسير الذي يمنح الذات فهماً لذاتها كما أن هذا الفهم مكتسب لسمة الموضوعية من خلال منهجية التفسير المرتكز على البنية النصية .

في حين انشغل (إمبرتو إيكو) في إشكالية التأويل والتأويل المفرط ، فمع حرية التأويل والأفق المفتوح تماماً أمام المؤول، والذي تبنته مناهج نقدية كالتفكيكية بدا أن (إيكو) معارض فيما صدر عنه مؤخراً لتلك الحرية المنفلتة⁽²⁾ ، وقد وسمت جل اشتغالاته ضمن هذه الإشكالية بين التأويلين ، وانطلق منها لإعطاء مفهوم عن التأويل الذي يتبناه ضمن تصورات فمع سمة الانفتاح الذي يتسم به النص وظف (إيكو) تصورات لموانع تحد من الانفلات التأويلي ، وتبنى عدة مفاهيم لتحقيق الموازنة بين الانفتاح الدلالي والانفلات التأويلي سبيلاً لمنع حدوث الأخير وإعطاء سمة المقبولية للتأويلات التي قد تقابل النص الواحد ، ويقر منذ البدء بأنه لو لم يكن ممكناً القول عن قراءة ما بأنها خاطئة فإنه يمكن على الأقل تشخيص التأويل المفرط⁽³⁾ ، ولعل أهم تلك المفاهيم هو (حقل الإيحاء) الذي يرى (إيكو) بأنه محدد نصي ممنوح من البنية النصية أولاً ، فحتى مع تعدد القراءة والقراءات إلا إنها لا يمكن أن تتجاوز حدود البنية النصية التي تمنح مقترحات محددة تنشط الجانب الإيحائي المتحضر داخل القارئ بفعل النص دوماً⁽⁴⁾ ، وهو ما يحدد بالضبط حقل الاختيارات التي ترسم حركية القارئ وتمشهد

(1) ينظر : بعد طول تأمل : 275 .

(2) ينظر : مفهوم النص والتأويل عند إمبرتو إيكو - آليات التعضيد النصي ، رواية صحراء لجون ماري ، غوستان لوكليزيو إنموذجاً ، وحيد بن بوعزيز (أطروحة دكتوراه) ، جامعة الجزائر : 136 - 137 .

(3) ينظر : استعمال النصوص وحدود التأويل - في نقد الممارسة التأويلية عند إمبرتو إيكو ، د. عبد الغني بارة ، مج : مخبر وحدة التكوين والبحث في نظريات القراءة ومناهجها ، جامعة بسكرة : 171 - 179 .

(4) ينظر : التأويل بين السيميائيات والتفكيكية ، إمبرتو إيكو ، ترجمة وتقديم : سعيد بنكراد ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، بيروت ، ط / 1 ، 2000 : 121 .

ملاحح الفعل التأويلي ، إن ذلك الحقل من الاختيارات يحدده النص بوساطة التنظيم المكثف له ، وبعبارة أخرى فإن النص يكتف من خلال المستوى التركيبي وطوعية المنح الاستبدالي إحياءات معينة تخدم ترابطية الدلالات الممنوحة كناتج لتلك الإحياءات ، أي أن هناك منحى تركيبياً للنص يكتف ويركز إحياءات معينة تتربط في ما بينها ، والتكثف والترابط في علاقة تفاعلية وتواصلية تنسم بالمنح والإيجاب ، وهو ما يقودنا للمفهوم الثاني الذي طرحه (إيكو) إذ إن ما تقدم يشير إلى (كلية النص) فمع ترابط الإحياءات وكونها ممنوحة من التكثف والمضاعفة النصية نكون بإزاء القول بكلية النص ، بمعنى أننا لا يمكن أن نتعاطى النص مكتفين بجزء منه إذ تفقد الدلالة بوصفها التكاملي جزءاً كبيراً داخل الفهم فنكون ضمن فهم جزئي للنص⁽¹⁾ ، إن هذا الفهم لن يكون سوى جزء من المنح النصي ، على أنه لا يكتسب محايثة حتى لحدود الإحياءات الممنوحة منه ؛ لأن أجزاء النص تتربط على المستوى التركيبي وحسب بل على مستوى تحديد دلالة كل جزء من هذه الأجزاء ، ومعه يمكن تصور تأويل النص وفهمه في حدود الحصر بمفهوم (كلية النص) وهي ما تعد ضابطاً من ضوابط منع إفراط التأويل .

على أن مفاهيم أخرى طرحها (إيكو) قد لا تمثل الأهمية التي يراها البحث في المفهومين اللذين طرحناهما آنفاً ، فقد وجه لهما النقد الذي أجهض خصائصها الإجرائية وقبض من مصداقيتها المفاهيمية بكونها مفاهيم تنهض بالاستدلال والاستعانة بها بوصفها مكتسبة للتصور النقدي والموضوعي والمنهجي ، كقصد النص الذي يرى (إيكو) إنه مرتبط بمفهوم كلية النص ، وهو ما لا يسعف أطراً منهجية في استقصاء حدود التأويل والتأويل المفرط ؛ لأنه وكما ثبت في المناهج النقدية الحديثة لا يمكن الإمساك بقصد النص ، لا أقل من كونه يمثل مقارنة لحقيقة النص وإن في جملة من جوانبها ، غير أن ما يمكن الإشارة إليه ضمن هذا المفهوم - قصد النص - هي المعايير التي دعم بها (إيكو) هذا المفهوم ، كالنسق الذي عني به العناصر النصية وعلاقتها الدلالية ، والمدار

(1) ينظر : م . ن : 75 - 79 .

الذي يكتسب أهميته من قصد الخطاب أو مناسبته ، كما يمكن أن تفهم من النص الأدبي دلالة عامة مستبقة في العنونة أو في النص من خلال أجزائه الأخرى⁽¹⁾ ، وبعبارة أخرى موضوع النص العام ، وأيضاً التشاكل الدلالي الذي طرحه (إيكو) كمعيار من المعايير الداعمة لقصد النص ، إذ إن الدلالات الممنوحة من معطيات النص لا بد أن تتشاكل لنتتج القراءة بوصفها فعالية تأويلية ، ومعيار المعنى الحرفي هو المعيار الأخير الذي يدعم قصد النص ، إذ يرى (إيكو) ضرورة حضور المعنى الحرفي لدى المؤول قبل شروعه بالتأويل ، إنه لا يمكن أن تنطلق الذات القارئة والمؤولة خارج إدراك المعنى الحرفي للكلمات والجمل والتراكيب وصولاً للنص في عموميته⁽²⁾ ، إن حرية المؤول تنبعث بعد الحرفية التي تكلمنا عليها لا قبلها ، وبكيفية ما فإنه لا يمكن تحميل دلالات معينة مختلفة ومتناقضة مع المعنى الحرفي بشكل يمثل علاقة قطيعة تامة ، فحتى مع الانزياحات فإن تلك الانزياحات لا تنقطع لا وتنبت صلتها بالدلالة الأصلية إذ تغدو مع تلك القطيعة غير دالة إطلاقاً .

ومن المفاهيم التي طرحها (إيكو) والتي لا تكتسب أهمية المفهومين الأولين هو مفهوم (الجماعة والعادة) لأنه مفهوم يؤسس لسلطة المؤسسة الثقافية والنقدية التي غالباً ما يجنح الإبداع لمخالفة ومناهضة معاييرها وقوانينها الأدبية ، وهو ما نشهده في تطور ونشوء الأنواع الأدبية ، فكيف يمكن الركون لسلطة هذا المفهوم كمانع من موانع الانفلات التأويلي ؟! مع كل ما نشهده من الإبداعية حين تخرج عن سياقات مثل هذه السلطة وتؤسس قوانين جديدة للأدبية والتعاطي مع الأدب ، وكذلك الحال مع مفهوم (معيار الاقتصاد) إذ يفترض (إيكو) التعامل مع تأويل النص بأدنى جهد تأويلي ممكن والاقتصار على الجد الأدنى من التعاطي التأويلي في حدود ما تمنحه الإمكانيات الإيحائية للنص ، وهو ما لا نجد له مبرراً موضوعياً سوى رغبة (إيكو) في الحد من

(1) ينظر : السيموزيس والقراءة والتأويل ، سعيد بنكراد ، مج : علامات ، ع : 10 ، 1988 : 50 .

(2) ينظر : الحلقة النقدية - الأدب والتاريخ والهرمنيوطيقا الفلسفية : 201 .

التأويل المفرط على حساب المنح في مستوى الدلالة خصوصاً مع الانفتاح النصي وما يستتبعه من ضرورة تكثيف الجهد التأويلي وإعطاء المؤول حرية تتناغم مع الحدود القصوى لهذا الانفتاح الدلالي الذي يمنحه النص ، ويمكننا إعطاء تصور آخر يقتضي حرية تأويلية محايدة للانفتاح الدلالي للنص مع التقيد بحقل الإيحاء وكلية النص كضابطين للحد من تطرف التأويل وإسقاطية الذات التي تخرج عن الحدود النصية ، وهو ما يسبغ طابعاً موضوعياً ومنهجياً على الفعالية التأويلية مع الاحتفاظ بحرية محايدة للانفتاح الدلالي النصي .

ومع ظاهرية (هوسرل) يأخذ التأويل منحى مختلفاً برده للموضوع إلى كينونته الأصلية ، في ما عرف (هوسرل) بمفهوم (الرد الماهوي) أو عملية (الاختزال) التي تقتضي إزالة العوالق التي تعلق بالنص خلال مسيرة تلقيه وتأويله تاريخياً⁽¹⁾ وبعبارة أخرى اقتضاء تعلق التأويل بالصيرورة لا السيرورة ، ويمكن أن نفهم من خلال التأويل المنطلق والمرتكز على مفهوم عملية الاختزال تلك مقاربة للمعنى الحرفي أو الدلالة المعجمية أحياناً ، وأحياناً أخرى تعلقه بمفهوم دلالة سياق الموقف ، ومع أن مفهوم الاختزال الذي جاء به (هوسرل) على جانب ايجابي في عملية التأويل يتمثل في تجسد الموضوع ضمن إدراك الذات دونما يتعلق به خارج موضوعه وكون القارئ خلال تعاطيه وتلقيه للنص يكون مجابهاً بالنص فقط⁽²⁾ ، إلا إنه ثمة جانب سلبي ضمن إجرائية هذا المفهوم - عملية الاختزال - إذ يفقد القارئ الذي يباشر تأويل النص كثيراً من النواتج الدلالية التي تتجسد في القراءات السابقة خلال تاريخ تلقي النص كما أنه يحد من فاعلية التناص بكافة أشكاله ومستوياته ، ومع كل ما يمكن توجيهه من انتقادات لمفهوم عملية الاختزال إلا إنه أثار نقطة على جانب من الأهمية لما تتسم به رؤية (هوسرل) التي

(1) ينظر : صوت الأعماق - قراءات ودراسات في الفلسفة والنفس ، د. عادل مصطفى ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ط / 1 : 372 .

(2) ينظر : المنعرج الهرمنيوطيقي للفينومينولوجيا ، جان غردان ، ترجمة وتقديم : د. عمر مهيل ، منشورات الاختلاف ، الجزائر ، ط / 1 ، 2007 : 43-45 .

تركزت ضمن هذا المفهوم في جانب إجرائي مهم خرج عن نطاق التنظير الفلسفي نحو إمكانية التعاطي مع مفهوم التأويل في جانبه التطبيقي على النصوص الأدبية .
ولعل (هايدجر) كان أيضاً على جانب مهم في رؤيته التي تقارب إمكانية تطبيق الجانب النظري للتأويل أكثر منه للتنظير الفلسفي خارج إمكانية التطبيق ، ويثبت ذلك إقصاؤه لمفهوم الذات المتعالية مستبدلاً بها مفهوم (الدزائن) بديلاً إمكانيةً يداخل النص ويتفاعل معه واقعا لا افتراضاً فحسب ، جاء ذلك مطابقاً لفصله الفلسفي بين الوجود والموجود وهو ما ذهب به إلى أن الوجود هو ليس ما ندركه فقط بل هو ما لا ندركه أيضاً ، إذ تثبت اكتشافاتنا المتلاحقة دوماً إشكالية فلسفية لمفهوم العدم ، إن ما ندركه راهناً هو الموجود فحسب وهو جزء من الوجود ، وهذا ما يشي بمحاولات (هايدجر) تأسيسه لمفاهيم إمكانية قابلية التطبيق الواقعي⁽¹⁾ ، على أن تلك المحاولات لم تلحق بما يلزم من مفاهيم تفصيلية يمكنها أن تتعاطى مع الذات والموضوع في علاقة توافقية ، إذ سرعان ما يسلب (هايدجر) الذات فاعليتها ويركز تلك الفاعلية في الكشف بحدود الموضوع ، إذ يذهب إلى إعطاء اللغة الدور الرئيس في تلميح العالم في حين ينحصر دور المتلقي على تلقف ما يمكن من إشارات تمنحها وتبرزها اللغة⁽²⁾ ، وهنا نجد أن الذات المتلقية لا تقوم بأية فعالية كشفية بإزاء النص بل تكتفي بدور المراقب لما تكشفه اللغة أو النص لها ، إن (هايدجر) حتى مع محاولته لإقصاء الذات المتعالية يقف في توصيف فعال للغة ، إذ ما دامت اللغة هي أبرز ما يمكن أن يكشف عن العالم ، فهي إذن ذات طبيعة ليست ببعيدة عن التوصيف المتعالي ، إذ تبقى اللغة مطبوعة بطابع الاجتماعية والثقافية وهي بذلك تتناقض في وظيفتها ضمن توصيف (هايدجر) إذ تبقى

(1) ينظر : نصيات بين الهرمنيوطيقا والتفكيكية ، ج . هيو سلفرمان ، ترجمة : حسن ناظم وعلي حاكم صالح ، المركز الثقافي العربي ، بيروت ، ط / 1 ، 2001 : 37 - 38 .

(2) ينظر : الهرمنيوطيقا المصطلح والمفهوم ، منى طلبة ، مج : أوراق فلسفية ، ع : 10 ، الشبكة العنكبوتية : <http://forum.qawem.org/t.htm2-73289> ، بتاريخ 2011/11/18 .

كاشفة لحدود الموجود ضمن اطر الثقافة والمجتمع الذي تنتمي إليه وبذلك تكون محدودة ومقيدة عن التوصيف الذي يمكن ملاحظته من وظيفتها عند (هايدجر) .

إن التمييز بين جانبيين مهمين في النص وهما البنية النصية والموضوع الجمالي ، الذي جاء به (إنغاردن) كان نقطة مفصلية في فهم النص ، وموضوعة جديدة لدور كل من الذات والموضوع أو المؤول والنص في عملية التأويل ، إذ إن لكل من البنية النصية والموضوع الجمالي طابعه وخصوصيته في إبراز التأويل ضمن أطر معينة وصورة نهائية كنتاج الفعل التأويلي⁽¹⁾ ، فالنص عنده - إنغاردن - يحمل طابع الاستمرارية الناتج عن الفواصل التي تفصل فقرات النص ، تلك الفواصل التي اكتشف من خلالها مفهومه عن (الفجوات) ودورها في تأويل النص ، إذ تمثل هذه الفجوات نقاط فقرات يمكن للمؤول ملؤها بما يتناسب مع معطيات البنية النصية⁽²⁾ ، ويمكننا أن نفهم من ذلك أن ما يمنح النص صفة الاستمرارية هو الفعل التأويلي الذي تقوم به الذات القارئة ، والبنية النصية تمنح التأويل موضوعيته ؛ لأنها تبقى ثابتة لا يطرأ عليها تغيير في أية عملية تأويل وقراءة ويمكن الوثوق بالركون إليها لما تتسم به من طابع الثبات كمحدد رئيس من محددات التأويل ، ومن هذه البنية يمكن أن تنطلق فعاليات التفسير والتأويل والفهم ، ويبقى الموضوع الجمالي مرتهاً بفاعلية الذات المؤولة ومشروطاً ومحدداً بالبنية النصية للنص⁽³⁾ ، كما أنه وكما شهدنا عند (إيكو) عنايته بالكشف المضاعف لإحياءات النص فإن (إنغاردن) يعطي أهمية لمفهوم (التراكم) في عملية التأويل والكشف عن الموضوع الجمالي ، فالبنية النصية تفترض شكلاً معيناً من التراكم التركيبي الذي يمنح أبعاداً إيحائية يخلق منها المؤول الموضوع الجمالي من خلال قراءته وتأويله للنص ، إذ

(1) ينظر : نظرية التوصيل وقراءة النص الأدبي ، عبد الناصر حسن محمد ، المكتب المصري للتوزيع ، القاهرة ، 1999 : 81 .

(2) ينظر : الأصول المعرفية لنظرية التلقي : 90 وما بعدها .

(3) ينظر : علم لغة النص - المفاهيم والاتجاهات - د. سعيد حسن البحيري ، الشركة المصرية العالمية للنشر ، مكتبة لونغمان ، القاهرة ، ط / 1 ، 1997 : 123 .

يكتسب التأويل عند (إنغاردن) جانباً موضوعياً معتداً به من خلال ارتكازه على البنية النصية ودورها في ترسيم خطاطات تحدد للمؤول مساره إلى حد ما ، كما هو الحال في تحديد هذه البنية لتراكمات معينة تختلف من نص إلى آخر لتختلف معها الموضوعات الجمالية ، ونلاحظ أيضاً طابعاً منهجياً (إنغاردن) لتحديده لفعاليات القراءة في⁽¹⁾ .

1. بناء الموضوع الجمالي .

2. تقويم هذا الموضوع الناتج .

3. تقويم النص بعد إفراز الموضوع الجمالي .

كما يحدد نوعين من النشاطات العقلية التي تجابه النص ، وهما⁽²⁾ :

1. النشاطات البدئية ، وتختص بالتعرف على البنية النصية التي تمكن من التعرف

على منطلقات الموضوع الجمالي .

2. النشاطات التأويلية التي تتبع النشاطات البدئية وتستهدف معرفة الموضوع الجمالي

.

ويكون الموضوع الجمالي ناتجاً عن كلا الموضوعين من النشاطات وحصيلة للتأويل الذي يضمهما معاً ، وهو ما يشابه التفسير والتأويل الذي جاء به (بول ريكور) ، إذ يذهب على وفق ذلك (إنغاردن) إلى أن تحقيق التأويل يتم عبر تحقيق بنية النص المعتمدة على التحليل كإجراء وفعالية موضوعية تكشف للمؤول مناطق اللاتحديد ، وتحقيق الموضوع الجمالي عبر فعالية التأويل في نواتج ذلك التحليل والتفاعل مع إحياءات النص ومستوياته عبر علاقاته المتحققة من تلك البنية⁽³⁾ ، ومما تقدم نرى بأن (إنغاردن) وفق بين الذات والموضوع ، المؤول والنص ، في فعالية التأويل ، إذ لم يسلب أحدهما دوره في إنتاج المعنى والموضوع الجمالي مع وجود انتقاد مفاده : أن تلك البنية

(1) ينظر : من فلسفات التأويل إلى نظريات القراءة : 119 .

(2) ينظر : المكان نفسه .

(3) ينظر : من فلسفات التأويل إلى نظريات القراءة : 118 - 129 .

النصية في حدود أماكن اللاتحديد والتراكم هي محددة بنشاط القارئ أيضاً ، إذ تختلف من قارئ إلى آخر (1) .

إن أهمية التمييز بين البنية النصية والموضوع الجمالي أعطى الرؤية النقدية تجاه النص ، بوصفه موضوعاً مدركاً ، وضوحاً مكنها من التعاطي مع مفهوم التأويل بشكل أدق من خلال التوافر على علاقات تبين دور الذات والموضوع ، القارئ أو المؤول والنص ، وهو ما نشهده عند (جان بول سارتر) ، فمع أنه يرى أن الذات محددة الوظيفة في كونها تكشف عن جوانب الموضوع الجمالي وتنتج هذا الموضوع من خلال الكشف لا أنها تخلقه ، إذ الخلق محدد فقط في فعالية إبداع النص عند مؤلفه فقط (2) ، إلا إنه يرى أن الكتابة تفترض منطقياً قارئاً معيناً حتى وإن كان مؤلف النص كتبه بدون قصد استهداف قارئ معين أو جمهور ما محدد فإن فعل الكتابة لذاته يفترض هذا القارئ وهو ما يقودنا لفهم أن بنية النص تتوافر على تقنيات تحدد مسار التلقي والتأويل ، وهو مرتين بنوعين من الفعاليات العقلية بحسب (سارتر) ، فعاليات الإدراك التي توصف بالسلبية وتستهدف البنية النصية مع الإقرار بأن هذه الفعاليات تركز ولو بشكل محدود جداً للمسبقات الذهنية التي كونت الذات ، وفعالية التخيل الإيجابية التي تستهدف الموضوع الجمالي وتركز بشكل رئيس وفاعل للمسبقات الذهنية (3) ، وموضوعية التأويل هنا مرهونة فضلاً عما تقدم بمفهوم التدرج الذي يرى من خلاله (سارتر) إن قارئاً ما يغير من تخيلاته الناتجة عن النوع الثاني من الفعاليات بناءً على المعطيات الممنوحة من البنية النصية ، وبمعنى آخر فإن القراءة لا تحدث دفعة واحدة بل بشكل تدريجي ، وخلال مراحل القراءة يعاود القارئ تصوراتهِ ويعدل ويحذف ويعزز بحسب معطيات البنية النصية ، وهو ما يمنح التأويل صفة الموضوعية والابتعاد عن الإسقاطات الذاتية (4) .

(1) ينظر : نظرية الأدب ، تيري ايغلتن : 148 .

(2) ينظر : من فلسفات التأويل إلى نظريات القراءة : 129 .

(3) ينظر : من فلسفات التأويل إلى نظريات القراءة : : 132 .

(4) ينظر : م . ن : 136 .

إن ما قدمناه آنفاً من التعريف بأهم ما جاء من آراء عن النقاد ، رواد ومنظري نظرية التأويل يوفر لنا صورة عن نشوء وتطور هذه النظرية ، ويوضح ما سيأتي من مفاهيم ضمن مباحث هذا الفصل و يعطي تصوراً عن تكامل إجراءات النظرية التي سنقدم مادتها لاحقاً لنعقبها بالجانب التطبيقي مبتعدين عن التصورات التي تم انتقادها بشكل يسلبها موضوعيتها ويعطل من فعاليتها الإجرائية الموضوعية ، موفقين في ذلك بين التصورات ، التي تكسب طابع الموضوعية المانحة للاعتداد بها ضمن اشتراطات الاشتغال النقدي .

في الحديث عن البنية النصية يتعمق التساؤل عن الإمكانيات التي يمكن أن تتوفر عليها في تحديد مسار التأويل وتنميط فعاليات القارئ خلا فعل القراءة المحكوم بالتأويل ، ونحن إذ نُقدم بالحديث عن البنية النصية نعني بها أجزاء التشكل النصي وصورته البارزة أمام القارئ والتي تستعرضها الآلة الناطقة في النص المسموع والآلة الباصرة في النص المكتوب⁽¹⁾ ، وهي بذلك سابقة على الدلالة الممنوحة أثناء وبعد الممارسة والتأويل وفعل القراءة ، إنها الوجود المحسوس للنص ، والتشكل الثابت الذي لا يطرأ عليه التغيير مطلقاً لا في شكله و مظهره الذي خرج به لأول مرة بعد الكتابة أو التأليف ولا في علاقاته التركيبية الممنوحة من مستوى الارتباط بالقاعدة النحوية في لغة النص ، وهي الجانب النصي الذي يبقى خارج لعبة التحوير والتغيير التي يقوم بها القارئ ، إنها الجانب الممتنع عن أية محاولة جديدة للتلميح وإعادة الصياغة من القارئ بل والكاتب أيضاً⁽²⁾ .

وهي بذلك تكتسب ولسبب من صفة الثبات جانباً مهماً من الموضوعية ، إذ الركون إليها يتيح إمكان الانطلاق من محدد يمنع الانزلاق في تهويمات تأويلية ذاتية بعيدة عن النص ، ويعطي المؤول فعلاً ارتجاعياً لمحدد نصي لا يتغير مع مراحل القراءة والتأويل ولا تداخله إسقاطات الذات المتأثرة والمنفعلة أثناء القراءة بالتخيل ، وتبقى البنية النصية ممثلة لحيز ثابت يعاوده المؤول خلال مراحل إنجازها لقراءة النص ويقارب نواتجه التأويلية و يعرضها على هذه البنية للنظر في مدى موافقتها واختلافها معها ، وبمعنى آخر فإن هذه البنية هي العوامل الداخلية في النص ضمن فهمها لعلاقة التواصل المفترضة بين النص و قارئه ووظيفة النص التواصلية التي تقابل العوامل الخارجية⁽³⁾ .

(1) ينظر: الشفاهية والكتابية : 126 ، وينظر: النص والتأويل ، بول ريكور ، ترجمة منصف عبد الحق ، مجلة العرب والفكر العالمي ، مركز النماء القومي ، بيروت ، ع : 3 ، صيف 1988 : 37 .

(2) ينظر: القراءة بين خصوصية النص وإجراءات المنهج البنيوي _ العراق أنموذجا (رسالة ماجستير) ، سراج محمد يعقوب ، كلية التربية ، جامعة البصرة ، العراق : 84 - 91 .

(3) ينظر: بنية النص الكبرى ، د. صبحي الطعان ، مجلة عالم الفكر ، المجلد 23 ، العددان 1 و 2 ، يوليو سبتمبر / أكتوبر - ديسمبر ، 1994 : 431 - 435 .

إن فعل التأويل وإن بقي خارج هذه البنية إلا أنه منطلق ومرتكز إليها في تأسيس الموضوع الجمالي ؛ لأن مقاربتنا لمفهوم كالاتراتيجيات النصية يعطينا تصوراً عن تأثير هذه الاستراتيجيات ومن ثمَّ البنية النصية في تحديد مسار التأويل⁽¹⁾ ، فالنص له استراتيجياته الخاصة في عرض مادته على المؤول ، وخارج هذه الاستراتيجيات لا يمكن أن يشكل النص ؛ لأن المعطى الذي يواجهه المؤول عند ذاك سيكون غير موصوف بالتشكل المفترض بالنص ، إنه أشبه بالتشكل الهندسي الذي لا يجاوز آلية الأشكال الهندسية الرتيبة إلى ما وراء هذه الأشكال من متبنيات ورؤى وإمكانات لاستشراف الدلالات التي يمكن منحها لما قد يظن لأول وهلة مجرد استعمال رتيب للخطوط وتقاطعات الرسومات إذ تبقى آليات إنتاج تلك الدلالات محددة بالتشكل الثابت الذي لا يمكن إعطاء أكثر من تصور بخصوصه⁽²⁾ ، وعبر فهم الآلية التي يعرض النص بها نفسه أمام قارئه تتوافر الاستراتيجيات النصية على هذه الوظيفة بما تؤسسه من البيضات النصية التي تستوقف إدراك القارئ عن طبيعة نفوذها الدلالي داخل النص ، والتقطيع وتحديد فواصل النص التي تحدد أجزائه ، إذ يستدعي ذلك تجزئة مرحلية في القراءة بما تفرضه من معاودة الأجزاء الأخرى التي تمت قراءتها لتأكيد مشاكلها التنافسية⁽³⁾ ، فنحن كقراء نباشر فعالية التأويل ، نتوقف بعد كل فاصلة نصية لنعيد تشكيل تصورنا مما يؤثر في استقبال وتأويل المعطيات اللاحقة التي سيعرضها النص بعد الفاصلة التي توقفنا عندها ، وهي - الاستراتيجيات النصية - تحدد إلى حد بعيد الخصوصية بين نص وآخر بدءاً من تجنيس النص بجنس أدبي معين وانتهاءً بما تنثيره من الاستيقافات والإحالات

(1) ينظر: البنيات اللسانية في الشعر ، صموئيل ليفن ، ترجمة محمد الولي وخالد التوزاني ، منشورات الحوار الأكاديمي ، الدار البيضاء ، 1989 : 39 - 40 .

(2) ينظر: علم النص ، جوليا كرسيفيا ، ترجمة فريد الزاهي ، دار توبقال للنشر ، الدار البيضاء ، 1991 : 80 .

(3) ينظر: عتبات - جيرارد جينيت من النص إلى المتناص ، عبد الحق بلعابد ، الدار العربية للعلوم ومنشورات الاختلاف ، بيروت - الجزائر ، 2008 : 67 وما بعدها .

التي قد يشهدها النص عبر تقنية الاستباق أو الاسترجاع السردية في النص⁽¹⁾ ، حيث قد يحيلنا الاسترجاع إلى حدث خارج البنية النصية كما لو استرجع حدثاً تاريخياً بالاكتمال بالإشارة إليه فحسب عبر رمزيته أو عنوانه فحسب ليكون القارئ أمام مهمة حثه واستحضاره في ذاكرته التي هي خارج بنية النص الذي يقرأه⁽²⁾ ، أو لنكون على موعد مع الاستباق في النص مما قد يحدد احتمالات نهايات النص أو يسهم في رسم سيناريو الحدث اللاحق الذي لم تتم قراءته حتى اللحظة الراهنة .

وإذا كان ((كل نص يحتوي على عالمين ، تخيل وواقع))⁽³⁾ فإن عالم الواقع تجسده التراكيب والصياغات التي تقتصر على الدلالة الصريحة أو المعنى الحرفي ، وهذا الاختصار في الوظيفة الدلالية تحدده بشكل رئيس البنية النصية ، مثلما تحدد بشكل رئيس أيضاً عالم التخيل بانفتاح الصياغات والتراكيب الأخرى فيه على العناصر التخيلية التي تدفع القارئ لفعالية تأويله لإعطاء عدة مقترحات لدلالات ضمنية وترشيح الدلالة النهائية من تشاكل مجموع هذه الدلالات ، وهو ما يدفع للقول أن ((القراءة منكتبة في النص ذاته))⁽⁴⁾ ؛ لأنها والحال هذه مستمدة - القراءة - عن طريق عرض النص لموضوعه عبر بنيته النصية ، بما تشتمل عليه من مستويات النص واستراتيجياته وآفاقه انفتاحاً أو انغلاقاً ، حتى يغدو معها الموضوع الجمالي في ما يتعلق منه بالنص ممنوح من تلك البنية النصية ، على أن تلك البنية تقوم أيضاً في ما يتعلق بالعالم الواقعي التخيلي بوظيفة ((تحويل موجودات الفضاء الواقعي إلى الفضاء النصي المتخيل))⁽⁵⁾ وهي بذلك

(1) ينظر: مدخل إلى نظرية القصة ، جميل شاكر ، سمير المرزوقي ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، 1996 : 76 .

(2) ينظر: مستويات دراسة النص الروائي ، عبد العالي بوطيب ، مطبعة الأمنية ، دمشق ، ط1 ، 1999 : 153 - 154 .

(3) نظريات القراءة وتلقي النص الأدبي ، حسين خمري ، مجلة العلوم الإنسانية ، العدد 12 ، الجزائر ، 1999 : 175 .

(4) نظريات القراءة وتلقي النص الأدبي : 182 .

(5) تاريخ التاريخية الجديدة وإشكالية العلاقة مع اليسار الجديد ، د.معن الطائي ، مجلة الأقلام ، العدد 2 ، نيسان - حزيران ، السنة الرابعة والأربعون ، 2009 : 20 .

تدمج بين أفق الواقع متمثلاً بمعطيات الحياة اليومية وأفق التخيل متمثلاً بالنص كعالم مغاير في طبيعته للواقع⁽¹⁾، والبنية النصية بهذه الإمكانية الوظيفية تعطي إمكانات تجسد وتمثل وتصور الإيماءات عبر فعالية التخيل والتصور التي يقوم بها القارئ من خلال قابلية تشاكل المعطيات الواقعية مع المعطيات التخيلية ضمن فضاء النص في علاقة ترابطية وتفاعلية⁽²⁾، وإذا كان جنس أدبي مثل ((الشعر لا يشرح أكثر مما يعيش باعتباره تجربة شخصية))⁽³⁾ فإن إمكانية تحقيق هذه المعاشية تبرز في جانب مهم من جوانبها من خلال تداخل واندماج فضائي الواقع والخيال الذي تحققه البنية النصية في جانب مهم متعلق بالمنح البدئي والإمكان التتابعي في النص، بمعنى أن البنية النصية هي من تولى منذ البدء إيجاد هذه الإمكانية وهي من تبني الامتدادات النصية التي تتكاثر على طول امتداد بنية النص لتجعل من الأمر ممكناً بعد كل مرحلة أو جزء من أجزاء النص، حتى تتابع الفعالية التأويلية مع أجزاء النص واجدة إمكانات تداخل هذين الفضائيين في النص الذي يمنح ما يتوجب من الامتداد لهذه الإمكانية بشكل متوازٍ مع امتداد الفعالية التأويلية التي يباشرها القارئ⁽⁴⁾، والأمر لا يقتصر على الشعر فقط بل يتعداه إلى عموم الأعمال الأدبية المشتملة على مثل هذه العلاقة التداخلية بين العالمين . وتستأثر (الفجوات النصية) بجانب مهم من تأسيس القيمة الجمالية والدلالية لما تقدمه من وظيفة تحفيزية للمؤول باتجاه تقديم الإجابات المحتملة عن التساؤلات التي تطرحها بشكل دائم وديناميكي لتغذي منطقة الغياب وتستحضر ما وراء البنية النصية عبر فعالية التأويل، و تمثل صورة من صور الإمساك بذاكرة النص التي مارست البنية

(1) ينظر: مدخل في نظرية النقد الثقافي المقارن، حفناوي بعلي، الدار العربية للعلوم - ناشرون، منشورات الاختلاف الجزائر، ط1، 2007 : 63 .

(2) ينظر: الواقعي والخيالي في الشعر العربي القديم، حميد لحداني، مطبعة النجاح الجديدة، 1997 : 14 - 22 .

(3) نظرية قراءة الأدب وتأويله من المقصدية إلى المحصلة، حميد لحداني : 16 .

(4) ينظر: القراءة وتوليد الدلالة - تغيير عاداتنا في قراءة النص الأدبي، حميد الحمداني، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 2003 : 64 وما بعدها .

النصية لعبة إخفائها⁽¹⁾ كما إنها - الفجوات النصية - تهئ الفضاء الضام للتداخل بين النص والقارئ والمنطقة الافتراضية التي يباشر فيها كل منهما دوره في فعالية القراءة التأويل ، إذ مع انعدام هذه الفجوات في العمل الأدبي يشعر القارئ بأنه مقيد لا يحس بوجود حيز لممارسة حريته التأويلية ، إذ لا وجود لمعطيات تمنح الشروع بفعل الذات بإزاء الموضوع ، إذ يصبح النص هو الناطق الوحيد وعلى القارئ أن يصغي ويكتفي بدور سلبي ، لذلك فإن الفجوات النصية تمثل منطقة الصمت التي تتيح للقارئ أن يقول قولته ، ذلك الصمت الذي عبر عنه (بول إوار) بقوله ((إن القصائد تكون فيها دائماً هوامش بيضاء شاسعة وأخرى على مقدارها من الصمت حيث تضني الذاكرة المضطربة نفسها من أجل إعادة خلق هذيان غير مسبوق))⁽²⁾ إنها الإشكالية التي تقضي إلى الدور المتبادل بين النص والقارئ فلا بد أن يصمت النص لينطق القارئ ولا بد أن ينطق النص لينطق القارئ كذلك وهذا ما يجري داخل النص وفي القراءة والتأويل الواحد ، ومن يتولى هذه المهمة - إنطاق النص وإسكاته - هي البنية النصية عبر الخطاطة التي رسمت بها النص في هيئته النهائية التي يواجه بها القارئ ويمارس فعالية التأويل .

• القصدية

برز مفهوم القصدية في نظرية التأويل كأحد النقاط الخلافية بين رواد ومنظري هذه النظرية ضمن قصدية المؤلف إلى قصدية المؤول وإلى قصدية النص تباينت الآراء وتفاوتت في مدى التوافق والتعارض⁽³⁾ ، وإذ كان هناك من يقول بأن النص لحظة إبداعه

(1) ينظر: القارئ في الحكاية - التعاضد التأويلي في النصوص الحكائية ، أمبرتو إيكو ، ترجمة أنطوان أبو زيد ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، ط1 ، 1996 : 67 .

(2) ينظر: نظرية قراءة الأدب وتأويله ، حميد الحمداني : 18 .

(3) ينظر: تحولات الخطاب النقدي العربي المعاصر ، حميد الحمداني : 279 .

يتأثر بوعي المبدع ولا وعيه معاً وأن التأويل معني في حركته باستحضار منطقة اللاوعي الخاصة بالمبدع⁽¹⁾ ، فإن لنا أن نتساءل عن إمكان استحضار هذه المنطقة خلال فعالية التأويل ، ويبدو الأمر بعد التأمل أشبه بكونه ذي طابع طوباوي أكثر منه أمكانياً وواقعياً لو كان هدف التأويل منحصراً بهذه المهمة ، فإنه من الممكن الكشف من خلال التأويل المستند إلى المدرسة النفسية عن بعض جوانب اللاوعي كفرضيات غير قابلة للقطع بأية حال ، غير أن هذه الجوانب لا تفي بمهمة التأويل الكاملة بوصف التأويل فعالية تنتج تكرار النص وتتنظم نواتجه على وفق مفهوم كلية النص لا جزئياته فحسب⁽²⁾ ، وهذا يعني أن استقصاء قصد المؤلف غير ممكن بكليته ، على أن قصد المؤلف قد لا يعني بالضرورة فهم النص أو تحقق تأويله ، إذ إن ما يعيننا كقراء خارج عن قصية المؤلف و إلا كانت القراءة والتأويل محكومين بأحادية المعنى وهو أمر لا يمكن قبوله ، وإذا كان الأمر كذلك كنا معنيون بالنص وما يقدمه كتحدٍ نرهن وجودنا بإزائه ، ويمكننا استدراج تصور ذي قيمة من خلال مناقشة قصد المؤلف واستثماره ، يتمثل في مقارنة وعي المؤلف ولا وعيه بوعي النص ولا وعيه لو جاز لنا ذلك وهو ما نعبر عنه بعلاقة الحضور والغائب في النص ليكون الرأي السابق في كون التأويل معنياً باستحضار منطقة اللاوعي صائباً لو كان الحديث عن النص لا مبدعه ، وبهذا التصور يكون التأويل معنياً باستحضار الغائب وتحقيق علاقته مع الحاضر داخل النص ، والبنية النصية هنا حاضرة في هذا الاستحضار ، إذ يتمثل حضورها في طبيعة تحقيق العلاقة بين الغائب والحاضر ، الغائب الذي دلت عليه إحياءات مستندة لحاضر يقدمه النص للواجهة الأمامية ليخفي مجموعة من العلاقات التي تقود لعلاقات وإشارات تحقق دلالات داله عليه ، ندرك من ذلك أن الغائب في النص لا يرتهن استحضاره على الذات المؤولة فقط مع كل الدور

(1) ينظر: فلسفة القراءة وإشكالات المعنى ، حبيب يونس ، دار الغرب للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 2000 - 2001 : 213.

(2) ينظر: نظرية الأدب في القرن العشرين : 195 .

المهم والفاعل والرئيس الذي تقوم به هنا ، ذلك أن الذات المؤولة محددة بعلاقات الحضور التي تؤسس طبيعة وشكل تعاطي هذه الذات في تحقيق هذا الاستحضار⁽¹⁾ .

وإذا كانت الذات المؤولة تقوم بدور رئيس وفاعل ومهم فيما قدمنا عن استحضار الغائب وتحقيق علاقته بالحاضر النصي ، أليس من المنطقي أن نفهم القصديّة بأنها قصديّة المؤول⁽²⁾ ؟ في متابعتنا للقراءات النقدية لنص واحد نلاحظ سيادة قصد المؤول من خلال تحقيق الموضوع الجمالي بوصفه ناتجاً عن عملية التأويل بكل ما تستلزمه من فعاليات ونشاطات ، وليس خفياً على المتخصص أننا نشهد أحياناً تدخل قصد المؤول في تحديد بؤرة النص أو عناصر الإجماع الركني فيه ، وما يتتبع ذلك من توصيف وتحديد البنية النصية كفعل بدء واستمرار في ترسيم خارطة التأويل ، البنية النصية التي تتسم بالثبات تتعرض لتداخل هذه الذات المؤولة مثلما يحدث بشكل واضح في الإشكالات التفكيكية ، وتتعارض الاشتغالات للحد الذي يقود إلى التناص أحياناً ، ومعه فإن لنا أن نتصور مدى فاعلية وتأثير الدور الذي يقوم به المؤول وأهمية قصديته ، وهذا ما لا يمكن إنكاره ، ويمكن تأكيد من خلال علاقة الذات بالموضوع التي سبق لنا الإشارة إليها ، وهنا يمكن الإمساك بصورة من صور التحول النقدي في جانبه التطبيقي ، إذا لو أن هذه القصديّة تكتسب كل هذه الفاعلية والتأثير فإننا بإزاء سلطة قادرة على تحويل البنية النصية لا في جانبها التركيبي وإنما في جانب تحديد ما هو رئيس في النص وما هو فرعي يتم إرساله للهامش التأويلي لتبنى الدلالة على وفق هذا التوزيع الذي تباشره الذات المؤولة بوجود معطى موضوعي ثابت كالبنية النصية ، وحقيقة هذا التحول النقدي يمكن استشراف أبعادها وتحديد سلبيتها أو إيجابيتها لو قدمنا إجابة عن التوزيع الذي يقوم به المؤول لأجزاء البنية النصية والتوصيفات التي يقدمها لما هو رئيس وما هو فرعي ، إن هذه الفاعلية - التوزيع - التي يباشرها المؤول لا تنتج أثناء القراءة الأولى للنص بشكل تأكيد بل هي لاحقة لهذه القراءة ، بل قد تستلزم أكثر من قراءة لترميم التصورات أحياناً

(1) ينظر: التأويل بين السيميائيات والتفكيكية : 46 .

(2) ينظر: نظرية الأدب في القرن العشرين : 245

وهدم وبناء تصورات أخرى أحياناً آخر ، وهو ما يعطي إضاءة لموقفنا من الإجابة يقتضي القول بأن مثل هذا التوزيع إنما هو ناتج قراءة غير محصورة بالبنية النصية فقط ، بل هي متأثرة ومنفعلة بالجانب الجمالي الذي لا تكون أثناء وبعد القراءة الأولى⁽¹⁾ ، إذ لا يمكن نفي حدوث الموضوع الجمالي وقتها لأن ذلك يستدعي نفي الوظيفة الدلالية التي تكمن في بنية أقل من النص كالجمل الواحد ، وعليه فإن تصوراً قائماً على أن قصد المؤول خرقاً للبنية النصية للنص لا يمكن الإقرار به ، وعليه يكون التحول النقدي هنا مرهوناً بمدى ترابط التوزيع مع البنية النصية ، أنه لا يمكن أن نتجاوز - مثلاً - طبيعة التكرار ودوره في تأكيد معطى نصي وإبرازه كعنصر فاعل في النص ، وهنا فإن أي توزيع لعناصر النص يخالف طبيعة البنية النصية يكون تحولاً تطبيقاً موصوفاً بالسلبية ومؤشراً كخلل في القراءة والتأويل ، وهو ما يمنحنا تصوراً عن قصد المؤول أيضاً ، فهو - المؤول - يتمتع بالحرية ولكنها حرية مقيدة بالنص في جانب بنيته الثابتة⁽²⁾ .

وعليه يمكن فهم القصدية في جانب من جوانبها بأنها قصد المؤول لكنه قصد مقيد بالبنية النصية لا ينفلت منها وإلا لكانا أمام صورة من صور التحول النقدي تمثل في التأويل المفرط والمتجاوز للنص .

تبين مما سلف أن المؤول لا يمكنه الخروج على بنية النص مؤسساً بقصديته تأويلاً محايداً لمعطيات النص ، فالنص يفرض نفسه من خلال بنيته ، وهو ما يذكرنا بحقيقة الكشف التي تتراوح بين الذات والموضوع ودور كل منهما في الكشف عن الذات وموضوعها ، إذ يبقى الأمر مرهوناً بالذات والموضوع معاً ، لا يمكن أن ننفي تحقق الذات بماهية سابقة على الموضوع ، كما لا يمكن أن تتعاطى الذات موضوعها إلا من خلال هذه الماهية التي نفهمها من خلال مفهوم الهوية التي تؤثر في إدراك الموضوع⁽³⁾ ،

(1) ينظر: تأويلات وتفكيكات - فصول في الفكر الغربي المعاصر ، محمد شوقي الزين ، المركز الثقافي العربي ، بيروت ، ط1 ، 2002 : 191 .

(2) ينظر: تأويلات وتفكيكات - فصول في الفكر الغربي المعاصر : 182 .

(3) ينظر: القراءة وتوليد الدلالة : 80 .

كما لا يمكن أن تتلاعب الذات بالمعطيات الثابتة للموضوع لأنه يؤدي إلى تشويه الموضوع لا إدراكه ، ومعه لا بد من الإقرار بأن النص يحتمل قصدية ما ، ونحن لا نعني بها جاهزية الموضوع أو كينونته المسبقة في النص ، نعني به مجموع الاشتراطات والإلزامات التي يفرضها النص من خلال بنيته النصية خارج الموضوع الجمالي⁽¹⁾ ، وبمعنى آخر فإن قصد النص لا يعني أن النص يفرض منذ البدء موضوعاً معيناً ، بل إن تحديد هذا الموضوع يتحقق من خلال التأويل ليكون الناتج قراءة واحدة قد تكون مسبقة أو ملحقة بعدد من القراءات ، قصد النص يتجسد في بنيته التي لا تقبل التحوير والتحريف والإسقاطات الذاتية ، فالمؤول حر خارج ثوابت البنية النصية ، والنص يلزم المؤول بقصده عبر بنيته الثابتة ، ولعل لا طواعية النص في بنيته يفسر لنا مقولة (أمبرتو إيكو) ((النص آلة كسولة))⁽²⁾ ، آلة كسولة ولكنها تستبطن إلزامات تحدد نشاطات المؤول .

• النص بين الاستعمال والتأويل

طُرح مفهوم الاستعمال مقابلاً للتأويل من قبل بعض نقاد نظرية التأويل⁽³⁾ ، وكان من أبرز النقاد الذين عالجوا هذه المقابلة (أمبرتو إيكو) ، مؤكداً على أن الاستعمال يقتضي فرض المؤول ذاته على النص وإكراه التأويل على وفق إسقاطات هذه الذات دون الالتفات إلى ما يفرضه النص من اشتراطات لقراءته وتأويله ، في حين أن التأويل يعني ممارسة واعية ومسؤولة تجاه النص ، معنية بالمحددات التي تبرز من خلال النص

(1) ينظر: نظرية الأدب في القرن العشرين : 239 .

(2) القارئ في الحكاية - التعاضد التأويلي في النصوص الحكائية : 52 .

(3) ولعل من أشهرهم رورتي ، ينظر: من فلسفات التأويل إلى نظرية القراءة : 57 .

كموضوع يجب إدراكه من قبل الذات مراعية اشتراطات إدراكه من جانب الموضوع⁽¹⁾ ، في حين يمكننا مناقشة مفهوم الاستعمال مقابلاً للتأويل من جانب النص لا من جانب المؤول ، ذلك أن النص في طبيعة تشكله التي تحددها بنيته النصية داخل ضمن احتمالين ، يقتضي الأول أن يكون متوافراً على بنية قادرة على منح إمكانية للتأويل مؤسسة على فضاء إيحائي وتعدد وتنوع العلاقات والإشارات التي تدفع القارئ لفعالية التأويل⁽²⁾ ، و مثل هذا النص يفترض منذ البدء التأويل سبيلاً لإدراك إبعاده المختلفة والمتنافية ، وتحقيق القراءة كإنتاج للمعنى ، إلا أن ما يحدث أحياناً هو قصور المؤول عن إدراك بعض العلاقات التي قد تغير من وجهة الممارسة التأويلية وتجهض إمكانية تأويل محايث لأبعاد الدلالات التي يمكن اكتشافها لتحقيق القراءة الفاعلة ، إن ما يمنح النص قابلية الاشتغال التأويلي هو بنيته النصية بما لها من طبيعة وأبعاد وجوانب تحدد سابقاً للقراءة طبيعة النص ليبرز أمام القارئ محتملاً طرماً لارتياده ، خلافاً لنصوص أخرى منتمية للجنس الأدبي ذاته ، ويمكننا أن نستدل على فاعلية البنية النصية في تحديد نوع وحدود وإمكانات النص وقابليته ، بما لها من إمكانية تحديد النموذج التشفيري للنص والذي يقابله نموذج تأويلي يجدد على وفق الأول ليتمكن من فك شفرات النص ومقاربتة بقدرة تتناسب مع معطياته وإبعاده الدلالية⁽³⁾ .

أما الاحتمال الثاني للنص فيتمثل في كونه لا يكتنز مثل هذه الطبيعة التي تمثلت في الاحتمال الأول مما يعني أن القارئ أمام ممارسة محصورة في الاستعمال دون التأويل⁽⁴⁾ ، إن التحول النقدي بوصفه ناتجاً قرائياً للناقد الذي باشر قراءة عمل أدبي ما يتجسد في الاحتمالين معاً ، ما لو كانت القراءة مكتفية باستعمال النص مع كونه مشتملاً على طبيعة تفترض التأويل ممارسة قادرة على قراءة النص وإعادة إنتاجه ، وكذلك ما لو

(1) ينظر: من فلسفات التأويل إلى نظريات القراءة : 57 - 58 .

(2) ينظر: التأويل بين السيميائيات والتفكيكية : 124 .

(3) ينظر: نظرية الأدب في القرن العشرين : 109 .

(4) ينظر: م ، ن : 241 .

كان النص غير قابل للتأويل فيجهد الناقد نفسه في تأويلات هي أقرب ما تكون لتهويمات منبئة الصلة عن النص في بنيته ودلالاته .

إن مفهوم الاستعمال والتأويل يسلطان الضوء على قدرة وأهمية البنية النصية في تحديد شكل وحدود وأبعاد النص ، وهذه الطبيعة لا يمكن التعرف عليها إلا من خلال القراءة ، إذ إنها ليست طبيعة معلنة في بداية كل نص نقرأه كما لو كنا نواجه عبارة تصنيفية للنص تقول لنا أن هذا النص للاستعمال أو للتأويل ، بل القراءة وحدها هي القادرة على مداخلة النص والكشف عن إبعاده الدلالية التي ترتسم على وفق بنيته كل نص .

• حقل الإحياءات والمضاعفة

ينطلق (إيكو) في تحديده لمفهوم (حقل الإحياءات)⁽¹⁾ من الطبيعة التداخلية بين البنية النصية والموضوع الجمالي ، فالتداخل حاصل بينهما في جميع المفاهيم التي تناولت تحقق القراءة و التأويل ما دمنا نتحدث عن هذه القراءة والتأويل ضمن مفهوم العلاقة بين القارئ والنص ، وفي إطار النص يبدو أن حقلي البنية النصية والموضوع الجمالي لا يمكن فرز أحدهما عن الآخر إلا في حدود إيضاح الطبيعة التي يتصف بها كل منهما والوظيفة التي يؤديانها داخل فضاء النص ، وتبقى علاقة التداخل والتفاعل قائمة بينهما في كل تصوراتنا التي يمكن أن تكشف وتضيء جوانب مهمة في التعرف عليهما .

وإذا كان حقل الإحياء يتداخل بشكل فاعل في الموضوع الجمالي مؤثراً ومتأثراً فإنه لا ينقطع عن كونه مؤسساً وفق تراكيبية النص التي تمنحها بنيته النصية⁽²⁾ ، وهذا ما

(1) ينظر: فلسفات التأويل إلى نظرية القراءة : 60 .

(2) ينظر: شعرية الأدب المفتوح ، أمبرتو إيكو ، ترجمة عبد الحم نبو علي ، مجلة نوافذ ، النادي الأدبي ، جدة ، العدد 6 ، 1998 : 83 .

يؤكد عليه (أيكو) بربطه الحقل الإيحائي بمفهوم (المضاعفة)⁽¹⁾ التي تعزز من حضور تفاصيل الحقل الإيحائي وتحدد ملامحه ، إن المضاعفة تعني أن البنية النصية تركز على عناصر معينة في النص لتؤكد مركزية دلالتها ، ويتم ذلك بوسائل متنوعة قد تكون واضحة وجليّة كما هو الحال في الوسائل التركيبية مما هو ظاهر يعلن عن طبيعة مختلفة له عن أجزاء النص الأخرى⁽²⁾ ، أو بشكل أكثر غموضاً كما هو الأمر في الكشف عن العلاقات المهمة التي تبدو كذلك لأول وهلة وهي تستبطن علاقات أبعد مما يتصورها القارئ في قراءته الأولى ، إذ يعمد النص إلى إيهام القارئ بمستوى من العلاقات المعلنة ليضمّر خلفها كل الممكن من تحقيق دلالات العناصر الهامشية أو المهمة في النص ضمن علاقات أكثر تعقيداً من العلاقات المهمة⁽³⁾ .

إن مضاعفة البنية وتكثيف التركيب وتعدد العلاقات التي ينتظم النص بواسطتها تتم عبر كل الإمكانيات والطرق المتاحة في فضاء البنية النصية كالأساليب البلاغية والأسلوبية مثلاً ، وتؤدي هذه المضاعفة إلى إغناء الحقل الإيحائي للنص ومن ثم فإن العائد يكون في كمون التنوع الدلالي ضمن مستوى الموضوع الجمالي⁽⁴⁾ ، هكذا تؤثر البنية النصية بشكل متداخل في تحقيق الموضوع الجمالي عبر الحقل الإيحائي للنص ، إن افتراض وجود حقل إيحائي خاص بكل نص ينتظم على وفق بنيته النصية ليسبغ على التأويل موضوعية ، لأنه سيكون منطلقاً من النص لا خارجه ، من بنية ثابتة لا تتأثر أثناء العملية التأويلية بتأثير من فعاليتها وأنشطتها التي تداخل النص لتكشف عن الموضوع

(1) ينظر: من فلسفات التأويل إلى نظريات القراءة : 60-61 .

(2) ينظر: لسانيات النص - مدخل إلى انسجام الخطاب ، محمد خطابي ، المركز الثقافي العربي ، بيروت - الدار البيضاء ، ط1 ، 1991 : 17

(3) ينظر: علم لغة النص المفاهيم والاتجاهات : 13 .

(4) ينظر: النص إلى الفعل - أفعال التأويل ، بول ريكور ، ترجمة محمد براهه و حسان بورقية ، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية القاهرة : 25 .

الجمالي الذي لابد له من الارتكاز على وجود مادي محسوس ينبثق عنه داخل النص⁽¹⁾ ، وبمعنى آخر فإن الموضوع الجمالي غير منوط بالقارئ فقط ، يخلقه من العدم ، إنه - القارئ - يباشر بناء الموضوع الجمالي وهو يجابه نصاً ما داخل فاعلية القراءة التي تعتمد على التأويل ، ولذلك فإنه سيتغير موقفه أمام نص آخر ، وهذا يعني ما سبق أن تحدث عنه البحث في الفصل السابق في خصوصية النص ، إذ أن الموضوع الجمالي يبنى على وفق علاقات العناصر النصية المنتظمة بشكل معين داخل النص والمشكلة تبعاً لنظام مضاعفة يحدد المرتكزات الأساسية في البنية الدلالية للنص ، إن هذا الانتظام والمضاعفة تمنح الموضوع الجمالي مادة محسوسة داخل النص ، ويتأثر الموضوع الجمالي منطلقاً ومشكلاً ونتاجاً نهائياً لهذه المادة المحسوسة التي تحدد مسارات القارئ في عملية بناء الموضوع الجمالي ، وإذا كان هذا الموضوع الجمالي كنتاج عن عملية التأويل يشمل علاقة الدلالة بأبسط صورها الممنوحة عبر العلاقة التبادلية بين الدال والمدلول ، فإن الأول يمثل المادة المحسوسة بأبسط صورها ، والثاني جزء من الموضوع الجمالي ، على أنه يمكننا وصف الدال في النص بأنه مادة أيقونية يبعث دلالات متعددة ومتكاثفة ومتنوعة ومعه فإن ما يجري من التسلسل وإعادة ربط المداليل داخل عملية بناء الموضوع الجمالي توافق الدال النصي الموصوف بالإيقونية التي تمنحه دينامية تتعكس على مدلولاتها وبشكل متسلسل أيضاً تنعكس على الموضوع الجمالي⁽²⁾ .

ولعلنا فيما تقدم توافرنا على تصور يفضي لفهم دور البنية النصية في تحديد احتمالات الموضوع الجمالي ، وتبقى عملية تحقيق هذا الموضوع مرتبهة في جانبها الآخر بالقارئ المؤول ، إذ إنه الذات التي تمثل الركن الثاني لتحقيق التأويل والقراءة كنتاج ، ويمكننا وصف عملية تحقيق الموضوع الجمالي بأنه متعلق بالنص والقارئ ، منطلق ومتأثر

(1) ينظر: التيارات النقدية الجديدة - الأصول النظرية وشروط الاستنبات ، سعيد بنكراد ، الشبكة العنكبوتية : http://www.aljabriabed.net/n_begrad.htm03_98 ، بتاريخ 2011/10/10 .

(2) ينظر: القارئ والنص العلامة والدلالة ، سيزا قاسم ، المجلس الأعلى للثقافة ، مصر ، ط / 2 ، 2002 : 2125 .

بشكل فاعل بحقل الإيحاء الذي تحدده البنية النصية ولكن هذا التحديد موصوف بالتنوع والتعدد والنماء ، ودور القارئ يتحقق في الكشف عن الممكنات الاحتمالية وتحقيق العلاقات الرابطة بين اختياراته التي ستحقق لاحقاً موضوعاً جمالياً يتصف بالتشاكل الدلالي ليكون الموضوع الجمالي مادة القارئ التي تبحث عن فعالية القراءة والتأويل ، محايشة لمعطيات النص ومتصفة بالموضوعية ، تلك الموضوعية التي لا نعني بها صرامة المنهج العلمي ، بل نعني بها ارتباطها بالنص وعدم خروجها عن معطياتها وإعلان القطيعة معه .

• النص الظاهر – النص المولد

مثلت البنية النصية فيما تقدم من حديثنا أساس تشكل النص ، ومنطلق الفعالية القرائية وإنتاج الموضوع الجمالي ، وإذا كنا نتحدث ضمن ثنائية البنية النصية – الموضوع الجمالي ، فإن ثمة ثنائية أخرى تصدر عن (جوليا كرسيفيا) تتمثل في مفهوم (النص الظاهر) و (النص المولد)⁽¹⁾ ، الأمر الذي يجعلنا أمام فرضية أخرى عن البنية النصية كطبيعة ووظيفة ، وإذا كان لا يبدو ثمة اختلاف بين النص الظاهر والبنية النصية في حدود كون الأول يمثل البنية السطحية والحيز الذي تتمظهر فيه العلاقات والسياق السوسيوثقافي والرموز الثقافية⁽²⁾ ، وأنه المادة المحسوسة التي تقودنا لإمكان فهم النص المولد ، إلا إن الفرق يظهر في تحديد (رولان بارت) لنوع العلاقة بين النص الظاهر والنص المولد حيث تتسم هذه العلاقة بطبيعة بنائية ، بمعنى أن النص المولد هو فضاء بناء النص الظاهر ، ومع أننا نعي بشكل واضح أن النص المولد يمثل البنية العميقة التي تكتسب طابع إنتاجية المعنى⁽³⁾ وهو بذلك لا يوازي الموضوع الجمالي ، كون الأخير ناتجاً عن النص الظاهر لا منتج له ، إلا إن الفرق لا يستند للمقاربة

(1) ينظر: سيميائية النص الأدبي ، دار أفريقيا الشرق ، الدار البيضاء ، 1978 : 55 .

(2) ينظر: نظرية النص من بنية المعنى إلى سيميائية الدال : 239 .

(3) ينظر: م. ن : 237 .

الموازاة بين النص المولد والموضوع الجمالي ، بل يستند إلى الموازة بين النص الظاهر والبنية النصية ، ذلك أن النص الظاهر حسب العلاقة التي صرح بها (بارت) مبني في النص المولد الذي يضم إمكانية بناء النص الظاهر⁽¹⁾ ، وإذا كان النص المولد منتجاً للنص الظاهر الذي يجابه القارئ بفعالية القراءة والتأويل لينتج الموضوع الجمالي ، فإننا لن نشهد من خلال هذه التتابعية مغايرة في طبيعة التعاطي القرائي والممارسة التأويلية ، إذ يقتضي تصورنا الأول المنطلق من فهم العلاقة بين البنية النصية والموضوع الجمالي كون الأولى هي المنطلق لتحقيق الموضوع الجمالي الذي لا يمكن القول بأنه يحقق فهم حقيقة النص بل يمكن القول عنه بأنه إعادة لإنتاج المعنى ، في حين يقتضي تصورنا الثاني المنطلق من طبيعة العلاقة بين النص المولد والنص الظاهري تحقق الموضوع الجمالي بوصفه إعادة لإنتاج المعنى أيضاً⁽²⁾ ولكنه - وهنا تكمن نقطة الاختلاف - مرتبط بعلاقة أخرى بالنص المولد لا تسلب ولا تعارض مفهوم إعادة إنتاج المعنى ، إنها علاقة موصوفة بالمرجعية ومحالة لضبط الإجراءات المنهجية العائدة من ثنائية النص المولد - النص الظاهر ، وبمعنى آخر فإن فهمنا للبنية النصية مقابلة للموضوع الجمالي لا يتعارض مع ثنائية النص المولد - النص الظاهر ، ولكن هذه الثنائية تقتضي تمثلاً لما تمنحه من إبعاد تتجسد في تساؤلنا عن الاختلاف الحاصل بين كون الموضوع الجمالي مرتبطاً بتحقيق إعادة إنتاج المعنى وبين كونه مرتبطاً مضافاً لذلك بالنص المولد ، إذ لا بد أن تكون سيرورة القراءة والتأويل مستحضرة لطابع الارتجاع الذي يتجسد من خلال علاقة الموضوع بالجمالي بالنص المولد⁽³⁾ .

في قراءتنا للنصوص الأدبية نعنى بتحقيق الموضوع الجمالي موصوفاً بكونه إعادة لإنتاج المعنى منطلقين من البنية النصية التي نحاول استكشاف الدلالات التي تمنحها تراكمية النص ويبدو أن الأمر يتوقف عند هذا الحد ، وهو ما يحدث بالفعل في قراءتنا

(1) ينظر: نظرية النص من بنية المعنى إلى سيميائية الدال: 249 .

(2) ينظر: الوقع الجمالي وآليات إنتاج الوقع عند إيزر : 64 .

(3) ينظر: نظرية النص في بنية المعنى إلى سيميائية الدال : 249 - 2853 .

للتصوص الأدبية مستحضرين مفهوم النص المولد وعلاقته بالنص الظاهر ، إلا أن هذا الاستحضار يفترض أن تكون ممارستنا لفعالية القراءة عموماً والممارسة التأويلية خصوصاً موصوفاً بأنها إعادة لإنتاج المعنى ضمن فضاء بنائه الذي هو النص المولد ، وإذا كانت علاقة النص الظاهر من النص المولد تحتل مفهوم القبلية مجرداً عن تعالقه بمفهومي الزمان والمكان فإن هذه القبلية تفترض مساراً آخر للقراءة والتأويل يقتضي محاولة الإمساك بمظاهر الدلالة على وفق افتراض وقوع النص الظاهر ناتجاً عن فضاء النص المولد⁽¹⁾ .

ففي حين تكون قراءتنا منطلقة من البنية النصية على وفق مفهوم الما بعد ، أي ما بعد البنية النصية ، فإنها ستكون معنية بمفهوم الما قبل ، أي مستحضرة ما قبل البنية النصية من خلال البنية النصية نفسها ، ولعلنا نوضح ما نرمي إليه أكثر لو مثلنا لذلك بالاشتغال التاريخي ، إذ إن المؤرخ معني ضمن اشتغاله باستدراج الأحداث وربطها لصياغة تصوره عن حادثة تاريخية معينة ، فالمنهجية التاريخية تحتم على المؤرخ استحضار الأحداث التي سبقت الحادثة التاريخية التي هو بصدد فهمها والتاريخ لها ، كون هذه الأحداث تمثل الفضاء الذي تكونت ضمنه الحادثة التاريخية ، لا أقل من علاقتها السببية ، وإذا كان النص المولد افتراضاً لا يمكن الإمساك بماهيته ضمن المفاهيم التعريفية ، بل يبقى مرهوناً بتصوراتنا الإدراكية الخارجة عن الحسية ، فإن النص الظاهر أو البنية النصية بوصفها إنجازاً له طبيعة التأفق ضمن فضائي الزمان والمكان - بمعنى أن النص محتوٍ على بنية مكانية وزمانية - هو ما يمكن من تحقيق الإمساك بمفهوم الما قبل بوصفه كائناً بمعطيات النص التي تدل بشكل أو بآخر على ما قبل البنية النصية أو النص المولد كفضاء منتج للمعنى الذي يستبطنه النص بشكل متنوع متعدد⁽²⁾ ، إننا يمكن أن نفهم طبيعة المسار القرائي والتأويلي ضمن ما قدمناه من قوله ((إن النص الظاهر

(1) ينظر: الخطاب والنص ، المفهوم - العلاقة - السلطة ، عبد الواسع الحميري ، منشورات مجد ، المؤسسة

الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، بيروت ، ط 1/ ، 2008 : 41

(2) ينظر: سيمائية النص الأدبي : 55 .

هو البقايا))⁽¹⁾ حيث يتضح إننا في تعاملنا مع البنية النصية ننطلق منها مدركين بأنها بقايا النص المولد ، وبمعنى آخر فإن اشتغالاتنا القرائية والتأويلية تشابه إلى حد ما محاولة إعادة ترتيب مسرح الحدث الجنائي ، إذ تعدُّ كل حيثيات هذا المسرح بقايا مرح ما قبل وقوع الحدث الجنائي ، وأمام هذا التصور نفضي إلى القول بأن ثمة مغايرة ستشهدا قراءتنا وتأويلنا للنص الأدبي ، إذ إننا هنا أمام تحديد المحاور النهائية للنص على وفق استحضارنا لمفهوم القبلية كما لو كنا بإزاء قول السيّاب :

هو لن يعود

رحل النهار

فلترحلي .. هو لن يعود⁽²⁾

فنحن هنا معنيون بالتساؤل عن كونه (كان حاضراً) لا كونه راحلاً أو أنه لن يعود ، ففي حين أننا قد نكون مهتمين بتتبع مسار الاستبدال الأفقي ضمن المرادفات الممكنة لفعل الحدث الرئيس (رحل) فنقترح (ذهب ، غادر ، سافر ، هاجر ، الخ) ، فنكون هنا بصدد التساؤل عن ما تمنحه الممارسة التأويلية المضادة والمنطلقة من مفهوم الما قبل أي ما قبل الحدث الرئيسي من إشارات دالة يمكن أن نقودنا لاستحضار الغائب في النص والذي يمثل وجهاً من أوجه النص المولد أو المعنى الغائب⁽³⁾ .

ويمكننا أن نقرر مفهوماً إجرائياً في سبيل تحقيق تصور أدق لطبيعة الفعالية القرائية والممارسة التأويلية بناءً على قدمناه من استحضار مفهوم النص المولد وتأثيره على سيرورة القراءة والتأويل تفاعلاً مرة وأخرى مغايرة واختلافاً ، ويمكننا أن نطلق على هذا المفهوم أسم (المعاكسة) .

(1) نظرية النص من بنية المعنى إلى سيمائية الدال : 249 .

(2) الأعمال الشعرية الكاملة ، بدر شاكر السياب ، ديوان أنشودة المطر ، قصيدة رحل النهار : 229 .

(3) هذه الممارسة التأويلية تمثل صورة ممكنة من صور التأويل التي يمكن تحقيقها من النظر إلى طبيعة العلاقة من بين النص المولد والنص الظاهر .

• المعاكسة

إن طبيعة النص المولد تبقى مجهولة إلا من الجانب الوظيفي المتعلق بتوليد النص الظاهر ، وكونه - النص المولد - يمثل الفضاء الذي يحتوي إمكان بناء النص الظاهر ، وكذلك من جانب التعريف به بأنه الحيز المنتج للمعنى وكلا الجانبين (الوظيفي ، و الماهوي) وعلى هذه الوضعية لا يمكنهما تحقيق الإمساك بهذا المفهوم في حقيقته ، إذ يبقى مرهوناً بتمثالاته التي تتمظهر في النص الظاهر لتدل عليه وتتولى مهمة الإحالة عليه⁽¹⁾ ، وإذ كنا نعلم أن العلاقة الإنتاجية للمعنى الذي يختزنه النص الظاهر مردودة للنص المولد بما أودعه من قدرة في تركيبة النص الظاهر ، وأن الأخير يمثل في موازاة الأول إنجازاً عن قدرة ، وكائن عن ممكن ، وموجود عن وجود ، فإن أول ما يمكن إدراكه من العلاقة الفلسفية بينهما هو علاقة التبعية والسبق والاشتغال ، على أننا نثبت هنا ما للعلاقة القائمة بينهما من طابع التفاعلية والتأثير والتأثير كما هو الحال في ما تمنحه اللغة للنص وما يمنحه النص للغة من خلال العلاقات المتجددة والمستحدثة أيضاً التي يوفرها النص من خلال الانزياحات والخروج على أعراف التركيب مما يمنح العناصر اللغوية بدءاً من الكلمة دلالات أخرى متعددة ومتنامية⁽²⁾ ، إلا أن العلاقة المتجسدة بمفاهيم كالتبعية والسبق والاشتغال تبقى قائمة لأن الافتراض الذي أفضى باجتراف النص المولد والنص الظاهر كمفهومين متلازمين يصرح بمثل هذه العلاقة ويطبّعها بطابع المنح .

وإذا كنا نقر بأن البنية النصية تشتمل على رموز وعلامات وبنى متضمنة في مستويات النص يمكن أن تبنى عليها الدلالات التي تقود لتحقيق الموضوع الجمالي وإعادة إنتاج المعنى فإنها تقود بشكل أو بآخر لقصد النص أو المعنى بوصفه قراءة تركز

(1) ينظر: في مناهج الدراسات الأدبية ، حسين الواد ، منشورات عيون ، المغرب ، 1984 : 76 .

(2) ينظر: توالد النص واشباع الدلالة تطبيقاً على تفسير القرآن سيزا قاسم ، مجلة البلاغة المقارنة ألف ، ع 8 ، الجامعة الأمريكية ، القاهرة ، ربيع 1998 : 32 .

لطبيعة وخصوصية النص لكلا جانبيه (البنية النصية والموضوع الجمالي)⁽¹⁾ ، وبعبارة أبسط فإن البنية النصية من خلال تلك العناصر والمستويات تقود لمعنى أو جملة معانٍ دون غيرها تمثل الموضوع كمفهوم يختص به النص مقابل الذات القارئة والمؤولة ، فإنه يصح أن نقول أن النص الظاهر مشتمل على تلك العناصر والمستويات التي تقود بشكل أو بآخر إلى النص المولد ، ومع ربط هذا الافتراض بما سبق من علاقة فلسفية فإنه يبدو أننا مطلوبون بملاحظة النص المولد خلال قراءتنا وتأويلنا ، وبعبارة أخرى فإن ثمة تغيراً تفترضه تلك الملاحظة في مسار القراءة والتأويل يقتضي ملاحقة الدلالة وكشفها عبر المعاكسة في اتجاهات النص ، وبشكل أكثر وضوحاً فإنه يمكننا القول بأنك كي تدرك المحطة التي فاتتك لا بد أن تسير باتجاه معاكس لسير القطار وهكذا يمكن لمسار قرائي وتأويلي ملاحظ لتلك العلاقة أن يقترب أكثر من النص المولد بوصفه الكل الذي يقودنا إليه النص الظاهر الذي عبر عنه بأنه بقايا ذلك النص المولد .

إن ما يمكننا افتراض تحقيقه من مفهوم المعاكسة كإجراء قرائي تأويلي ، يتعلق بإمكان تحقيقها على عدة مستويات وجوانب من النص خلال الفعالية القرائية والممارسة التأويلية ، إذ يمكن أن تحقق في فضاء الزمان والمكان السردى مثلاً ، أو عنصر الحدث ، كما يمكن أن تحقق بالعلاقة التفسيرية والتعليقية التي تتجسد في مفهوم (الواصف النصي) عند (جيرار جينت)⁽²⁾ من خلال تلك العلاقة لذاتها لا لجهة ارتباطها بموضوع آخر أو نص آخر ، ويمكننا التمثيل ضمن هذا الجانب بما قدمناه آنفاً من قصيدة (رحل النهار) للسيّاب ، حيث أن الحدث الرئيس في النص هو الرحيل ، في حين يقتضي المسار التأويلي المستند لمفهوم المعاكسة أن نتجه إلى الحدث السابق الذي تأسس عليه هذا الحدث وهو الحضور ، كما يمكننا أن نشهد تحقق مثل هذه المعاكسة

(1) ينظر: جدلية الخفاء والتجلي ، كمال أبو ديب ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط / 1 ، 1975 : 32 - 33 .

(2) ينظر: إشكالية مقارنة النص الموازي وتعدد قراءاته ، عتبة العنوان نموذجاً ، د.محمد التونسي جكيب ، الشبكة العنكبوتية : http://www.alaqsa.edu.ps/ar/aqsa_magazine/files/pdf311.pdf ، بتاريخ 2011/8/7 : 53 .

في مسار التأويل بإزاء المعطيات النصية في نص (أعطية) لـ (محمد البغدادي) إذ يصرح النص بالزمن في قوله :

وإثاءبث ساعتي الخرساء في كسلٍ

ودقّ ناقوسها خمساً بلا نغم⁽¹⁾

إن المعاكسة التأويلية للزمن المصريح به في هذا البيت تصرّح بأن النص المعتمد بشكل رئيس على محاوراة ذاتية مبني على محورية هذا الزمن المعبر عنه في الساعة الخامسة صباحاً⁽²⁾ واستحضار ما قبل هذه الساعة يكشف عن الزمن الذي جرت فيه المحاوراة مع الذات والكشف الذي توالى حتى هذه الساعة ، إن السير باتجاه معاكس للزمن المصريح به في النص يقودنا لكشف الدلالات المضمرة في النص ، إنها محاوراة للذات واسترجاع للقناعات تجاه الكون والحياة ، تجربة زمن الوعي المختزل ضمن العمر كمفهوم زمني حتى تحقق زمن النص المعبر عنه بالساعة الخامسة صباحاً .

كما يمكن تحقيق مفهوم المعاكسة على جوانب وعناصر ومستويات نصية أخرى ، إذ يمكن الإمساك ببؤرة النص من خلالها ، كما يمكن أن تُداخل عناصر الإيجار الركني كاشفة عن دلالتها ، وننوه إلى أن المعاكسة لا تعني إقصاء باقي الممارسات والفعاليات القرائية والتأويلية ، بل إنه يكفي أن تستحضر أثناء القراءة والتحويل كأداة إجرائية مقاربة للنص المولد ، ويمكننا الاستدلال على إمكان تحقيقها في عناصر النص ، كما في عنوان نص (وقت للبكاء) لـ (إسماء العزاوي)⁽³⁾ ، إذ يتحقق الإمساك بها على مستويات التشكل اللفظي والتركيب في هذه العنوان لتصرّح بدلالة النص المضمرة ، وتساعد في

(1) أعطية - نص شعري ، مجموعة (ما لم يكن ممكناً) ، محمد البغدادي ، إتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، 2004 : 44 .

(2) ينظر: نص القصيدة (أعطية) ، الرسالة : 218.

(3) وقت للبكاء ، نص شعري ، إسماء العزاوي ، الشبكة العنكبوتية : <http://www.dorar->
fairy-touch4aliraq.net/blog/blogs/ ، بتاريخ 2011/2/16 .

الكشف عن العناصر الرئيسة في النص وتقود لبناء الموضوع الجمالي وإعادة إنتاج المعنى ، محققة بذلك مقارنة للنص المولد ، إذ العلاقة المنتقاة داخل التشكل الدلالي هي (الصباح) وتشغل وفق إفراغ دلالي يجعل النص متمحوراً حولها عبر اجتياز هذا الزمن الذي يصرح به النص والولوج للزمن السابق عليه ، ويمكننا أن نستبطن مفهوم الفردانية من النص لنعبر عن المجموع من خلاله ، يبرز التناقض في النص من خلال (البرد = النيران ، المفتاح = القفل) والدلالة تنتقي من التناقض بمجموعه ليدلل على وجود ما والصوت هو الحاضر الغائب في النص ، إذ لم نسمع منه سوى (البكاء) ولعله بكاء صامت ، ولذلك فقد أغلق الهاتف المحمول بعد خرقه لطقوس الصمت وأحيل لـ (الباب) المقفل فاعلية الأصوات التي تحاول مس حرمة هذا الصمت (الباب يهمس ، ها هو الباب ثانية ، يحاول أن يكسر وحدتي⁽¹⁾) ، النص يعبر عن مهارة الحياة داخل زنزانة موحشة تمارس فيها المرأة دور السجان والضحية ، أنه أيقونة تحفز لقراءة موشورية ، البارز فيها افتضاح اللون الأبيض لون الصباح ، وما خفي فهو مقرون بفعل القراءة والتأويل ولعله ليس مصادفة أن يكون عنوان النص (وقت البكاء) وعتبته (هذا الصباح) إذ لو أتيح لنا قلب حروف العنوان وعكسها ومزجها مع العتبة لأصبح (أكبل...؟ لتقو هذا الصباح ؟) وهو ما يفضح مستوى الدلالة الضمنية كما أشرنا ويصدم القارئ بحقيقة النص ، أنه صوت الأنثى دلالة القيد ، هنا تبرز المعاكسة ممكنة من خلال معاكسة الزمن المصرح في النص وهو (الصباح) ومن خلال معاكسة العنوان بمستوى تشكلها اللفظي والتركيبي ، لتكون متوافقة مع سابقتها ومشكلة معها دلالة منتقاة تكشف عن الدلالة الضمنية للنص وتقود لبناء الموضوع الجمالي المحايث للبنية النصية⁽²⁾ أو النص الظاهر للنص المولد ، إنها إمكانية لإنتاج المعنى وإعادة تكرار النص بما يتفق وطبيعة العلاقة بين مفهومي النص الظاهر والنص المولد ، كما هي متفقة ومحايثة لعلاقة البنية النصية والموضوع الجمالي .

(1) وقت للبكاء - نص شعري ، الرسالة : 219 .

(2) ينظر : المكان نفسه .

وكما سبق أن نوهنا فإن مفهوم المعاكسة لا يعني بالضرورة إقصاء الفعاليات والممارسات التأويلية والقرائية أبداً ، بقدر ما هي معنية باستحضار العلاقة المفترضة بين النص الظاهر والنص المولد أثناء القراءة والتأويل ، كما أنها أداة أو ممارسة إجرائية تكتسب موضوعيتها من خلال محايتها للبنية النصية ومقاربتها للنص المولد في تحقيقها للموضوع الجمالي .

إن ما تقدم من عرضنا لمفهومي النص الظاهر والنص المولد وافترضنا للمعاكسة مفهوماً إجرائياً وممارسة تأويلية وقرائية يستدعي تعميق فهمنا لطبيعة البنية النصية وإدراكنا للعلاقة الترابطية والفاعلة تأثراً وتأثيراً بكل من الموضوع الجمالي والنص المولد مما يجعلنا مدركين لوظيفتها ضمن فعالية القراءة والممارسة التأويلية .

وبعد ما قدمناه من التعريف بالبنية النصية ووظيفتها داخل النص وفعاليتها وتأثيرها في القراءة والممارسة التأويلية ، يمكننا أن ننطلق من هذه المادة لنباشر تتبعنا للممارسة النقدية عند (الغذامي) وأوجه التحولات النقدية التي تداخلها وتنتج عنها .

في تتبعه لدلائل نموذج (الخطيئة / التكفير) ضمن كتابه (الخطيئة والتكفير) يصرح (الغذامي) بصدد قصيدة مخطوطة لم تنتشر بعد لـ (حمزة شحاتة) بأن عدم عنوان هذه القصيدة من قبل (شحاتة) له رمزية قصدها هو بذاته ، إذ يقول (الغذامي) ((ومن غير المنشور قوله في قصيدة لم يضع لها عنواناً وكأنه يرمز بذلك إلى ضياعه ، وضياح أدبه [من مخطوطة شيرين]))⁽¹⁾ ، ومع أن (الغذامي) يبدو خارج النص في إسناد (الضياح) إلى شخص (شحاتة) وأدبه ، إلا إن ثمة ما يداخل قراءة وتأويل النص الذي يورده بتأثير من هذا الرأي بخصوص العنوان المنعدمة ، إذ يبدو أن النص أصبح جاهزاً مسبقاً أو لنقل لاحقاً لقراءة أولى لفرضية الرمزية المدعاة تلك ، ومن المؤكد أنها ستؤثر في تعاطي (الغذامي) مع النص قراءة وتأويلاً ، فنحن نعلم ما للعنوان كعنصر من عناصر النص من تأثير في مستوى الدلالة⁽²⁾ وعليه فإن أي افتراض

(1) الخطيئة والتكفير : 236 .

(2) ينظر: الفصل الثاني ، المبحث الأول : 26 وما بعدها .

بخصوصها سيكون له تأثيره في بناء الدلالات اللاحقة لعناصر النص الأخرى وصولاً لتحقيق الموضوع الجمالي والقراءة كنتاج نهائي وهنا لا بد من الإشارة إلى أن ثمة فرقاً بين كون النص منشوراً من عدمه⁽¹⁾ ، إننا هنا كما يصرح (الغذامي) نفسه أمام نص غير منشور بل إنه مخطوط أيضاً ، ونحن نعلم أن آخر ما يقدر يفكر فيه الأديب هو العنوان بمعنى أنه يفكر بآخر مراحل العمل الأدبي ، ومعه فإن لنا أن نشكل ما في ما خلس إليه (الغذامي) من رمزية خلو النص من عنونة ما ، أن الأمر ليبدو أوضح حين نكشف أن (الغذامي) يقر بهذه الحقيقة بعد صفحات قليلة فيقول ((فالعنوان في القصيدة - أية قصيدة - هو آخر ما يكتب منها ، والقصيدة لا تولد من عنوانها ، إنما العنوان هو الذي يتولد منها . وما من شاعر حق إلا ويكون العنوان عنده هو آخر الحركات . وهو بذلك عمل في الغالب عقلي ، وكثيراً ما يكون اقتباساً محرفاً لأحدى جمل القصيدة))⁽²⁾ ويمكننا أن نلاحظ أن تحويراً طرأ على دلالة النص الذي يعدُّ أحد دلائل توافر نموذج (الخطيئة - التكفير) في نصوص (شحاتة) ، ويمثل هذا التحوير في منح دلالة للحيز المفرق من العنونة ، أنه حيز مفرغ لا عن قصيدة المؤلف أو قصيدة النص ، فهذه القصيدة يمكن أن تكون متحققة لو كان النص منشوراً أو مفروغاً منه بكونه قد تم إخراج بصيغته النهائية ، فاحتمال التغيير من قبل المؤلف بالحذف والإضافة وغيرهما قائم ما زال النص مخطوطاً ولم يصرح به كنتاج نهائي ، أن الدلالة الرمزية التي ذهب إليها (الغذامي) هي دلالة خارج مفهوم قصد النص ، لا تستند إلى بنيته النصية إطلاقاً ، ويمكننا وصف الممارسة النقدية (للغذامي) في هذا المستوى بأنها استعمال للنص حسب مفهوم (إيكو) لأن التأويل أكرهه بتحميله النص دلالة خارجة عن بنيته ومنبئة الصلة عن النص .

(1) ينظر: قضايا أدبية عامة ، إيمانويل فريس وبرنار موراليس ، ترجمة د . لطيف زيتوني ، سلسلة عالم المعرفة ،

ع300 فبراير 2004 : 61 .

(2) الخطيئة والتكفير : 263 .

وفي كتابه (حكاية الحادثة في المملكة العربية السعودية) يدرج (الغدامي) محاضرة (الرجولة عماد الخلق الفاضل) لـ (حمزة شحاتة) تحت عنوان (حادثة النص خطوة)⁽¹⁾ ويرى أنها تمثل خطوة أولى من خطوات الحادثة في السعودية ، ويقول عنها ((وكانت المحاضرة بمثابة خطاب ثقافي إصلاحي تمس أخلاق العمل والوطنية والإنسانية))⁽²⁾ ، في حين أنه في كتابه (تأنيث القصيدة والقارئ المختلف) يرى أن مشروع (أدونيس) رجعيّاً لا حداثياً⁽³⁾ مستنتجاً هذه النتيجة من الأنساق التي تضمهرها نصوصه وعموم آرائه النقدية ، التي يرى أنها تقضح النسق الفحولي عنده ، كما أنه يشكل على تأصيل (أدونيس) ويرى أنه استعادة للنسق الفحولي الجاهلي ، وهذا ما جعله - الغدامي - يصنف مشروع (أدونيس) بشقيه النقدي والأدبي بالرجعية ، ولو عدنا إلى محاضرة (حمزة شحاتة) وطرحنا تساؤلاً هو : ألا يمكن أن نستنتج من عنوانها فقط نسق فحولة طاع ؟!! إنها تخص الرجولة فقط بمفهوم الارتكاز (عماد) فيما يخص البنية القيمة الأخلاقية بأعلى مستوياتها التصويرية ، أليست هذه هي الفحولة التي يبحث عنها (الغدامي)؟! فطيف يمكن أن توصف بأنها (حادثة النصف خطوة)؟! وإنه لمن المستغرب فعلاً إذا ما قارنا هذه المحاضرة بنتاج (أدونيس) لخرجنا بنتيجة ملخصة تفيد بأن (أدونيس) رجعي و (حمزة شحاتة) حداثي أو لنقل (نصف حداثي) ، وإذا كانت القيمة أو المعيار في تحديد الحادثة وتمييزها عن الرجعية هي المضامين التي تحتويها الأعمال أو النصوص أو المشاريع النقدية بما تضمهرها من أنساق ، فلماذا نشهد هنا ازدواجاً في المعيار ؟ ولماذا يكون الرجوع للأصول القبلية غير مشوب بشائبة في اشتغال (الغدامي) ضمن كتابه (القبلية والقبائلية) ولا يقدح بحدثة⁽⁴⁾ ، ويكون تأصيل (أدونيس) ورجوعه للأصول الجاهلية رجعية وتقهقراً للخلق ؟!! ، وإذا كنا في حدود

(1) ينظر: حكاية الحادثة في المملكة العربية السعودية : 52 .

(2) المكان نفسه .

(3) ينظر: تأنيث القصيدة والقارئ المختلف : 185 وما بعدها .

(4) ينظر: القبلية والقبائلية أو هويات ما بعد الحادثة : 151 - 199 .

النصوص الأدبية مقيدون بالبنية النصية في قراءتنا وتأويلنا فإن هذا التقييد لا يرتفع في تعاطينا مع ما هو خارج الأدب كالتقيد وعموم الممارسة الثقافية ونواتجها ، بل إنه يغدو أن عملنا أيسر لما ندركه من صعوبة التعامل مع النص الأدبي الذي أقل ما يمكن وصفه بأنه متزأبق ، على العكس مما هو خارج الأدب ، إذ تسيطر الوظيفة النفعية والعامل الإفهامي على تلك النتاجات ، ومعه فإننا نبقي مقيدون بحدود تلك الأعمال ، ومع فرض معيار أو منهج معين نكون أمام إلزام آخر نتقيد به ، وهو شروط المعيار والمنهج الذي أقررناه سابقاً لاشتغالنا النقدي والزمنا به أنفسنا ، إن (الغدامي) بتعاطيه المزدوج هنا يكون قد فقد أهم عنصرين من عناصر العمل النقدي ، الأول يتمثل بإطاحته بالمنهج والمعيار الذي ألزم به نفسه في شغله النقدي ، والثاني يتمثل في خروجه عن (النص) متمثلاً بمحاضرة (شحاتة) ونصوص (أدونيس) الأدبية ومشروعه النقدي ، ذلك أن توصيف الأولى بالحادثة غير ممكن مع كل ما تحمله من أنساق الفحولة التي تعود بنا إلى الوراء خارج مفهوم الزمن كما يذهب إلى ذلك (الغدامي) نفسه ، وإذا كان ممكناً فمن الأولى أن يكون (أدونيس) أكثر حداثة من (حمزة شحاتة) ، إن ما نحن بصددده يمثل انحرافاً عن مسار القراءة المتضمنة لفعالية التأويل وخروجاً عن المنهج و (النص) ويستبطن مفهوم الاستعمال كإكراه تأويلي ، إذ التأويل ممارسة غير مقتصرة على النصوص الأدبية ، بل هو نشاط و ممارسة مقرونة بفعاليات الإدراك ونشاطات التفكير عموماً .

أغطية(1)

محمد البغدادي

زلفى إلى الله أم زلفى إلى صنم
أنى أعض على ما في من ألم
أخاف من أي حرف لا يمد يداً
أخاف يالأسى من صدق قافيتي
ذهول عيني هذا أم ضباب أسى
أكلما أبصر الإنسان شاطئه
يا كم تصبرت كم حاولت ترضيتي
غار الظلام ولم الليل أنجمه
وإثاءت ساعتي الخرساء في كسل
واجتاح صوت أذان دافئ أذني
فجئت تدنين يا أماه أغطي
صلاة من هذه من أين جئت بها
من أي ماء وضوء صرجت بدم
يا أم قولي أزلفى ذاك للصنم
لكي أصادر تاريخي وأهرب من
أأثم أنا إن هدمت صومعتي
أأثم أنا إن حطمت ناي غدي
سبابة الموت يا أمي تشير إلى
أرضي التي هي أرض لو أمرت لها
لأنني لم أكن كفاً لأسئلتي

أنى نزلت على طوال الطريق دمي
فمي وأبعد عنه الماء وهو ظمي
تشدني نحو كهف الخوف و السقم
ومن تمرّد إحساسي على قلبي
أم أنها الشمس عانت علة الهرم
وكاد ... عادت به الأقدار للظلم
لكنه سأم يفضي إلى سأم
ونام بوم على عش من البرم
ودق ناقوسها خمساً بلا نغم
أزال عني بقايا رعدة الحلم
وكنت مزلت يا أماه لم أنم
لمن سجدت لمن لله للصنم
أنقى مساماتي المكتومة الألم
لكي أعود وثوبي فاقع الندم
وجهي وأدفن في قبر الرضا قيمي
لكي أقيم على أنقاضها هرمي
ورحت أرقص أيامي على نغمي
رأسي وتصرخ هذا رأس متهم
يظل جرجي فيها غير ملتئم
تركته الآن تنمو في كالورم

(1) من مجموعة ما لم يكن ممكناً الشعرية ، محمد البغدادي ، منشورات اتحاد كتاب العرب دمشق : 44 .

وقت للبكاء

إسراء العزاوي

هذا الصباح

قررتُ إطلاق سراح دمعي ..

ومنح روعي بعضاً من حرية يسرقها الآخرون

بوجودهم الثقيل

فأقفلتُ بالمفتاح بابي .. ولذت

بالجدران الباردة

إذ ما عاد يهمني .. والنار تكوي كل ذرة ..

في أعماقي الغاضبة

سمعت هاتفي ينن من نفاد ..

طاقته..

فأشفقت عليه هو الآخر .. وأغلقتَه

ما كنت لأرغب في وحدة باردة دامية كهذه ...

الباب يهمس منفتحاً على انعقاصي

ها هو الباب ثانية

مفاتيحه تغلق ما يمكن أن تهم به أقفالي

وبكل برود يحاول أن يكسر وحدتي الراكضة

في ظل التشعب والتعدد والاختلاف في الممارسات المفضية للإمساك بالموضوع الجمالي عبر عملية بنائه وتأسيسه ، والناتج عن الاختلاف في أصل الممارسات والمناهج النقدية كل بحسب آلياته ونظريته للنص الأدبي ، تتعدد وجهات الممارسة القرائية والتأويلية التي تقود لإنتاج الموضوع الجمالي⁽¹⁾ ، وإذا كان النص يفترض عبر بنيته النصية تعدد القراءات وتنوع التأويلات فإن هذا التعدد والتنوع يتعدد مع دور الذات القارئة والمؤولة ومع تعدد تلك الذات أيضاً⁽²⁾ ، الأمر الذي يدعونا لمحاولة إعطاء تصور يميز بين الانفتاح والانفلات في تأسيس وبناء الموضوع الجمالي تحقيقاً لملازمة الأطر المعرفية والمحددات المنهجية ، وللابتعاد عن فوضوية تعاطي الأعمال الأدبية بشكل عام ، وإذا كنا نقر منذ البداية بتزأيق النص وطواعيته في جانب إنتاج المعنى فإننا ملزمون في الوقت ذاته بمحددات هي في حقيقتها لا تقيد النص ولا تجبر على قراءة واحدة ونمط معين أو حد للممارسة التأويلية بل هي منطلقة في حقيقة توصيفنا السابق للنص ومراعية لكل جوانبه التي تتأسس في صفاته تلك ، إذن هناك بون شاسع بين إجبار النص على أطر ومحددات منهجية معينة وبين أن تكون تلك الأطر والمحددات منطلقة من فهم خصوصيات وصفات النص⁽³⁾ ، ولعل إمكان تحقيق تصور يميز بين الانفتاح والانفلات على مستوى النص في بنيته والقراءة والتأويل بوصفها فعل التحقيق وحيز الإمكان والموضوع الجمالي بوصفه ناتجاً عن النص والقارئ المؤول وفعل القراءة والتأويل ، يتحقق فيما قدمناه عن البنية النصية في المبحث السابق وما نحن بصدد تقديمه من مداخلة عملية إنتاج الموضوع الجمالي في مراحله وطبيعة تشكله والعوامل المضافة للبنية النصية التي تسهم وتساعد في تحديد شكله النهائي .

(1) ينظر : القراءة الرحلة والقارئ المرتحل ، د. عبد الحق بلعابد ، ضمن كتاب أعمال ندوة القراءة وإشكالية المنهج : 51 - 67 .

(2) ينظر : شعرية القراءة ، أدونيس ، مج : الآداب ، ع : 7-9 ، 1985 ، بيروت : 17 .

(3) ينظر : أسئلة الإبداع في الأدب العربي المعاصر ، أحمد الميريني ، دار الطليعة ، بيروت ، 1985 : 16 .

على أننا ننطلق من مبدأ مهم يتمثل في تعاطينا مع الموضوع الجمالي عبر عملية بنائه وما يداخل هذه العملية من الفعاليات التي تنتجها بشكله النهائي ولا تتعاطى معه كحقيقة راهنة جاهزة ، حتى في الجانب التطبيقي هنا سنتعامل مع الموضوع الجمالي المتحقق من خلال محاولة إعادة ترتيب مراحل أو مستويات وجوانب تشكل هذا الموضوع الجمالي عبر رجوعنا للبنية النصية للنص المقروء والممارسة والفعالية القرائية والتأويلية التي حققها (الغذامي) ، غير غافلين عن حقيقة التداخل بين البنية النصية والموضوع الجمالي ، الذي يمنح القراءة والتأويل إمكان تحقيقها ويؤسس العلاقات النصية التي تتشكل على وفقها دلالات للنص وتتنامى ناتجة عن حركيتها المستمرة⁽¹⁾ ، وهو ما يقودنا في النهاية للقول بتعدد القراءات .

التزامن والتعاقب

يتحدد الموضوع الجمالي بتحقيق أفقين الأفق التزامني والأفق التعاقبي ، ففي حين يتوافر أفق التزامن على تحقيق الممكنات من العلاقات النصية داخل بنية النص ، فإن أفق التعاقب يتوافر على إعطاء تصور مهم عن طبيعة تشكل دلالات النص وتطور هذه الدلالات⁽²⁾ ، وإذا كان البنيويون غنوا بتتبع الأفق التزامني منطلقين من البنية النصية ، فإن السيميائيين يولون عنايتهم بالأفق التعاقبي مضافاً لأفق التزامن⁽³⁾ ذلك أن ((الانشغال بالمعنى يدفع بالتفكير في ماضي العلاقات اللسانية ووضعها الحالي))⁽⁴⁾ ، الأمر الذي يدفعنا باتجاه القول باندماج الأفقين سبيلاً لبناء الموضوع الجمالي غير بعيد

(1) ينظر : الأدب والغربة ، عبد الفتاح كيليطو ، دار الطليعة ، بيروت ، 1982 : 29 .

(2) ينظر : النقد النصي ، جيزيل فالانسي ، ترجمة : رضوان ظاظة ، سلسلة عالم المعرفة ، ع : 221 ، مايو ، 1997 : 172 .

(3) ينظر السيميائيات وإستراتيجية بناء المعنى ، د. نصر الدين لعياضي ، مج : الباحث الاجتماعي ، ع : 10 ، سبتمبر 2010 : 42 .

(4) المكان نفسه .

عما قدمناه آنفاً عن البنية النصية وما تحققه من طبيعة وشكل العلاقات داخل النص⁽¹⁾ ، ممارسة وبناءً وتحقيقاً على الأفقين ، إن مداخلة البنية النصية عبر الأفق التزامني لتحديد نوع وشكل العلاقات النصية داخل النص الواحد تحدد المسارات التي يمكن أن يحقق من خلالها القارئ الموضوع الجمالي وتبقى الممارسة التأويلية مرتهنة بشكل فاعل ورئيس على تلك العلاقات التي قد تتوافق أو تختلف ليسرع المؤول باختيار ما يمكن أن تتوافق منها ، ويشكل تأويله وفقاً لاتساق تلك الاختيارات وتشاكلها دلاليًا⁽²⁾ ، غير أن ما يمنحه الأفق التعاقي من إمكانات توسع التعاطي مع العلاقات الدالة عبر فضاء متنامٍ لاشتغال تلك العلاقات وإعطائها طيفاً أوسع دلاليًا تجعل من تحقيقه أمراً ضرورياً لإغناء الدلالة ، إذ مع كوننا نتعامل مع الدلالة للعلاقات الممنوحة من البنية النصية والمكشوفة عبر تحليل تلك البنية ، غير أن جانباً مهماً من تشكل الدلالة يبقى محكوماً بفهم التطور الذي طرأ على الدلالة عبر تاريخ تداولها⁽³⁾ ، وهو الجانب الذي لا يمكن على أية حال التضحية به ؛ لأنه متوافر على جانب مهم من التعرف على احتمالات أكثر للدلالة مما لو اكتفينا بالأفق التزامني فحسب ، وهو ما يقود لإغناء طيف الدلالة من إمكانية أوسع ضمن فعالية الاستبدال التي تتيح للمؤول خيارات متعددة ، وهو ما ينعكس على النهوض بتأويل مستند لاتساق دلالي وتعمق في استحضار الدلالات الغائبة والمطمورة في البنية العميقة للنص والتي دائماً ما يحاول النص إخفاءها على القارئ⁽⁴⁾ ، إن تأكيدنا على الأفق التعاقي ذو صلة وثيقة بضرورة استحضار المداليل السابقة للدال والمعاني السابقة للمداليل والتي تخلق عنها لصالح الدلالة الراهنة ، في عملية القراءة والتأويل ، ذلك أن

(1) ينظر : الفصل الثالث ، المبحث الأول .

(2) ينظر : النص الغائب تجليات التناس في الشعر العربي : 21 - 22 .

(3) ينظر : مدخل إلى فلسفة جاك دريدا ، سارة كوفمان وروجيه لابورت ، ترجمة : ادريس كثير وعز الدين الخطابي ، الدار البيضاء ، 1991 : 83 .

(4) ينظر : النص الغائب تجليات التناس في الشعر العربي : 23 .

قراءتنا وتأويلنا محكومان بفهمنا لتاريخ الدلالة وتاريخ النص بشكل عام⁽¹⁾ ، ويمكننا الاستدلال على ذلك بدلالة مفردة (فاطمة) ، إذ نعلم جميعاً بأنها اسم علم مؤنث دال على ابنة الرسول الأكرم (ص) ، ولكنها اكتسبت دلالة أخرى إبان الاستعمار الفرنسي للجزائر ، حيث كانت تدل على (الخادمة) ؛ لأن السواد الأعظم من الخادومات اللاتي كنَّ يعملن في بيوت الفرنسيين وذوي الجاه كنَّ يحملن هذا الاسم ، ومع بدء مرحلة جديدة بعد استقلال الجزائر أخذت هذه الدلالة بالانحسار شيئاً فشيئاً لتعود دلالة الاسم إلى الدلالة السابقة التي تعني اسم العلم المؤنث⁽²⁾ ، وهنا نتساءل إذا كنا بإزاء قراءة رواية جزائرية تقع أحداثها في تلك الحقبة فكيف ستكون طبيعة قراءتنا وتأويلنا لو كنا خارج الأفق التعاقبي للدلالة ؟ والجواب معروف من أصل التساؤل بالطبع ، وكذلك الحال في استيراد بعض الصياغات من الثقافات الأخرى ، فدلالة جملة (أسخنت صدري) في ثقافة كالثقافة الفرنسية مثلاً تختلف عن دلالتها في الثقافة العربية ، إذ إن مقتضى فهم الدلالة متعلق بتأثير الجانب الجغرافي وما تقرضه طبيعة وشكل البيئة بين باردة و صحراوية حارة ، إن فهمنا لدلالة هذه الجملة يقتضي ترجمتها للعربية (أثلجت صدري) ، ولنا أن نعرف ما لو كنا أمام نص عربي يستورد تلك الجملة ونكون كمؤولين خارج فهم واستحضار الأفق التعاقبي ، إن التعاطي مع هذه الأمثلة بالاختصار على الأفق التزامني يغيب كثيراً من دلالتها بل قد يجعل الدلالة مغايرة تماماً للمسار الذي يفترض أن تسير فيه إذ العناية بالتزامن فقط معني بما تعنيه العلاقات النصية في شكلها الراهن والآن وأثناء القراءة دون استدعاء أية دلالة سابقة .

ويمكننا أن نطرح جوانب أخرى من استحضار أفقي التزامن والتعاقب منطلقين من مقولة ((التأويل في الحقيقة تأويلات))⁽³⁾ ، فإذا كان التزامن معنياً بـ ((زمن حركة

(1) ينظر : السيميولوجيا ، جوليا كرسيفا ، سوي ، باريس ، 1969 : 52 .

(2) ينظر : السيميائيات وإستراتيجية بناء المعنى : 46 .

(3) تأويلات وتقنيات : 19 .

العناصر فيما بينها في البنية ((⁽¹⁾ المتزامنة تاريخياً وهو ما قدمناه سابقاً في فصل سابق ضمن مفهوم اندماج الآفاق ، إذ التأويل في جانب تعلقه بالذات المؤولة مرهون بشكل ما بمدى مقروئية تلك الذات وتوافرها على مستوى معتد به من القراءات التأويلية الأخرى لمداخلة النص بفعالية التأويل ، إن ذلك يعني أن نظرتي القراءة والتأويل توافرتا على أبعاد أخرى منحت مفهوم التزامن بعداً آخر مضافاً لما هو عليه لدى البنيويين ، والحال كذلك في إعطاء بعد آخر لمفهوم (التعاقب) فمضافاً لما قدمناه عنه ، يمكننا أن نفهم أن التأويل كنتاج نهائي معبر عنه بالقراءة يستبطن في حقيقته تأويلات عديدة ، إذ إنه محايثة للنص بما هو موسوم به من كونه قائماً على أجزاء مترابطة بعلاقات ، فكل جزء من أجزاء النص متوافر على قابلية التأويل يباشره المؤول بممارسة تأويله ، وهكذا مع بقية الأجزاء ليتكون من خلال ربط هذه التأويلات بعلاقات الاتساق والتشاكل والتأويل بوصفه ناتجاً نهائياً عنها ، على أن تلك العلاقات موصوفة بصفة الترابط والإيجاد ، بمعنى أن علاقة أو مجموعة علاقات تقودنا لإيجاد علاقة أخرى وهكذا حتى نهاية الفعالية التأويلية بناتجها النهائي⁽²⁾ .

إن ما تقدم يوضح لنا طبيعة تشكل الموضوع الجمالي من خلال استيعاب أبعاد حيز الشكل ، إذ هو مرهون بأفقي التزامن والتعاقب ومرتبطة بإمكاناتها في صورته النهائية ، ومع غياب أحدهما فإن الموضوع الجمالي سيتأثر سلباً في بنائه وصورته كنتاج عن القراءة والتأويل ، ولذلك يجب مراعاة حضور فاعل لهما وعدم الاكتفاء بهذا الحضور بل تحقيق اندماجهما للوصول إلى أبعد ما يمكن من فاعلية الممارسة التأويلية .

(1) في معرفة النص - دراسات في الأدب العربي ، يمنى العيد ، منشورات دار الحياة الجديدة ، بيروت ، ط / 3 ، 1985 : 33.

(2) ينظر : النقد والدلالة - نحو تحليل سيميائي للأدب ، محمد عزام ، وزارة الثقافة ، دمشق ، 1996 : 67 .

النسق والتشاكل الدلالي

يؤسس (أمبرتو إيكو) مفهومي النسق والتشاكل الدلالي منطلقاً من مشروعه في الحد من تداعيات التأويل المفرط ، ومعارضاً الممارسة التأويلية التفكيكية التي ذهبت إلى أنه ((لم يعد محتوى العلاقة الجديدة متعلقاً بمحتوى العلاقة الأولى))⁽¹⁾ واصفاً السيرة الدلالية التي تقول إليها الممارسة التفكيكية بأنها ((حالة من الورم الخبيث الإيحائي))⁽²⁾ ، هكذا ينحو (إيكو) منحى مغايراً تماماً للتفكيكية ، إذ يتوافر على إمكان تحقيق التأويل المحايث لمفهوم كلية النص ووحدته العضوية وهو ما يمنحنا قراءة مترابطة الدلالة منطوقة من حدود البنية النصية وملتزمة بها ضمن حدود فعاليتها وتأثيرها ، إن عناصر البنية النصية وعلاقتها تحقق كل واحدة منها علامة تحيل إلى معنى معين ، والحال أننا وفقاً لذلك سنشهد علامات كثيرة جداً⁽³⁾ ، على أن بعضاً من هذه العلاقات سيؤخذ بنظر الاعتبار في فعالية التأويل مع افتراض أن عملية إقصاء ستطال البقية الأخرى ، فأى هذه العلامات ستشكل الدلالة المعتد بها والمنظورة كوحدة رئيسة يبنى عليها التأويل ؟

إنها وباختصار شديد تلك العلامات التي تتوافق مع بعضها لتكون ما يدعى بـ (النسق) ، ذلك التوافق الذي ينظر إليه من جانب الوظيفة الدلالية والترابط العلائقي ، والذي يحقق وحدة الدلالة وترابطها الكلي⁽⁴⁾ ، وباستنادنا في عملية التناسق هذه إلى العناصر النصية وعلاقتها نكون قد وثقنا العرى بالبنية النصية ، محققين ترابط النسق كفاعلية أولى بالبنية النصية الأمر الذي يشكل عائداً موضوعياً ويحقق مصداقية للتأويل باعتماده على عنصر ثابت في النص - البنية النصية - وهو بذلك يبعد التأويل عن

(1) من فلسفات التأويل إلى نظريات القراءة : 71 .

(2) المكان نفسه .

(3) ينظر : شعرية الأثر المفتوح : 87 .

(4) ينظر : بلاغة الخطاب وعلم النص ، عالم المعرفة ، ع : 164 ، 1992 : 235 - 245 .

التداعيات المنفلتة عن الموضوع والمستندة للذات كفاعل أوجد في التأويل⁽¹⁾ ، وإذا كانت هذه أول فعالية تركيبية نمارسها كمؤولين في بنائنا للموضوع الجمالي مع ما تكتسبه من علاقة وثيقة بالبنية النصية وما ينتج عنه من موضوعية التأويل فإن لنا أن نتصور عوائدها كفعالية تأسيس تكتسب أبعادها في الفعاليات اللاحقة لها إيجاباً وتأثيراً⁽²⁾ ، ومن ثم فإنها تشكل عنصراً فاعلاً في منع حصول الانفلات التأويلي والإسقاطات الذاتية البعيدة عن بنية النص وطبيعته ، وفي حين أن عملية التناسق (تشكيل الأنساق) هذه ستتم بين عناصر النص وعلاقاته فأنا سنكون بإزاء تشكل أنساق متعددة في النص الواحد ، ومع بقاء الممارسة الإقصائية كوجه من أوجه فعاليات التأويل فإن ما تم آنفاً من إقصاء عدد من العلامات المشكلة للدلالة والتي أنتجت النسق سيحدث وبشكل مماثل مع الأنساق المتعددة ، إذ إن عدداً منها سيتم بناء التأويل عليه في حين يقصى العدد الآخر ، وهنا نكون أمام مفهوم (التشاكل الدلالي) إذ يقتضي أن يباشر المؤول في النظر إلى الأنساق التي لا بد من افتراض أن عدداً منها قد يتناقض ويتعارض ولا سبيل معه لقبول كل الأنساق بتعارضها وتناقضها في سياق تأويلي واحد وهو ما يدعوه إلى عنصر المشكلة كأداة لإقصاء الأنساق التي تتعارض مع الأنساق المتشكلة التي تحدد أهميتها بناءً على ترابطها العميق مع البنية النصية⁽³⁾ ، وبعبارة أخرى فإننا بعد بناء الأنساق سنحدد ما هو رئيس ومهم منها وما هو أقل أهمية ، وهذا التحديد يستند بشكل رئيس إلى مدى علاقة الترابط مع عناصر البنية النصية ، وأمام هذا الفرز والتحديد تبقى الأنساق الأقل أهمية مرهونة في دخولها إلى حيز بناء الموضوع الجمالي عبر فعالية التأويل بمدى

(1) ينظر : الحجاج في الصورة البلاغية ، د. بوجمعة شتوان ، مج : الأثر ، العدد الخاص بأشغال الملتقى الدولي الثالث في تحليل الخطاب : 39 - 40 .

(2) ينظر : ظاهرة التلقي في الأدب ، محمد علي الكردي ، مج : علامات ، مجلد : 8 ، ج / 32 ، 1999 : 21 - 22 .

(3) ينظر : نقد مفهوم علم الأدب عند رولان بارت ، خريستو تودوروف ، ترجمة : د. حسين جمعة ، مج : الآداب الأجنبية ، ع : 101 - 102 ، شتاء - ربيع 2000 ، دمشق : 78 .

تعارضها وتوافقها مع النوع الأول من الأنساق ، فما كان منها متوافقاً يدخل في عملية البناء وما كان منها متعارضاً ومتناقضاً يتم إقصاؤه ، وفعالية الإقصاء تبقى مستمرة حتى نهاية التأويل بإنتاج الموضوع الجمالي والإشهار بحدوث القراءة للنص⁽¹⁾ ، ويدخل مفهوم (مدار الحديث) كمورد فاعل ضمن هذه الممارسة التأويلية المعتمدة على الإقصاء وصولاً للتشاكل الدلالي ، إذ يحدد علاقات الأنساق بعناصر البنية النصية عبر افتراض أن لكل نص بوصفه خطاباً موضوعاً معيناً لا بد من استقصائه ، على أننا يمكن أن نؤشر بوضوح فيما يخص تشكيل الأنساق وتحديد مدار الحديث بأنهما يتمان وفق افتراض تأويلي⁽²⁾ وهو ما قد ينذر بالاعتباطية الذاتية التي قد تصدر حقوق الموضوع في تشكيل الدلالة والنسق والموضوع الجمالي وعموم القراءة عبر تأويل ذاتي محض ، لكن مثل هذا الإشكال يندفع بالنظر إلى أن الافتراض التأويلي المحدد لطبيعة تشكل الأنساق وتحديد مدار الحديث إنما ينطلق من البنية النصية التي حددت سلفاً عبر تراكيبها طرائق متعددة لتداول النص والتعاطي معه قراءة وتأويلاً ، وهذا لا يعني أن كل الطرق تكون صالحة لارتداد النص ، ووفقاً له فإن الافتراض التأويلي ذاته يكون مرتين بالنص من خلال بنيته النصية ومن ثم فإننا لن نعدم مشاركة النص في تحديد الرهانات التأويلية التي ستحدد مدار الحديث وتشكل الأنساق وتقضي عدداً من العلامات وتقضي عدداً من الأنساق⁽³⁾ .

إن ما تقدم يفترض أن يكون الموضوع الجمالي في بنائه مرهوناً بأدوات إجرائية قادرة على ضبط وموازنة التأويل في تعاطيه معه بدءاً من تحديد العلاقات وانتهاءً بتحقيق الموضوع الجمالي ، ويرى (ايكو) أن التأويل المستند إلى ما تقدم سيكون قادراً على أقل تقدير في أن يشخص التأويلات الجانحة عن النص المفرقة في الذاتية⁽⁴⁾ ، وهو ما يقدم

(1) ينظر : العلامة ، أمبرتو إيكو ، ترجمة : سعيد بنكراد ، المركز الثقافي العربي ، بيروت ، 2008 : 131 .

(2) ينظر : العلامة : 133 .

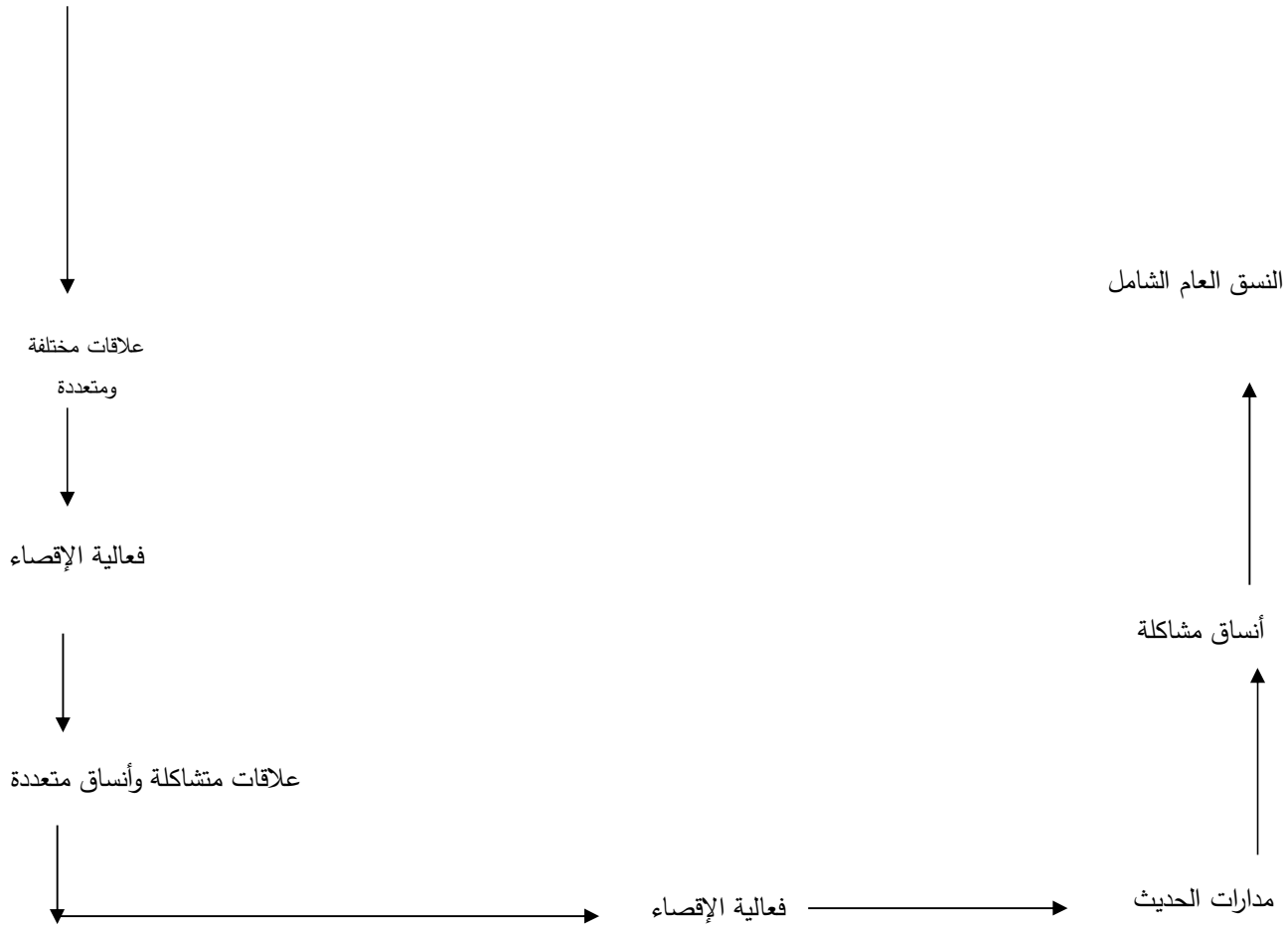
(3) ينظر : التأويل بين السيميائيات والتفكيكية : 11 .

(4) ينظر : التأويل بين السيميائيات والتفكيكية : 148 .

لنا في الوقت ذاته جانباً مهماً من الأداة الإجرائية والضبط المعياري الذي يمكننا ضمن فعاليات نقد النقد من متابعة التأويلات التي حققها (الغذامي) والكشف عن ارتباطها بمعطيات النص من عدمه ، إن من الممكن هنا أن تتصف تتبعاتنا بمقدار من الموضوعية تجنباً للوقوع في الذاتية ، وما قدمناه ينطبق أيضاً على الجانب التطبيقي الذي نروم إنجازه ضمن هذا المبحث ، وذلك بارتكاز قراءتنا للمعايير ذاتها التي أوضحناها .

مخطط بناء النسق

المؤول ← العناصر النصية ← علاقات بين العناصر النصية



الدلالة الصريحة والدلالة الضمنية

يتداخل في النص مستويان من مستويات العلاقة الدلالية ، مستوى الدلالة الصريحة ، ومستوى الدلالة الضمنية وتتأسس الأولى على مفهوم التعيين الذي يقتضي تعيين دلالة واضحة وصريحة لا تحتاج للتأويل سبيلاً لفهمها ، أما الثانية فتتأسس على مفهوم التضمين الذي يقتضي دلالة غير واضحة تمتاز بالتعقيد والغموض وتحتاج للتأويل سبيلاً

لفهمها⁽¹⁾ ، وهي في طبيعتها تقترح عدة احتمالات تأويلية وتفترض تعدد الدلالة بناءً على معطياتها الممنوحة من طبيعتها التركيبية ، وإذا كان التأويل يختص بهذا المستوى من الدلالة فإنه لا يعني إهمال المستوى الآخر من الدلالة ، فطبيعة النص تفترض وجود هذين المستويين في النص الواحد⁽²⁾ ، فالدلالة الصريحة على جانب وظيفي مهم يتمثل في تحقيق إمكان إدراك النص في أدنى مستويات التعرف عليه ، وهو مستوى الدلالة المعجمية أو الحرفية التي يفترض حصولها لتحقيق أبسط مستويات التواصل بين النص والقارئ ، ولا يمكن بأية حال نفي هذا المستوى من الدلالة عن النص وإلا لكان أمام نفي العلاقة التواصلية في أدنى مستويات حصولها ، ولا تقف أهمية الدلالة الصريحة على جانب الوظيفة الاتصالية فحسب بل إنها تتداخل مع الدلالة الضمنية في علاقات تمنح الأخيرة أبعادها الممكنة ، فالدلالة الضمنية مرهونة بشكل ما بعلاقتها مع الدلالة الصريحة⁽³⁾ ، كما أنها تحدد بشكل فاعل مسار الدلالة الضمنية على وفق مفهوم المانع ، أي أنها تمنع من انزلاق التأويل الممارس على الدلالة الضمنية ، وإذا كان التأويل لا يطل الدلالة الصريحة فإنه يؤثر كما يتأثر في إعطائها شكلها النهائي من خلال المجاورة مع الدلالة الضمنية ، ولعل الأمر أشبه في إبراز جمالية لون ما في لوحة تشكيلية ، فما يمكن التقاطه من قبل المشاهد للوحة فنية على أنه يشكل العناصر الرئيسة والإيحائية في اللوحة يعطي بشكل أو بآخر جمالية الألوان الهامشية أو الثانوية والتي تأثرت بطبيعة وشكل التأويل الذي مورس على حقل الإيحاء الممنوح من عناصرها الإيحائية الفاعلة⁽⁴⁾ .

(1) ينظر / ماهي السيميولوجيا ، بيرنار توسان ، ترجمة : محمد نظيف ، أفريقيا الشرق ، الدار البيضاء ، ط / 2 ، 2000 : 46 - 47 .

(2) ينظر : النقد النصي : 189 .

(3) ينظر : التداولية اليوم - علم جديد في التواصل ، آن روبرول ، جاك موشلار ، ترجمة : سيف الدين دغفوس ، محمد الشيباني ، المنظمة العربية للترجمة ، الدار الطليعة ، بيروت ، ط / 1 ، 2003 : 183 .

(4) ينظر : النقد النصي : 189 .

وإذا كان من الممكن الإمساك بالعناصر أو التراكيب المولدة للدلالة الضمنية بشكل يسير لاحتوائها على الرمزية أو خرقها للنظام اللغوي أو انتهاكها للأسلوب الشائع فإنها - الدلالة الضمنية - قد تمارس أحياناً لعبة الاختفاء ومخاتلة القارئ لتظهر غير عناصرها بشكل الدلالة الصريحة وهي تستبطن جانباً معقداً من الدلالة يحتاج لفعالية التأويل ، ولعبة الاختفاء هذه تتحقق بأشكال وصور مختلفة ، لعلنا نستدل على واحدة منها من خلال شكل التنسيق النصي الذي يحدد وجود تركيب أو جملة ما في مكان محدد من النص ليعطي دلالة ما قد يتوهم القارئ لأول وهلة بأن المحمول الذي بإزائه يتمثل في الدلالة الصريحة ولكنه ما أن يعقد الصلات والعلاقات الرابطة بينها وبين أجزاء النص حتى يدرك أنها تحمل دلالة ضمنية تجعله يعاود تأويله معتمداً على ما تم كشفه من تلك الدلالة ، ومعه فإن التأويل يباشر الكشف عن الدلالة الضمنية في مراحلها المتلاحقة وعبر ارتجاعات ترتفع بمستوى الكشف المتلاحق⁽¹⁾ .

وإذا كانت الدلالة الضمنية مرهونة بمحددات تفرضها الدلالة الصريحة فإن هذا لا يعني إطلاقاً القول بانغلاقها ، ذلك أن مدلولاتها منفتحة على التأويل⁽²⁾ وقابلية الدلالة الضمنية تبقى مفتوحة لإمكانات متعددة ، فهي غير مقيدة لذاتها بل محددة بالدلالة الصريحة فحسب ، الأمر الذي يذهب بنا إلى تصور فضاء متنامٍ من إمكانات تعدد الدلالات الضمنية ، وبعبارة أخرى فإن الدلالة الضمنية تمثل سيرورة من إنتاج الدلالات وصولاً للدلالة النهائية المتسقة والمتشاكلة مع بقية الدلالات الضمنية والصريحة منها والتي تمثل في النهاية المستوى الدلالي للنص ، إن فهمنا للدلالة الصريحة والضمنية بهذه الصورة يعطينا تصوراً عن طبيعة تشكل الموضوع الجمالي ، فهو سيرورة متنامية من إنتاج الموضوعات الجمالية التي تتشاكل وتتسق للتشكيل الجمالي الشامل للنص .

(1) ينظر : مفهوم المقاصد وعلاقتها بالخطاب - تناول تداولي للخطاب الثوري ، فضيلة يونس ، مج : الخطاب ، منشورات مخبر تحليل الخطاب ، جامعة مولود معمري ، تيزي وزو ، الجزائر ، ع : 6 ، 2010 : 291 .

(2) ينظر : القارئ النموذجي - طرائق تحليل النص الأدبي ، أمبرتو إيكو ، ترجمة : أحمد بوحسن ، منشورات اتحاد كتاب المغرب ، سلسلة ملفات ، الرباط ، ط / 1 ، 1992 : 160 .

ومن خلال ذلك يتضح دور الدلالة الضمنية في تأجيل المعنى⁽¹⁾ إذ إن وجود إمكانات أخرى لبناء الموضوع الجمالي بعد الانتهاء من صياغته العامة يؤكد ذلك ، بل إن الموضوع الجمالي ذاته مقابلاً بمفهوم المعنى بوصفه غير ممسوك يزيد من هذا التأكيد ، وإذا كانت الدلالة الصريحة تحقق عناصر اليقين في النص بحالها من طبيعة وخاصة في تحقيق معنى غير قابل للشك ، فإن الدلالة الضمنية تحقق الارتياح والشك ، أي أنها تحقق مناطق الشك في اليقين والارتياح في عملية القراءة بما تحمله ضده الجدلية من حركية تجعل القراءة تتدفع باتجاه الفعلية التأويلية⁽²⁾ ، وهو ما يحقق في جانب مهم منه التوتر النصي ، إذ تبدأ المعطيات النصية المختلفة في استعراض احتمالات على القارئ الذي يحقق ذلك التوتر النصي لديه ، توتراً وتحفزاً قرائياً تأويلياً ويدفعه لاستحضار كوامن الذات وقدراتها على محاكاة هذا التوتر النصي الذي يعرض ضمن فعاليته احتمالات متعددة ليقف أمامها القارئ متسائلاً عن الغائب منها الذي لم يتم الكشف عنه حتى اللحظة الراهنة في القراءة ، الأمر الذي يستحث القارئ على التساؤل عن الغائب الذي يجهله تماماً أو الذي بدا أن ثمة ما يشير إليه دون أن يتم بناؤه ، إن التوتر النصي يحقق توتر الذات القارئة والمؤولة ويدفعها لاستحضار ما يمكنها من الغائب في النص⁽³⁾ ، هذا الغائب الذي تدل عليه علاقات معينة في النص وعملية استحضار الغائب تسهم في تعليل العلاقات النصية وتفسيرها وتدفع باتجاه استحضار آخر واستدعاء لعلاقات أخرى كانت غائبة عن وعي الذات ، كل ذلك يتحقق من خلال التساؤل الأولي عن الدلالة الضمنية وصولاً لتحقيق بنائها وما تستدعيه من الكشف والاستحضار لعناصر أخرى في

(1) ينظر : الظاهر والخفي في النص - القصة نموذجاً ، محمد الناصر العجيمي ، ضمن كتاب صناعة المعنى وتأويل النص ، منشورات كلية الآداب ببنوبة ، سلسلة الندوات ن مجلد : 8 ، دار العلم ، تونس ، 1992 : 323 .

(2) ينظر : تحليل النصوص الأدبية قراءات نقدية في الشعر والسرد ، عبد الله إبراهيم ، صالح هويدي ، دار الكتاب الجديد المتحدة ، بيروت ، ط / 1 ، 1998 : 61 - 79 .

(3) ينظر : هيرمنوطيقا الشعر العربي - نحو نظرية هيرمنوطيقية في الشعرية ، د. يوسف اسكندر ، سلسلة الفكر العراقي الجديد - أكاديميون جدد ، 11 ، دار الشؤون الثقافية ، بغداد ، ط / 2 ، 2009 : 242 .

الموضوع الجمالي ، وإذا كانت الدلالة الضمنية تسهم في استحضار الغائب فإن التقائنا في قراءتنا للنص الأدبي وشعورنا الأولي بالغائب فيه يؤكد على توفر الدلالة الضمنية ، إذ هي متمظهرة على صورة بنية ظاهرة في النص أو عنصر من عناصره وتستبطن علاقات ودلالات غائبة ، وهي بذلك تمثل فضاء الغائب الذي يدل على وجوده بشكل شفاف وخفي في النص ويحتمل دلالات تشكله وتدل عليه في الوقت ذاته ، إنها - الدلالة الضمنية والغائب - متشابهان من هذه الناحية في التمظهر والاستبطان الدلالي⁽¹⁾

ولعلنا نضيء جانباً آخر من العلاقة بين الدلالة الصريحة والدلالة الضمنية باستعارتنا مصطلح (السكت التركيبي) من (يوسف اسكندر) إذ يختص هذا المصطلح باللغة الشعرية ويتأسس من حقلين هما : الحقل المعياري والحقل الإحراقي و ((يتكون الحقل المعياري من عناصر ومكونات دلالية وتركيبية معيارية يمكن قراءتها وتفهمها على وفق التواصل الاعتيادي أو على وفق تواصل شعري سابق ، تكرر ، حتى أصبح اعتيادياً ، ويتكون الحقل الإحراقي من نقض ومعارضة وتعبير المكونات المعيارية فينشأ السكت التركيبي من التعارض بين الحقلين))⁽²⁾ ، فإذا كنا قدّمنا آنفاً جانباً من العلاقة بين الدلالة الصريحة والدلالة الضمنية قائماً على طبيعة التشكل النصي الذي يفترض وجودهما ومجاورتهما في النص الواحد ، وعلى مستوى التأثير والتأثر التداخلي القائم على الجانب الوظيفي لكل منهما وكون الأولى تمثل محدداً من محددات الانزلاق التأويلي في ترسيم الدلالة الضمنية وإعطائها أبعادها الممكنة ، فنحن الآن أمام جانب آخر من العلاقة نفترض التعارض بينهما ، إنه التعارض على مستوى التصريح بهما ضمن شكل النص ، أو لنقل اللحظة الأولى للالتقاء القارئ بالنص ، إذ إن الدلالة الضمنية تتأسس على مفهوم الخرق والانتهاك ، فإذا كانت الدلالة الصريحة معطاة من عنصر أو عناصر تركيبية

(1) ينظر : بلاغة الخطاب وعلم النص : 229 .

(2) هيرمنيوطيقا الشعر العربي : 180 .

موافقة للمعيار بعموميته لكونها متوافقة مع الدلالة المنطقية أو مشاكلة لشعرية الحياة اليومية ، لا تحمل غرابة أو خرقاً للمعيار الثابت والمعتاد ، فإن الدلالة الضمنية تتحقق من خرق وانتهاك هذا المعيار لتزعزع ثباته⁽¹⁾ ، ولعلنا نمثل لذلك بجملة شعرية واحدة (للسياب) وهي :

في الكهف المعتم والظلماء

نقالة إسعاف سوداء⁽²⁾

إذ إن (نقالة إسعاف) لوحدها تحمل الدلالة الصريحة فقط ، ولكن دخول مفردة (سوداء) غيرت مستوى الدلالة وأحالتها إلى الدلالة الضمنية بما مثله من خرق للمعيار الدلالي الصريح من مخالفة المعتاد في اللون ، ويظهر التعارض في الجملة الشعرية الواحدة بين أجزائها هنا ، هذا التعارض الذي أحالنا إلى التعاطي مع الجملة الشعرية على وفق ما تكتنزه من دلالة ضمنية ، والأمر كذلك في التعارض بكل أشكاله ومستوياته ، بين الجمل الشعرية والمقاطع وغيرها ، وهو ما يدل على علاقة أخرى بين مستويي الدلالة ، قائمة على التعارض والمانح والمدلل في الوقت ذاته على الدلالة الضمنية .

إن ما يداخل الدلالة الصريحة هو التفسير ، في حين يداخل التأويل الدلالة الضمنية منتجاً لها⁽³⁾ ، ولكننا سبق أن أوضحنا أن التأويل يؤثر في إعطاء الدلالة الصريحة صبغتها وأهميتها داخل النص ، وتأكيداً على ذلك فإن لنا أن نتصور تداخلاً تأويلياً محايثاً لتداخل المستويين الصريح والضمني ، إذ إن التأويل يداخل العلاقات بينهما ليعيد ترميم

(1) ينظر : الظاهر والمخفي - طروحات جدلية في الإبداع والتلقي ، عبد الملك مرتاض ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 2005 : 95 .

(2) المجموعة الشعرية الكاملة : 328 .

(3) ينظر : نظرية المعنى بين الشرح والتفسير والتأويل ، محمد حامد ، سلسلة الندوات ، جامعة تونس ، 1 ، كلية الآداب بمنوبة ، مجلد : 8 : 139 .

ما هو غير واضح منها وغامض على فعالية الكشف ، ويحقق بعض العلاقات التي كانت غائبة في حيز الممكن ، وهذا يعني أن التأويل سينفذ إلى ما نحسب أنه خارج نفوذه ومداخلته .

ومع أن الداليتين تتحققان في مستويات متعددة في النص وضمن عناصره كافة بدءاً من الكلمة وانتهاءً بالنص ككل فإن الإشارة المهمة هنا هي النظر بشكل دقيق والتأكيد على العلاقات بين أجزاء الدلالة الواحدة وبينهما أيضاً ، وهذا يتأتى من حقيقة تحقق الدلالة عبر وحداتها مما نفهمه في أبسط تحققاتها ضمن ثنائية الدال / المدلول ، فالعلاقة الدلالية متحققة في أبسط إمكاناتها ، وتبقى تحقيقاتها مرهونة بها وبالمؤول على حد سواء⁽¹⁾ .

المؤول منتج الموضوع الجمالي

في حديثنا عن دور المؤول كذات منتجة للموضوع الجمالي نستهدف تعرف هذا الدور الذي قد يبدو بحاجة لإعادة التذكير به بشيء من التفصيل في حدود عملية بناء الموضوع الجمالي ، ويمكننا البدء بذلك من خلال استعارة ثلاثة أمثلة في كتاب (المضمّر) لـ (كاترين كيربرات - أوريكيوني) وسنجري تحويراً للمثال الثالث ، والأمثلة هي⁽²⁾ :

1. المتكلم : هلا أقفلت النافذة ، فالجو بارد في الخارج .

المخاطب : آه...حقاً ، لأنني إذا أقفلت النافذة ستخف حدة البرد في الخارج ؟

2. المتكلم : كم أنت جميلة اليوم !

المخاطبة : شكراً على رأيك فيّ في باقي الأيام ! .

(1) ينظر : الهرمينوطيقا والترجمة - مقارنة في أصول المصطلح وتحولاته ، د. عبد الغني بارة ، مج : الآداب العالمية ، اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، ع : 133 ، شتاء 2008 : 95 .

(2) المضمّر ، كاترين كيربرات - أوريكيوني ، ترجمة : رتيا خاطر ، مراجعة : د. جوزيف شريم ، المنظمة العربية للترجمة ، بيروت ، ط / 1 ، 2008 : 516 - 519 .

3. المتكلم : إذا أحب الرجل امرأة ، سيكون من الأصعب عليه أن يحب امرأة أخرى في المستقبل .

وقد وردت هذه الأمثلة في الكتاب أعلاه مستحضرة سوء النية في التأويل ، ولعلنا نحقق من خلالها مقارنة لفهم دور المؤول في توجيه الخطاب ، كمقدمة لحديثنا عن دوره في تحقيق الموضوع الجمالي ، فالمثال الأول يقع فيه تحريف دلالة الجملة الأولى بشكل واضح جداً ، يظهر من خلال الأسلوب التهكمي للمخاطب ، والذي يكشف من خلال المغالطة المنطقية ، إذ تتحدد دلالة الجملة الأولى فيها من سياق الموقف الذي تعبر عنه ، ومثل هذا الكشف في التحريف يبدو سهل المنال علينا كمتلقين للجمليتين ، إذ إن المخاطب عمد إلى تحريف الدلالة بواسطة تأويلها تأويلاً خارجاً عن حدود معطياتها ليحقق تهكمه بالمتكلم ، في حين أن الممارسة المناسبة هنا هي التفسير فقط في حدود سياق الموقف ، أما المثال الثاني ، فيفترض أحد احتمالين : الأول هو تحريف دلالة الجملة الأولى من قبل المخاطبة مستنداً إلى سوء نية المخاطبة ، وهو الأمر الذي يبدو الكشف عنه يسيراً كما هو الحال في المثال الأول ، مستنديين في ذلك على سياق المرفق المماثل والمتحقق بشكل متكرر في سلوكيات الحياة اليومية ، ولكن الاحتمال الثاني يفترض غياب دلالة أخرى ، كما لو كان هناك مبرر ما لوقوع إجابة المرأة في الجملة الثانية على هذا النحو ، لكننا نحتاج في مثل هذه الحالة لعنصر نصي يشي بهذه الدلالة أو قرينة ما ، ومعه يبدو أن الأمر هنا اختلف عما هو عليه في المثال الأول ، أما في المثال الثالث فيمكننا أن نعطي احتمالاً لدلالته يتمثل في أن حب الرجل للمرأة في أصله صعب ، ومعه فأن يحب رجل امرأة هذا يعني أن احتمال حبه لامرأة أخرى مستقبلاً أصعب ، وتتأتى هذه الدلالة من دلالة صيغة (أفعل) ، ولكن ثمة دلالة أخرى معارضة لها ، تتمثل في أن حب الرجل للمرأة ليس صعباً في أصله ، ولكن ما يجعل أصعب مستقبلاً هو أن يحب الرجل امرأة ، أي أننا هنا بصدد القفز على دلالة صيغة (أفعل) بشكل مباشر للتوكيد وتكثيف المعنى المراد منه صياغة الجملة بهذا الشكل ، وكأن

الجملة تقول : (ليس صعباً أن يحب رجل امرأة في المستقبل ، ولكن ما يجعله أصعب هو أن يكون قد أحب [امرأة أخرى]) ، ولو افترضنا أن الدلالة الأولى لهذا المثال كانت محرفة فإن الكشف عن التحريف هنا يبدو أصعب في الكشف الذي تحقق في المثالين الأول والثاني ، لأن الكشف في المثال الأول استند على ثلاثة عوامل ، هي : دلالة التحكم ، ودلالة المغالطة المنطقية ، ودلالة سياق الموقف ، في حين استند في المثال الثاني على سياق الموقف واحتمل الدلالة المغايرة كمكان متوقف على دلالة غائبة يتحقق متى ما توافرت ، أما هنا في المثال الثالث فقد غابت هذه العوامل لتبقى الذات المؤولة أمام الجملة تحدد دلالتها على وفق معطيات الذات وتجربتها .

إن ما قدمناه من الأمثلة يفتح نافذة الحديث عن دور الذات المؤولة ، فمع أن التأويل محدد بشروط النص إلا إنه كثيراً ما تكون المعطيات النصية في حيز السكوت ويبقى نطق الذات المؤولة هو العامل الفاعل في شغل الفراغات لتحقيق الدلالة⁽¹⁾ ، على أننا ندرك الفرق بين ما قدمناه آنفاً من أمثلة وبين النص الأدبي بما يحمله من خصائص التكثيف والتشظي الدلالي ، والتعقيد على مستوى التركيب والدلالة ، مع ما يكتنفه من مناطق الغموض التي يصح معها التأويل فعالية معقدة ومتشعبة الجوانب ومتعددة المستويات ، وإذا كانت الأمثلة السابقة لا تحمل عامل الخرق والانتهاك للمعيار الثابت فكيف سيصبح الأمر مع النص الأدبي الذي تتكرر فيه مثل هذه الخروقات والانتهاكات ؟ وإنه إذا كان من الممكن أن نستند على معيار ثابت كالمنطق للكشف عن تحريف الدلالة كما هو في المثال الأول ، فإلى أي منطق نحتكم في تعاملنا مع النصوص الأدبية ؟ إذا كان الشعر مثلاً في أصله التجنيسي يجنح لمخالفة المنطق والمعقول ؟ وبعبارة أخرى ، إذا كان المنطق الأرسطي والمنطق العلمي ينتهكان بشكل مستمر ومتكرر في النص الأدبي ، فما هو المنطق البديل الذي يجنح إليه المؤول في الموضوع الجمالي وإنتاجه

(1) ينظر : السيميائيات مفاهيمها وتطبيقاتها ، سعيد بنكراد ، منشورات الزمن ، مطبعة النجاح الجديدة ، الدار البيضاء

للمعنى ؟ إن المنطق البديل هو المنطق النصي الذي يعنى ب ((الدراسة الدقيقة للعلاقات الداخلية للنص اعتماداً على مبادئ توليد المعنى وآلياتها ، انطلاقاً من النص ذاته وفي الوقت ذاته محاولة الإبقاء على خصوصية النص))⁽¹⁾ كمنطلق للمؤول الذي يعتمد في الوقت ذاته على منطق آخر وهو المنطق الفني الذي ((هو منطق نوعي خالص ، لأن النعوت والصفات لا يمكن قراءتها إلا في نظام تراتبي تصنيفي))⁽²⁾ ذلك ((لأن مجال الفن ليس هو المنطق الأرسطي ، إن النص منفتح باستمرار على الجديد واللامتوقع))⁽³⁾ وإذا كان ثمة جديد ولا متوقع دائماً في النص وفي عملية بناء الموضوع الجمالي وإعادة بناء المعنى فإن من يحقق هذا الجديد واللا متوقع هو المؤول عبر مداخلته للنص ومعايشته لتجربته التي رهن ذاته تجاهه .

وأمام توصيف الموضوع بالجمال فإن من يستشعر هذا الجمال هي الذات المؤولة ، وهذا الاستشعار بوصفه إدراكاً أولياً هو ما سيحدد نوع ومستوى تعاطي المؤول مع النص ، والإدراك فعالية ذاتية المنطلق مقترنة بموضوع ما وهو هنا النص ، وإذا كان النص يحدد إمكانات الأنساق الخاصة به فإن المؤول هو المعني انطلاقاً من ذلك بالكشف عن الأنساق وبنائها ضمن علاقتها وتحقيق المشاكلة بينها والتي تقضي لتشكيل النسق الشامل للنص⁽⁴⁾ ، ومن هنا ندرك أن المؤول في بنائه للموضوع الجمالي يداخل كل عمليات البناء تلك انطلاقاً من تأسيس المنطلقات التي يركز عليها بناء الموضوع الجمالي وصولاً للنتاج النهائي لذلك الموضوع ، مستحضراً إمكاناته ومعطياته الذاتية وممارسته الذهنية كالتخيل الذي يباشره المؤول لسد الفراغات النصية وربط أجزاء الموضوع الجمالي ، كما أنه القائم بالفعاليات الأولية في التأويل والتي تباشر عناصر البنية النصية ليتأسس من

(1) نظرية النص من بنية المعنى إلى سيميائية الدال : 245 .

(2) م . ن : 246 .

(3) المكان نفسه .

(4) ينظر : الإبداع الشعري وتجربة التخوم ، عبد العزيز بن عرفة ، الدار التونسية للنشر ، 1988 : 60.

خلال نتائجها موضعه الجمالي المستند لفعاليات الفحص التألمي⁽¹⁾ ، وإذا كان (إنغاردن) في منحاه المنهجي قد حدد فعاليات القراءة ، ببناء الموضوع الجمالي وتقويم هذا الموضوع الناتج ومن ثم الاستناد على ذلك لتقويم العمل الأدبي ، فإن الذات - مع تعددها - هي من تنجز هذه المهمات عبر ممارساتها القرائية والتأويلية ، كما أن الموضوع الجمالي يتكون بتأثير النص وتحديده في وعي القارئ من خلال التأويل وعموم الفعاليات القرائية ، وهو ما يمكننا القول بإزائه إن وعي المؤول في الفضاء الضام لعملية البناء ، فمنطلقات الموضوع الجمالي يرسم خطاطتها النص من خلال بنيته ، هذه البنية التي تضم نقاط تحفيز تدفع الذات لاستجلاب العناصر الواقعية في النص لتفسيرها والعناصر التخيلية لبناء ممكناتها في فعل تأويلي داخل وعي الذات ، وهو ما يعطي جانباً من تصور المعطيات الذاتية في تأسيس الموضوع الجمالي وإنتاج المعنى⁽²⁾ ، على أنه يمكن استيضاح جانب كبير من أبعاد العلاقة بين النص المؤول من خلال مفهوم (الدواين) الذي استبدل به (هايدجر) الذات المتعالية ، فالدواين ليس ذاتاً قارة ثابتة متعالية في جوهرها ، بل إنه يتأثر بكل ملاحكة مع الموضوع ويتنامى ويتغير على وفق ذلك⁽³⁾ ، وعليه يمكن وصف علاقة النص بالمؤول بأنها تفاعلية تأثيرية تؤثر في طرفي التأويل فتحقق النص عبر القراءة وتؤثر في المؤول أيضاً وبشكل خاص عبر إدخال تجربته الراهنة مع النص في تجربته القبلية المكونة لطبيعة الذات ، أي أن الذات والنص يطرأ عليهما التغيير والتطور في كل تجربة احتكاك بينهما .

ومضافاً لفاعليات المؤول ضمن معطيات البنية النصية إعادة التوزيع لعناصر البنية النصية وتصنيفها حسب أهميتها ليتأسس على ذلك الموضوع الجمالي لاحقاً ، فإن قصد التواصل المستبطن بين النص وقارئه يستلزم تحقيق المؤول لوسائل التواصل الخارج

(1) ينظر : النقد الأدبي وانتماء النص ، عبد السلام المسدي ، مج : علامات ، ج / 5 ، مجلد / 2 ، سبتمبر ، 1992 : 17.

(2) ينظر : في مناهج الدراسة الأدبية ، حسين الواد ، دار سرار ، تونس ، 1985 : 70 .

(3) ينظر : مارتن هايدجر والكيونة ، مطاع صفدي ، مج : الفكر العربي المعاصر ، ع : 3 ، 1980 : 80 .

نصية ، عبر تحقيق وجود السياقات التي كثيراً ما تساعد على تفسير وتأويل الموضوعات⁽¹⁾ ، فجملة مثل (أريد مساعدتك) تحمل دلالتين ، الأولى تفي بان المتكلم يطلب العون من المخاطب والثانية تعني بالعكس ، ومعه فإنه لا يمكن تحديد احد احتماليها إلا بوساطة السياق ، وهو ما قد توفره البنية النصية أحياناً فيعود الأمر في تحقيقه للمؤول ، كما في قصيدة الشاعر (سراج محمد) (إلى سياب أعرفه) ، إذ يقول :

سألف قلبك في دمي وأسافرُ	كي لا يفرقَ من بنا سيغادرُ
سألف قلبك حيث يصبح قبةً	لنقوم ما حول الوجود منائرُ
فأجيء من قبل المجيء وأنتهي	حدّاً اعتناك ما تسرب زائرُ
لا بد أن تحيى وتصبح مرقداً	ليقال عني أن هذا جابرُ ⁽²⁾

فدلالة الأبيات ارتهنت بسياق البيت الأخير وخصوصاً الشطر الثاني منه ، إذ تكشف الدلالة من السياق التاريخي الذي وردت فيه قصة زيارة (جابر الأنصاري) (رضي الله عنه) لقبر (الإمام الحسين بن علي) (ع) إذ كان أول الزائرين له بحسب النصوص التاريخية ، فلم يتسرب زائر إليه قبله ، وتتحدد الدلالة هنا كما أشرنا بعنصر خارج البنية النصية للنص وتعتمد في تحقيقها على المؤول كشرط أساس لهذا التحقيق ، ويتأكد ما ذهبنا إليه لو كان النص مجابهاً بقارئ خارج المعرفة التاريخية التي تتيح له اختزان هذه القصة في ذاكرته ، فإن من المؤكد أنه سيعجز عن إدراك العلاقة الإحالية التي أحالتنا لخارج النص ، ومن ثم فإنه لن يحقق الدلالة المتأتية من التناص بين النص الشعري -

(1) ينظر : التداولية اليوم - علم جديد في التواصل : 58.

(2) إلى سياب أعرفه (شعر) ، سراج محمد ، الشبكة العنكبوتية : <http://www.dorar->

aliraq.net/showthread.php?t=15541 ، بتاريخ 2011/3/4 .

القصيدة - وبين تلك القصة التاريخية ، والأمر ذاته يتحقق أمام جهل المتلقي بخصوصيات الثقافة ومعايير وأساليب الأجناس الأدبية وهو ما دلل عليه (عبد الفتاح كيليطو) في كتابه (لن نتكلم لغتي) ، إذ يستشهد بحادثة وقعت للـ (الشدياق) الذي كتب قصيدة مدحية لسلطان تونس ، وعندما عرضها مترجمة على أحد أصدقائه من الأدباء الإنجليز استغرب الأخير من مطلعها التقليدي ، وتساءل عن شخصية (سعاد)⁽¹⁾ لقد غابت الدلالة بشكل كامل عن وعي الأديب الإنجليزي ، بحيث أن النص أصبح مبهماً عليه ، وما ذلك إلا لغياب الدلالة التي تقتضي المعرفة بطبيعة الأساليب والمعايير التي تختص بها القصائد المبنية على مثل هذه المطالع ، ومن المعرفة بطبيعة وشكل الثقافة العربية ، وهذه المعرفة التي لم تكن حاضرة في تجربة الأديب الإنجليزي القبلية هي معرفة تمثل سياقاً خارج النص وبنيته ، لم يقدمه النص ، ولذلك فإن تحقيق الدلالة وبناء الموضوع الجمالي ضمن الأمثلة التي قدمناها منوطة بالمؤول الذي يباشر تكوين هذه الدلالة وبناء الموضوع الجمالي من جملة الدلالات التي يتوافر عليها خلال عملية القراءة والتأويل .

على أننا نكتفي بهذا القدر من التعريف بدور المؤول في إنتاج الدلالة وتحقيق الموضوع الجمالي وصولاً لإعادة إنتاج المعنى كوننا سبق أن أشرنا لدور الذات في كل ما يشمل فعاليتها سواء أكانت في فعاليات القراءة عموماً ، أم في فعاليات التأويل خصوصاً ، وقد توافر لنا إيضاح جانب مهم من هذا الدور في المباحث السابقة فنكتفي به مضافاً لما تم لنا هنا من التعريف بهذا الدور ونوع العلاقة التي تربط بين النص والمتلقي عموماً .

ندلف إلى الجانب التطبيقي من هذا المبحث بقراءة (الغدامي) لقول (المتنبي) :

أكل فصيح قال شعراً متيم⁽²⁾

(1) لن نتكلم لغتي ، عبد الفتاح كيليطو ، دار الطليعة ، بيروت ، ط / 1 ، 2002 : 87 .

(2) العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب ، الشيخ ناصيف اليازجي ، المجلد : 2 ، دار صادر ، بيروت : 236 .

إذ يصرح قائلاً : ((بل إن المتنبي استهزأ بالحب وتساءل في كلمة بالغة الدلالة في نسقيتها : أكل فصيح قال شعراً متيم))⁽¹⁾ ، فهل أن (المتنبي) استهزأ بالحب كما ذهب (الغدامي) إلى ذلك ؟ ، إن أول ما يمكن النظر إليه هو النص الذي ورد إليه فيه هذا الشطر ، والنص كما هو معروف يبدأ بقول (المتنبي) :

إذا كان مدح فالنسيب المقدم أكل فصيح فال شعراً متيم
لحب ابن عبد الله أولى فإنه به يبدأ الذكر الجميل ويختم⁽²⁾

وسنكتفي بهذين البيتين لبناء الدلالة عليهما مع الإشارة إلى أن الأبيات اللاحقة هي أبيات مدحية تصف مآثر (سيف الدولة) ومناقبه ، وسنقابل قراءتنا للبيتين بقراءة (الغدامي) التي تتلخص بـ (الاستهزاء بالحب) دلالة للشطر الثاني في البيت الأول ، إن أول ما يمكن ملاحظته من خلال النظر لهذين البيتين هو أن (المتنبي) دخل إلى موضوعه مباشرة دون الحاجة للمقدمات المألوفة والمعهودة ، فقد باشر مدحته لـ (سيف الدولة) في البيت الأول بمعارضته للمعيار الثابت والمألوف في قصائد المدح ، والذي يستوجب التشبيب بالحببية ، معبراً عن رسوخ هذا التقليد بوساطة القطع المستفاد دلالياً من جملة الشرط وجوابه التي تضمنها الشطر الأول ، وهو بذلك يخرق معياراً متأصلاً ومتجذراً مستقهماً استفهما يفيد دلالة النفي والإنكار⁽³⁾ ، ولكن هذا النفي والإنكار محدد بمفردة (كل) التي يمكن مقابلتها في محور التعارض مع مفردة (بعض) إذ دلالة استفهام النفي والإنكار مخصوصة بـ (كل) لا (بعض) فهي لا تعم فتشمل هذا (البعض) وكأننا نقابل هذا الشطر بقولنا متمثلين ((أكل من صلى قبلت صلاته ؟)) فإنه يفهم

(1) نقد ثقافي أم نقد أدبي : 58 .

(2) العرف الطيب في شرح ديون أبي الطيب : 235 .

(3) ينظر : شرح المشكل من شعر المتنبي ، ابن سيده ، ج / 3 : 203.

منها أن بعضاً منهم فقط تقبل صلاته دون الكل وإذا كان الأمر كذلك فإن الشطر يدل على أن بعضاً من الشعراء المتغزلين هم متيمون لا جميعهم ، ويدل بالتتابع على أن (المتنبّي) لا يستهزئ بهذا البعض ، مما يقود لدلالة أخرى تنتج عن أنه - (المتنبّي) - إذ كان لا يستهزئ بحب هؤلاء البعض فكيف يمكن أن يدل الشطر على استهزائه بالحب كقيمة مجردة ؟ !! هذا ما لا يمكن إجبار الشطر عليه وتقويله مثل هذه الدلالة ، ومعه فإننا نستدل على أن (المتنبّي) لم يستهزئ بالحب بقوله أعلاه ، ويدعم ما ذهبنا إليه من دلالة هذا الشطر ، دلالة البيت الثاني إذ يقدم (المتنبّي) ضمناً بكونه محباً وأن محبوبه هو أولى بالحب ، فلو كانت الدلالة التي ذهب إليها (الغدامي) صحيحة لتعارض مع دلالة البيت الثاني مما يحدث اضطراباً دلالياً بين البيتين ويسلب التشاكل الدلالي بينهما ، إذ كيف يمكن (للمتنبّي) أن يستهزئ بالحب في بيته الأول ثمّ يقدم نفسه محباً في البيت الثاني ؟!! إن دلالة التمرد على المعيار الشائع المتمثل في البدء بالتشبيب والنسيب هي الأنسب للبيت الأول خصوصاً مع تناسقها وتشاكلها مع البيت الثاني وخصوصاً الشطر الثاني منه ، إذ ثمة علاقة استبدال بين ذكر الحبيبة وذكر الممدوح ، فلو نظرنا إلى الشطر الثاني من البيت الثاني ، نجد هذه العلاقة واضحة وصريحة في مفردة (يبدأ) ليكون استبدال ذكر الحبيبة بذكر الممدوح هو المتعين دلالياً بما يحمله من دلالات التعظيم لشخص ذلك الممدوح ، وهو ما يؤدي بنا لدلالة أخرى ، تتمثل في أن قيمة خرق المعيار الأدبي هي قيمة معنوية قبل أن تكون شكلية ، إذ كأن مقام المدح لا يتناسب مع ذكر الحبيبة التي تشغل حيزاً مهماً من الدلالة ، فإذا كان المادح مقبلاً على ممدوحه محباً له بحق ، فإنه لا يكون مستحسن أن ينصرف عنه إلى غيره ، ولعل ما ذهبنا إليه يستقر رأياً نقدياً للمتنبّي بخصوص معيار أدبي أنجز المتنبّي خرقه وانتهاكه عملياً في هذه القصيدة ، إن ما ذهب إليه (الغدامي) من دلالة يتعارض كما رأينا مع دلالة البيت الثاني ، ومعه فإن ثمة اضطراباً في تناسقهما يمنع من تحقيق النسق الدلالي ومن تشاكله لاحقاً ، ولعل السبب في تحقيق قراءة (الغدامي) لهذا الشطر واستنباط الدلالة وفقاً لما

جاءت يعود لاقتطاع الشطر من سياقه المتمثل بالنص ، كما أننا نستدل على أن ممارسة (الغدامي) تعكزت على الدلالة الصريحة للشطر دون الرجوع إلى ما تستبطنه علاقته بالبيت الثاني والتي تحقق الدلالة الضمنية ، ولذلك انحسرت فاعلية المؤول في إنتاج الدلالة .

وفي كتابه (رحلة إلى جمهورية النظرية) وضمن توصيفه لماهية (الغرب والغربي) و (الشرق والشرقي) وطبيعة التداخل الحاصل في توصيف بلد ما بأحد التوصيفين وخروج هذا التوصيف عن المحدد الجغرافي لتصبح بعض البلدان الواقعة في الشرق غربية وبعض البلدان الواقعة في الغرب شرقية ، يصف (الغدامي) اليابان بأنها غربية ، إذ يقول ((أما الغرب فهو مفهوم ينتج نفسه ويتولد من صفته ، إنه نظام ثقافي يتكون من منظومة اصطلاحية - ثقافية وسياسية واقتصادية - ومن تحلى بهذه المنظومة فهو غربي حتى وإن كان شرقي الموقع كاليابان))⁽¹⁾ ويكرر هذا التوصيف مرة أخرى في قوله : ((هكذا صار مفهوم [الغرب] مصطلحاً متحركاً يعتمد على صفاته ، وليس على حدوده المكانية بحيث تصبح اليابان وإسرائيل أجزاء من الغرب المصطلح ، رغم اختلاف الموقع الجغرافي))⁽²⁾ ، ولكننا نتفاجأ لاحقاً بأن (اليابان) شرقية !! ، فلاحقاً يقول (الغدامي) : ((وبقي مركز روك فيلر سليماً معافى من الأرواح الشريرة التي تتربص به الدوائر من بين الجدران ، ولكن المركز لا يبقى على عافيته تلك مدى طويلاً إذ تعفرت طهارته الغربية واختلف صفاؤه الغربي بالسيولة الشرقية حيث اشترته أخيراً الأموال اليابانية وصار عقاراً شرقياً في قلب المدينة الغربية))⁽³⁾ ، ولعلنا لسنا بصدد موضوع جمالي هنا ، ولكن ما يجعلنا نتناول هذا المثال هو مفهوم سبق أن قدمناه ضمن الموضوع الجمالي ، وهو النسق والتشاكل الدلالي ، إذ لا يخلو هذا المثال من مفهوم

(1) رحلة إلى جمهورية النظرية : 51 .

(2) رحلة إلى جمهورية النظرية : 53 .

(3) م . ن . : 71 .

النسق ومفهوم التشاكل الدلالي اللذين قدمنا لهما ، ومن خلالهما نستبين خطأ واضحاً في تعارض التوصيفين ، إن هذا التعارض الصريح يجهض إمكان التوصيف القائم على معطيات دلالية تمنح دلالة متناسقة متشاكلة ، فإذا كانت اليابان دالاً فإننا سنكون بإزاء مدلولين متعارضين تماماً وتصبح النتيجة التدليلية هي ، اليابان شرقية غربية وهو ما يتعارض مع الدلالة الصريحة التي ابتغاها (الغدامي) في كتابه ، إذ لا يمكن أن تكون شرقية وغربية في الوقت ذاته ، وهو ما لم يصرح به (الغدامي) كاحتمال ثالث مثلاً ، ومعه فإن هذا التوصيف المتعارض بحاجة لإعادة نظر وكشف عن المزيد من أوجه الاحتمالات الدلالية للخروج بتوصيف واحد حتى يحقق النسق وتتشاكل كل الأنساق التي تدل في النهاية من خلال تشاكلها على توصيف واحد يتم التعامل مع معطياته .

إذا كانت عملية إنتاج المعنى تخضع لمحددات نصية تفرض إلى حد ما طبيعة وشكل التلقي ، وأنماط ومسارات تلك العملية ، بوصف النص أحد طرفي التلقي ، وإذا كان الطرف الآخر هو المتلقي الذي يترك أثره بوصفه منتجاً متأثراً بذاتيته خلال إنتاج المعنى قراءة وتأويلاً ، فإن التساؤل الملح الذي لا بد من الإجابة عليه ، يتعلق بالدور الذي يلعبه التأويل ذاته في عملية التلقي وإنتاج المعنى ، وبشكل أدق فيما إذا كانت ثمة قواعد للممارسة التأويلية تضبط هذه العملية وتحدد مساراتها وتسمها بالموضوعية والشرعية وتبعدها عن الاعتباطية ، لا سيما وأن التأويل يمثل الفضاء الضام لطرفي إنتاج المعنى - النص والقارئ - وهو بذلك لا بد أن يكون مضبوطاً بإجراءات معينة تنظم عمله وفعاليته⁽¹⁾ .

ولعلنا فيما تقدم من الحديث ضمن هذا الفصل قد اجبنا ضمناً على جزء كبير من التساؤلات التي تتفرع عن السؤال الذي نحن بصدد الإجابة عليه ، ذلك أن الحديث عن أحد أطراف التلقي قراءة وتأويلاً يستلزم التعرض للأطراف الأخرى بسبب من التداخل الحاصل من كون القراءة والتأويل بل عموم التلقي فعالية مشتركة وتفاعل قائم ومستمر بين أطرافه ، على أننا سنحاول هنا أن نركز الضوء على وفق تساؤلنا عن الطرف الثالث - التأويل - على الممارسة التأويلية وإذا ما كانت هناك قواعد وضوابط تركز إليها .

ولا بد لنا بدءاً من أن نركز على أمر مهم ، وهو أن التأويل رؤية قبل أن يكون إجراءً يحتكم إلى منهجية معينة ، فإذا ما فهمنا أن التأويل يحقق الوجود بناءً على أن إدراكاتنا الأولية لا يمكنها أن تعطي تصوراً مفضياً لما يحيطنا إلا عبر فعالية التفكير التي تستبطن تأويلاتنا الخاصة عن المواضيع⁽²⁾ ، ندرك حينها أن التأويل رؤية قبل أن يكون قواعد أو مناهج محددة ضمن قوالب يمكن لأي أحد أن يحققه بمجرد التعرف

(1) ينظر : فلسفة التأويل ، هانس غيورغ غادامير ، ترجمة : محمد شوقي الزين ، منشورات الاختلاف ، الجزائر ، ط 2 / 2006 : 26 .

(2) ينظر : مدخل في اللسانيات ، صالح الكشو ، الدار العربية للكتاب ، ليبيا- تونس ، 1985 : 23 . وينظر تأويلات وتفكيكات : 54 .

وضبط القواعد والمناهج ، ولذلك فإن حديثنا اللاحق يستحضر ما أشرنا إليه ويحدد كل ما يمكن الإفضاء إليه من قواعد للممارسة التأويلية وفقاً له .

إن الفكرة العامة التي ينطلق منها النقاد في تحديد ضوابط وقواعد للممارسة التأويلية تتمثل في ضرورة توافر المحددات التي تمكننا من الاطمئنان لنتائج التأويل والركون إليها ، لاسيما مع ما يتصف به التأويل من تعدد الإمكان ، وتشعب الإجراءات المتبعة في محاولة الإمساك بالمعطيات النصية والجوانب الجمالية⁽¹⁾ ، والحقيقة أن فكرة المنهج والضوابط لا تختص بالتأويل كما هو واضح ، بل إن اعتراضاتنا بخصوص أية عملية إدراكية أو نشاط معرفي تقتضي استحضار آليات وضوابط تحدد شكل التعاطي مع الموضوع ، وإذا كان المنهج يعني في أحد معانيه الطريقة فإننا دائماً ما نجح لتحديد طريقة أو طرائق معينة لارتياد الموضوع الذي نحن بصدد التعرف عليه ، ويتأكد هذا المعنى - كما أشرنا - لو كنا بصدد ممارسة معقدة ومتشعبة كالتأويل ، إذ يبدو أننا بحاجة أكثر للمحددات والضوابط والقواعد ، على أن النقاد وهم يعطون تصوراتهم عن تلك القواعد ينطلق كل من مفهومه عن التأويل وطبيعة تصوراته عنه ، وهو ما يدعونا لمحاولة التوفيق وتحديد القواعد والضوابط وفقاً له .

منهج شلايرماخر

يتعزز المنحى المنهجي في محاولة ضوابط للتأويل عند (شلاير ماخر) بطرحه منهجين للممارسة التأويلية يتمثلان في :

1. منهج قواعد اللغة⁽²⁾

-
- (1) ينظر : مهمة الهرمينيوطيقا ، بول ريكور ، مج : نوافذ ، النادي الأدبي ، جدة ، ع : 22 : 46- 47 .
(2) ينظر : الشعرية وانفتاح النصوص تعددية الدلالة ولا نهائية التأويل ، د. خيرة حمر العين ، مج : الخطاب ، منشورات مخبر تحليل الخطاب ، جامعة مولود معمري ، تيزي وزو ، الجزائر ، ع : 6 ، 2010 : 15 .

ويقتضي هذا المنهج كضابط من ضوابط الممارسة التأويلية أن ينطلق المؤول من الجانب اللغوي للنص ويتحدد هذا الجانب من خلال مستوى التركيب النحوي وخصوصية الجنس الأدبي ، وخصوصية الأسلوب النص ، إذ لا يمكن تجاوز ثبات البنية النصية للنص وارتباطها الوثيق بالقواعد النحوية ، فهذه القواعد تمثل جانباً موضوعياً له من الثبات ما يمكن أن يحول دون التلاعب به ، وبالتالي فإن التأويل المستند لهذا الجانب يكتسب صفته الموضوعية ، وكذلك فإن لخصوصيات الجنس الأدبي طابعاً موضوعياً متأثراً من قوانين الجنس الأدبي التي تفرض نفسها كمعطى لا يمكن تجاوزه والقفز عليه ، وهذه القوانين ليست مفروضة على النصوص المنتمية للجنس الأدبي الواحد بقدر ما هي مستقاة من خصوصياتها ، ولذلك تكتسب شرعيتها من كونها ضوابط يرجع إليها المؤول في اشتغاله التأويلي ويعاودها في تعاطيه مع النص بشكل مستمر ، والحال كذلك فيما يخص الأسلوب الذي يميز النص عن سواه ويكسبه خصوصيته عن النصوص الأخرى التي تنتمي للجنس الأدبي ذاته ، ذلك أن الأسلوب يحمل بين طياته الطابع التفسيري للنص ، وقد سبق أن أشرنا إلى أن الأسلوب يتجاوز مفهوم الشكل وطبيعة التراكيب إلى كونه يمثل رؤية المبدع ورؤية النص التي يخفيها في بنيته العميقة ويظهر الإشارات الدالة عليها في بنيته الظاهرة ، ويمكننا أن نقارن بين كون الأسلوب رؤية وكون التأويل رؤية من خلال فهمنا لفرضية أن التأويل وهو يستهدف فك الشفرات النصية فإنه ينشئ شفراته الخاصة التي تقوم بهذه المهمة ، وأن التأويل بوصفه رؤية ينطلق لتحقيق احتمالات النص التي تحددها رؤية النص من خلال أسلوبه .

2. منهج التأويل النفسي⁽¹⁾

(1) ينظر : مجهول البيان ، محمد مفتاح ، دار توبقال ، المغرب ، ط / 1 ، 1990 : 15 و 90 و 91 .

ويعتمد هذا المنهج على جانبين يتحددان في سياق حياة المؤلف والسياق التاريخي الذي ينتمي إليه ، ويشير السياق الأول إلى ما سبق واتخذنا موقفنا منه بخصوص قصدية المؤلف ، إذ إننا كمؤولين لسنا معنيين بملاحقة قصد المؤلف بقدر ما نحن معنيون بالتعرف والكشف عن قصد النص بالمفهوم الذي أوضحناه في حينه ، أما السياق الثاني فيمكن الاعتماد عليه من جانب كونه مماثلاً للسياق السوسولوجي ودوره وتأثيره في النص والمؤول على حد سواء ، فالتأويل لا بد له من استحضار ومراجعة السياق السوسولوجي في عملية القراءة⁽¹⁾ ، ولعل أوضح ما يمكننا تقديمه من ضرورة هذا الجانب هو أن النص يعبر عن ثقافته وبيئته كما أن المؤول ينطلق ويتأثر بهما بوصفه ذاتاً داخل جماعة معينة لها ثقافتها وبيئتها الخاصة ، ويمكننا التمثيل بذلك ، بالنص الجاهلي الذي يحمل بين طياته طبيعة وشكل البيئة الصحراوية بما تختزنه من قيم اجتماعية تحضر وبشكل فاعل فيه النص الجاهلي ، ومع غياب السياق السوسولوجي ، فإن التأويل سيفقد كثيراً من موضوعيته⁽²⁾ ، وإنه كان (شلاير ماهر) في تحديده لهذا المنهج في جانبه المتعلقين بالمؤلف وبالسياق التاريخي الذي ينتمي إليه ، ينطلق من جهة نفسية بحتة إلا أننا يمكن أن نقارب معطيات معينة ، كما فعلنا في السياق التاريخي الذي ينتمي إليه المؤلف ، كما يمكننا استدراك شيء مهم من سياق حياة المؤلف الذي يتعارض مع قصدية النص ، لو أعطينا تصوراً ينطلق من طبيعة تنوع النصوص ، ذلك أننا نعي الفرق بين النصوص الأدبية والنصوص الدينية في حدود طابعها التشريعي ، ومع استثمار نتائج البحث والتقصي عن حياة المؤلف مما هو متعلق بتحقيق التصور عن

(1) ينظر : اللغة العربية معناها ومبناها ، تمام حسان ، دار عالم الكتب المصرية ، القاهرة ، ط / 3 ، 1418 هـ : 372.

(2) ينظر : موجز تاريخ علم اللغة في الغرب ، د.ر هـ . روبنز ، ترجمة : أحمد عوض ، عالم المعرفة ، ع : 277 ، نوفمبر : 1997 : 342 .

مقاصده ، يمكننا أن نجني فوائد الإمساك بمعاني النص الديني التشريعي⁽¹⁾ ، ولأن التأويل لا يختص بالنص الأدبي فحسب ، فإنه يمكن اعتماد هذا الجانب كقاعدة من قواعد الممارسة التأويلية التي يجب مراعاتها ، فقد تم بالفعل استثمار مثل هذا الجانب في جملة اشتغالات نقدية ، لعنا نستدرك مثلاً عنها ، اشتغال (محمد الخباز) في كتابه (صورة المرأة في التراث الشيعي ، آليات تفكيك العقل النصي) إذ تحضر مقاصد النص الديني ومقاصد مؤولي هذا النص في جوانبه التطبيقية بشكل فاعل وتتحدد كضوابط للممارسة التأويلية فيه⁽²⁾

كفايات المؤول

إن التأويل كفعل ، مرهون بالمؤول بالدرجة الأولى ، ولذلك تتعلق كثيراً من قواعد الممارسة التأويلية به ، وبما يجب توافره من الكفايات اللازمة التي تؤهله لارتداد عالم النص ومداخلته عبر الممارسة التأويلية⁽³⁾، ولعل من أهم هذه الكفايات هي الكفاية اللغوية التي يجب تحقيقها لدى المؤول ، حتى يتمكن من ممارسة التأويل بل لعلها أولى هذه الكفايات التي يجب توافرها لديه ، ذلك أننا لا يمكن أن نتصور تحقق فعل وممارسة أبسط من التأويل بانعدامها ، فمستوى الفهم الحرفي المتعلق بالدلالة الصريحة والمعجمية لا يتحقق بانعدامها فكيف يمكن أن يتحقق التأويل بكل ما يحمله من طابع التعقيد والتشعب مع غياب وانعدام هذه الكفاية⁽⁴⁾ !!؟ ، والكفاية اللغوية تتعلق بمعرفة القواعد النحوية

(1) ينظر : السياق والدلالة - اقتضاء وتوجيه - النص القرآني أنموذجاً ، سيروان عبد الزهرة هاشم ، مج : ينباع ، ع : 9 ، ذو القعدة - ذو الحجة ، 1426 هـ : 18 - 22 .

(2) ينظر : صورة المرأة في التراث الشيعي ، آليات تفكيك العقل النصي ، محمد الخباز ، دار الانتشار العربي ، ط / 1 ، 2009 : 4 .

(3) ينظر : القارئ والنص العلامة والدلالة : 18 - 21 .

(4) ينظر : اللسان والميزان ، طه عبد الرحمن ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، ط / 1 ، 1998 : 214 - 215 .

وأساليب التخريجات والقدرة على كشف الجوانب المتعلقة بمغايرة المعهود من الترتيب النحوي للجملة ، كما تتعلق بثناء المادة المعجمية لدى المؤول ، إذ كلما ارتفع رصيده من تلك المادة كان أكثر قدرة على إنجاز التأويل الفاعل ، وتتعلق بهذه الكفاية المعرفة بالأساليب البلاغية ، والعلاقة بين النحو والبلاغة والتصريف والاشتقاق ، وبشكل عام كل ما يتعلق باللغة من فنون وعلوم يجب توافرها بالمقدار الملائم لمداخلة النص ومعايشته⁽¹⁾ ، إن قرارات تأويلية مهمة قد تتعلق بهذه الجوانب اللغوية مما يجعل هذه الكفاية تكتسب أهمية مضاعفة ، وعلى جانب مماثل من الأهمية تبرز الكفاية النصية كقاعدة من قواعد الممارسة التأويلية ، إذ قد لا تفي الكفاية اللغوية بفهم النص دون توافر الكفاية النصية⁽²⁾ ، ويتضح ذلك ما لو مثلنا له بأن الكفاية اللغوية المتوافرة لدى موظف الخدمة مثلاً قد لا تسعفه في فهم قول المدير (إن الطقس اليوم بارد جداً) حتى يباشر بإغلاق النافذة المفتوحة أو إعداد كوب ساخن من الشاي ، فموظفة الخدمة تعرف الإجابة ما لو سئل عن إعراب الجملة مثلاً أو أنه قادر على إعادة تركيب الجملة تقديماً وتأخيراً بشكل صحيح ، ولكن هذه المعرفة لم تؤهله للوقوف على قصد المدير ، وبطبيعة الحال فإن الأمر يتضاعف في تعقيده عن هذا المثال في التأويل الذي يجابه به مؤول النص ، إنه القدرة على افتراض معنى أو عدة معانٍ لمستوى تركيب الجملة مثلاً خارج محدودية المستوى لها ، وتستدعي هذه الكفاية - النصية - كفاية أخرى تتعلق بها كما تتعلق هي بالكفاية اللغوية ، ألا وهي الكفاية الموسوعية ، فالنص يستحضر العوالم الممكنة داخله ، وهذا الاستحضار يقتضي أن يكون المؤول على جانب معتدٍ به من المعرفة الموسوعية⁽³⁾

(1) ينظر : استراتيجيات الخطاب ، مقارنة تداولية ، عبد الهادي بن ظافر الشهري ، دار الكتاب الجديدة المتحدة ، بيروت ، ط / 1 ، 2004 : 201 و 212 .

(2) ينظر : التداولية عند العلماء العرب - دراما تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي ، مسعود صحراوي ، دار الطليعة ، بيروت ، ط / 1 ، 2005 : 107 ؟

(3) ينظر : عندما نتواصل نغير - مقارنة دولية معرفية لآليات التواصل والحجاج ، عبد السلام عشير ، أفريقيا الشرق ، المغرب ، ط / 1 ، 2006 : 54 .

وهذا لا يعني أننا نطالب المؤول بالإغراق في التخصصات العلمية والإنسانية حتى يتمكن من تأويل النص بقدر ما نعني وجوب توفر الثقافة الملائمة التي توازي مستوى الموضوعات والأفكار التي يطرحها النص ، المستوى الثقافي الذي يمكنه من فهم تلك الموضوعات وإن كان تحقيق الترابط بينها بعد مرحلة الفهم الأولية ، والمستوى الذي يمكن المؤول من التعرف على حضور لوحة فنية أو شخصية تاريخية مثلاً في النص ، كما في قول (نزار قباني) :

صوروني باسمًا مثل الجيوكوندا
أو ودعيًا مثل وجه المجذلية⁽¹⁾

أو حضور أسطورة لاستخدامها كرمز ، كما في قول (السياب) :

ليعو سربروس في أزقة المدينة⁽²⁾

إن تحقيق هذه الكفاية لدى المؤول على جانب مهم لتحقيق القراءة والتأويل بوصفها التفاعلي المنتج ، ولعلنا نكتفي بهذه النماذج من الكفايات التي تعطينا تصوراً على الجوانب اللازم توفرها في المؤول والتي يعبر عنها أحياناً بثقافة الناقد أو يعبر عنها بكفاءة التقبل ، أي الكفاية التي تمكن المؤول من تقبل النص بوصف الأول ذاتاً قادرة على محاكاة ومحاكاة موضوعها فهماً وإنتاجاً ، إن الجانب المعياري في هذه الكفايات يتمثل بكونها قواعد للممارسة التأويلية يجب أن تضبط في تحققها إجراءات وممارسات التأويل ، وبمعنى آخر أن يراجعها ويعاودها المؤول كضوابط تمنعه من الانزلاق في

(1) المجموعة الشعرية الكاملة - السيرة الذاتية لجلاد عربي ، نزار قباني ، دمشق ، ط / 3 ، 2006 : 52 .

(2) المجموعة الشعرية الكاملة : 210 .

ذاتيته المفرطة التي قد تسم التأويل بالاعتباطية حين تغيب هذه الكفايات عن مشهد التأويل بفعل القصور عن تحققها في الذات أو بفعل انزلاق المؤول وراء تهويمات ذاتية مقصية لهذه الكفايات ، كما يمكن ضمن إجراءات نقد النقد الكشف عن مستويات هذه الكفايات لدى الناقد المؤول من خلال القراءة النقدية لنتاجه القرائي والتأويلي والتعرف على غيابها أو عدم توافرها أو حضورها الفاعل .

عوائق التأويل

في الحديث عن عوائق التأويل نكون تصوراً مقابلاً عن القواعد التي يمكن أن تتوافر بإزاء هذه العوائق ، إذ لو كانت هذه العوائق حائلاً دون تحقق التأويل بمعناه التام فإن الحيلولة دون حدوثها يعد قواعد للممارسة التأويلية يتحتم للمؤول مراعاتها وتحقيقها ، وسنحدد ثلاثة منها يمكن القول عنها أنها عوائق رئيسة وغالباً ما نشهد حدوثها بالقراءات ، إن أول هذه العوائق تتمثل في إكراهات المنهج⁽¹⁾ ، إذ ما إن يحدد الناقد - بوصفه قارئاً ومؤولاً أدواته الإجرائية المستندة لمنهج نقدي حتى ترتفع مجمل الفعالية القرائية بها وترتبط بشكل وثيق بإجراءات هذا المنهج الذي اختاره لإنجاز قراءته للنص ، مع أننا نأخذ على الناقد خروجه عن المنهج والنظرية النقدية التي حدد اشتغاله القرائي على وفقها ، إلا أننا نميز في الوقت ذاته بين الأطراف الثلاثة التي تتحدد بها القراءة النقدية (النص ، القارئ ، المنهج) ، وتلتزم بحقوق كل واحد منها ، فكل طرف من هذه الأطراف له حيز معين يتحدد وفقاً لمجموع هذه الأطراف ، وبمعنى أن النص له محدّداته التي لا يجوز تجاوزها بذريعة حرية القارئ ، أو إلزامات المنهج حتى لتغدو القراءة انتصاراً للمنهج أكثر منها تحقيقاً لوجود النص⁽²⁾ ، والحال هذه تنطبق على الطرفين الآخرين في حدود

(1) ينظر : التأويل بين إكراهات التناظر وانفتاح التدلال ، سعيد بنكراد ، مج : علامات ، ع : 29 ، 2008 : 112 .

(2) النص المتعدد ، رولان بارت ، ترجمة : سعيد بنكراد / مج : علامات ، ع : 13 ، 2000 : 82 .

علاقتها مع النص مع بعضهم الآخر ، أي أنها لا يمكن أن تمنح سيادة مطلقة لأحد الأطراف الثلاثة على حساب الطرفين الآخرين ، وكثيرا ما يحدث أن نطلع على قراءة نقدية لنص ما ، فلا نجد أي تحقيق للجانب الجمالي أو ربطاً لنتائج الكشف التي تمت بالفعل ، ونتساءل حينها عن القيمة التي تحققها هذه القراءات ، إنه لمن المحبط أن نقرأ نصاً إبداعياً قراءة عادية فنشعر باللذة والمتعة والنشوة ، ثم نحضر أدواتنا النقدية وفقاً لمنهج أو نظرية نقدية فنخرج بجداول وكشوفات لم تحقق جزءاً بسيطاً من تلك المتعة التي أحسنا بها في القراءة الأولى ، وإذا كانت وظيفة إضاءة النص التي يضطلع بها النقد كوظيفة من وظائفه تجعلنا نضحي بجانب من جوانب جمالية النص ، فإنه حتى مع افتراض صحة هذا المنحى نصطدم بقراءات نقدية تعقد المشهد الذي يفترض به إنارة جوانب معقدة وغامضة من النص ، إن إضاءة جوانب من العلاقات الخفية في النص كما هو الحال مثلاً في المستوى التحليلي ، يجب أن لا يغفل نتائج الكشف التي تم ضمن هذا المستوى وضرورة ربطه بالنتائج الأخرى لتحقيق رؤية شاملة تقودنا لإنتاج المعنى وتحقيق القراءة الفاعلة⁽¹⁾ ، إن ما يحصل في مثل هذه القراءات التي تركت لإكراهات المنهج وهو استقصاء ما يمكن استقصاؤه من مفردات ومصطلحات المنهج والكشف عن أمثلتها في النص ، وكان الناقد هنا ينجز قراءة للمنهج لا بالنص ، وهذا ما يجعل الناقد يرهن ذاته بإزاء موضوع متمثل بالمنهج لا النص ، إن سيطرة المنهج على الفعاليات الذهنية والإدراكية تجعله مجابهاً لهذا المنهج لا المعنى ، وكل ما يمكن أن يستحضره في ذهنه بشكل واعٍ أو غير واعٍ ، وإذا كان هذا ما يحدث فإننا لن نجاوز الصواب فيما لو قلنا بأن مثل هذه الممارسة القرائية أو التأويلية هي في حقيقتها ليست قراءة أو تأويلاً بالمعنى الذي يعنيه كل منهما ، إذ القراءة والتأويل متحققان عبر طرفي القارئ أو المؤول والنص⁽²⁾ ،

(1) ينظر : فلسفة القراءة وإشكاليات المعنى ، حبيب مونسي ، دار الغرب والنشر والتوزيع ، الجزائر ، 200-2001 : 298 .

(2) ينظر : نظرية التأويل والخطاب وفائض المعنى / بول ريكور / ترجمة : سعيد الغانمي ، المركز الثقافي العربي ، بيروت ، ط / 1 ، 2003 : 63 .

وفي الطبيعة الشاملة للقراءة والتأويل بوصفهما لا يتحددان بالنص الأدبي فقط يمكن أن يتحققا ما لو كان ناقد بإزاء تلقي منهج نقدي - أو نظرية نقدية ما - ، ويمكنه أن يتناول أمثله في النصوص وبشكل لا يخرق أو ينتهك شروط قراءته ، ولكن ذلك مشروط في تحديد الذات لموضوعها المدرك بمعنى أن هناك فارقاً في تحديد الموضوع الذي يتم تناوله ، فتلقي منهج نقدي ومباشرة قراءته شيء وتلقي نص أدبي وقراءته شيء آخر ، ففي الحالة الأولى الذات القراءة - الناقد - بإزاء موضوعها متمثلاً في المنهج ، وفي الحالة الثانية فإنها بإزاء موضوعها المتمثل في النص الأدبي⁽¹⁾ .

وإذا كان استحضار المنهج النقدي ضرورة في القراءة والتأويل فإنه لا بد في تحقيق الموازنة بين أطراف القراءة (القارئ ، النص ، المنهج) هذه الموازنة التي تتم على وفق طبيعة كل منهم ووظيفته ، وعلى الجانب الآخر من استبداد المنهج بالقراءة يمكننا أن نلمح دوراً سلبياً يتمثل في عدم تحقيق ما يمكن للناقد تحقيقه منطلقاً من إجراءات المنهج ، ليكتفي بجانب غير كافٍ من الجوانب التي يتوافر عليها المنهج في إشباع القراءة وإزائها دلاليًا⁽²⁾ ، ويمكننا أن نفهم من إكراهات المنهج جانباً آخر متعلقاً بقابلية النص وخصوصيته ، إذ لا يصح أن ندّعي أن منهجاً نقدياً معيناً صالحاً لكل النصوص ، بل إن مثل هذا الادعاء يعد خروجاً عن العلمية والموضوعية ، ونشير بهذا الخصوص للمؤاخذات التي سجلها الدكتور (حسين عبود الهلالي) على بعض الاشتغالات النقدية التي أنجزت على نصوص شعرية معتمدة على منهج (بروب) الوظيفي ، إذ يكشف الدكتور (الهلالي) بأن منهج (بروب) هو منهج تصنيفي ابتغى منه تصنيف الخرافة الروسية ومعه فإن ثمة إشكالاً في تطبيقه على النصوص الشعرية خارج الوظيفة

1) ينظر : أزمة نقدية أم مناخ شعري جديد ، عهد فاضل ، جريدة الحياة ، 13 / 7 / 2004 .

2) مناهج النقد الأدبي بين النظرية والتطبيق ، ديفيد ديتش ، ترجمة : محمد يوسف نجم ، مراجعة ، د . إحسان

عباس ، دار صادر ، بيروت ، ط / 1 ، 1976 : 156 .

التصنيفية وخصوصية الخرافة الروسية⁽¹⁾ ، من ذلك يمكننا التأكيد على ضرورة توافق وصلاحيية المنهج مع النص ضمن خصوصيته التي تمنحها أبعاد وجوانب متعددة كالجنس الأدبي مثلاً ، وفي حال تعارض المنهج مع النص لا يمكن قبول المنهج أو فروض أدواته على المشهد القرائي بأية حال ، وضمن فهمنا هذا يعد توافق المنهج مع خصوصية النص وتوازن حضوره إلى جانب طرفي القراءة الأخرى (النص ، القارئ) قاعدة مهمة من قواعد الممارسة التأويلية .

أما ثاني هذه العوائق فيتمثل في التوجه السابق على قراءة النص⁽²⁾ ، وتتعدد أشكال هذا التوجه ومدى قربه وبعده عن لحظة الالتقاء بالنص ، ولعل أول ما يمكن ملاحظته بهذا الصدد هو حضور الجانب الأيديولوجي ومحاولة تسخير النص لصالح مثل هذا التوجه⁽³⁾ ، وهو الأمر الذي يحتفظ لنا التراث بنماذج كثيرة عنه ، فمثل هذا التوجه في القراءة صبح كثيراً من الاشتغالات التأويلية على النص القرآني والحديث النبوي الشريف ، وإذا كان المنهج النقدي - فيما قدمنا آنفاً - مثل الموضوع المقابل للذات في حضوره المطلق على الفعالية القرائية ، فإن التوجه السابق على القراءة في جانبه الأيديولوجي يمثل الموضوع الذي ترهن الذات وجودها بإزائه هنا ، إنه صورة من صور تقويل النص وتحريف دلالاته ، وبالتقدم قليلاً باتجاه النص نجد مثل هذا التوجه المسبق يتحقق حتى في اللحظة الأولى للالتقاء بالنص ، فاللحظة الأولى متمثلة بعنوان النص بما تمثله من تحديد جنسه أو الانطباع الأولي المرتسم في الذات عن موضوع النص الذي قد يشي به العنوان تجعلنا كمتلقين نستحضر التداعيات المتعلقة بذلك العنوان الذي قرأناه أو سمعنا به

(1) ينظر : منهج بروب وصور تطبيقه في الدراسات العربية ، د. حسين عبود الهلالي ، بحث : قبل نشره في مجلة دراسات الخليج العربي ، 22 / 5 / 2008 ، ع : 262 .

(2) ينظر : سيميوزيس والقراءة والتأويل ، سعيد بنكرات ، مج : علامات ، ع : 10 : 50 ،

(3) ينظر : من هيمنة القراءة الأيديولوجية إلى تعسف المنهج النقدي - تلقي أعمال عبد الكريم غلاب الروائية ، د. محمد المسعودي ، الشبكة العنكبوتية:

http://www.alalam.ma/def.asp?codelangue=23&id_info=43867&date_ar=2012-4-21 ، بتاريخ 2011/8/29 .

فقط للتو دون أن نتجاوزه وندخل في بداية النص⁽¹⁾ ، إنه التأثير الذي تبعته التأثيرات عن تلك العناوين التي نصطدم بها لأول مرة ، ألا تبعث عنونات الروايات ك (الخيميائي) لـ (باولو كويلو) أو (جنوب الحدود ، غرب الشمس) لـ (هاروكي موراكامي) في أنفسنا انطباعات أولية ؟ بكل تأكيد يمكن القول بأن تأثيراً تحققه مثل هذه العنونات وتبعث في أنفسنا تساؤلات تحدد ارتهاناتنا اللاحقة مع النص بشكل أو بآخر ، وليس من الممكن أن ننفي انطباعاتنا الأولية عن النص ، ولكن ما ينبغي أن يحدث هو لا أن تلقي عناصر أو أجزاء معينة بذاتها بظلالها على المشهد القرائي ، فطبيعة القراءة والتأويل تتميز بطابع الارتجاع ، وخصيصة التغير والتنامي داخل القراءة الواحدة⁽²⁾ ، مما يعني أننا كثيراً ما نحفظ بانطباعاتنا الأولية التي كوناها عن النص من خلال عنوانه أو حتى بدايته ، بل إن جملة من النصوص الأدبية الإبداعية تحتفظ بعنصر المباغته لتكسر أفق انتظارنا في اللحظة الأخيرة من القراءة وفي النهاية منها ، إن استقبلنا للأجزاء المتلاحقة من النص عبر قراءتنا له وفقاً لتقيدنا لجزء سابق دون مبرر معطى في النص يعني دخولنا في تهويمات ذاتية تخرج عن أطر النص ومعطياته الذاتية ، وهي إن كانت منطلقة في الأساس من عنصر نصي أو جزء منه كالعنوان إلا إنها مرهونة بمستواها الدلالي الذي لا بد أن يتشاكل دلاليّاً مع بقية الدلالات المنتجة من النص⁽³⁾ ، وأياً كان شكل التوجه السابق للقراء فإنه لا بد أن لا يتجاوز النص في معطياته التي يشكل القارئ منها دلالاته ويبني على وفقها المعنى .

(1) العنوان وسيميوطيقا الاتصال الأدبي ، د. محمد فكري الجزار ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، سلسلة درامات أدبية ، 1998 : 23 .

(2) ينظر : في مفهومي القراءة و التأويل ، د. محمد المتقن ، مج : عالم الفكر ، مجلد : 33 ، العدد : 2 : 15 - 21 .

(3) ينظر : استراتيجية القراءة منهج نقدي - قصيدة محمود درويش (أنماط عاجية) ، علي الشرع ، مج : علامات ، المجلد : 10 ، ج / 37 ، سبتمبر : 2000 : 176 .

وبناءً على (إكراهات المنهج) و (التوجع السابق) ينكشف ثالث هذه العوائق ،
فما سبق من الحديث عن المعيقين الأوليين يوضح ضرورة التفاعل مع النص ، فنجاح
المنهج بوصفه طريقة لارتياذ النص مرهون بمدة قبول النص له أولاً ومدى تفاعله مع أدق
تفاصيله ثانياً ، والتوجه المسبق مرهون أيضاً بتفاعله مع النص ، فمع كوننا نحمل
تصورات مسبقة وفقاً لتجربتنا السابقة مع نصوص أخرى شكلت وأثرت في ذواتنا إلا إن
هذه التصورات التي تشكلت توجهاتنا مرهونة بمدى تفاعلها مع النص رفضاً وقبولاً ، إذ
النص يأبى أن يخضع للذات خارج تفاعلها معها ، من هنا يمكن أن يكون (انحراف
التفاعل) مع النص معيقاً للتأويل ، وطبيعة مدى هذا الانحراف تفهم من خلال علاقة
المؤول بالنص ، ومراحل عملية القراءة بوصفها إعادة لتكرار النص وإنتاجاً للمعنى⁽¹⁾ ،
ولذلك تختلف أشكال تحقق هذه العلاقة ، ومع أشكالها واختلاف مستوياتها إلا إنها تبقى
موصوفة بأنها علاقة تفاعلية ، ومادما قد وصفنا تجربة القارئ مع النص بأنها معاشية
فإن أي خروج عن تلك العلاقة هو نفي لهذه المعاشية ، والقيمة المعيارية لهذا الضابط (انحراف
التفاعل) تتحقق من الموضوعية التي يكتسبها النص في جانبه الثابت في
مستوى البنية النصية ، لذلك فإن أي خلل في علاقة القارئ بالنص ستبرز ذاتية مفرطة
على حساب النص⁽²⁾ .

وبناءً على ما تقدم من عوائق التأويل الثلاثة يمكننا النظر إلى أي عائق آخر لنستنتج
قاعدة من قواعد الممارسة التأويلية تضبط إلى حد ما عملية التأويل وتحد من إسراف أحد
طرفي العملية التأويلية (النص ، المؤول) كما يمكننا القول بأن هناك عوائق تختص
بالممارسة التأويلية الواحدة بإزاء النص الواحد ، فكل ممارسة تأويلية لها شكلها وطابعها
الخاص ضمن تفاصيلها المتداخلة ، وخصوصية الممارسة التأويلية هذه ناشئة عن

(1) ينظر : المقامات والتلقي ، نادر كاظم ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ط / 1 ، 2003 : 26 .

(2) ينظر : إشكاليات القراءة وآليات التأويل : 245 .

خصوصية النص وخصوصية المؤول وخصوصية ظرف إنتاج التأويل بكل ما يحمله من أبعاد سياقية⁽¹⁾

المؤول الديناميكي والمؤول النهائي

ها هنا نستعير مصطلحي (المؤول الديناميكي) و (المؤول النهائي) من السيميائيات وبالخصوص من (بورس) حيث يرى أن مستويات الدلالة تنحصر في ثلاثة أشكال⁽²⁾ ، لكل شكل منها طبيعة ووظيفة تتفاعل مع المستويين الآخرين ، فالمستوى الأول يتحقق عبر (المؤول المباشر) ويتم هذا المستوى ضمن الدلالة المباشرة للعلاقة ، أي أن العلاقة تحمل دلالة معينة في المستوى الظاهر ، تحيل إلى معنى معين ، هو داخل هذه العلاقة دون الحاجة للإحالة إلى غيرها بل يكفي إدراج العلاقة لتحقيق دلالتها ، أما المستوى الثاني فيتعلق بالدلالة غير المباشرة للعلاقة ، بمعنى أن تحقيق دلالتها يستوجب استدعاء إدراكات أخرى ومعطيات خارج حدود هذه العلاقة ، وهو ما يستلزم حصول التأويل لتحقيق مثل هذه الدلالة ، ففي حين أن المستوى الأول يمكن الإمساك بالدلالة فيه عبر مفهوم (التعيين) فإن مثل هذا الإمساك لا يتحقق في المستوى الثاني إلا عبر مفهوم (التضمن) وما يستلزمه من تجاوز لفعالية التفسير في المستوى الأول نحو فعالية التأويل ، وهنا وضمن المستوى الثاني يتحقق ما يدعوه (بورس) بـ (المؤول الديناميكي) الذي يحقق إمكانات متعددة لهذه الدلالة⁽³⁾ ، وهذا المؤول قائم على فعالية المؤول المباشر المتحقق ضمن المستوى الأول ، ومتجاوز له في حدود إمكان الدلالة ، إذ المؤول المباشر محدود بالدلالة التعيينية في حين ينطلق المؤول الديناميكي نحو التعدد

(1) ينظر : تاريخية الفكر العربي ، محمد أراكون ، مركز الإنماء القومي ، بيروت ، ط / 1 ، 1986 : 15 . وينظر المقصدية ودور المتلقي عند عبد القاهر الجرجاني ، حميد الحمداني ، أعمال ندوة قضايا المصطلح في الآداب والعلوم الإنسانية ، سلسلة الندوات : 12 ، ج / 1 ، 2000 ، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية : 172

(2) السيميائيات مفاهيمها وتطبيقاتها : 86 - 69 .

(3) ينظر : السيميائيات مفاهيمها وتطبيقاتها : 86 - 96 .

الدلالي ومفهوم السيرة التأويلية بأبعادها المتنامية ، ولكن إذا كان المستوى الثاني المتحقق كمؤول ديناميكي يحدث كل ما يحدث من انشطارات دلالية ما دامت السيرة الدلالية غير منتهية فما الذي يمكن أن يحدد لنا اكتفاءً دلاليًا يمكنه من إنهاء القراءة الواحدة للنص الواحد ؟ وبعبارة أخرى ، لماذا ننهي قراءتنا النقدية عند حد معين ؟ ونصرح بختم تلك القراءة قد تشرع قراءة أخرى بمباشرة النص ؟ إن تلك التساؤلات قادت (بورس) لطرح تصوره عن المستوى الدلالي الثالث ، على أنه يجب أن نبين هذا المستوى هو مستوى متداخل مع المستوى الثاني ومتأسس على فعالية المؤول الديناميكي ، إن هذا المستوى - الثالث - هو ما يدعوه (بورس) بـ (المؤول النهائي) الذي يمثل القدرة على تحديد نشاط المؤول الديناميكي ويعطي الإشعار بالإشباع الدلالي ، إنه ((الوقع الذي تولده العلاقة في الذهن بعد تطور كافٍ للفكر))⁽¹⁾ ، إلا أن ما ندعوه بالإشباع الدلالي لا يمكن الإقرار بتحقيقه إلا بوساطة معيار آخر هو النص ، إن الذات المتمثلة بالقارئ لا يمكنها على وفق ذاتيتها فقط إدعاء حصول الإشباع الدلالي ، بل إن معطيات النص هي من تصدق على مثل هذا الإدعاء⁽²⁾ ، ومع الانفتاح الدلالي للنص يبدو أن الأمر أكثر تعقيداً وتشابكاً أكثر مما يتصور ، ذلك أننا بإقرارنا بمثل هذا الانفتاح نكون أمام لا نهائية السيرة القرائية والتأويلية ، وهو أمر صحيح ، ولكن ما نود أن نميزه هنا ضمن فعالية القراءة بمفهومها العام والمتجاوز لتعدد المقروئيات والمتحقق عبر تعاقب الأزمنة يحتمل هذا الانفتاح الدلالي ، وبعبارة أخرى فإن النص يحتمل الانفتاح الدلالي في ذاته ، أما في ارتباطه بالقراءة والتأويل الراهنين للنص فلا بد أن ينتهيا لا كمفهوم وإنما كممارسة راهنة التحقق ضمن زمن الإنجاز⁽³⁾ ، وهنا يبدو أننا قادرون على وفق تمييزنا هذا من استيضاح وظيفة المؤول النهائي بشكل أدق وأبسط ، فداخل الممارسة القرائية

(1) م . ن : 92 .

(2) ينظر : سيمياء النص وكيمياء التأويل ، محمد بازي ، الشبكة العنكبوتية : http://www.alukah.net/Publications_Competitions/9/36496/ ، بتاريخ 2012/2/8 .

(3) السيميائيات مفاهيمها وتطبيقاتها : 175 .

والتأويلية ينشط المؤول الديناميكي بشكل مكثف ومتشظٍ ليمنح باستمرار دلالات متنامية ، إلا إن هذه الدلالات الممنوحة بشكل مستمر ومتعاقب قد تتآلف أو تتعارض ، ومعه فلا بد من فعالية التركيب التي تتحقق من خلال فعاليتي الإقصاء والاستحضار ، إذ تقصى بشكل مستمر الدلالات المتعارضة مع الدلالات الرئيسة التي تم تحديد صفتها هذه بالاستناد إلى المعطيات النصية ، وتستحضر الدلالات المتآلفة معها لتشكيل التناسق بينها ، وما يحدد تلك الأنشطة المقصية والمستحضرة ضمن التركيب هو المؤول النهائي⁽¹⁾ ، وبمعنى آخر فإن المؤول النهائي يتحقق بناءً على المعطيات النصية التي يتم الاشتغال التأويلي عليها ووفقاً لها ، والتي يتم المؤول ومراحل التأويل مع ملاحظتها باستمرار ، وهنا يتحقق افتراض الإشباع الدلالي بعد وصول المؤول لقناعة بحصول هذا الإشباع وفقاً لما تقد فإنه يصبح مرهوناً بالنص الذي يحدد مسارات التأويل .

إن ما جاء باستعارتنا هذه عن (بورس) هو مقارنة تحقق إيضاحاً مهماً يتمثل في أن التأويل بوصفه ممارسة مجابهة لنص واحد لا بد له من إعلان نقطة نهاية الممارسة ، على أن هذا الإعلان لا يعني مطلقاً نهائية التأويل كفعل نقارب ونداخل ونفهم به النصوص ، أي أنه ليس قولاً بنهائية التأويل وانغلاقه كمفهوم ، وهذا الإعلان يستند بحصول الإشباع الدلالي كشرط له ، ومما تجدر الإشارة إليه هنا إن استعارتنا التي قدمناها عن (بورس) لا تعد خروجاً عن نظرية التأويل ومفاهيمها ؛ لسببين : الأول منهما في أنها - الاستعارة - تمثل مقارنة تتحدد وظيفتها ضمن الحيز الإفهامي والمقاربي الذي يحقق تصوراً تفصيلياً يسهم في إثراء المادة النظرية التي نحن بصدد تتبعها ، والثاني الذي يبدو أنه أكثر أهمية هو أن التصور العام ضمن ما قدمناه عن (بورس) هو تصور موجود بالفعل ضمن نظرية التأويل ، إذ يماثل المستوى الأول عند (بورس) مستوى الدلالة الحرفية أو المباشرة المعجمية أو الصريحة التي تتحقق من مفهوم التفسير

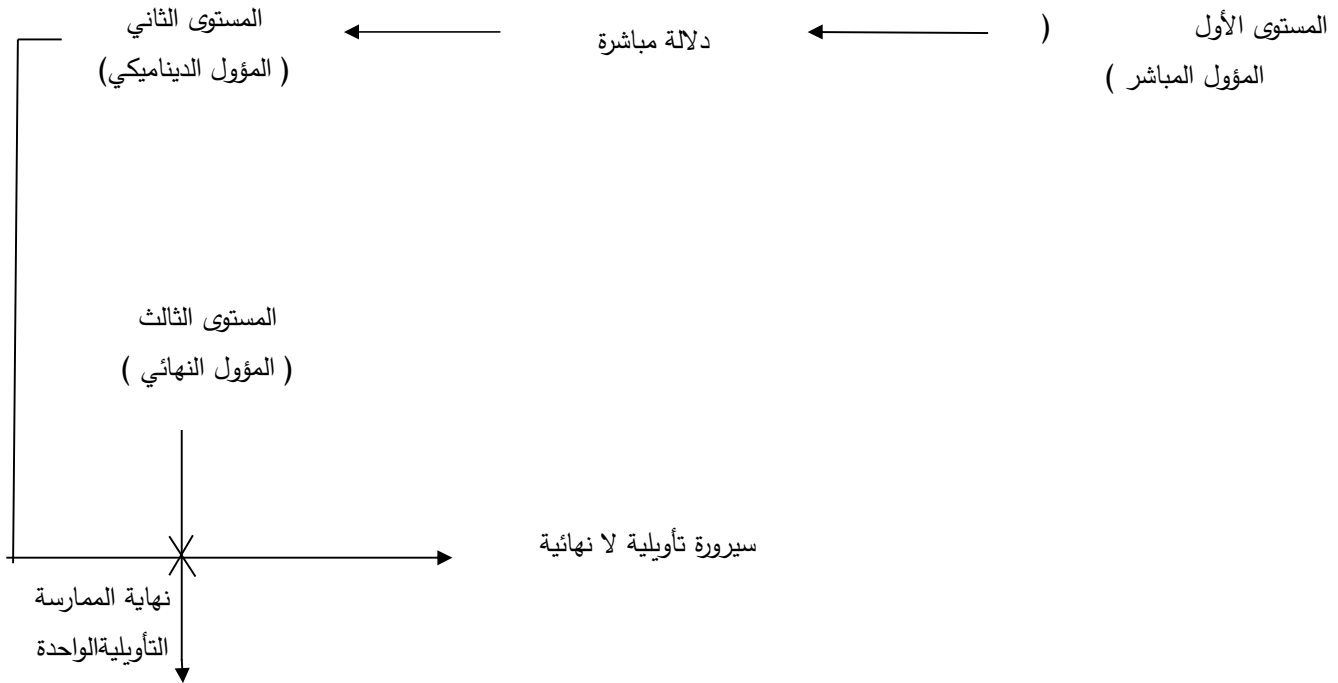
(1) ينظر : الحجاج في الصورة البلاغية : 42 .

، في حين يماثل المستوى الثاني الدلالة الضمنية التي تتحقق ضمن مفهوم التأويل⁽¹⁾ ، أما المستوى الثالث المتضمن للمؤول النهائي فيماثل موانع الانفلات التأويلي والذي يمثل الارتجاع للنص أهم عواملها الفاعلة⁽²⁾ ، ومعه فإن استعارتنا هذه استهدفت - دون انتهاك المنهج ضمن نظرية التأويل - تحقيق مقاربة لقاعدة مهمة من قواعد الممارسة التأويلية يمكن اختصارها بتحقيق الإشباع الدلالي الذي إذا تجاوزه قد نقع فيما يدعوه (إيكو) التأويل المفرط .

(1) البنيوية وما بعدها ، جون ستروك ، ترجمة : د. محمد عصفور ، عالم المعرفة ، ع : 206 ، فبراير ، 1996 : 89 .

(2) ينظر : النص القرآني ومشكل التأويل ، مصطفى تاج الدين ، مجلة إسلامية المعرفة ، السنة الرابعة ، ع : 14 ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، ماليزيا ، خريف ، 1998 : 26 - 27 .

مخطط المستويات الثلاثة ومؤولاتها



تركيب

بدا مما تقدم أن ما صدر عن النقاد والمنظرين في سبيل تحديد قواعد الممارسة التأويلية ينطلق كما أشرنا سابقاً من تصوراتهم عن مفهوم التأويل ومن زاوية النظر لثلاثية الممارسة التأويلية (النص ، المؤول ، التأويل) فقد ركز بعضهم على جانب من هذه الجوانب وحاول بعضهم استدراك ما فات سابقيه والتوفيق بين هذه الجوانب الثلاثة فيما

يمكن أن يطلق عليه ((رهانات التأويل))⁽¹⁾ التي تحدد في تصورنا في الجوانب الثلاثة السابقة مضافاً إليها الجانب السياقي فيما يخص ظروف إنتاج النص وتأويله ، فلئن كنا ننأى بأنفسنا عن قصد الناص ونبتعد أكثر عن الظروف المتعلقة بالجانب النفسي له ، فإنه لا يمكن إغفال جانب من الأهمية في ما يتعلق بالظرف الإنتاجي للنص في حدود تأثير الثقافة والبيئة الاجتماعية على النص ولو من جهة عدّه خطاباً معبراً ومنتمياً لثقافة معينة يجب معه استحضار المعطيات الخاصة بها لتأكيد استيعاب إدراك النص بشكل سليم خلال فعالية التأويل⁽²⁾ وكذلك الحال في جانب استدعاء ظروف إنتاج التأويل بدءاً من التأويلات السابقة التي طالت النص وصولاً لظروف إنتاج التأويل الراهن للنص ، ففي جانب تحقيق تأويل راهن لنص قديم تمت قراءته من قبل أجيال سابقة من القراء يتأكد وجوب حضور السياقات الملازمة لهذه القراءات للتعرف على طبيعة التعاطي السابق مع النص وشكل تداوله ، فمثل هذا الإحضار يعين المؤول الراهن على التمييز بين ما يمكن الاعتماد عليه من تلك القراءات التي قد تمثل المتزامنة منها بالخصوص مع زمن إنتاج النص أفق الانتظار الموازي لأفق النص ، وبينما يمكن تعديله أو إقصاؤه⁽³⁾ ، ويتأكد الأمر حين يتعلق بنقد التأويلات السابقة ، على أن هذا النقد هو في حقيقته ممارسة قرائية تستبطن التأويل وتعتمده سبيلاً لتحقيقها ، الأمر الذي يؤكد أهمية السياقات الملازمة للنص مع تعدد أشكالها وأنواعها ، والتي يمكن التعبير عنها بأنها البعد التداولي للنص بما يمثله من أهمية لتحديد مستوى إدراك النص بعموميته سواء أكان نصاً أدبياً أم غيره من النصوص⁽⁴⁾ ، معه فإن إرساء قواعد الممارسة التأويلية على عناصرها الثلاثة (النص ، المؤول ، التأويل) يبدو مع كل ما له من جوانب متعددة مفتقراً للعنصر المهم المتعلق

(1) ينظر : المقامات والتلقي : 180 .

(2) ينظر : خصائص الأدب العربي في مواجهة نظريات النقد الأدبي العربي الحديث ، أنور الجندي ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، ط/ 2 ، 1985 : 188 .

(3) ينظر : المقامات والتلقي : 206 و 226 و 405 .

(4) ينظر : المقاربة التداولية في الأدب والنقد ، جميل حمداوي ، الشبكة العنكبوتية .

بظروف الإنتاج تأليفاً وتأويلاً ، ولا بد أن نؤكد هنا على أن السياقات الملازمة للتأويل التي هي سياقات خارجة عن النص لابد من مراعاتها كقواعد لتلك الممارسة ، كونها متعلقة بالمؤول والتأويل بشكل مباشر أو غير مباشر⁽¹⁾.

ومع كل ما قدمناه من التعرف بقواعد الممارسة التأويلية ، فلا بد هنا من الإشارة إلى جانب مهم يتضح من خلال ثنائية (الملكات والكيفيات) ، ذلك أن كيفيات التأويل الممنوحة من المناهج والنظريات النقدية والتي تحدد لنا طرائق التعاطي مع النص ضمن فعالية التأويل لا تكفي لتحقيق التأويل ، إذ لا يمكن القول بأن كل من يضبط هذه الكيفيات سننتظر منه أن يكون قادراً بالفعل على التأويل ، إن الأمر يتعلق في جانبه الآخر بالملكات ، أي القدرة على تسخير تلك الكيفيات وصهرها في شكل متناسق للخروج بنتائج تأويلية فاعلة⁽²⁾ ، فالأمر أشبه بمدارس تعليم الرسم والنحت والفنون الأخرى التي لا تضمن لمرتاديهما أن يكونوا فنانين مبدعين بقدر ما توفر لهم الأصول والقواعد المتبعة والمعرفة اللازمة لصنف من صنوف الفن ، ويبقى الأمر مرهوناً بالموهبة الممكنة في الذات ، وقد سبق أن نوهنا في بداية هذا المبحث إلى أن التأويل رؤية أكثر منه إجراءً يستلزم الركون لمنهجية معينة أو نظرية ومنهج نقدي ، النقد لا يمكنه أن يصنع مؤولاً بكل ما أوتي من ثراء معرفي ونماء فكري ، يبقى الأمر مرهوناً بقدرة الذات على تحقيق رؤيتها والانطلاق منها لإنتاج المعنى من النصوص التي تباشرها ، والإدراك هنا لا يحقق بالضرورة تأويلاً للنص ، بل إنه - الإدراك - هو ما يبدأ به التأويل لينتهي بالفعل متوسطاً التذكير بينهما لتحقيق التأويل ، التفكير بكل فعاليته من تأويل وتخيل ، وإذا كان (باختين) يحدد طرائق إنتاج المعنى بطريقتين هما : (عقلنة المعنى) و (تعميقه

(1) ينظر : النص الأدبي وإشكالية القراءة والتأويل / محمد خرماش ، مج : فكر ونقد ، ع : 61 ، الشبكة العنكبوتية :

http://www.almothaqaf.com/index.php?option=com_content&view=article&id=58914:2012-01-04-16-47-

[42&catid=34:2009-05-21-01-45-56&Itemid=0](http://www.almothaqaf.com/index.php?option=com_content&view=article&id=58914:2012-01-04-16-47-42&catid=34:2009-05-21-01-45-56&Itemid=0) ، بتاريخ 2011/4/14 .

(2) ينظر : سيمياء النص وكيمياء التأويل : http://www.aljabriabed.net/n_kharmach.htm03_67

بواسطة معانٍ أخرى (1) فإن كلا الطريقتين تستلزم حصول التفكير لتحقيقهما وصولاً لإنتاج المعنى ، فعقلنة المعنى إذا كانت في مستواها البسيط متعلقة بالدلالة الصريحة وفعالية التفسير فإنها تتعقد أكثر حين يتعلق الأمر بتحديد المستوى الممكن من هذه العقلنة داخل التأويل ، وتمييز ما يمكن أن يمنح دلالة صريحة من العناصر النصية مما لا يكفي بهذه الدلالة ، ويبدو أن الأمر أكثر تعقيداً في الطريقة الثانية التي تعتمد تعميق المعنى وتوليد المعاني الأخر ، أي أن الكيفيات لا تفي بتحقيق مثل هذه الفعاليات الفكرية ، إذا تبقى مرهونة بتحقيق الرؤية التأويلية التي تحقق حضوراً فاعلاً للذات المؤولة في مقابل النص كموضوع خاضع للتأويل ، وهو ما يفسر إلى حد ما جانباً من إكراهات المنهج ، فالمؤول الذي لا يملك ملكة التأويل يبقى راکناً للمنهج ، والنظرية تقوده حيث شاءت ، فبدلاً من أن يكون المنهج أداة المؤول يصبح الأخير أداة للأول ، إذ تنعدم ذاتيته بين موضوعيتين ، موضوعية النص وموضوعية المنهج ، إن الملكة الشمولية للمؤول هي رهانه الأهم والأخطر في عالم متنامي الأبعاد كالنص ، ولعلنا نعطي تصوراً عميقاً وملخصاً عن رهانات التأويل بل وقواعد الممارسة التأويلية بشكل عام من خلال مقولة (زيغفريد شميدت) التي يخلص بها رؤيته بفعالية التواصل قائلاً : ((كل التكيفيات والحدود الخارجية الداخلية والمضامين الشعورية والكفاءات والاستعدادات التي يتورط فيها شركاء التواصل عند انخراطهم في لعبة أفعال تواصلية ، يتعلق الأمر بالكيفيات الاجتماعية - الاقتصادية - الثقافية - ، المعارف المرتبطة بالنص واللغة والعالم والمعارف المستخلصة من التجربة ، والمشاريع والمقاصد ، والاستعدادات السيروية ...))(2) ، إنه الأمر الذي يطابق تماماً ما نحن بصده في تحديد قواعد الممارسة التأويلية ضمن نظرة شاملة لكل أطراف هذه الممارسة .

(1) ينظر : بصدد منهج علم للأدب ، ميخائيل باختين ، ترجمة : نوفل نيوف ، مج : الآداب العالمية / إتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، العدد : 133 ، 2008 : 20 .

(2) نظرية لسانيات التواصل ، زيغفريد شميدت ، نزار التجديتي ، مج : علامات في النقد ، ع : 37 ، سبتمبر ، 2000 : 400 .

إن ما قدمناه من قواعد الممارسة التأويلية يكسبنا إمكانية تشخيص الخلل الذي يقع فيه المؤول من خلال متابعتنا للقراءة النقدية التأويلية ، وهو ما سنحاول تطبيقه الآن على بعض قراءات (الغدامي) التي استندت لفعالية التأويل بما قدمناه من مفهوم التأويل وطبيعته التي يصبح معها فعالية عمومية تداخل ما يمكن للذات أن تحققه كموجود منتم للعالم الذي يحطها ، وهو ما يعمم متابعتنا لهذه الاشتغالات التأويلية على مجمل نتاجه النقدي ، وأول ما يمكن تناوله هنا هو كتابه (الخطيئة والتكفير) الذي قام على فكرة الخطيئة / التكفير بعناصره الستة كما افترضها (الغدامي) ، إذ ينتهي تناوله للعناصر الخمسة معطياً شواهدا في أدب (شحاتة) وحين يصل للعنصر السادس الذي يفترض أن يتمثل بإبليس ، يقول : ((نحجم عن الاستشهاد بصور عن العنصر السادس [إبليس] لأن صورته لا تأتي في أدب شحاتة بشكل متميز ، وإنما تختلط مع العناصر الخمسة الأخرى بحيث لا يمكن فصلها عنها))⁽¹⁾ ويؤول (الغدامي) هذا الغياب إلى العنصر السادس بقوله ((وكأن شحاتة بذلك يقترح أن العنصر الشر في الحياة ما كان ليكون له وجود في حياة البشر لو أن الإنسان أراد ذلك حقاً))⁽²⁾ وإذا كان النموذج (الخطيئة / التكفير) قائماً على افتراض توافر عناصره في اختيارات (الغدامي) من أدب (شحاتة) فكيف يمكن القبول بعدم توافر ما يؤهل عنصراً من عناصره للظهور والانكشاف؟! وكيف يمكننا قبول (الغدامي) لهذا الغياب ؟ هل يمكن أن تكون آلة التشريح أمام هذا العنصر ؟ وبمعنى آخر هل يكمن الخلل في مجموع أدب (شحاتة) الذي يواجهه (الغدامي) هنا كنص أم أن الخلل في المنهج ؟ أم تراه في المؤول ؟

بدءاً يجب أن نثبت أمراً مهماً يتمثل في أن عناصر النموذج التي يفترضها (الغدامي) إنما يتم الكشف عنها من خلال تفكيك أدب (شحاتة) ومن ثم فإننا ندرك بأن هذا الاشتغال التفكيكي سيظهر الكثير من العناصر المستقلة كعناصر مكتفية بذاتها ضمن

(1) الخطيئة والتكفير : 196 .

(2) المكان نفسه .

مستوى الدلالة ، وهذه العناصر الكثيرة يتم انتقاء ما هو رئيس منها لاعتبارات عديدة ، أهمها أنها تشكل أركاناً للدلالة في نصوص (شحاتة) وهذا يستلزم بشكل ما حضورها بشكل متكرر وفاعل في تلك النصوص وهو ما أكدّه (الغدامي) بالفعل على امتداد الفصل الأول من كتابه هذا ، وإذا كنا ثبتنا هذا الأمر الذي نصفه بالمهم ، نشرع بافتراض أن مثل هذا الجهد الكشفى عبر القراءة والتأويل لا يتم من القراءة الأولى لأدب (شحاتة) وهو الأمر الذي يؤكدّه (الغدامي)⁽¹⁾ وإذا كان الأمر كذلك فإنه ينعقد في أذهاننا بأن النموذج بعناصره الستة كان واضحاً خلال القراءات السابقة لهذه القراءة التي نحن بصددّها والموسومة بالخطيئة والتكفير ، إلا أننا مضطرون للتخلي عن تصور وضوح هذه العناصر المكونة للنموذج أمام إشارة (الغدامي) بغياب العنصر السادس وانصهاره بالعناصر الخمسة الأخرى وهو ما يمكننا ترجمته بشكل أوضح بعدم توافر هذا العنصر بالصورة التي تؤهله ليكون مكتفياً بذاته ومستقلاً عن غيره في ماهيته لا علاقته بغيره من العناصر ، فالعلاقة ممكنة بين عناصر النص الواحد وعناصر النصوص مع تعددها ، ولكنه - العنصر السادس - يفقد كينونته ووجوده المستقل ، مما يعني بوضوح أنه غائب كركن من أركان الدلالة في أدب (شحاتة) ، وهذا ما يجعلنا بإزاء افتراض عائق من عوائق التأويل التي وقع فيها (الغدامي) ويتجسد هذا العائق في صوره الثلاثة التي قدمناها آنفاً ، فإكراهات المنهج تبدو من خلال التزام (الغدامي) بالثنائيات التي تظهر من نموذج (آدم / حواء ، الجنة / الأرض ، التفاحة / إبليس) إن هذا الالتزام المنهجي جعله يفرض (إبليس) عنصراً سادساً على رغم من عدم توافره في النماذج التي اختارها من أدب (شحاتة) وهو ما نفترض أنه ناتج قبلي سابق على القراءة الأخيرة التي أنتجت وتمثلت في هذا الكتاب ، إذ لو كان الأمر معكوساً لما شهدنا هذا الغياب للعنصر السادس ، ومعه فإن التدليل على توجه سابق على القراءة لا يحتاج كثيراً من الجهد في إثباته ؛ لأن المعطى واضح من خلال هذا الغياب ، ويمكننا أن نصف العلاقة بين قراءة

(1) الخطيئة والتكفير : 113 .

وتأويل (الغذامي) ونموذجه ، بأن الأخير هو المنتج لهما لا الناتج عنهما ، ولو كان ناتجاً عنهما لما فقد أحد عناصره الرئيسة ، وهو ما يؤكد افتراضنا بأن (الغذامي) انطلق من تصور أولي عن نموذجه ليشغل الفعالية القرائية والتأويلية في تأييد تحقق هذا النموذج وهو ما لم يحصل في النهاية ، الأمر الذي يصرح بتحقيق الصورة الثالثة من صور عوائق التأويل والمتجسدة في الانحراف الحاصل في التفاعل مع النص الذي يمثل هنا مجموع الناتج الأدبي لـ (شحاتة) والذي استقى منه (الغذامي) اختياراته ، فإكراهات المنهج والتوجه السابق على القراءة أكدا حضورهما في الفعالية التأويلية لبعدها (الغذامي) عن التفاعل مع النص والانطلاق منه والارتجاع الدائم له ، ولو أن مثل هذا التفاعل تحقق لما كنا بإزاء افتراض نموذج مبتور ومفتقد لأحد عناصره ، أنه انحراف تأويلي من التفاعل مع النص إلى التفاعل مع المنهج والتصور الذاتي المسبق البعيد عن النص .

إن ما نحن بصددده هنا مضافاً لما تقدم من عوائق التأويل ، هو مؤول ديناميكي ، أي أننا أمام انفلات هذا المؤول بعيداً عن النص ومعطيائه التي تحكم إليها الممارسة التأويلية ، فالمؤول النهائي نشهد حضوره في نهاية ما آل إليه (الغذامي) في نموذجه الخطيئة / التكفير ، في حين أن المعطيات النصية كانت تفترض تحققه في نقطة سابقة داخل السيرورة التأويلية ، إذ كان من المفترض أن يعطل هذا المؤول الديناميكي عند النقطة التي افتقدت فيها السيرورة التأويلية معطيات العنصر السادس ، ليعدل من مسار الدلالة وصولاً لنقض النتائج السابقة وإعادة تركيب مفردات الدلالة بالشكل الذي يتناسب مع المعطيات النصية ويمنح الدلالة شكلها المتناسق الذي يظهر به التأويل متشاكلاً لا متعارضاً ومتناقضاً أو منقوصاً .

ويبدو أثر غياب العنصر السادس من عناصر النموذج ذا أهمية كبرى حين يكون هذا النموذج هو العامل التأسيسي لكتاب (الخطيئة والتكفير) فهو عالم انطلاق يتأسس عليه افتراض (الغذامي) في اشتغاله على امتداد صفحات الكتاب ، بمعنى أن العامل الركني

للكتاب أصبح مهتراً مما يدعو لإعادة النظر في كل النتائج التي تمخضت عن افتراض هذا النموذج أساساً ومنطلقاً للكتاب ، وإعادة صياغة الأسس والفرضيات حول التعاطي قرائياً وتأويلياً مع أدب (شحاتة) لما ذهب إليه (الغدامي) في كتابه .

الخاتمة

توصلت هذه الدراسة التي عنيت بتتبع الإجراءات والاشتغالات النقدية وإجراء الفحوصات المنهجية داخل حيز نظريتي التلقي والتأويل وإعطاء التصورات المستندة للمقارنة بين الإجراءات القرائية والتأويلية في أصل النظريتين والإجراءات التطبيقية التي أنجزها (الغدامي) كقارئ ومؤول ، إلى نتائج يمكن إجمالها في الآتي :

1 . إن وجود الأدب يحتم بطبيعة الحال وجود قارئ ما ، مؤثراً ومتأثراً وهذا ما ينجّر على قضية التلقي والتأويل ، إذ يمكن القول أن لنظريتي التلقي والتأويل امتدادات عميقة تصل إلى بداية نشوء الأدب كممارسة لا كتاريخ ويمكن أن نحصر الأمر . أي مظاهر التلقي والتأويل . بدءاً بالأدب الجاهلي ومروراً بالنص القرآني الذي كان خطاباً جمالياً استثنائياً استأثر بذائقة العرب وبتوجهاتهم الفكرية مروراً بالنهضة النقدية العربية القديمة وقتذاك والمتمثلة بالقرنين الهجريين الأول والثاني بكل مدياتهما ، ويمكن حصر هذه النقولات المعرفية بالجاحظ وابن سلام والجرجاني والمرزوقي والآمدي ومدى تعاطيهم مع النصوص القرآنية والدينية والأدبية ، هذا وإن لم يكن تعاطيهم على وفق المفاهيم النقدية الحديثة . في ما يخص النظريتين . إلا أن وجودهما كان متوافراً على وفق الإمكانيات الفكرية والمعرفية وقتذاك ، وأنهما . نظريتا التلقي والتأويل . ليستا وليدتي الحداثة الراهنة وأنهما متجذرتان في تخوم المنجز العربي القديم إلا أن المقام لا يسع لاستحضار ملامحهما إلا على مستوى الإشارة والتلميح كنتيجة من نتائج البحث .

2 . تبلورت نظريتا التلقي والتأويل بوصفهما آليتين نقديتين كامتداد معرفي غربي أولاً ، ويمكن حصر ذلك في نظرية التلقي على وجه الخصوص في النصف الثاني

من القرن العشرين على يد الناقدین الألمانین (یاوس ، و إیزر) ، ومن ثم كردة فعل على المنهج البنيوي الذي نادى بانغلاق النص وانقطاعه عن مغذياته الداخلة في تكوينه والمتمثلة بانفتاح النص وإعلان سلطة القارئ التي أعطت مساحة وأفقاً واسعين في إنتاج المعنى وإعادة تكرار النص ، كما وأنها تأثرت بشكل مباشر بالظاهراتية ونظرية التأويل واستندت على مفاهيمها وقامت بتطويرها ، أما نظرية التأويل فتمتد جذورها إلى أبعد من ذلك والتي قامت على جهود (شلايرماخر) بداية ، متأثرة بالظاهراتية أيضاً .

3. كانت صورة تعاطي نظريتي التلقي والتأويل عربياً كحالها من النظريات والمناهج النقدية الغربية الأخرى ، إذ ابتدأت بالترجمة والنقل والاجترار بصور وصيغ مختلفة كلٌ بحسب ثقافته وبيئته ومخزونه المعرفي ومنطلقاته ، وهذا يبدو واضحاً في المقارنة بين المشهد النقدي العربي المشرقي والمشهد النقدي العربي المغاربي .

4. لم يتعاط النقد العرب مع مفهوم التلقي والتأويل بوصفه مصطلحاً دالاً على مفهوم نقدي معين ، بل ظل المصطلح متباين الفهم والطرح ولم تنتج مفاهيمه من إشكاليات المصطلح وحدوده ونحته كسائر المفاهيم النقدية الغربية المستوردة ، فمرة عُبر عن التلقي كمصطلح بـ (جمالية التأثير) وأخرى بـ (نظرية الاستقبال) وكذلك الحال في ما يخص التأويل فقد تعددت صور مصطلحاته كـ (الهرمنيوطيقا) و (الهيرمنيوطيقا) و (الهرمنيوطيقا) و (التفسير) و (الفهم) ، وهذا متأثراً أيضاً من الإشكالية الحاصلة في أصل نشوء النظرية وانبثاقها ، انطلاقاً من كونهم . المنظرون الغربيون . اختلفوا في مراحل التأويل وأي منها

سابق على الآخر وما هي المرحلة التي تقابل مفهوم التأويل عندنا ، وكذلك يمكن حصر الإشكالية في سوء فهم النظرية كما أثبتته (عبد الكريم شرفي) في كتابه (من فلسفات التأويل إلى نظريات القراءة) على كل من (عبد العزيز طليمات) و (ناظم عودة خضر) .

5. أولت الدراسات الأكاديمية اهتماماً كبيراً بنظيرتي التلقي والتأويل وكان لها الدور الأكبر في الاشتغال نظرياً وتطبيقياً ، ويمكن ملاحظة ذلك من الدراسات والرسائل والأطاريح المتعددة في هذا المجال كدراسات ومؤلفات الدكتورة بشرى موسى صالح والدكتور يوسف اسكندر والدكتور عبد الله إبراهيم والدكتور حميد لحميداني والدكتور حسين خمري والدكتور سعيد بنكراد والدكتور نصر حامد أبو زيد .

6. شكّل مفهوم القصدية نقطة اختلاف في نظرية التأويل وتعددت صور التعاطي مع هذا المفهوم على وفق هذا الاختلاف ، فقد غني جملة من المنظرين بقصدية المؤلف ، مما يستوجب ملاحقة كل ما يتعلق بالمؤلف من عوامل نفسية واجتماعية ، في حين غني آخرون بقصدية المؤل بوصف أن هذه القصدية هي فاعل إنجاز النص تأويلياً ، كما غني الآخرون بقصدية النص بوصفها الملامح البارزة في البنية النصية والتي تحدد طبيعة وشكل ومستوى التأويل .

7. اختلف شكل التعاطي العربي مع نظرية التأويل تنظيرياً وتطبيقياً متأثراً بزاوية النظر والتوجه لنوع أو مستوى أو جانب من جوانب التأويل ، كما أن اقتران التأويل بالمناهج والنظريات الأخرى أخذ جانباً مهماً من شكل التعاطي ، فصدرت الدراسات التي تقرن التأويل بالتلقي والسيميولوجيا والتفكيك وغيرها من المناهج

والنظريات التي أسهمت بشكل فاعل في تزويد نظرية التأويل بالمادة النظرية ، كما أخذت عنها بعض مفاهيمها وبشكل تفاعلي مؤثر ومتأثر ، ويمكن الإشارة إلى ضرورة فهم نوع المقاربة حتى يمكن الوقوف على مجمل التقاطعات والالتقاءات المعرفية الناتجة عن التداخل الحاصل بين التأويل وبقية النظريات والمناهج الأخرى .

8. تتمظهر التحولات النقدية . نقطة الارتكاز التي انطلق منها البحث . في كونها حاصلة ومتفشية على صعيدي التنظير والتطبيق ، ويمكن مجانبة التنظير لكونه يمثل تهيئة وإنشاء وصياغة معرفية ، والقول بالتحولات الحاصلة على مستوى التطبيق ، التحولات التي نعني بها الانحراف المعرفي عن مجريات واشتراطات النظرية والحاصل على وفق ذاتية وذائقة المتلقي أو المؤول والتي من شأنها أن تمنح النص ما لا يستحقه أو تقوله ما لا يمكن أن تمنحه بنيته النصية ، وهكذا يكون النقد مستعلياً على النص الأدبي ومرتفعاً عليه ، وهذا ما لا يعد من سمات النقد ووظائفه الإجرائية على أقل تقدير ، والأمر الآخر الذي يمكن استحضاره في قضية التحولات هو هيمنة النص الأدبي على مجمل الفعالية القرائية والتأويلية لاعتبارات مرتبطة بالمتلقي مرة وبالنص الأدبي مرة أخرى ، لتمحو معها دور المتلقي كذات مجابهة للموضوع المتمثل بالنص الأدبي وتلغ كذلك دور موضوع آخر يداخل فعالية التلقي والمتمثل بالمنهج النقدي الذي استشرف المتلقي أدواته لقراءة وتأويل النص الأدبي ، كما يمكن أن نشخص التحولات بوصفها انحرافاً عن المعيار الموضوعي للأساس النظري النقدي وهذا يمثل جانباً سلبياً ، ويمكننا

أن نلمح جوانب إيجابية في تلك التحولات تكمن في إثراء التصور النظري والكشف عن جوانب أخرى وأبعاد معرفية لم تكن ضمن زاوية النظر الأمر الذي يعزز حضور النظرية ومن ثم يمنح النص المجترح أبعاداً دلالية وجمالية مضافة لما منحتة عمليات التلقي السابقة ضمن المنهج والنظرية ذاتهما . ومادام الناقد الدكتور (عبد الله الغدامي) هو محور الدراسة بوصفه أنموذجاً للتحولات النقدية المعاصرة الخاصة بإعمال نظريتي التلقي والتأويل حصراً . على وفق ما رآته الدراسة . يمكننا الخروج بالنتائج الآتية :

أ . يعد الناقد (عبد الله الغدامي) من أبرز النقدة المعاصرين المتأثرين بالمعطى النقدي الغربي ومن أكثر المسهمين في محاورة الواقع النقدي المعاصر ، ومن الذين طرحوا أنفسهم كمتبنين لمشاريع نقدية جديدة كما في مشروعه النقد الثقافي واشتغالاته العديدة في التفكير ، الأمر الذي مكّنه من تصدر المنظومة النقدية العربية بوصفها منظومة ساعية للحق بالركب المعرفي المعاصر وهذا ما تملّيه صورة المشهد النقدي الإعلامي ، وهكذا نخلص إلى أن الغدامي يستحق أن يمثل سلطة القارئ التي يمكنها إدارة الورشة النقدية العربية وأن يقرر ما يمكن أن يكون أدبياً أو غير أدبي أو صالحاً أو غير صالح .

ب . انطلاقاً من نماذج الاستيعاب القرائي التي تفترض سيطرة النص أو سيطرة القارئ أو دور مشترك للنص والقارئ في العملية القرائية ، تحقق التحول النقدي لدى الغدامي على وفق الصور الثلاث المتقدمة ، فتارة نجد النص هو المسيطر على المشهد القرائي فينمحي معه الدور المرتقب من الغدامي كقارئ لا بد أن يحقق وجوداً ذاتياً داخل عملية القراءة ، وتارة أخرى نجد ذاتيته المفرطة تخرج عن حدود

الممنوح النصي لتسبغ على القراءة صفة الاعتباطية ، وأخرى تكون القراءة فيها ناجزة من علاقة فاعلة مبنية على ممارسة القارئ والنص لدورهما بشكل موضوعي ومنهجي داخل فعل القراءة لتكون القراءة بعدها في صورتها المثلى .

ج . يتخذ الناقد عبد الله الغدامي من المنهج التفكيكي أداة لاشتغالاته القرائية والتأويلية على نصوص (حمزة شحاتة) في كتابه (الخطيئة والتكفير) ويمكن رصد التحول النقدي من خلال افتراض أن نصوص (شحاتة) هي نصوص أدبية إبداعية مع ملاحظة أن الشغل النقدي لاحق لمثل هذا التوصيف لا سابق له ولا مؤسس له وهو ما أقر به الغدامي نفسه ، على أن نصوص (شحاتة) تخلو على الأغلب من أبسط صور الإبداع والجمالية وهي تخلو من المظاهر النصية التي تجعل من النص الأدبي نصاً إبداعياً .

د . تسجل الدراسة غياب عناصر مهمة في مفهوم نص القارئ لدى الغدامي ، إذ إن تلاشي بعض معطيات التجربة السابقة لديه والمتجسدة في نصوص أتم الغدامي قراءتها أو يفترض أنه اطلع عليها بسبب من شيوعها بين عامة القراء أدت إلى طمس الدلالات الممكن استنباطها من ما ورائية البنية النصية .

هـ . تحققت العلاقة بين النص والقارئ بشكل فاعل ومميز بين الغدامي ونصوص (غازي القصيبي ، حسين سرحان ، محمد جبر الحربي) في كتابه (الكتابة ضد الكتابة) إذ استحضرت مرجعية القول الشعري من خلال الإرث الاجتماعي المتحقق ضمن طبيعة البيئة الثقافية العربية والمستخلصة من الفترة الممتدة من النصوص الجاهلية حتى وقت إنجاز القراءة ، وهو ما يؤشر تحولاً إيجابياً تمثل في إثراء دلالة النصوص والتأكيد على فاعلية القراءة والتأويل سبيلاً لتحقيق

عملية إنتاج المعنى ، كما أثرت هذه الممارسة الجانب التطبيقي للمنهج التفكيكي كأداة لقراءة النصوص .

و . سجلت أنواع القراءة صوراً للتحويل النقدي ، إذ حضرت بصيغها الثلاث ، فكان أن تجاوز الغدامي بقراءته الإسقاطية حدود القاعدة النحوية في جانبها الدلالي في معرض مقارنته بين كتابي (الروض العاطر في نزهة الخاطر) و (روضة المحبين ونزهة المشتاقين) في كتابه (المرأة واللغة 2) وهو ما يؤشر أيضاً حضور الجانب الأيديولوجي في قراءته هذه متجسداً في انحيازه الواضح للكتاب الثاني الذي ألفه (ابن قيم الجوزية) والذي يعده الغدامي شيخه كما يصرح هو بذلك مبدئياً إعجابه به ، وفي المضممار نفسه يمكننا رصد التناقض الذي وقع فيه بخصوص دلالة مفردة (زوج) وخروجه عن قاعدة الدلالة النحوية .

ز . انطلاقاً من طبيعة قراءة الشرح والتعليق التي تقضي بأن يكون النص على وفقها واضح الدلالة لا يحتمل فعالية التأويل ، نجد أن الغدامي تنتوع لديه صور تحقق هذه القراءة ، فتارة يكون بإزاء نص لا يحتمل سوى هذا النوع من القراءة إلا أنه يقفز للقراءة الشاعرية متجاوزاً حدود المعطيات النصية ، وهكذا الحال في تنقله بين أنواع القراءة خارجاً عن مستوى المنح النصي .

ح . بوصف أن الأجناس الأدبية هي محددات للقراءة والتأويل يجب مراعاتها خلال الشروع بالقراءة والتأويل تسجل الدراسة حدوث تحول نقدي على جانب من الأهمية يتمثل في تقرير الغدامي لجنس أدبي يدعوه بـ (تكاذيب الأعراب) ومن خلال تتبعنا لدواعي افتراض الغدامي الأنف الذكر تبين أن مثل هذا الافتراض

غير قائم على أسس موضوعية ومنهجية ، ومثل هذا التحول يكتسب أهميته من طابعه التأسيسي وهكذا قد يتعاطى مع هذا الافتراض على أنه تقرير تجنيسي ذي قيمة قارة في أرضية النقد الأدبي العربي .

ط . ينحرف الغدامي في فهمه لبعض النصوص خارج سياقاتها الموضوعية والإفهامية الطبيعية ، منقاداً ومنجراً خلف السياق التداولي لها ، كما أن جملة من السياقات تغيب وبشكل مؤثر عن المشهد القرائي والتأويلي الذي أنجزه ، كما في غياب سياق الموقف والسياق السوسيولوجي ، الأمر الذي يؤدي إلى تشوه الدلالة الناتجة عن قراءته وتأويله ، ومثل هذا الغياب يسجل بشكل متكرر في اشتغالات الغدامي .

ي . من خلال مفهوم أفق الانتظار أمكن تحقيق موضوعة أفق انتظار الغدامي ضمن المنظومة القرائية له والمنجزة في كل قراءة من قراءاته على حده ، وقد شكلت فاعلية أفقه بوصفه قارئاً مجابها لأفق النص عدة تحولات بين الجانب الإيجابي والآخر السلبي ، على أنه . الغدامي . تمكّن في كتابه الموسوم بـ (المشاكلة والاختلاف) من تحقيق بناء آفاق انتظار سابقة على أفق النص الراهن بشكل فاعل ومميز مكنه من إعطاء البعد الإفهامي اللازم ضمن ما طرحه من علاقة المشاكلة / الاختلاف ليدعم رأيه في تحقق سمة الأدبية بالاختلاف لا بالمشاكلة ، على أن أفق انتظار الغدامي لم يكن بمستوى الفاعلية ذاتها في قراءات أخرى له ، كما هو الحال في تقرير ريادة وأولية (نازك الملائكة) للشعر الحر ، بين كتابيه (الصوت القديم الجديد) و (تأنيث القصيدة والقارئ المختلف) ، حيث سُجل تحول نقدي سلبي في كتابه الثاني تمثل في غياب عناصر مهمة

من أفق انتظاره السابق المجابه لمادة الكتاب الأول .

ك . شكّلت قصدية الغدامي كمؤول صورة من صور التحول النقدي التي يمكن القول بإزائها أنها مثلت سلطة مطلقة للناقد دون الرجوع لخصوصيات بعض النصوص والموضوعات النقدية التي عالجه ، مما أشر كذلك على ازدواجية في المعيار تجسدت بصورة واضحة في وصفه لـ (أدونيس) بالرجعية مقارنة بوصفه لـ (حمزة شحاتة) بأنه نصف حدثي ، وهذا الازدواج في المعيار ينسحب على ممارسات نقدية أخرى مثلت تأويلات مفرطة حققها الغدامي باستتاده على ذاتيته فقط دون مراعاة لاشتراطات الموضوع المدرك ومحدداته .

ل . أشرت الدراسة خروجاً متكرراً ومتعدد الأشكال عن قواعد الممارسة التأويلية لدى الغدامي ، تلك القواعد المفترض مراعاتها انطلاقاً من المنهج المجترح من قبله كأداة لتحقيق القراءة والتأويل ، في حين أنه يمكن الادعاء بأن كفايات المؤول لديه كانت على مستوى يؤهله لإنجاز تأويلاته داخل حدود هذه القواعد ، إذ مثلت عوائق التأويل إحدى أوجه الانتهاك لقواعد الممارسة التأويلية ، إذ نشهد إكراهات المنهج بارزة في مجمل اشتغالاته ، كما أن مستوى حضور التوجه المسبق على قراءة وتأويل النص متصاعد وواضح جداً في جلّ اشتغالاته النقدية ، وفي الوقت الذي نشهد فيه نشاطاً فاعلاً للمؤول الديناميكي لديه فإن التدخل المرتقب والمرجو من المؤول النهائي بعد حدوث الإشباع الدلالي كثيراً ما يتعطل في تأويلات الغدامي ليتحقق معه إسراف تأويلي يخرج عن حدود الممكن النصي .

• المصادر والمراجع

القرآن الكريم

1. الإبداع الشعري وتجربة التخوم ، عبد العزيز بن عرفة ، الدار التونسية للنشر ، 1988 .
2. الاتجاه الأسلوبي البنيوي في نقد الشعر العربي ، عدنان حسين قاسم ، الدار العربية للنشر والتوزيع ، مصر ، ط / 1 ، 2001 .
3. الأدب المقارن ، محمد غنيمي هلال ، دار العودة ودار الثقافة ، بيروت ، ط / 5 .
4. الأدب والغربة ، عبد الفتاح كيليطو ، دار الطليعة ، بيروت ، ط / 1 ، 1982 .
5. أدونيس منتحلاً ، كاظم جهاد ، مكتبة مدبولي ، القاهرة ، ط / 2 ، 1993 .
6. أسئلة الإبداع في الأدب العربي المعاصر ، أحمد المديني ، دار الطليعة ، بيروت ، 1985 .
7. أسئلة النقد - حوارات مع النقاد ، جهاد فاضل ، الدار العربية للكتاب ، تونس - ليبيا ، ط / 1 ، 1994 .
8. استراتيجيات الخطاب ، مقارنة تداولية ، عبد الهادي بن ظافر الشهري ، دار الكتاب الجديدة المتحدة ، بيروت ، ط / 1 ، 2004 .
9. أسس الفكر الفلسفي المعاصر ، عبد السلام بنعبد العالي ، دار توبقال للنشر ، الدار البيضاء ، ط / 2 ، 2000 .
10. الأسلوب والأسلوبية ، عبد السلام المسدي ، الدار العربية للكتاب ، ليبيا ، ط / 2 ، 1982 .
11. الأسلوبية وثلاثية الدوائر البلاغية ، عبد القادر عبد الجليل ، دار صفاء للنشر والتوزيع ، عمان ، الأردن ، ط / 1 ، 2001 .
12. إشكاليات القراءة والتأويل ، نصر حامد أبو زيد ، المركز الثقافي العربي ، لبنان ، ط / 1 ، 1994 .
13. الأصول المعرفية لنظرية التلقي ، ناظم عودة خضر ، دار الشروق ، القاهرة ، ط / 1 ، 1997 .
14. الأصول، تمام حسان، دار الثقافة ، الدار البيضاء، 1411هـ .
15. آفاق نقد استجابة القارئ ، فولفغانغ إيزر ، ترجمة : أحمد بوحسن ، ضمن : من قضايا التلقي والتأويل ، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية في الرباط ، سلسلة ندوات ومناظرات رقم : 36 ، الدار البيضاء ، 1995 .
16. الأسنوية علم اللغة الحديث ، المبادئ والأعلام ، ميشال زكريا ، المؤسسة الجامعة للدراسات والنشر والتوزيع ، ط / 2 ، بيروت ، 1983 .
17. ألف ليلة وليلة في نظرية الأدب الإنجليزي ، محسن جاسم الموسوي ، مركز الاتحاد القومي في بيروت ، 1986 .

المصادر والمراجع.....

18. آليات التأويل وتعددية القراءة ، بوجمعة بوعيد ، إتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، ط / 1 ، 2009 .
19. آليات الخطاب النقدي العربي الحديث في مقاربة الشعر الجاهلي – بحث في تجليات القراءة السياقية ، د . محمد بلوحي ، منشورات اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، 2004 .
20. بؤس الأيديولوجيا، كارل بوبر، ترجمة عبد الحميد صبرة ، ط / 1، دار الساقى ، بيروت ، 1992 .
21. بحوث في النص الأدبي ، محمد الهادي الطرابلسي ، الدار العربية للكتاب ، تونس ، 1988 .
22. البداية والنهاية ، ابن كثير إسماعيل بن عمر الدمشقي ، تحقيق مكتب التحقيق ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان ، ط / 1، 1997 .
23. بعد طول تأمل ، بول ريكور ، ترجمة : فؤاد مليت ، منشورات الاختلاف ، المركز الثقافي العربي ، الدار العربية للعلوم ، بيروت ، ط / 1 ، 2006 .
24. بلاغة الخطاب وعلم النص ، صلاح فضل ، عالم المعرفة ، العدد 164 ، 1992 ، الكويت .
25. البنيات اللسانية في الشعر ، صموئيل ليفن ، ترجمة محمد الولي وخالد التوزاني ، منشورات الحوار الأكاديمي ، الدار البيضاء ، 1989 .
26. بنية الخطاب في الرواية النسائية الفلسطينية 1950-2000 ، حفيظة احمد ، مركز أوغاريت ، رام الله ، ط / 1، 2007 .
27. بنية اللغة الشعرية ، جان كوهين ، ترجمة : محمد الولي ، محمد العمري ، دار توبقال للنشر ، 1986 .
28. البنيوية وما بعدها ، جون ستروك ، ترجمة : د. محمد عصفور ، عالم المعرفة ، العدد 206 ، فبراير ، 1996 .
29. تاريخية الفكر العربي الإسلامي ، محمد أركون ، مركز الإنماء القومي ، بيروت ، ط / 1 ، 1986 .
30. تأملات ديكرتية ، هوسرل ، ترجمة تيسير شيخ الأرض ، دار بيروت للطباعة والنشر ، بيروت ، 1958 .
31. تأنيث القصيدة والقارئ المختلف ، د . عبد الله الغدامي ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، المغرب ، ط / 2 ، 2005 .
32. التأويل ، هانس جورج غادامير ، ترجمة محمد شوقي الزين ، الدار العربية للعلوم - ناشرون ، بيروت ، ط / 2 ، 2006 .
33. التأويل بين السيميائيات والتفكيكية ، أمبرتو إيكو ، ترجمة سعيد بنكراد ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، ط / 1 ، 2000 .
34. تأويلات وتفكيكات – فصول في الفكر الغربي المعاصر ، محمد شوقي الزين ، المركز الثقافي العربي ، بيروت ، ط / 1 ، 2002 .

المصادر والمراجع.....

35. التأويلية العربية – نحو نموذج تساندي في فهم النصوص والخطابات ، محمد بازي ، منشورات الدار العربية للعلوم – ناشرون ، ومنشورات الاختلاف ، الجزائر ، ط / 1 ، 2010 .
36. تحليل الخطاب ، جيليان براون وجورج يول، ترجمة محمد لطفي الزليطي ومخير التريكي، جامعة الملك سعود ، الرياض .
37. تحليل النصوص الأدبية قراءات نقدية في الشعر والسرد ، عبد الله إبراهيم ، صالح هويدي ، دار الكتاب الجديد المتحدة ، بيروت ، ط / 1 ، 1998 .
38. تحولات الخطاب النقدي العربي المعاصر ، حميد لحداني ، دار توبقال للنشر والتوزيع ، المغرب ، ط / 1 ، 2004 .
39. تحولات النقد وحركة النص ، عالي سرحان القرشي ، النادي الأدبي بحائل ، مؤسسة الانتشار العربي ، ط / 1 ، 2009 .
40. التداولية اليوم – علم جديد في التواصل ، آن روبول ، جاك موشلار ، ترجمة : سيف الدين دغفوس ، محمد الشيباني ، المنظمة العربية للترجمة ، الدار الطليعة ، بيروت ، ط / 1 ، 2003 .
41. التداولية عند العلماء العرب – دراما تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي ، مسعود صحراوي ، دار الطليعة ، بيروت ، ط / 1 ، 2005 .
42. تقنيات التعبير في شعر نزار قباني ، بروين حبيب ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، لبنان ، ط / 1 ، 1999 .
43. التلقي والتأويل - بيان سلطة القارئ في الأدب ، محمد عزام ، دار الينابيع ، دمشق ، ط / 1 ، 2007 .
44. التلقي والسياقات الثقافية ، بحث في تأويل الظاهرة الأدبية ، د. عبد الله إبراهيم ، دار الكتاب الجديد المتحدة ، ودار أويا للنشر والتوزيع ، بيروت ، ط / 1 ، 2000 .
45. التلقي والنقد الأدبي العربي الحديث ، أحمد بو حسن ، سلسلة ندوات ومناظرات رقم 24 ، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط ، 1993 .
46. التواصل اللساني والشعرية - مقارنة تحليلية لنظرية رومان جاكوبسون ، الطاهر بو مزبر ، منشورات الاختلاف ، الدار العربية للعلوم ، الجزائر - بيروت ، ط / 1 ، 2007 .
47. الثابت والمتحول ، أدونيس ، دار العودة ، بيروت ، ط / 2 ، 1976 .
48. جدلية الخفاء والتجلي - دراسات بنيوية في الشعر ، كمال أبو ديب ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط / 1 ، 1975 .
49. جماليات التلقي ، سامي إسماعيل ، المجلس الأعلى للثقافة ، مصر ، ط / 1 ، 2002 .

50. جمالية التلقي من أجل تأويل جديد للنص الأدبي ، هانس روبيرت ياكوس ،
ترجمة رشيد بنحدو، المجلس الأعلى للثقافة ، المشروع القومي للترجمة ، القاهرة
ط / 1 ، 2004 .
51. حدود التأويل قراءة في مشروع إيكو النقدي ، وحيد بن بو عزيز ،
منشورات الاختلاف ، الجزائر ، ط / 1 ، 2008 .
52. الحقيقة والمنهج ، هانس جورج غادامير ، ترجمة حسن ناظم و علي حاكم
صالح ، دار أويا ، طرابلس ، ط / 1 ، 2007 .
53. حكاية الحداثة في المملكة العربية السعودية ، عبد الله الغدامي ، المركز
الثقافي العربي ، بيروت - الدار البيضاء ، ط / 4 ، 2008 .
54. الحلقة النقدية _ الأدب و التاريخ والهرمينوطيقا الفلسفية ، ديفد كونز هوي
، ترجمة خالدة حامد ، المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة ، ط / 1 ، 2005 .
55. الخبرة الجمالية - دراسة في فلسفة الجمال الظاهرانية ، سعيد توفيق ،
المؤسسة الجامعية للدراسات ، بيروت ، ط / 1 ، 1992 .
56. خصائص الأدب العربي في مواجهة نظريات النقد الأدبي العربي الحديث
، أنور الجندي ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، ط / 2 ، 1985 .
57. خطاب المنهج ، د. عباس الجراري ، منشورات السفير ، ط / 1 ، 1990 .
58. الخطاب النقدي عند عبد الملك مرتاض بحث في المنهج والإشكالية ،
يوسف و غليسي ، إصدارات رابطة الإبداع الثقافية ، الجزائر ، 2000 .
59. الخطاب والقارئ - نظريات التلقي وتحليل الخطاب وما بعد الحداثة ،
مركز الحضارة العربية ، القاهرة ، ط / 2 ، 2003 .
60. الخطاب والنص ، المفهوم - العلاقة - السلطة ، عبد الواسع الحميري ،
منشورات مجد ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، بيروت ، ط / 1
، 2008 .
61. الخطيئة والتكفير من البنيوية إلى التشريرية ، قراءة نقدية لنموذج معاصر
، د. عبد الله محمد الغدامي ، الهيئة المصرية العامة لكتاب ، ط / 4 ، 1998 .
62. دراسات في نقد الشعر ، إلياس خوري ، دار ابن رشد ، بيروت ، ط / 1
، 1997 .
63. دليل الناقد الأدبي . د. ميجان الرويلي و د. سعد البازعي ، المركز الثقافي
العربي ، الدار البيضاء ، المغرب ، ط / 3 ، 2002 .
64. دينامية النص ، د. محمد مفتاح ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء
، المغرب ، ط / 3 ، 2006 .

المصادر والمراجع.....

65. رحلة إلى جمهورية النظرية ، د . عبد الله محمد الغدامي ، مركز الإنماء الحضاري ، حلب ، ط / 2 ، 1998 .
66. سوسولوجيا الأدب ، روبير إسكاريبيت ، ترجمة أمال عرموني ، عويدات ، بيروت ، ط / 1 ، 1987 .
67. سيمياء العنوان ، بسام قطوس ، وزارة الثقافة ، الأردن ، ط / 1 ، 2001 .
68. السيمياء والتأويل ، روبرت شولز ، ترجمة : سعيد الغانمي ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ط / 1 ، 1994 .
69. سيميائيات التأويل – الإنتاج ومنطق الدلائل ، طائع الحدادي ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، المغرب ، ط / 1 ، 2006 .
70. السيميائيات مفاهيمها وتطبيقاتها ، سعيد بنكراد ، منشورات الزمن ، مطبعة النجاح الجديدة ، الدار البيضاء ، 2003 .
71. سيميائية النص الأدبي ، أنور المرتجي ، دار أفريقيا الشرق ، الدار البيضاء ، ط / 1 ، 1987 .
72. السيميائية وفلسفة اللغة ، أمبرتو إيكو، ترجمة د. أحمد الصمعي ، المنظمة العربية للترجمة ، بيروت ، ط / 1 ، 2005 .
73. السيميولوجيا ، جوليا كرستيفا ، سوي ، باريس ، 1969 .
74. الشعر والتجربة ، أرشيبالد ماكليش ، ترجمة : سلمى الخضراء الجيوسي ، مراجعة : توفيق صايغ ، منشورات دار اليقظة العربية ، بيروت ، 1963 .
75. الشعر والتلقي ، دراسات نقدية ، علي جعفر العلاق ، دار الشروق للنشر والتوزيع ، عمان ، الأردن ، ط / 1 ، 1997 .
76. شعرية الإنزياح ، دراسة في جماليات العدول ، خيرة حمر العين ، مؤسسة حمادة للدراسات الجامعية والنشر والتوزيع ، إربد ، الأردن ، ط / 1 ، 2001 .
77. الشفاهية والكتابية ، ولترج . أونج ، ترجمة د. حسن البنا عز الدين ، مراجعة د. محمد عصفور، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، 1994 .
78. شفرات النص دراسة سيمولوجية في شعرية القص والقصيدة ، د . صلاح فضل ، عين للدراسات القاهرة ، ط / 2 ، 1995 .
79. شيفرة دافنشي (رواية) ، دان براون ، ترجمة سمة محمد عبد ربه ، الدار العربية للعلوم - ناشرون ، بيروت ، لبنان ، ط / 1 .
80. صاحب النص وناقده – إضاءات نقدية ، قاسم المومني ، فضاءات للنشر والتوزيع ، عمان ، الأردن - ط / 1 ، 2010 .
81. صوت الأعماق – قراءات ودراسات في الفلسفة والنفس ، د. عادل مصطفى ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ط / 1 ، 2001 .

82. الصوت القديم الجديد , دراسات في الجذور العربية لموسيقى الشعر الحديث , د. عبد الله الغزالي , كتاب الرياض , العدد 66, يونيو , 1999 .
83. صورة المرأة في التراث الشيعي , آليات تفكيك العقل النصي , محمد الخباز , دار الانتشار العربي , ط / 1 , 2009 .
84. طرائق باريس , مجموعة أفكار م. ف.ج. غاليمار , فرانسيس بونج , 1971 .
85. الظاهر والخفي في النص – القصة نموذجاً , محمد الناصر العجيمي , ضمن كتاب صناعة المعنى وتأويل النص , منشورات كلية الآداب بمنوبة , سلسلة الندوات , مجلد : 8 , دار العلم , تونس , 1992 .
86. الظاهر والمخفي – أطروحات جدلية في الإبداع والتلقي , عبد الجليل مرتاض , ديوان المطبوعات الجامعية , الجزائر , 2005 .
87. عتبات – جيرارد جينيت من النص إلى المتناس , عبد الحق بلعابد , الدار العربية للعلوم ومنشورات الاختلاف , بيروت – الجزائر , 2008 .
88. عتبات النص – بحث في التراث العربي والخطاب النقدي المعاصر , يوسف الإدريسي , منشورات مقاربات , المغرب , ط / 1 , 2008 .
89. العلاماتية وعلم النص , إعداد وترجمة : منذر عياشي , المركز الثقافي , الدار البيضاء , المغرب , ط / 1 , 2004 .
90. العلامة - تحليل المفهوم وتاريخه , أمبرتو إيكو , ترجمة : سعيد بنكراد , مراجعة سعيد الغانمي , المركز الثقافي العربي , بيروت , ط / 1 , 2007 .
91. علم الأسلوب مبادئه وإجراءاته , صلاح فضل , ط / 1, دار الآفاق الجديدة , بيروت , 1985 .
92. علم الدلالة , د.احمد مختار عمر , عالم الكتب , القاهرة , مصر , ط / 4 , 1993 .
93. علم الدلالة , بيار غيرو , ترجمة أنطوان أبو زيد , منشورات عويدات , بيروت , 1986 .
94. علم اللسانيات الحديثة , عبد القادر عبد الجليل , دار صفاء للنشر والتوزيع , عمان , الأردن , ط / 1, 2002 .
95. علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق , صبحي إبراهيم الفقي , دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع , القاهرة , مصر , ط / 1, 2000 .
96. علم النص , جوليا كرستيفيا , ترجمة فريد الزاهي , دار توبقال للنشر , الدار البيضاء , 1991 .
97. علم لغة النص – المفاهيم والاتجاهات – د. سعيد حسن البحيري , الشركة المصرية العالمية للنشر , مكتبة لونجمان , القاهرة , ط / 1 , 1997 .
98. عندما نتواصل نغير – مقارنة دولية معرفية لآليات التواصل والحجاج , عبد السلام عشير , أفريقيا الشرق , المغرب , 2006 .

المصادر والمراجع.....

99. العنوان وسيميوطيقا الاتصال الأدبي ، د. محمد فكري الجزار ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، سلسلة دراسات أدبية ، 1998 .
100. الغموض في الشعر العربي والحديث ، إبراهيم رماني ، دار المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1991 .
101. فصل المقال ، ابن رشد ، تحقيق محمد عمارة ، دار المعارف ، القاهرة ، ط / 3 ، 1999 .
102. فعل القراءة - نظرية جمالية التجاوب في الأدب ، ايزر ، ترجمة حميد لحميداني ، الجلاي الكدية ، مطبعة المناهل ، مطبعة النجاح الجديدة ، المغرب ، ط / 1 ، 1995 .
103. فعل القراءة نظرية في الاستجابة الجمالية ، فولفغانغ ايسر ، ترجمة عبد الوهاب علوب ، المجلس الأعلى للثقافة ، مصر ، ط / 1 ، 2000 .
104. فقه الاختلاف - مقدمة تأسيسية في نظرية الأدب ، محمد فكري الجزار ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، القاهرة ، 1999 .
105. فلسفة التأويل ، هانس غورغ غادامير ، ترجمة : محمد شوقي زين ، منشورات الاختلاف ، الجزائر ، ط / 2 ، 2006 .
106. فلسفة القراءة وإشكاليات المعنى ، حبيب مونسى ، دار الغرب للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 2000 - 2001 .
107. فلسفة اللغة واللسانيات ، نور الدين النيفر ، مؤسسة أبو وجدان للطبع والنشر والتوزيع ، ط / 1 ، 1993 .
108. الفلسفة والتأويل ، نبيلة قارة ، دار الطليعة للطباعة والنشر ، بيروت ، لبنان ، ط / 1 ، 1998 .
109. فهم الفهم - مدخل إلى الهرمنيوطيقا - نظرية التأويل من أفلاطون إلى جادامر ، عادل مصطفى ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، ط / 1 ، 2003 .
110. في أصول الخطاب النقدي ، تودوروف ، بارتن ، إكسو، إنجينو، ترجمة وتقديم أحمد المديني ، دار الشؤون الثقافية ، بغداد ، 1987 .
111. في علم الدلالة - دراسة تطبيقية في شرح الأنباري للمفصليات ، د. عبد الكريم محمد حسن جبل ، دار المعرفة الجامعية ، مصر، 1997 .
112. في معرفة النص - دراسات في الأدب العربي ، يمنى العيد ، منشورات دار الحياة الجديدة ، بيروت ، ط / 3 ، 1985 .
113. في مناهج الدراسات الأدبية ، حسين الواد ، منشورات عيون ، المغرب ، ط / 1 ، 1984 .
114. في مناهج الدراسة الأدبية ، حسين الواد ، دار سرار ، تونس ، 1985 .

المصادر والمراجع.....

115. القارئ النموذجي – طرائق تحليل النص الأدبي ، أمبرتو إيكو ، ترجمة : أحمد بوحسن ، منشورات اتحاد كتاب المغرب ، سلسلة ملفات ، الرباط ، ط / 1 ، 1992 .
116. القارئ في الحكاية – التعاضد التأويلي في النصوص الحكائية ، أمبرتو إيكو ، ترجمة أنطوان أبو زيد ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، ط / 1 ، 1996 .
117. القارئ والحكاية ، حامد أبو أحمد ، مركز الحضارة العربية ، القاهرة ، ط / 2 ، 2003 .
118. القارئ والنص العلامة والدلالة ، سيزا قاسم ، المجلس الأعلى للثقافة ، مصر ، ب ط / ، 2002 .
119. القارئ وسياقات النص ، لحسن احمامة ، منشورات دار الثقافة ، الدار البيضاء ، 2007 .
120. قاموس مصطلحات التحليل السيميائي للنصوص (عربي، انكليزي، فرنسي) رشيد بن مالك ، دار الحكمة ، 2000 .
121. القبلية والقبائلية أو هويات ما بعد الحداثة ، عبد الله محمد الغدامي ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، ط / 2 ، 2009 .
122. قراءات أسلوبية في الشعر الحديث ، د. محمد عبد المطلب ، الهيئة المصرية للكتاب ، القاهرة ، 1995 .
123. قراءة الآخر / قراءة الأنا - نظرية التلقي وتطبيقاتها في النقد الأدبي العربي المعاصر ، حسن البنا عز الدين ، سلسلة كتابات نقدية ، 176 ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، القاهرة ، ط / 1 ، 2008 .
124. القراءة النسقية - سلطة البنية ووهم المحايثة ، أحمد يوسف ، الدار العربية للعلوم – ناشرون ، منشورات الاختلاف ، الجزائر ، ط / 1 ، 2007 .
125. القراءة والحداثة - مقارنة الكائن والممكن في القراءة العربية ، حبيب مونسى ، منشورات اتحاد الكتاب العرب ، دمشق 2000 .
126. القراءة وتوليد الدلالة – تغيير عاداتنا في قراءة النص الأدبي ، حميد لحداني ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، ط / 1 ، 2003 .
127. القصيدة والنص المضاد ، د. عبد الله محمد الغدامي ، المركز الثقافي العربي ، بيروت ، ط / 1 ، 1994 .
128. قضايا أدبية عامة ، إيمانويل فريس وبرنار موراليس ، ترجمة د . لطيف زيتوني ، سلسلة عالم المعرفة ، العدد 300 فبراير 2004 .
129. قضايا الشعرية ، رومان ياكبسون ، ترجمة محمد الوالي ومبارك حنوز ، دار توبقال للنشر ، الدار البيضاء ، المغرب ، ط / 1 ، 1988 .
130. قضايا النقد الأدبي ، محمد زكي العشماوي ، دار النهضة العربية ، بيروت ، 1979 .

131. القفص الزجاجي (رواية) ، كولن ولسن ، ترجمة سامي خشبة، دار الآداب ، بيروت ، لبنان ، ط / 2، 1973.
132. الكتابة ضد الكتابة ، د . عبدالله محمد الغدامي ، دار الآداب ، بيروت ، ط / 1 ، 1991 .
133. الكلمات والأشياء ، ميشيل فوكو ، ترجمة مطاع صفدي ، مركز الإنماء القومي ، بيروت ، ط / 1 ، 1990- 1989 .
134. لذة النص ، رولان بارت ، ترجمة : فؤاد صفا والحسين سبحان ، دار توبقال للنشر ، الدار البيضاء ، ط / 1 ، 1988 .
135. لسان العرب ، ابن منظور ، دار الجيل ودار لسان العرب ، بيروت ، لبنان، 1988 .
136. اللسان والميزان ، طه عبد الرحمن ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، ط / 1 ، 1998 .
137. لسانيات النص – مدخل إلى انسجام الخطاب ، محمد خطابي ، المركز الثقافي العربي، بيروت ، لبنان ، ط / 1، 1991 .
138. لعبة النص ، مقاربات نقدية في الشعر والسرد ، د. صالح هويدي ، دائرة الثقافة والإعلام ، حكومة الشارقة ، دولة الإمارات العربية المتحدة ، ط / 1 ، 2007 .
139. اللغة الثانية - إشكالية المنهج والنظرية والمصطلح في الخطاب النقدي العربي الحديث ، فاضل ثامر ، المركز الثقافي العربي ، بيروت ، ط 1 ، 1994.
140. اللغة العربية معناها ومبناها ، تمام حسان ، دار عالم الكتب المصرية ، القاهرة ، ط / 3 ، 1418 هـ .
141. اللغة في الأدب الحديث ، الحداثة والتجريب ، جاكوب كورك ، ترجمة : ليون يوسف وعزيز عمانويل ، دار المأمون ، بغداد ، 1989 .
142. اللغة والمعنى والسياق ، جون لاينز ، ترجمة د. عباس صادة الوهاب ، دار الشؤون الثقافية العامة ، آفاق عربية ، العراق ، ط / 1، 1987 .
143. لن نتكلم لغتي ، عبد الفتاح كيليطو ، دار الطليعة ، بيروت ، ط / 1 ، 2002 .
144. ما هو النقد ، بول هيرنادي ، ترجمة سلافة حجاوي ، دار الشؤون الثقافية ، بغداد ، ط / 1، 1989 .
145. ماهي السيميولوجيا ، بيرنار توسان ، ترجمة : محمد نظيف ، أفريقيا الشرق ، الدار البيضاء ، ط / 2 ، 2000 .
146. مبادئ اللسانيات ، أحمد قدور ، دار الفكر المعاصر ، بيروت، لبنان، ط / 1، 1996 .

147. مجهول البيان ، محمد مفتاح ، دار توبقال ، المغرب ، ط / 1 ، 1990 .
148. مدخل إلى الهرمينوطيقا ، عادل مصطفى ، دار النهضة العربية ، مصر ، ط / 1 ، 2003 .
149. مدخل إلى علم النص ومجالات تطبيقه ، د. محمد الأخضر لصبيحي ، منشورات الاختلاف ، الجزائر ، الدار العربية للعلوم ناشرون ، بيروت ، لبنان ، ط / 1 ، 2008 .
150. مدخل إلى علم لغة النص – تطبيقات لنظرية روبرت ديبو جراند وولفانج دريسلر ، إلهام أبو غزالة وعلي خليل حمد ، الهيئة المصرية للكتاب ، القاهرة ، مصر ، ط / 2 ، 1999 .
151. مدخل إلى فلسفة جاك دريدا ، سارة كوفمان وروجيه لابورت ، ترجمة : إدريس كثير وعز الدين الخطابي ، الدار البيضاء ، ط / 1 ، 1991 .
152. مدخل إلى نظرية القصة ، جميل شاكر ، سمير المرزوقي ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، 1996 .
153. مدخل في اللسانيات ، صالح الكشو ، الدار العربية للكتاب ، ليبيا- تونس ، 1985 .
154. مدخل في نظرية النقد الثقافي المقارن ، حفناوي بعلي ، الدار العربية للعلوم – ناشرون ، منشورات الاختلاف الجزائر ، ط / 1 ، 2007 .
155. مذبح التراث في الثقافة العربية المعاصرة ، جورج طرابيشي ، دار الساقى ، بيروت ، ط / 1 ، 1993 .
156. المرأة واللغة ، ثقافة الوهم مقاربات حول المرأة والجسد واللغة ، عبدالله محمد الغدامي ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، ط / 1 ، 1998 .
157. المرايا المحدبة - من البنيوية إلى التفكيك ، عبد العزيز حمودة ، سلسلة عالم المعرفة ، المجلس الأعلى للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، العدد 232 ، 1998 .
158. مستويات دراسة النص الروائي ، عبد العالي بوطيب ، مطبعة الأمنية ، دمشق ، ط / 1 ، 1999 .
159. المشاكل والاختلاف قراءة في النظرية النقدية العربية وبحث في الشبيه المختلف ، د. عبد الله محمد الغدامي ، المركز الثقافي العربي ، بيروت ، لبنان ، ط / 1 ، 1994 .
160. المضمّر ، كاترين كيربرات – أوريكيوني ، ترجمة : رتيا خاطر ، مراجعة د. جوزيف شريم ، المنظمة العربية للترجمة ، بيروت ، ط / 1 ، 2008 .
161. معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة .د.سعيد علوش ، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط / 1 ، 1985 .

المصادر والمراجع.....

162. المعنى الأدبي من الظاهرانية إلى التفكيكية ، وليام راي ، ترجمة : يوثيل يوسف عزيز ، دار المأمون للترجمة والنشر ، 1987 .
163. المعنى وظلال المعنى ، أنظمة الدلالة في العربية ، د. محمد محمد يونس علي ، دار المدار الاسلامي ، بيروت ، ط / 2 ، 2007 .
164. مفاهيم الشعرية ، حسن ناظم ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، ط / 1 ، 1994 .
165. المفكرة النقدية ، بشرى موسى صالح ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، ط / 1 ، 2008 .
166. المقامات والتلقي ، نادر كاظم ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ط / 1 ، 2003 .
167. مقدمة في الهرمينوطيقا ، دايفيد جاسبر ، ترجمة وجيه قانصو ، الدار العربية للعلوم - ناشرون ، بيروت ، ط / 1 ، 2007 .
168. مقدمة في نظرية الأدب ، تيري إيجلتون ، ترجمة أحمد حسان ، نوارا للترجمة والنشر ، القاهرة ، ط / 2 ، 1997 .
169. المقصدية ودور المتلقي عند عبد القاهر الجرجاني ، حميد لحداني ، أعمال ندوة قضايا المصطلح في الآداب والعلوم الإنسانية ، سلسلة الندوات : 12 ج ، 1 ، 2000 ، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية .
170. مقومات الخطاب التأويلي ، أ.د محمد بن عياد ، أعمال ندوة القراءة وإشكالية المنهج ، جمعها وقدم لها : د. الهادي البطلاوي ، دار كنوز المعرفة العلمية ، عمان ، الأردن ، ط / 1 ، 2011 .
171. من النص إلى الفعل - أفعال التأويل ، بول ريكور ، ترجمة محمد براده و حسان بورقية ، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية القاهرة ، ط / 1 ، 2001 .
172. من فلسفات التأويل إلى نظريات القراءة ، عبد الكريم شرفي ، الدار العربية للعلوم - ناشرون ، منشورات الاختلاف ، بيروت ، الجزائر ، ط / 1 ، 2007 .
173. مناهج النقد الأدبي بين النظرية والتطبيق ، ديفيد ديتش ، ترجمة : محمد يوسف نجم ، مراجعة ، د . إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، 1976 .
174. مناهج النقد المعاصر ، صلاح فضل ، أفريقيا الشرق ، الدار البيضاء ، 2002 .
175. المنعرج الهرمينوطيقي للفينومينولوجيا ، جان غردان ، ترجمة وتقديم : د. عمر مهيبيل ، منشورات الاختلاف ، الجزائر ، ط / 1 ، 2007 .
176. منهج المعجمية ، جورج ماط / وري ، ترجمة عبد العلي الودغيري ، منشورات كلية الآداب بالرباط / ، 1993 .

المصادر والمراجع.....

177. منهج الواقعية في الإبداع الأدبي , صلاح فضل , الهيئة المصرية العامة للكتاب , 1978 .
178. المنهج والمصطلح - مدخل إلى أدب الحداثة , خلدون الشمعة , إتحاد الكتاب العرب , دمشق , 1979 .
179. موجز تاريخ علم اللغة في الغرب , در هـ . روبنز , ترجمة : أحمد عوض , عالم المعرفة , العدد 277 , نوفمبر 1997 .
180. النص , السلطة , الحقيقة (الفكر الديني بين إرادة المعرفة وإرادة الهيمنة) , نصر حامد أبو زيد , المركز الثقافي العربي , المغرب , ط / 2 , 1997 .
181. النص الأدبي من أين ؟ وإلى أين ؟ , عبد الملك مرتاض , ديوان المطبوعات الجامعية , الجزائر , ط / 1 , 1983 .
182. النص الشعري ومشكلات التفسير , عاطف جودة نصر , الشركة المصرية العالمية , ط / 1 , 1996 .
183. النص الغائب تجليات التناص في الشعر العربي , محمد عزام , منشورات إتحاد الكتاب العرب , دمشق , 2001 .
184. النص والأسلوبية بين النظرية والتطبيق , عدنان بن ذريل , منشورات إتحاد الكتاب العرب , 2000 .
185. النص والسياق - إستقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي , فان دايك , ترجمة عبد القادر قنيني , أفريقيا الشرق , المغرب , ط / 1 , 2000 .
186. النص والسياق الشعري من البنية إلى القراءة , علي أيت أوشان , دار الثقافة , الدار البيضاء , المغرب ط / 1 , 2000 .
187. نصيات بين الهرمنيوطيقا والتفكيكية , ج . هيوسلفرمان , ترجمة : حسن ناظم وعلي حاكم صالح , المركز الثقافي العربي , بيروت , ط / 1 , 2001 .
188. نظريات التلقي , فرانك شويروجر , ضمن كتاب نظريات القراءة , ترجمة : عبد الرحمن بو علي , دار نشر الجسور , وجدة , 1995 .
189. نظريات التلقي , فرانك شويريج , ترجمة عبد الرحمن بو علي , دار الجسور للنشر , الجزائر , ط / 1 , 1995 .
190. نظرية الأدب , تيري إيجلتون , ترجمة : ثائر ديب / منشورات وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية , دمشق , 1995 .
191. نظرية الأدب في القرن العشرين , ك . م نيوتن , ترجمة : محمد العمري , أفريقيا الشرق , الدار البيضاء , المغرب , ط / 1 , 1996 .
192. النظرية الأدبية المعاصرة , رمان سلدن , ترجمة سعيد الغانمي , دار الفارس للنشر والتوزيع , ط / 1 , عمان , 1996 .

المصادر والمراجع.....

193. نظرية الاستقبال - مقدمة نقدية ، روبرت سي هولب ، ترجمة رعد عبد الجليل جواد ، دار الحوار للنشر والتوزيع ، سوريا ، ط / 2 ، 2007 .
194. نظرية التأويل ، مصطفى ناصف ، النادي الأدبي الثقافي ، جدة ، السعودية ، ط / 1 ، 2000 .
195. أ.ي دراسة سيميائية تفكيكية لقصيدة أين ليالي لمحمد العبد آل خليفة ، عبد الملك مرتاض ، ديوان المطبوعات الجامعية ، 1992 .
196. نظرية التلقي - أصول وتطبيقات ، د . بشرى موسى صالح ، المركز الثقافي العربي ، المغرب ، ط / 1 ، 2001 .
197. نظرية التلقي ، مقدمة نقدية ، روبرت هوليب ، ترجمة : عز الدين إسماعيل ، كتاب النادي الأدبي الثقافي بجدة ، رقم السلسلة : 97 ، ط / 1 ، 1994.
198. نظرية التلقي والنقد الأدبي العربي الحديث ، أحمد بو حسن ، ضمن نظرية التلقي إشكالات وتطبيقات ، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، الرباط / ، سلسلة ندوات ومناظرات رقم 24 ، 1993 .
199. نظرية التوصيل وقراءة النص الأدبي ، عبد الناصر حسن محمد ، المكتب المصري للتوزيع ، القاهرة ، 1999 .
200. نظرية اللغة الأدبية ، خوسيه ماريا بوثوليو إيفانوكس ، ترجمة : حامد أبو أحمد ، دار غريب ، 1992 .
201. نظرية المعنى بين الشرح والتفسير والتأويل ، محمد حامد ، سلسلة الندوات ، 1 ، جامعة تونس ، كلية الآداب بمنوبة ، مجلد 8 .
202. نظرية النص من بنية المعنى إلى سيميائية الدال ، د . حسين خمري ، منشورات الاختلاف ، الجزائر ، ط / 1 ، 2007 .
203. نظرية تأويل الخطاب وفائض المعنى ، بول ريكور ، ترجمة : سعيد الغانمي ، المركز الثقافي العربي ، بيروت ، ط / 1 ، 2003 .
204. نظرية قراءة الأدب وتأويله من المقصدية إلى المحصلة ، حميد لحداني .
205. النقد الأدبي والهوية الثقافية، جابر عصفور ، مجلة دبي الثقافية ، 2009 .
206. النقد الثقافي ، قراءة في الأنساق الثقافية العربية ، عبد الله الغدامي ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، المغرب ، ط / 4 ، 2008 .
207. النقد النصي ، جيزيل فالانسي ، ترجمة : رضوان ظاظة ، سلسلة عالم المعرفة ، العدد 221 ، مايو ، 1997 .
208. نقد ثقافي أم نقد أدبي ، د . عبد الله محمد الغدامي ، د . عبد النبي اصطيف ، دار الفكر ، دمشق ، ط / 1 ، 2004 .
209. النقد والدلالة – نحو تحليل سيميائي للأدب ، محمد عزام ، وزارة الثقافة ، دمشق ، 1996 .

المصادر والمراجع.....

210. نقد وحقيقة ، رولان بارت ، ترجمة منذر عياشي ، مركز النماء الضاري ، الدار البيضاء ، ط / 1 ، 1994 .
211. هيرمنيوطيقا الشعر العربي – نحو نظرية هيرمنيوطيقية في الشعرية ، د. يوسف اسكندر ، سلسلة الفكر العراقي الجديد – أكاديميون جدد ، 11 ، دار الشؤون الثقافية ، بغداد ، ط / 2 ، 2009 .
212. الواقعي والخيالي في الشعر العربي القديم ، حميد لحداني ، مطبعة النجاح الجديدة ، 1997 .
213. وحدة النص وتعدد القراءات التأويلية في النقد العربي المعاصر ، د. إيمان عيسى الناصر ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ط / 1 ، 2011 .

• الدواوين والمجاميع الشعرية

1. الأعمال الشعرية الكاملة ، بدر شاكر السياب ، دار العودة ، بيروت .
2. جمهرة أشعار العرب ، لأبي زيد بن الخطاب القرشي ، تحقيق علي محمد البجاوي ، نهضة مصر ، القاهرة ، 1981 .
3. ديوان بشار بن برد ، شرح حسين حموي ، دار الجيل ، بيروت ، ط / 1 ، 1996.
4. شرح المعلقات السبع ، أبي عبدالله الحسين ابن أحمد الزوزني ، تحقيق : لجنة التحقيق في الدار العالمية ، الدار العالمية ، 1993 .
5. شرح ديوان الحماسة ، أبو علي أحمد بن محمد بن الحسن المرزوقي ، تحقيق : أحمد أمين وعبد السلام هارون ، دار الجيل ، ط / 1 ، 1991 .
6. شرح ديوان صريع الغواني ، مسلم بن الوليد الأنصاري ، تحقيق سامي الدهان ، دار المعارف ، القاهرة ، مصر ، ط 3 ، 1970 .
7. شرح مشكل أبيات المتنبي ، ابن سيده ، تحقيق مصطفى السقا و حامد عبد المجيد ، الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة ، 1976.
8. العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب ، الشيخ ناصيف اليازجي ، المجلد 2 ، دار صادر ، بيروت ، 1992.
9. ما لم يكن ممكناً (شعر) ، محمد البغدادي ، إتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، 2004 .
10. المجموعة الشعرية الكاملة ، نزار قباني ، دمشق ، ط / 3 ، 2006 .

• الرسائل والأطاريح

1. أثر السياق في توجيه المعنى في كتاب (معاني القرآن) للفرّاء ، علاء عبد الأمير شهيد ، رسالة ماجستير ، جامعة القادسية ، كلية الآداب ، 2001 .
2. بداية النص الروائي في الرواية العربية المعاصرة (أطروحة دكتوراه) ، أحمد بن سعيد العدوان ، جامعة أم القرى ، كلية اللغة العربية ، 2008 .

3. القراءة بين خصوصية النص وإجراءات المنهج البنوي - العراق أنموذجاً (رسالة ماجستير) ، سراج محمد يعقوب ، جامعة البصرة ، كلية التربية ، قسم اللغة العربية ، 2010 .
4. مفهوم النص والتأويل عند إمبرتو إيكو – آليات التعضيد النصي ، رواية صحراء لجون ماري ، غوستان لوكليزيو إنموذجاً ، وحيد بن بو عزيز (أطروحة دكتوراه) ، جامعة الجزائر ، 1994 .
5. هرميوطيقا الفن عند غادامير (رسالة ماجستير) ، هشام معافة ، جامعة الحاج خضر – باتنة ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية – فرع الفلسفة ، الجزائر ، 2009.

• الدوريات

1. مارتن هايدجر والكيوننة ، مطاع صفدي ، مجلة الفكر العربي المعاصر ، العدد 3 ، 1980 .
2. الأدب والمجتمع ، صبري حافظ ، مجلة فصول ، العدد 2، القاهرة ، 1981 .
3. أزمة نقدية أم مناخ شعري جديد ، عهد فاضل ، جريدة الحياة ، 13 / 7 / 2004 .
4. استراتيجيات الاستنتاج والاستدلال في القراءة وفهم النصوص ، خميس الجويني ، مجلة جامعة الملك سعود مجلد 18، 2005 .
5. إستراتيجية القراءة منهج نقدي – قصيدة محمود درويش (أنماط / عاجية) ، علي الشرع ، مجلة علامات ، المجلد 10 ، ج 37 ، سبتمبر : 2000 .
6. استعارة الباث واستعارة المتلقي ، د. إدريس بللميح ، مجلة نظرية التلقي - إشكالات وتطبيقات ، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، الرباط / ، 1993 .
7. استعمال النصوص وحدود التأويل – في نقد الممارسة التأويلية عند إمبرتو إيكو ، د. عبد الغني بارة ، مجلة مخبر وحدة التكوين والبحث في نظريات القراءة ومناهجها ، جامعة بسكرة .
8. أصل الأجناس الأدبية ، تزفتان تودورف ، ترجمة محمد برادة ، مجلة الثقافة الأجنبية ، وزارة الثقافة والإعلام ، بغداد ، العراق ، العدد 1، السنة الثانية، ربيع 1982 .
9. أفق التوقع عند ياكوب ما بين الجمالية والتاريخ، د. خير الدين دعيش ، مجلة قراءات ، العدد 1، 2009 .
10. الإنسان واللغة ، هانس جورج غادامير، ترجمة عبد العلي اليزمي ، مجلة الثقافة الأجنبية ، العدد 4 ، 2009 .

المصادر والمراجع.....

11. بصدد منهج علم للأدب ، ميخائيل باختين ، ترجمة : نوفل نيوف ، مجلة الآداب العالمية ، إتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، العدد 133 ، 2008 .
12. بنية النص الكبرى ، د. صبحي الطعان ، مجلة عالم الفكر ، المجلد 23 ، العددان 1 و 2 ، يوليو سبتمبر / أكتوبر - ديسمبر ، 1994 .
13. البويطيقا في صياغة اللغة الشعرية ، علاء الدين رمضان السيد ، مجلة علامات في النقد ، العدد 28 ، يونيو ، 1998 .
14. بين الفهم والاستيعاب في فلسفة الترجمة ، محمد نهاد احمد ، مجلة جامعة الأزهر ، غزة ، سلسلة العلوم الإنسانية ، المجلد 9 ، العدد 1 ، 2008 .
15. تاريخ الأدب من منظور الشكلانية وجمالية التلقي ، الهاشم أسمر ، مجلة علامات ، العدد 13 ، 2000 .
16. تاريخ التاريخية الجديدة وإشكالية العلاقة مع اليسار الجديد ، د.معن الطائي ، مجلة الأقلام ، العدد 2 ، نيسان - حزيران ، السنة الرابعة والأربعون ، 2009 .
17. التأويل ، ف ي خاليزيق ، ترجمة : عمر ألتنجي ، مجلة الفكر العربي المعاصر ، العدد : 54 - 55 ، 1988 .
18. التأويل بين إكراهات التناظر وانفتاح التدلال ، سعيد بنكراد ، مجلة علامات ، العدد 29 ، 2008 .
19. التداخل النصي بين السياب ومالك ابن الريب ، د. حسن جبار شمسي ، مجلة الأقلام ، العدد 4 .
20. ترجمة النص الأدبي ، أسعد سامية ، مجلة عالم الفكر ، الكويت ، العدد 4 ، 1989 .
21. التلقي الأدبي ، إلرود إيش ، ترجمة محمد برادة ، مجلة دراسات سيميائية أدبية لسانية ، العدد 6 ، 1992 .
22. تلقي رولان بارت في الخطاب العربي النقدي واللساني والترجمي - كتابه لذة النص أنموذجاً ، د. محمد خير البقاعي ، عالم الفكر ، المجلد 27 ، العدد 1 ، يوليو- سبتمبر 1998 ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت .
23. التناص وإنتاجية المعنى ، حميد الحمداني ، مجلة علامات في النقد ، جدة ، الجزء 40 ، مجلد 10 ، 2001 .
24. توالد النص وإشباع الدلالة تطبيقاً على تفسير القرآن ، سيزا قاسم ، مجلة البلاغة المقارنة ألف ، العدد 8 ، الجامعة الأمريكية ، القاهرة ، ربيع 1998 .
25. جاك لينهاردت حول محاور سوسيولوجيا الأدب ، الثقافة ، التلقي ، مجلة الفكر العربي المعاصر ، العدد : 13 ، سنة 1981 .
26. جمالية التلقي ، الهاشم أسمر ، مجلة علامات ، العدد 17 ، 2004 .

27. الحجاج في الصورة البلاغية ، د. بوجمعة شتوان ، مجلة الأثر ، العدد الخاص بأشغال الملتقى الدولي الثالث في تحليل الخطاب .
28. حدود الانفتاح الدلالي في قراءة النص الأدبي ، د. عزيز محمد عدمان ، مجلة عالم الفكر ، المجلد 37 ، العدد 3 ، يناير - مارس ، 2009 .
29. حوار مع بول ريكور - أنتظر النهضة ، ترجمة : هشام صالح ، مجلة الفكر العربي المعاصر ، العدد ، 62-63 ، 1989 .
30. دراسة علمية للسردية الأدبية ، س . شميدت ، مجلة العرب والفكر العالمي ، العدد 9 ، 1990 .
31. السياق والدلالة - اقتضاء وتوجيه - النص القرآني أنموذجاً ، سيروان عبد الزهرة هاشم ، مجلة ينابيع ، العدد 9 ، ذو القعدة - ذو الحجة ، 1426 هـ
32. السيموزيس والقراءة والتأويل ، سعيد بنكراد ، مجلة علامات ، العدد 10 ، 1988 .
33. السيميائيات وإستراتيجية بناء المعنى ، د. نصر الدين لعياضي ، مجلة الباحث الاجتماعي ، العدد 10 ، سبتمبر 2010 .
34. سيميائية القراءة (مقال) ، ميشيل أوتان ، ترجمة : محمد خير البقاعي ، مجلة البحرين الثقافية ، العدد : 6 ، 1995 .
35. السيموزيس والقراءة والتأويل ، سعيد بنكراد ، مجلة علامات ، العدد 10 ، 1988 .
36. شعرية الأدب المفتوح ، أمبرتو إيكو ، ترجمة عبد الرحمن بو علي ، مجلة نوافذ ، النادي الأدبي ، جدة ، العدد 6 ، 1998 .
37. شعرية القراءة ، أدونيس ، مجلة الآداب ، العدد 7-9 ، 1985 ، بيروت .
38. الشعرية وانفتاح النصوص تعددية الدلالة ولا نهائية التأويل ، د. خيرة حمر العين ، مجلة الخطاب ، منشورات مخبر تحليل الخطاب ، جامعة مولود معمري ، تيزي وزو ، الجزائر ، العدد 6 ، 2010 .
39. الصورة في النقد الأوربي - محاولة لتطبيقها على شعرنا القديم ، عبد القادر الرباعي ، مجلة المعرفة ، السنة السابعة ، العدد : 204 ، فبراير ، 1979 .
40. ظاهرة التلقي في الأدب ، محمد علي الكردي ، مجلة علامات في النقد ، المجلد 8 ، العدد 32 ، النادي الأدبي الثقافي ، جدة .
41. عتبات النص الأدبي ، بحث نظري ، د. حميد لحمداني ، مجلة علامات في النقد ، النادي الأدبي ، جدة ، مجلد 12 ، العدد 46 ، شوال ، 1423 هـ .
42. العلاقة بين القارئ والنص في التفكير الأدبي المعاصر ، رشيد بنحدو ، مجلة عالم الفكر ، مجلد : 23 ، العدد : 1-2 ، 1994 .

43. علم تحليل الخطاب وموقع الجنس الأدبي ، د. مازن الوعر ، مجلة آفاق الثقافة والتراث ، العدد 14 ، السنة الرابعة ، أيلول 1996 .
44. فعل القراءة نظرية الوقع الجمالي ، فولفغانغ إيزر ، ترجمة أحمد المديني ، مجلة آفاق المغربية ، العدد 6 ، 1987 .
45. فلسفة البلاغة ، ريتشاردز ، ترجمة : ناصر حلاوي وسعيد الغانمي ، مجلة العرب والفكر العالمي ، العدد : 13 و 14 ، ربيع 1991 .
46. فن الخطابة وتأويل النص ونقد الأيديولوجيا ، هانس جورج غدامير ، ترجمة نخلة فريفر ، مجلة العرب والفكر العالمي ، العدد 3 ، صيف 1988 .
47. في مفهومي القراءة و التأويل ، د. محمد المتقن ، مجلة عالم الفكر ، مجلد 33 ، العدد 2 .
48. القارئ النموذجي ، إمبرتو إيكو ، ترجمة أحمد حسن ، مجلة آفاق المغربية ، العدد 8 و 9 ، 1988 .
49. القارئ في النص - نظرية التأثير والاتصال ، د. نبيلة إبراهيم ، مجلة فصول ، القاهرة ، المجلد 5 ، العدد 1 ، أكتوبر - نوفمبر 1984 .
50. قراءة ما لم يقرأ ، نقد القراءة ، علي حرب ، مجلة الفكر العربي المعاصر ، 1 ، 1989 .
51. القراءة وضوابطها المصطلحية ، أليامين بن تومي ، مجلة قراءات ، العدد الأول 2009 ، مخبر وحدة التكوين والبحث في نظريات القراءة ومناهجها ، جامعة بسكرة ، الجزائر .
52. المؤلف- المرسل إليه - القارئ ، مانفريد ناومن، ترجمة عبد القادر بوزيدة ، مجلة اللغة والأدب ، جامعة الجزائر، العدد2، 1993 .
53. مفاهيم هيكلية في نظرية التلقي ، محمد إقبال العروي ، مجلة عالم الفكر ، المجلد : 23 ، العدد : 1 و 2 ، 1994 .
54. مدخل لسوسيولوجيا القراءة ، جاك لينهاردت، ترجمة أحمد المديني، مجلة الفكر العربي المعاصر ، العدد 13 .
55. مفاهيم هيكلية في نظرية التلقي ، د . محمد إقبال عروي ، مجلة عالم الفكر ، المجلد : 37 ، 2009 .
56. مفهوم المقاصد وعلاقتها بالخطاب - تناول تداولي للخطاب الثوري ، فضيلة يونس ، مجلة الخطاب ، منشورات مخبر تحليل الخطاب ، جامعة مولود معمري ، تيزي وزو ، الجزائر ، العدد 6 ، 2010 .
57. مقترحات مبدئية باتجاه نظرية عربية في الأدب والنقد ، د. حسام الخطيب ، مجلة الفكر العربي ، العدد 25 ، السنة الرابعة ، كانون الثاني - شباط ، 1982 .
58. من سلطة النص إلى سلطة القراءة ، فاضل ثامر ، مجلة الفكر العربي المعاصر ، بيروت ، العدد : 48 ، 49 ، 1988 .

المصادر والمراجع.....

59. من قراءة النشأة إلى قراءة التقبل ، حسين الواد ، مجلة فصول ، القاهرة ، مجلد 5 ، العدد 1 ، 1984 .
60. منهج بروب وصور تطبيقه في الدراسات العربية ، د. حسين عبود الهلالي ، بحث : قبل نشره في مجلة دراسات الخليج العربي ، 22 / 5 / 2008 ، العدد 262 .
61. مهمة الهرمينوطيقا ، بول ريكور ، ترجمة : خالدة حامد ، مجلة نوافذ ، النادي الأدبي بجدة ، العدد 22 .
62. النص الأدبي وإشكالية القراءة والتأويل / محمد خرماش ، مجلة فكر ونقد ، العدد 61 .
63. النص العمودي في مواجهة الآخر ، قراءة في نص (ارتسامات لغيمة عابرة) ، سراج محمد ، صحيفة الأحرار ، الجزائر ، العدد : 1024 ، 2010 .
64. النص القرآني ومشكل التأويل ، مصطفى تاج الدين ، مجلة إسلامية المعرفة ، السنة الرابعة ، العدد 14 ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، ماليزيا ، خريف ، 1998 .
65. النص المتعدد ، رولان بارت ، ترجمة : سعيد بنكراد ، مجلة علامات ، العدد 13 ، 2000 .
66. النص المتعدد ولا نهائية الدلالة ، عبد القادر فيدوح ، مجلة ثقافات ، العدد 18 .
67. النص حساسية ما بعد الحداثة ، باقر جاسم محمد ، مجلة الأقلام ، ع : 11 -12 ، 1996 .
68. النص والتأويل ، بول ريكور ، ترجمة : منصف عبد الحق ، مجلة العرب والفكر العالمي ، صيف 1988 .
69. النص والتأويل ، بول ريكور ، ترجمة منصف عبد الحق ، مجلة العرب والفكر العالمي ، مركز الإنماء القومي ، بيروت ، العدد 3 ، صيف 1988 .
70. نظريات القراءة وتلقي النص الأدبي ، حسين خمري ، مجلة العلوم الإنسانية ، العدد 12 ، الجزائر ، 1999 .
71. نظريات القراءة وتلقي النص الأدبي ، د . حسين خمري ، مجلة العلوم الإنسانية ، العدد 12 ، 1999 ، جامعة منتوري ، الجزائر .
72. نظرية لسانيات التواصل ، زيغفريد شميدت ، نزار التجديتي ، مجلة علامات في النقد ، العدد 37 ، سبتمبر ، 2000 .
73. النقد الأدبي وانتفاء النص ، عبد السلام المسدي ، مجلة علامات ، ج 5 ، مجلد 2 ، سبتمبر ، 1992 .

74. نقد مفهوم علم الأدب عند رولان بارت ، خريستو تودوروف ، ترجمة د. حسين جمعة ، مجلة الآداب الأجنبية ، العدد 101 - 102 ، شتاء - ربيع 2000 ، دمشق .
75. الهرمينوطيقا المصطلح والمفهوم ، منى طلبة ، مجلة أوراق فلسفية ، العدد 10 .
76. الهرمينوطيقا والترجمة - مقارنة في أصول المصطلح وتحولاته ، د. عبد الغني بارة ، مجلة الآداب العالمية ، اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، العدد 133 ، شتاء 2008 .
77. الهرمينوطيقا ومعضلة تفسير النص ، نصر حامد أبو زيد ، مجلة فصول ، العدد : 10 ، المجلد : الأول ، إبريل ، 1983 .
78. هل تكون القيمة الجمالية عالمية ، جان موكاروفسكي ، ترجمة : سيزا قاسم ، مراجعة عبد الغفار مكايي ، مجلة عيون المقالات ، العدد 24 ، 1986 .
79. هوسرل والكوجيتو الديكارتي ، ناجة بو حجة بن علي ، مجلة الفكر العربي ، مركز الإنماء القومي ، بيروت ، باريس ، العدد 120 - 121 ، خريف 2001 ، شتاء 2002 .
80. الوقع الجمالي وآليات إنتاج الواقع عند وولف غانغ إيزر ، عبد العزيز طلبات ، محلة دراسات سيميائية أدبية لسانية ، العدد : 6 ، 1992 .

75. الهرمنيوطيقا المصطلح والمفهوم ، منى طلبة ، مجلة أوراق فلسفية ، العدد 10 .

76. الهرميينوطيقا والترجمة – مقارنة في أصول المصطلح وتحولاته ، د. عبد الغني بارة ، مجلة الآداب العالمية ، اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، العدد 133 ، شتاء 2008 .

77. الهرمينوطيقا ومعضلة تفسير النص ، نصر حامد أبو زيد ، مجلة فصول ، العدد : 10 ، المجلد : الأول ، إبريل ، 1983 .

78. هل تكون القيمة الجمالية عالمية ، جان موكاروفسكي ، ترجمة : سيزا قاسم ، مراجعة عبد الغفار مكاوي ، مجلة عيون المقالات ، العدد 24 ، 1986

79. هوسرل والكوجيتو الديكارتية ، ناجة بو حجة بن علي ، مجلة الفكر العربي ، مركز الإنماء القومي ، بيروت ، باريس ، العدد 120 - 121 ، خريف 2001 ، شتاء 2002 .

80. الوقع الجمالي وآليات إنتاج الواقع عند وولف غانغ إيزر ، عبد العزيز طلبات ، محلة دراسات سميائية أدبية لسانية ، العدد : 6 ، 1992 .

● شبكة المعلومات الدولية

1. إشكالية مقارنة النص الموازي وتعدد قراءاته ، عتبة العنوان نموذجاً ، د.محمد التونسي جكي _____ ب ، الش _____بكة العنكبوتية _____ة ،
http://www.alaqsa.edu.ps/ar/aqsa_magazine/files/pdf311.pdf.
2. إلى سياب أعرفه (شعر) ، سراج محمد ، الشبكة العنكبوتية -<http://www.dorar.net> ،
• aliraq.net/showthread.php?t=15541
3. بلاغة الاستهلال في روايات عبد الكريم غلاب ، رشيد بنحدو ، الشبكة العنكبوتية ،
• http://www.aljabriabed.net/n11_08bienhadu.htm
4. البلاغة ومقولة الجنس الأدبي ، محمد مشبال ، الشبكة العنكبوتية ،
• http://www.aljabriabed.net/n29%282%machbal.05_25.htm
5. تلقي الأمدي لشعر أبي تمام ، د. حسين المناصرة ، الشبكة العنكبوتية ،
• <http://manasrah.maktoobblog.com/category>

2. إلى سياب أعرفه (شعر) ، سراج محمد ، الشبكة العنكبوتية ، <http://www.dorar.net/showthread.php?t=15541>

3. بلاغة الاستهلال في روايات عبد الكريم غلاب ، رشيد بنحدو، الشبكة العنكبوتية ، http://www.aljabriabed.net/n11_08bienhadu.htm.

4. البلاغة ومقولة الجنس الأدبي , محمد مشبال , الشبكة العنكبوتية ، <http://www.aljabriabed.net/n29%282%machbal.05> .

5. تلقي الأمدى لشعر أبي تمام ، د. حسين المناصرة ، الشبكة العنكبوتية ، <http://manasrah.maktoobblog.com/category> .

6. التيارات النقدية الجديدة - الأصول النظرية وشروط الاستنبات ، سعيد بنكراد ، الشبكة العنكبوتية ، http://www.aljabriabed.net/n_begrad.htm03_98 .
7. خيانة النص مشكلة المترجم الذي يجهل السياق الثقافي ، فتحي عامر ، الشبكة العنكبوتية ، http://www.voiceofarabic.net/index.php?option=com_content&catid=194view=article&id= .
8. سيمياء النص وكيمياء التأويل ، محمد بازي ، الشبكة العنكبوتية ، http://www.alukah.net/Publications_Competitions/9/36496/ .
9. فعل القراءة وإشكالية التلقي ، محمد خرماش ، الشبكة العنكبوتية ، <http://manahijnaqdia.3oloum.org/t20-topic> .
10. في النقد الثقافي ، محمد حسين الناعي ، الشبكة العنكبوتية ، <http://majles.alukah.net/showthread.php> .
11. مقابلة مع الدكتور عبد الله الغزامي ، الشبكة العنكبوتية / موقع الإسلام اليوم ، <http://islamtoday.net/nawafeth/artshow-144545-91.htm> .
12. المقاربة التداولية في الأدب والنقد ، جميل حمداوي ، الشبكة العنكبوتية ، http://www.almothaqaf.com/index.php?option=com_content&view=article&id=58914:2012-01-04-16-47-42&catid=34:2009-05-21-01-45-56&Itemid=0 .
13. من هيمنة القراءة الأيديولوجية إلى تعسف المنهج النقدي - تلقي أعمال عبد الكريم غلاب الروائية ، د. محمد المسعودي ، الشبكة العنكبوتية ، http://www.alalam.ma/def.asp?codelangue=23&id_info=43867&date_ar=2012-4-21 .
14. النسق النصي والنسق المتن في الحركتين المتضافرتين للقصيدة (الانبناء / الانهدام) بشير حاجم ، الشبكة العنكبوتية ، <http://www.adeebk.com/bh.htm> .
15. النظرية البنائية ، د . حسن الباتع عبد العاطي ، الشبكة العنكبوتية ، <http://www.almarefh.org/news.php?action=show&id=766> .
16. النظرية التأويلية في الترجمة - مدرسة باريس نموذجاً ، د. عبد اللطيف هسوف ، الشبكة العنكبوتية ، http://www.anfasse.org/index.php?option=com_content&view=article&id=2164:2010-07-02-16-44-19&catid=39&Itemid=584 .

المصادر والمراجع.....

17. وقت للبكاء (شعر) إسرائ العزاوي ، الشبكة العنكبوتية ،

<http://www.dorar-aliraq.net/blog/blogs/-fairy-touch4>

Abstract

This study titled (The Modern Critical Transformations between Reception Theory and Hermeneutics - Abdulah AL Ghathamy As A Model) observes the Critical transformations that happen upon the Critical prospect , described as a natural result of the critical workout in both sides the theoretical and practical .

The transformations are accomplished through out factors and reasons designated by the use of the theory and the Critical methodology , which concerning their nature and the critic who works upon them , and the difference between the Cultural environments of the native environment which the theory descended and the Critical methodology and the receiving environment so we can set out of observation to the Critical transformations as described as a deviation from the standards of the starting point of the theory and the Critical methodology in two aspects either the positive or the negative .

The importance of the Theory reception and hermeneutics comes From that they represent the Cognitive nourishment of the discourse moves of after the Critical Shake that calls to close the discourse and isolate from its feeders as the death of the authors , and textual methodology discuss to adopt the discourse as linguistic stagnation springs from its author and production circumstances .

The adoption comes from the possibility of using Criticism of Criticism to the concepts of reception and hermeneutics that examines Critical transformation i.e the work of critic confined in two important sides , the reception of the critical theory and the commence with the working out of theoretical theory that comprehend the explanation of the theory and the addition upon it , at this side we can apply the devices of the two theories upon such practice as theory being described as a theme the critic can fulfils .

The reception and hermeneutics are not restricted in the literary discourse at all but trespass the course concept , also to communicative process that

happens between two parties the Self and theme ,the other side concludes the critic workout in applicable workout upon Literary texts and the critical ones as well .

The objectivity is promoted through proceeding the procedures of (Criticism of Criticism) to the critics applied practices as readings include several interpretation , and can be seen in interpretation and reception theory .

I have chosen Abdulah AL Ghathamy as a model to this study as a critic known by his activity and influence upon the critical Arabic prospect , due to his qualifications , abilities and featured critical vision enabled him to be distinguished clearly and influenced in Several Arab Critics , he makes extended debate and discussion around his projects and has critical opinions that he posed in journey of writing , a model like AL Ghathamy is qualified to make critical transformation in both negative and positive sides .

The influence is clearly seen in the Arab Criticism prospect.

The study depended analytic descriptive approach depending on the criticism of criticism procedures .

The descriptive approach has been taken as a means to notify the reception and hermeneutics . The analysis is used to decode the ambiguity of the above theories concepts , also through the reading and interpretive samples which AL Ghathamy achieved in his criticism .

The study is divided in to three chapters preceded by a preface showing primarily conception about the emergence of interpretation theory and its historical development then a brief comment about the emergence of theory .

The first and the second acts deal with reception theory whereas the third one deals with hermeneutics theory . The first act is under the title (The reception among the discourse , the reader and the efficiency of reading) , The first topic entitled (The comprehension Reading models) starting with a preface to the relation between the self and the theme , I discussed these models they are : (discourse objectivity , readers self , reactive model) .

The second topic entitled (Reading fields) and I presents , after the preface , Its three fields (discourse , Readers discourse , the relation between the discourse and the reader) .

The third topic discusses (Reading Kinds) latter the preface I presents the three kinds (projective reading , explanation and comment reading and poetic reading) .

The second chapter entitled (The reception between context restrictions and subjects of waiting horizons) , It includes two topics , the first is (Reading and context) , discusses the context concept and Its aspects and Its influence on reading and reception . The context is divided in to (textual context) and (sociological context) , whereas the second topic , entitled The horizons of waiting) . (

I present this concept , the problems posed on and I have given my concept to overcome the problems , relying on the concept to control reception and reading procedures .

The third chapter entitled (hermeneutics between restriction , subjects and practice Rules) , It opens with a preface about the emergence of hermeneutics theory and the historic dimension to interpretive practice .

The chapter is divided in to three topics . The first deals with textual construction and Its role in recognizing the interpretation form interpretive and practice scheme , entitled (textual construction) . The second topic entitled (Aesthetic theme) , I discusses the aesthetic theme and the role of interpretation in Its formation . The third topic deals with rules of interpretation practice that gives the objectivity to interpretation (The Interpretive Practice Rules) .

The conclusion includes the important results that study has got in the three chapters .